

المجتمع السوري في عصر البرينتسيبات القرن ١ - ٣م

ترجمة : د . حسان اسحق

مقدمة

بعد معركة اكتيوم التي وقعت في الثلاثين سنة الاخيرة من القرن الاول قبل الميلاد دخلت بلدان حوض البحر الابيض المتوسط مرحلة جديدة من تاريخها بعد أن وحدتها روما بحد السيف في دولة واحدة عظمى . وهكذا انتهى عهد الحروب الاهلية الطاحنة التي عانت منها هذه البلدان طويلا . لقد أقام الرومان السلام الذي ينشده الجميع وقمعوا بيد من حديد شعوب المنطقة التي لا تلين ولا تقهر ، وأحلوا الهدوء والنظام . ولكن أحداث الستينات من القرن الاول بعد الميلاد (الصراع على السلطة في روما بعد مقتل نبيرون ، انتفاضة تيسفيلين) أثبتت ضعف هذا النظام وعدم قدرته على الثبات . ومع ذلك فقد استطاعت الامبراطورية أن تخرج من الازمة أكثر قوة وثباتا وذلك بسبب توسيع القاعدة الاجتماعية للسلطة الامبراطورية . فاذا كانت السلطة الرومانية سابقا قد تعاملت مع الشعوب الخاضعة لها كمصدر للسلب والنهب واصطياد العبيد فقد أصبحت الآن تسعى إلى كسب ود الفئات العليا من هذه الشعوب وادخالها في عداد أولئك الذين يمارسون السلطة ويتمتعون بثمارها - تلك هي السياسة التي رسمت خطوطها الأولى في عهد آل يوليوس - كلاوديوس . كما كان للمساومة التي تم عقدها بين الأباطرة والارستقراطية الرومانية المحافظة أهمية خاصة . حيث كانت أولى نتائج هذه المساومة ازدهار المدن وتنشيط التجارة والأعمال الحرفية وبالتالي تراكم الثروات . ومع ذلك تبدل للوهلة الأولى غريبة وغير متوقعة تلك الازمة الاجتماعية - الاقتصادية الحادة الطويلة والتي خرجت منها الإمبراطورية الرومانية . وقد تغيرت تغيراً جوهرياً .

ولكي نحدد طابع هذا التحول الجذري وأسبابه ونرسم طرق عبور المجتمع الروماني من البرينتسات إلى الدومينات ولكي نفهم جوهر هذه العملية وبالتالي حتمية الانتقال من المجتمع العبودي القديم إلى المجتمع القروسطي الإقطاعي لابد من دراسة عملية التطور الاجتماعي - الاقتصادي للإمبراطورية الرومانية في القرون الثلاثة الأولى للميلاد . وهذا يفسر الإهتمام الذي تحظى به هذه المسألة وهنا بالذات تكمن أهميتها . لقد أصبحت دراسة هذا الموضوع ذات أهمية خاصة بالنسبة للتاريخ الوصفي الماركسي خاصة بعد أن اتضحت لا علمية المقولة الشهيرة عن ثورة العبيد والتي قيل إنها هي التي أودت بالإمبراطورية الرومانية إلى الهلاك ومعها الحضارة الهلنستية - الرومانية .

يعالج هذا البحث التاريخ الاجتماعي - والاقتصادي لسورية في الفترة من القرن الأول وحتى الثالث الميلادي ضمناً . ومن المعروف أن هذه البلاد تقع في ملتقى أهم الطرق التجارية والعسكرية في منطقة الشرق الأوسط ، وهي تتمتع بأهمية اقتصادية وعسكرية - سياسية خاصة . فالسيطرة عليها تعني السيطرة على كل منطقة غرب آسيا والساحل الشرقي للبحر المتوسط . وكان للتجار السوريين دور هام في تكوين الوحدة الاقتصادية والثقافية للإمبراطورية إلى الحد الذي كان ممكناً آنشُد . ومن جهة أخرى لم يكن من الممكن ألا تؤثر العمليات الجارية في سورية على مجريات الأمور في الإمبراطورية الرومانية كلها .

والمنطقة الجغرافية التي تهتمنا في هذه الدراسة تضم مساحة واسعة من الأراضي تمتد من جنوب شرق شبه جزيرة آسيا الصغرى إلى أعالي نهر الأردن ومن الشواطئ الشمالية الشرقية للبحر المتوسط إلى وادي دجلة والفرات . ويسمح لنا المصير التاريخي المشترك أن نضم إليها منطقة شرقي الأردن الذي خضع بدوره للحضارة الهلنستية - أي المنطقة التي تضم تلك المدن اليونانية الضخمة كمدينتي وبصرى وكذلك مملكة النبطية . ومما له دلالة خاصة أن المؤرخين القدماء كانوا قد ضموا هذه المدن إلى المنطقة المسماة سورية معتمدين في ذلك ، بالطبع ، على واقع الأشياء . وفي نفس الوقت فإن فلسطين كانت تختلف في مستوى تطورها ، إلى حد ما ، عن باقي أقاليم الشرق الأوسط ولا يعود السبب الأخير في ذلك إلى أن تنظيمها الاجتماعي - السياسي يعود في أصوله إلى تنظيم العشيرة الدينية - المدنية للقدس وما يتصف به طريق التطور هذا من صراع طبقي حاد يعتبر غريباً عن مجريات الأمور في الشرق الأوسط وقد تجلّى هذا الصراع في النضال الحاد الذي خاضه الفلسطينيون (ضد الإمبراطورية الرومانية) ولذلك نرى أنه من المشروع والمفيد أن نفرّد بحثاً خاصاً بفلسطين .

من المعروف أن سورية تنقسم جغرافياً إلى ثلاث مناطق : الساحل الفينيقي الخصب والسلسلة الجبلية التي تسير بمحاذاة هذا الشاطئ والتي تبدأ من أعالي طوروس وتبلغ أعلى قمة لها في جبال لبنان حيث يصل ارتفاعها هنا أكثر من ثلاث كيلومترات (يقع بينها سهل البقاع حيث تنبع أهم أنهار البلاد العاصي والليطاني) ، المنطقة السهلية - خصبة في الشمال وتحول إلى صحراء كلما توغلنا نحو الجنوب . ومثل هذا التقسيم الجغرافي نجده في التاريخ الوصفى القديم . فقد كتب سترابون (p.749) إن سورية تضم كوموجين ومنطقة سلوقية وسورية الوادي وفينيقية . وهو الذي يورد تقسيماً آخر كان شائعاً في الأدبيات الجغرافية السابقة والمعاصرة له : سورية الوادي (بما في ذلك على الأرجح ، منطقة سلوقية وفينيقية .

ويرى أبيان (2, prooemi) انطلاقاً من النظرة الشائعة في عصره (القرن الثاني الميلادي) أنه من الممكن تحديد المناطق التالية : الشاطئ الفينيقي ، سورية الوادي ورمال تدمر . ومن الواضح ان الاختلاف بين ما أورده سترابون وبين ما أورده أبيان ليس جوهرياً وبشكل عام فإن هذا التقسيم ينطبق مع بعض التعديلات ، على الظروف الطبيعية والوضع السياسي في سورية في الفترة من القرن الأول إلى القرن الثالث للميلاد ضمناً .

لقد كان التركيب الاثني لسكان سورية في هذه المرحلة متنوعاً جداً : الفينيقيون ، وكانوا يستوطنون الساحل ، اليونانيون ، خلفاء المستعمرين الذين أقاموا هنا عدداً من المدن الكبرى والذين سكنوا المدن الرئيسية التي بنيت هنا قبل العصر الهلنستي ، السوريون - الإراميون - الذين تفاعلوا مع الحضارة الهلنستية (يعود تاريخ وجودهم هنا إلى نهاية الألف الثانية ق . م . تقريباً) وهم السكان الأصليون للبلاد ، العرب - الرحل وكانوا يقطنون الصحراء وبعض المناطق الجبلية ثم تحولوا بالتدريج إلى حضر واستوطنوا عدداً من المدن الكبرى (تدمر ودمشق) ، المحاربون القدماء وخلفاؤهم وكانوا يعيشون في المستعمرات التي بناها أوغسطس - بيروت بعلبك وكذلك في بعض المدن والقرى السورية الأخرى . وفي كثير من المدن السورية كانت تعيش عشائر يهودية . لقد انوجدت هذه البنية الاثنية الواسعة والمتنوعة نتيجة للتأثير الذي مارسته الحضارة الهلنستية والتي بدأ تطورها منذ القرن الثالث وحتى القرن الأول قبل الميلاد ضمناً وكذلك بتأثير انتشار اللغة والثقافة اليونانيتين (في ظل السلطة اليونانية وبدعم من ادارة المناطق وظهور العبادات السينكريتية . وأدى الإستعمار الروماني ونشر الجيوش الرومانية على الأراضي السورية وكذلك نشاط «السفيرة» الروماني المفوض في حكم سورية وموظفيه إلى تغلغل اللغة اللاتينية في صفوف دوائر معينة من السكان . ومع ذلك فقد استمرت اللغات المحلية وخاصة اللغة الآرامية لغة الأدب والأعمال الإدارية كما وحافظ السكان الأصليون على عاداتهم وتقاليدهم القديمة . بالطبع لم يكن لهذه العوامل مجتمعة إلا أن تؤثر على حياة المجتمع والتي كانت على العموم أكثر تعقيداً من الصورة التي تعطينا اياها المصادر المتوفرة لدينا .

من الناحية الزمنية تقع المرحلة التي نحن بصدد دراستها في الفترة من القرن الأول إلى القرن الثالث للميلاد ضمناً ، أي تلك الفترة التي اكتمل فيها تطور أشكال ومبادئ تنظيم المجتمع والتي كانت قد وضعت أسسها في المرحلة التي سبقت فتوحات الاسكندر المقدوني

مهية بذلك التربة لظهور العلاقات التي يتصف بها عصر الدومينات . ولم تكن هذه المرحلة من تاريخ سورية عصر ازدهار فقط ، كما هو متعارف عليه في أدبيات الأبحاث وإنما كانت أيضاً مرحلة نقلات اجتماعية هامة . ويعتبر تحديد طابع هذه النقلات وتبيان توجهها من المهمات الرئيسية لهذا الكتاب .

فدراسة تاريخ سورية في عصر الإستعمار الروماني لا زالت ضعيفة للغاية . أما كتاب ي . بوشير الذي يعالج هذه المرحلة فقط فهو سطحي ووصفي للغاية ، وبالإضافة إلى ذلك فقد شاخ من حيث حجم المصادر التي اعتمد عليها . والكتاب الأكثر تفصيلاً (هكذا كان يريد مؤلفه أن يكون) في هذا الموضوع يعود - ي . دويباش بقي غير مكتمل ولم يصدر منه سوى الجزء الأول وقد حوى عرضاً مفصلاً للأحداث السياسية في فترة تكون المقاطعة . والبحث الوحيد المتوفر لدينا والذي يبحث في النظام الإقتصادي لسورية إبان الإستعمار الروماني يعود لـ ف . هاييلهام . فقد عالج المؤلف هنا بدقة متناهية العلاقات الزراعية وتطور الحرفة والتجارة وساعدته في ذلك مجموعة كبيرة من المصادر . ولكن اهتمام المؤلف انصب على الجانب الإقتصادي فقط وأهمل تمام الإهمال الجانب الاجتماعي والتنظيم السياسي للمجتمع بالإضافة إلى ذلك فإن الصورة التي يرسمها تشكو من غلبة الجانب الإحصائي عليها : فالمؤلف لا يكلف نفسه أبداً عناء تتبع العلاقة المتبادلة بين العصور السابقة والعصور اللاحقة في تاريخ سورية . أما م . ي . روستوفتسيف فقد كتب مقالة عامة عن الوضع في سورية إبان العصر الروماني .

وهناك عدد من الأعمال كان يهدف فقط إلى إعطاء وصف لبعض المدن السورية في العصر الهلنستي . ويشير اهتماماً خاصاً بينها كتب : انطاكية ، تدمر ، جرش ، ودورا يوربوس (تل الصالحية) وساعدت هذه الكتب على تبيان وفهم عدد من المسائل التفصيلية في التاريخ الاجتماعي - الإقتصادي والسياسي للمدن المذكورة كما وساعدت على رسم حدود دراسة المسائل العامة لتاريخ سورية إبان الإستعمار الروماني .

ومن الطبيعي أن تشغل هذه البلاد حيزاً هاماً في الأبحاث والأعمال التي تدرس التاريخ الإقتصادي لروما والمقاطعات الرومانية - وقد بدأ هذا التقليد في علم التاريخ ت . مومزين ولكن يبقى كتاب روستوفتسيف الكتاب الأكثر أهمية لهذا النموذج من الأبحاث . حيث عرض هنا تعميم نظري لمجموعة هائلة من المصادر كما وجرى وضع خلاصة لدراسة بعض مناطق العالم الروماني ، أي وضع الأساس لمتابعة البحث لاحقاً . ولكن حتى الآن لم تجر أية إعادة نظر في الصورة التي رسمها روستوفتسيف . وهذه الصورة تبدو على الشكل التالي .

كانت المرحلة التي سيطرت فيها روما على سورية مرحلة سلام وأمن وازدهار . ولكنها لم تكن مرحلة التغيرات الراديكالية فقد بقي الشرق السوري كما كان سابقاً . ولم يؤد تجميع السكان في مدن كبرى إلى أحداث أي تقدم ملحوظ مع أنه كان قد ظهر عدد من المدن النصف يونانية كما وتحول قسم من سكان الريف إلى العيش في المدن . ورغبت الجماهير كما كان عليه الأمر سابقاً ، أن تقيم الشعائر الدينية لألهتها القديمة وفي معابدها نفسها وأن تحرث الأرض وتزرعها وترعى القطيع وتعتني به :

لقد كونت انطاكية وسلوقية وأفاميا واللاذقية القسم الأساسي من شمال سورية . وجرت هنا تدريجياً عملية مركزة الأرض في أيدي أفراد أصبحوا يملكون عقارات ويستغلون الفلاحين من مستأجرين صغاراً وأجراء يعيشون في القرى التي تخضع للمدن (السكان المحليون الذين لم يكونوا ليحلموا بأن يصبحوا مواطنين) ويشيرون وستوفتسيف في معرض وصفه للموضع الذي كان سائداً في كل اصقاع الامبراطورية إلى ظهور شريحة اجتماعية جديدة هي «بورجوازية» المدن (ملاك العقارات والتجار وأصحاب الورش الحرفية) التي بدأت تزيج الارستقراطية السابقة . ومن الواضح أن روستوفتسيف يرى هذه الظاهرة في سورية أيضاً . وكانت توجد خارج حدود المدن فئة أخرى من الملكية وهي ملكية المعابد وهي أرض شبه مستقلة . وكانت هذه المعابد تتمتع بحصانة خاصة وتملك الأرض وتجمع الضرائب وكان agokhoi يشرفون على الأسواق التي كانت تقيمها المعابد كما كانوا يمثلون المعبد في علاقاته مع السلطات المدنية . ويعتقد روستوفتسيف أن أوضاع المراكز التجارية الكبرى كدمشق وحمص وتدمر كانت قريبة من أوضاع المملكة البسورية . فقد استطاعت الفئات المسيطرة في هذه المدن أن تغلغل بسرعة في صفوف ارستقراطية الإمبراطورية الرومانية وتشارك في إدارة دفة الحكم فيها وفي نفس الوقت كانت دمشق وتدمر وحمص والرها idesse مراكز للقيصرة الكهنة . أما في الأردن فقد استمرت الهلنستية تتوطد وترسخ . ووضحت المدن الهلنستية مراكز تجارية متقدمة وغنية كما وبدأ البدو الرحل بالتحول إلى الاستقرار والتحضّر أما التنظيم السياسي لهذه المدن فقد ارتدى على أقل تعديل ظاهرياً - طابعاً اغريقياً .

بعد ذلك يشير روستوفتسيف إلى الوساطة التجارية وتجارة القوافل والتي - حسب رأيه حددت الحياة الاقتصادية والثقافية لبترا وجرش وتدمر ودورا - يوروبوس . لقد حاول المؤلف في أبحاثه التي قامت على مواد مقتبسة ومواد ارجيولوجية أن يرسم من جديد طابع ما يسمى بمدينة (القوافل) التي تدين بمنشئها إلى تطور التجارة . واستطاع روستوفتسيف بعد

دراسته لوثائق من دورا - يورويوس أن يكون لنفسه صورة ما عن العلاقات الزراعية ووسائل الإستغلال والنظام الإداري في هذه المدينة .

وأشار المؤلف في معرض وصفه للمجتمع السوري إلى ظواهر هامة في هذا المجتمع : كتمركز ملكية الأرض وانضمام اناس «جدد» إلى الفئة المسيطرة (مع انه من الصعب اعتبار أطروحة روستوفتسيف عن ظهور «بورجوازية» المدينة ثابتة فالأرجح أن الكلام يجري هنا عن بعض العائلات التي اغتنت وانضمت إلى صفوف الأغنياء القدامى) والنمو الملحوظ للتجارة والدور الذي أصبحت تلعبه في حياة المجتمع . ومع ذلك فإن بعض موضوعات روستوفتسيف ليس لها أي وجود في المصادر المتوفرة لدينا (حول دور المعابد والقيصرية - الكهنة في دمشق وتدمر) . كما أن مسائل كثيرة وهامة بقيت غامضة تماماً : كالوضع الذي كان قائماً في منطقة البوليس (أي المدينة - الدولة ، المترجم) وخاصة في الأراضي التي كانت تابعة للإمبراطور والتناسب القائم بين مختلف أشكال الملكية والتملك والوضع القانوني لبعض المدن والفئات السكانية داخل الإمبراطورية (والحقيقة أنه في معرض آخر يتكلم بشكل غير محدد أبداً عن فقدان بعض المدن - الدول حريتها السياسية وعن استمرار الحفاظ على الإدارة المحلية وحتى عن سياسة أوغسطس الرامية إلى تحويل الإمبراطورية إلى مجتمع تسود الإدارة الذاتية كافة مدنه ولكن ملاحظات روستوفتسيف هذه عامة جداً ولا تسمح لنا أن نكون أي تصور عن واقع العمليات الجارية في المجتمع وعن ماهية مقدماتها الاجتماعية والعلاقات العائلية . ولكن بغض النظر عن كل هذه النقاط الغامضة فقد أعطينا أبحاث روستوفتسيف ، ولأول مرة امكانية تكوين تصور عام عن الأوضاع التي كانت قائمة في هذه المقاطعة كما وتعتبر هذه الأبحاث بداية لدراسة مبرمجة لتاريخها الاجتماعي - الإقتصادي .

أما ب . رانوفيتش فيصف المجتمع السوري هذا وصفاً آخر . فهو يشير إلى انعدام التجانس الإقتصادي وإلى التبعثر السياسي لبعض مناطق المقاطعة (الأمر الذي يشير إليه روستوفتسيف أيضاً) مما خلق صعوبات جدية أمام السلطات الرومانية عند إخضاعها لهيمنتها وانضمام بعض الممالك التي لا تزال تحافظ على استقلالها الشكلي (يعتبر رانوفيتش أن كل هؤلاء الملوك لم يكونوا من حيث الجوهر سوى مفوضين من قبل الإمبراطورية الرومانية) إليها . أما أوضاع المدن السورية «الحرّة» فلم تكن لتختلف كثيراً عن أوضاع مثيلاتها من بقية المدن التابعة للإمبراطورية . وتلك الإمتيازات التي كانت تتمتع بها المدن السورية بدأت فقدها شيئاً فشيئاً ذلك أن السلطات الإمبراطورية أخذت تسعى لاستبدال الحكم الذاتي

بجهاز إداري بيروقراطي وغالباً ما كانت الألقاب الطنانة تخفي وراءها فراغاً واضحاً . أما في الواقع فإن تدمر هي المدينة الوحيدة التي استطاعت أن تحافظ على استقلاليتها فترة زمنية أطول حيث ساعدها في ذلك بعدها الجغرافي وأهميتها التجارية وقربها من المملكة البارفية . لقد سحق الرومان الديمقراطية وحلوا المجالس الشعبية وقدموا كل الدعم للاستقرارية المحلية . أما السوريون المهاجرون فقد أسسوا روابط تجمعهم (بالدرجة الأولى للعبادة) وحافظوا على علاقاتهم مع مدنهم الأم . ويشير رانوفيتش إلى تمركز ملكية الأرض في أيدي كبار الملاك - الامبراطور وأفراد عائلته وعدد آخر من الأشخاص ويشير إلى وجود علاقات الاستئجار والتأجير . ويعتقد رانوفيتش أن أوضاع الـ LAOI السلوقيين لم يطرأ عليها أي تغير يذكر إبان العصر الروماني فقد كان صغار الملاك ملزمين بدفع اتاوة عن قطعة الأرض التي بحوزتهم إلى المالك الأعلى للأرض . كما كان باستطاعة ممتلكي «أراضي القيصر» أن يبيعوا ويشتروا هذه الأرض مع أنها لم تكن ملكاً لهم . ويشير رانوفيتش إلى التطور الملحوظ الذي طرأ على الحرفة والتجارة بما فيها الوساطة التجارية . وأخيراً يشير المؤلف إلى نظام الضرائب والأتاوات الروماني .

وهذا الوصف الثاني للمجتمع السوري القديم هو أيضاً وصف غير مرض وغير مقبول بالرغم من أن المؤلف قد أشار ولو بشكل مشوه إلى بعض خصائص تطور هذه المقاطعة الرومانية . فعندما أكد أن الإمتيازات التي تتمتع بها بعض المدن قد بدأت تسقط الواحدة تلو الأخرى ليحل الجهاز البيروقراطي محل أجهزة الحكم الذاتي إنما الواقع هنا يتمثل في أن ما يجري هو عملية موضوعية مستقلة عن إرادة هذه القوى السياسية أو تلك ويتلخص محتواها في حلول السلطة الإمبراطورية المطلقة محل كيان البوليس . ولكن رانوفيتش لم يحدد الكيان الحقوقي لمختلف الفئات السكانية في سورية القديمة والتغيرات التي طرأت عليه ولذلك فهو لم يستطع أن يحدد لنا الأسباب الحقيقية للعملية المذكورة . فهو يرى أن هذه الأسباب ذات طابع سياسي أي أنها تتعلق بنوايا بعض الأشخاص والجماعات . وبالإضافة إلى ذلك فإن رانوفيتش يبالغ في وتيرة تسارع هذه العملية : فالمصادر المتوفرة لدينا تؤكد أن الأجهزة الديمقراطية لسلطة الدولة كانت موجودة فعلاً وبكامل فاعليتها في سورية حتى القرن الثالث للميلاد أما هذا اللقب أو ذاك فكان يعطي بعض المدن بعض الامتيازات الملموسة . ولا شك أن رانوفيتش على حق عندما يشير إلى مركز ملكية الأرض . ولكن الغموض يكتنف هنا الوضع القانوني للملكيات العقارية الكبيرة الموجودة في الأراضي التابعة للإمبراطورية وتلك التابعة للبوليس كما ولم يشمل البحث بعض نماذج الملكيات العقارية الأخرى . أما وجود الـ

LAOI في العصر الروماني فليس له ما يثبتته. كما ونعتقد أن موضوع المؤلف عن وجود ملكية المالك الأعلى (أي أن الملكية العليا للأرض تعود للملك - المترجم) للأرض في سورية أبان العصر الروماني وما يرتبط بها - من وجهة نظره - من تأدية أتاوة الأرض وهو في نفس الوقت يعتقد أن الأشخاص الذين تقع الأرض بحوزتهم مع أنهم لا يملكونها إلا أنهم يستطيعون بيعها وشراءها والتصرف بها حسب ما يرغبون - نعتقد أن مثل هذه الموضوعات مرفوضة حتى من الناحية النظرية .

بهذا الغرض الموجز نكون قد لخصنا اتجاهات بحثنا وأهدافه . وكما أشرنا سابقاً فإننا سوف نبحث في هذا الكتاب البنية الاجتماعية - الاقتصادية والتنظيم السياسي في سورية في عصر خضوعها للإستعمار الروماني (عصر البريتسبات) . أي أننا سوف نتكلم عن الملكية الخاصة لأدوات العمل ووسائل الإنتاج والتميز الاجتماعي الذي خلقه التمايز في الملكية وعن الدور الذي لعبته التجارة والإنتاج السلعي (وبالتالي المكانة التي شغلها ما تسمى «بمدين القوافل») وعن أشكال وأساليب استغلال المنتج المباشر وقانون الأحوال المدنية والفئات السكانية التي يشملها وبالتالي عن المدينة السورية وعلاقاتها مع السلطات العليا . ويهدف الكتاب إلى تحديد الاتجاهات الرئيسية لتطور المجتمع السوري في الفترة التي نحن بصدد دراستها وبالتالي تحديد الدور الذي لعبه الرومان في تاريخ هذه البلاد . أما التاريخ السياسي لسورية في الحقبة المذكورة وخاصة تاريخ الحروب الرومانية - البارافانية والرومانية - الساسانية فقد تمت معالجته في أبحاث خاصة كما وتم عرضه في الكتب التعليمية لذلك فرجوعنا إليه سوف يقتصر على امكانية افادتنا منه عندما سنحاول اعطاء وصف للحركات الاجتماعية في البلاد .

الفصل الأول

- سورية على أعتاب الإستعمار الروماني

على أعتاب الإستعمار الروماني كانت سورية تملك تراثاً هلمسنياً عريقاً في مجال تنظيم الدولة . والحقيقة أنه عندما أصبحت سورية مستعمرة رومانية كانت سلطة السلوقيين عليها قد اضمحلت منذ زمن بعيد . ولكن التصور عن أن الملك من هذه العائلة هو الحاكم الوحيد الذي له «حق» حكم البلاد وقد استمر هذا التصور ، كما سنرى لاحقاً حتى منتصف القرن الأول ق . م وحتى في ظرف سيطر فيه الإنهيار التام كان الرومان ملزمين بأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار .

وقد برزت في إطار الدولة السلوقية في سورية القطاعات التالية - أولاً المنطقة الحدودية التابعة للبوليس ، أي تلك الأراضي التي كانت خاضعة لسلطة المدن التابعة بدورها للملك ، ثانياً - المنطقة التابعة مباشرة للملك نفسه^(١) .

المدينة وحدودها

من المعروف أن العدد الأكبر من المدن السورية كان قد قام منذ زمن موغل في القدم أي قبل الإستعمار المقدوني - اليوناني بزمن طويل . والمدن الفينيقية على ساحل المتوسط خير

(١) لقد كان لأبحاث م . ي . روستوفتسيف التأثير الأقوى على كل الأعمال التي بحثت في تاريخ الحقبة الهلنستية . وقد اعتبر روستوفتسيف أن أهم ما تتصف به الأراضي التابعة للملك هو عدم وجود المدن فيها واستحالة وجود أي شكل من أشكال الملكية هنا باستثناء ملكية الملك وحده أما العاملين في هذه الأرض فكانوا يدفعون Fors وهي عبارة عن ضريبة عينية (M.Rostovtzeff, studen zur. Gechtedes romichen Kolonetes, يشير روستوفتسيف إلى أعمال لاحقة يشرح فيها ملكية المدن في سورية). وفي 1910 Leipzig إلى فتيين من الأراضي : (١) الأراضي التابعة مباشرة للملك Khsraibailikhe أو من المحتمل Khora وفي هذه الحالة الأخيرة Khoraibasilie . لم يكن سوى جزء منها ملكية شخصية للملك (٢) الأراضي التي كانت ملكاً للمدن والمعابد ، ومن المحتمل ، لبعض القبائل أيضاً . أما الحالات الأخرى - حسب رأيه - للملكية فقد انطبقت على الأراضي التي كان الملك يقدمها من Khora أو من Khoraibasilie . لمختلف المؤسسات والجماعات والأفراد . (M.Rostovtzeff, The social and economic history of the hellenistic world, oxford 1949) والعيب الجوهري الذي يعاني منه تصنيف روستوفتسيف هذا - حسب رأينا - هو الخلط بين مفهوم الملكية والسيادة

شاهد على ذلك وهي - أراد(أرواد - المترجم) بيلوس (جبل) ، بيريت (بيروت) ، صيدون (صيدا) وتير (صور) وكذلك المدن الأخرى التي تقع داخل البلاد كتدمر ودمشق .

كان من نتيجة الإستعمار المقدوني - اليوناني لسورية في نهاية القرن الرابع ق . م وعملية الإستيطان المكثفة التي تلتها ان جرى إنشاء عدد من المدن اليونانية ليس في سورية وحدها وإنما في الأردن وشرقي الأردن أيضاً . فقد ظهرت هنا بمبادرة واشراف السلطات الهلنستية بوليسات كبرى، كانتيونية^(٢) وانطاكية^(٣) التي بنيت على انقاضها وسلوقية بيرية^(٤) وأفاميا^(٥) ولاوديكية^(٦) (اللاذقية المترجم) ودورا يوروبوس (تل الصالحية) وبيريا^(٧) وبيللا وديود وجرش^(٨) وغيرها من مدن تلك الحقبة .

٢ - لقد شيد انتيغون مدينة انتيونية على نهر العاصي في عام ٣٠٦ ق . م وجعلها عاصمة دولته فكانت مركزاً سياسياً وعسكرياً هاماً . ويشير مصدرنا (Diod, 20, 47, 5) بشكل خاص الى أن موقعها الاستراتيجي هذا قد لعب دوراً حاسماً في اختيارها من قبل الساسي لاستلام السلطة . ولكن الفشل العسكري السياسي الذي مني به انتيغون جعل عمر هذه المدينة قصيراً . ونحن لانعرف كل المدن التي انشأها انتيغون . وحسب رأي تشيريكوفيريان بعضها ، كانتيونية مثلاً ، اعتبر مؤسساً من قبل سلوقس الأول نيكاتور في مرحلة معينة من تاريخ حكمه . انظر : V.Tscherikover, Die hellenistischen Stadtgerungen vonalexander dem Grossenbis... بنيت ثانية في مكان آخر (diod,20, 47, 6) كما ويتناقض تاريخ افاميا نفسه (انظر لاحقاً الملاحظة رقم ٥) . وليس لدينا أي اثبات على أن سلوقس قد اتبع سياسة أخرى حيال المدن التي بناها انتيغون .

٣ - في عام ٣٠٠ ق . م بنى سلوقس الأول نيكاتور مدينة انطاكية على نهر العاصي (diod, 20, 47, app, Syr) . ويعتقد ج . داووي أن سلوقس كان ينوي أن يجعل سلوقيا بيرية مركزاً له والى هناك نقل من انتيونية ديوان المال كما تم دفنه فيها أيضاً . (App.Syr,63) . ولكنه على أية حال اختار انطاكية . وفي القرن الأول ق . م . أصبحت انطاكية عاصمة السلوقيين . أما الافتراض بأن الاسكندر قد زار هذا المكان حيث بنيت فيها بعد انطاكية ، وأقام فيه معبد زفس بوتيني (Liban, or, 2, ٢٥٧, 250) كما يقول ج . داووي فالهدف منه تمجيد انطاكية وتقوية مركزها ولكن هذا لا يتطابق مع واقع الأشياء .

٤ - بعد القضاء على انتيونية مباشرة بنى سلوقس مدينة سلوقية بيرية (App.Syr,57) وحسب Diod,20,48 تم نقل قسم من سكان انتيونية الى هذه الأخيرة .

٥ - لقد أسس سلوقس الأول نيكاتور مدينة افاميا (App.syr,57) طريقة تلك العادة التي أطلق بموجبها المستوطنون المقدونيون على افاميا اسماً آخر بيللاً وهذه الأخيرة هي موطن فيليب والاسكندر — (Sirobo, 752) . ويعطي المؤرخ مالالا (chronoga, p.203) لهذه الواقعة تفسيراً آخر : حيث يقول بأن سلوقس الأول هو الذي أطلق على افاميا اسم بيللاً ذلك أن الآلهة التي كانت تحمي افاميا حملت نفس الاسم حتى أن فيليب نفسه من بيللا المقدونية . وهذا الافتراض الأخير فيه شيء من التناقض : ذلك أنه من الصعب أن نجد حالة تكون فيها الآلهة التي تحمي مدينة ما تحمل اسم مدينة أخرى ونحن نرى أنه من المنطقي أن يتوافق اسم الآلهة مع الاسم الأصلي للمدينة الذي يستخدمه الناس . وما له دلالة خاصة أن الغلبة في نهاية الأمر كانت لاسم افاميا . ولاشك في أن المصادر الواردة توضح بغير لبث أسباب تغيير اسم المدينة ، والتي لم يكن ممكناً أن تأخذ اسمها الرسمي بشكل نهائي إلا بعد اعلان سلوقس الأول Oikist لها .

٦ - لاوديكية البحرية أسسها سلوقس الأول (App.,syr,57) .

٧ - بيرية أسسها سلوقس الأول (App.,syr,57) .

لاشك أن أسباب مثل هذه الحركة الاستيطانية العاصفة ، في بداية العصر الهلنستي واضحة تمام الوضوح . فالأزمة الاجتماعية التي اجتاحت اليونان في القرن الرابع قبل الميلاد تجلت بأوضح مظاهرها في حرمان المنتجين الأحرار من ملكية الأرض مما حدا باليونانيين أن يتوجهوا نحو الشرق حيث يستطيع الفلاحون (Vol.42,1965) المفلسون وغيرهم أن يحصلوا على الأرض ويحققوا السعادة المنشودة . ومن هنا جاءت الدعوة الى الحرب في الشرق بهدف انتزاع الأرض من مالكيها «البرابرة» - هذه الدعوة التي ترددت في خطب ليسيوس (33,6) ولكنها كانت قوية وواضحة أكثر في خطب سقراط . ومن هنا ذلك الفيض من المستوطنين الذين تدفقوا على ما بين النهرين وسورية ومصر وهذا بدوره شكل القاعدة المادية التي قامت عليها الدولة الهلنستية .

وهذا ما كان له أهميته بالنسبة للملك الدولة الهلنستية أيضاً . فقد أخذت البوليسات على عاتقها مهمة جمع الضرائب داخل حدود المنطقة التابعة لها دون تدخل السلطة المركزية في هذا الأمر الذي كانت له أهمية خاصة بالنسبة للسلطة الملكية ^(٩) . ولكن لم يكن لهذه الأهمية المكانة الأولى بين الأولويات . فعندما كان الملك يؤسس هذه المدينة أو تلك كان من الطبيعي

٨ - لقد أصبح من المتعارف عليه أن ينسب تأسيس ديون وبيل وجرش الى الاسكندر . والواقع أن هناك اشارة الى ذلك في تراث ستيغان البيزنطي . أما فيما يتعلق بجرش فهناك اشارة مماثلة في تعليقات يامفليخ على مؤلفات نيكوماخ من جرش . وجاء في خرافة احدى القطع النقدية من جرش وهي مؤرخة في عصر كومادا (H.Syri antiqites, 87, Alexndere le grand, fondateur de gerasa, — syria, vd.42, 196) المقدوني : «الاسكندر (المقدوني)، مؤسس جرش» . وهكذا فقد سقطت المحاولات الرامية الى نسب تأسيس جرش الى بيرديك أو الى انتيغون أو الى أحد ملوك السلوقيين وفي نفس الوقت يضحده ما جاء في النقش G,137 والذي ينص على أن افيريلي بن افينا أقام تمثالا لبيرديك . ويعتقد بعضهم أنه كان يوجد في جرش تقليد يعتبر بيرديك بموجبه مؤسس المدينة (A.H.M.cities jones) ولكن لاوجود لمثل هذه الاشارات في النص . وهكذا نجد أننا مرغمون على الاعتراف بأن دوافع اقامة التمثال المذكور غير واضحة . لقد حفظت لنا العادات القديمة اشارات طريفة حول ما تعنيه كلمة «جرش» . يامفليخ يعتبر اسم المدينة جاء اشتقاقا من كلمة Gerntes («المعجزة») التي أطلقت على مستوطني المدينة من قدماء المحاربين في جيش الاسكندر ، Etymologicum magnum يعطي لهذه الكلمة تفسيراً آخر . حيث يقول بأن الاسكندر قضى على كل شباب المدينة عندما فتحها وابقى على العجائز فقط وقد قام هؤلاء باعادة بناء المدينة . وعلى كل حال فإن ما نراه أمامنا ليس أكثر من ايثيمولوجيا (علم منشأ الكلمات - اشتقاقها - المترجم) شعبية . ولكن هذا الاشتقاق الأخير لمعنى كلمة «جرش» مرفوض ذلك أن المكان الذي توضع فيه المدينة لايقع على طريق جيوش الاسكندر المقدوني وفي هذا المجال يعتبر الاشتقاق الأول أقرب الى التصديق ولكن لايمكن اعتباره مثبت تاريخياً . وبعد أن جرى ضم شرقي الأردن الى الدولة السلوقية أطلق على جرش اسم آخر هو انطاكية وكان ذلك على عهد خريسوروس ، وعلى الأرجح أنه انطوخ الثالث (Kraeling (ed), gerasa.30) ونجد هذه التسمية الأخيرة في الكتابات التي وصلتنا من العصر الروماني . (g,30,56—57,58,69,143—145,153,192,251)

٩ - قارن م . م . وياكونوف ، تاريخ ايران القديم . موسكو عام ١٩٦١ .

أن تدخل المدينة المذكورة تحت حمايته وبالتالي كانت تشكل سندا كبيرا له في صراعه مع خصومه السياسيين . وكان بناء مدينة ما وخاصة تلك المراكز السياسية الكبرى يهدف قبل كل شيء الى ترسيخ سلطة المحتل وبسط سيطرته على المنطقة التي تم اخضاعها . ويعتبر سلوك السلوقس الأول نيكاتور نموذجا يبين في هذا المجال . فهو لم يجعل من انتيغونية التي أسسها خصمه ، عاصمة لدولته . بل قام بنقل كافة مؤسسات الدولة منها كما ونقل سكانها أيضاً الى المدينة التي بناها هو نفسه . ولا شك أن ما دفعه الى ذلك هو طمس كل أثر يمكن أن يذكر الناس بخصمه انتيغون . وكأني به يحاول أن يظهر للناس أن التطور انما بدأ «من نقطة الصفر» . وهذا ما يفسر عدم رغبته في استخدام أية مدينة سورية قديمة بما في ذلك دمشق .

ومن المعروف أنه جرى بناء بعض المستعمرات اليونانية - المقدونية في تلك الأماكن التي كانت تشغلها سابقاً مدن وقرى السكان الاصليين للبلاد . فانطاكية شيدت في نفس المكان الذي كانت تشغله «قرية تدعى بوتيا» (Malala,chronogr.,P.,200) ، افاميا - في مكان القرية التي كانت تدعى فرناقة ، اللاذقية - مكان قرية مزابدة (Malala,chronogr.,P.,203) . ولكن ستيفانوس البيزنطي حافظ على تقليد آخر فهو يسمي القرية التي قامت على انقاضها اللاذقية - زاميتا . ومن الصعوبة بمكان القول : أية فرضية هي الأصح . ولكن ماله أهمية خاصة هو أن ظهور مثل هذه المعطيات لا بد وأنه يعكس ظاهرة واقعية . وأخيراً مدينة بيرية التي بنيت في المكان الذي قامت عليه واحدة من أقدم المدن السورية على الاطلاق - مدينة حلب .

وليس لدينا أية معلومات عن مصير سكان هذه القرى السورية . ولكننا نستطيع افتراض الوضع التالي : إما انه جرى ضمهم الى التنظيم السكاني الجديد أو أنه تم تدمير هذه القرى وطردهم سكانها . ولا يستبعد أن يكون خوفهم على تلك القرى التي تقع ضمن التنظيم الجديد للمدن . والحقيقة أن رواية يوحنا مالالا (Ghronogr.,PP.,202-203) عن نشوء اللاذقية ، مع الأخذ بعين الاعتبار الجانب الخرافي فيها توضح أنه من المحتمل أن تكون القرية التي قامت على أرضها قد جرى توسيعها ومن ثم تحويلها الى مدينة : «لقد أسس هذا السلوقس نيكاتور نفسه مدينة بحرية أخرى في سورية هي لاوديكية وسمّاها باسم ابنته وكانت سابقاً قرية اسمها مزابدة» . أما روايته (نفس المصدر) لقصة بناء مدينة افاميا فهي أكثر وضوحاً «أنشأ هذا السلوقس نيكاتور نفسه مدينة كبيرة أخرى في سورية سمّاها باسم ابنته افاميا ، فقد وجد قرية تسمى قرنقة وأحاطها بسور ثم دعاها هذا السلوقس نفسه مدينة وسمّاها افاميا وقدم ضحية» . ولكن مع ذلك ليس باستطاعتنا حتى الآن أن نعرف شيئاً عن

مصير سكان هذه القرى . فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن المستعمرات الهلنستية كانت عبارة عن تجمعات سكانية مغلقة عندها يكتننا القول : إنه لم يكن باستطاعة السكان الأصليين أن يدخلوا في عداد مواطنيها وعلى الأرجح سلبت منهم أراضيهم . وفي حال العكس لم يكن للمدينة أن تبني أصلاً .

وهكذا نرى أنه حسب تصورات العصر الهلنستي لم يكن بناء المدن يتم بالضرورة في أماكن غير مأهولة . بل كانت المدن الجديدة تقوم على انقراض المدن أو القرى القائمة منذ زمن وقد روعيت أثناء ذلك الإجراءات التالية : جذب سكان جدد ، تحديد الوضع السياسي - الحالة السياسية - واعطاء الاسم الجديد .

ومع ذلك فإن بناء مراكز سياسية جديدة أدى إلى موجات عاصفة من بناء المدن فإذا لم تجر إعادة بناء المدن من جديد فإن تعديلات جوهرية كان يتم ادخالها على بنائها . وكان بناء هذه المدن يتم وفق نموذج واحد^(١٠) هذا ما يبدو واضحاً في بناء انطاكية وبيريياودورا ويوروبوس واللاذقية .

كانت ساحة الاجتماعات العامة لمدينة انطاكية تقع على شواطئ نهر العاصي وكان سورها على شكل زاوية قائمة أما شوارعها فقد امتدت على أساس الاتجاه العام للريح ومسقط أشعة الشمس - من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي (محور طولاني) ومن الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي (محور عرضي) . وكانت الشوارع ذات المحور الطولاني مبنية بالتوافق ، إلى حد ما ، مع اتجاه النهر . أما اللاذقية فقد خططت بشكل أوضح وأدق - من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب - وقد انعكس هذا المخطط في بناء مدينة اللاذقية الآن وعلى هذا المنوال جاء أيضاً بناء افاميا وبيرية . وفي دورايوروبوس كان اتجاه الشوارع الطولانية من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ، والعرضانية - من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي . ومن الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق كان اتجاه شوارع مدينة جرش .

وهكذا يتضح لنا أن عملية بناء المدن الهلنستية لم تكن عفوية وإنما خطط لها على مستوى شامل وواسع وبشكل دقيق للغاية . وإلى جانب حركة بناء المدن التي قادها السلوقيون كانت هناك حركة مماثلة قادها الحكام السوريون المحليون . ويفيدنا النقش الوارد إلينا من أرساما (القرن الأول ق . م .) والذي نشره في عام ١٩٦٢ ف . ك . ديرنير في تحديد الخصائص الرئيسية للبنية السياسية لمثل هذه المستعمرات ودورها في حياة البلاد ويقول انطوخ الأول

١٠ - انظر الوصف العام لهذا النموذج لدى م . م . ماكسيموفا في كتابها «تخطيط المدن وبنائها - التكنولوجيا الهلنستية موسكو - لينينغراد ، ١٩٤٨ .

ملك كوموجين في مقدمة نقشه هذا أن سلفه ارسام هو الذي أسس مدينة ارساما وقد عاش هذا الأخير في القرن الثالث ق . م . ويفيد النقش بأن ارسام أحاط المدينة الواقعة على هضبتين بسور . وتبعاً لهذا الوضع الجغرافي للمدينة جعل ادارتها ذات قسمين ثم سمي المدينة باسمه . ويسجل النقش النشاط الذي قام به ارسام : تحت رعايته وعلى نفقته الخاصة جرى احاطة المدينة بحاجز لا يمكن تجاوزه وبناء ملجأ أمين يلجأ اليه الناس في حال تعرض المدينة لهجوم خارجي . ويتضح من النقش انه كانت هناك في المدينة حامية تابعة للملك يقودها قائد عسكري .

ومن أطرف ما جاء في هذا النقش هو التعداد الوارد في Nomos للأشخاص الذين لهم حق المشاركة في الولايم المقدسة المقامة على شرف تأليه اسلاف انطوخ الأول . وقام هذا الأخير بتحديد واجبات الكاهن في المهرجان المقدس على الشكل التالي : « فليقم هو ووليمة عامة لكل محاربي الحامية والمواطنين مالثا طاولات الملك بأشهى المأكولات أما الأقداح فليملأها حتى الجمام بأنواع الخمور . وليشاهد مع قائد الحامية كيف تحمي الجيوش البلاد وسكانها ، فليهب هذا العيد السعادة للجميع » . ويتضح من هذا التعداد بروز مجموعتين متوازيتين : (ph) rouron phulakha Khorion (s) tatian

Kai polou okhlon to opikhorion ومن الواضح أن المقصود بالمجموعة الأولى الجيوش المتواجدة حول المدينة وكذلك المواطنون بينما يدخل في المجموعة الثانية - الجيوش المتواجدة خارج أسوار المدينة والسكان الذين يقطنون المنطقة ولا يتمتعون بحقوق المواطنة . ونحن لا نملك أية معطيات تسمح لنا بالقول أن هؤلاء الناس كانوا خاضعين للمدينة أو للملكها . ولكن مما لا شك فيه أن الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كانوا يشكلون جماعة مغلقة ويجب أن نتوقع أنها كانت تتمتع بامتيازات خاصة .

وهكذا نرى أنه في نهاية القرن الرابع والقرن الثالث ق . م . نشأت في سورية الهلنستية مجموعة من المدن ذات المنشأ المحلي وأخرى ذات منشأ يوناني وقد قدر لهذه المدن أن تلعب دوراً بالغ الأهمية في الحياة الاقتصادية والسياسية للبلاد .

أما المعطيات المتوفرة لدينا عن العلاقات الزراعية السائدة ضمن حدود المدينة فهي ضئيلة للغاية ولكنها مع كل هذا تبرز بكل وضوح سيطرة الملكية الخاصة . فتحصيل الضرائب من الملكيات الخاصة المتوضعة داخل حدود المدينة يأتي ذكره عند ارسطو في أحد مؤلفاته الاقتصادية حيث يعطي فيه وصفاً عاماً لاقتصاد المدينة . كما ونجد ذكراً لهذه الملكيات

في النقش الوارد اليينا من اللاذقية . والمؤرخ في كانون الثاني عام ١٧٤ ق . م . ونرى أن الحالة المسجلة هنا معقدة للغاية . فقد قدم كهنة ساربيس واسيدا وهم هورا بللودور وانطوخ الشكوى التالية الى سلطات المدينة . حيث كانت المدينة قد اتخذت قراراً تفرض بموجبه على كل من يطلب مكاناً ليقوم فيه نصباً تذكاريّاً أن يدفع مبلغاً من المال . وفي نفس الوقت طلب «بعضهم» مثل هذا المكان في المعبد نفسه . وكانت الأراضي القريبة من المعبد والمعبد نفسه ملكاً للأشخاص المذكورين وأقربائهم . هذه التركيبة طريفة بحد ذاتها : فأمامنا - قطعة أرض تعود ملكيتها لعائلة كبيرة يمثلها في هذه العملية ثلاثة أخوة . وبما أن قرار المدينة لم يوضح طبيعة الدفع لقاء الأرض المطلوبة لاقامة النصب التذكاري فقد خاف هؤلاء الأخوة من أن يفقدوا حقهم كمالكين . ذلك أن هذه diaphora يمكن أن تفسر كثمن للأرض . وبناء على ذلك اتخذ أعضاء المجلس قراراً أكدوا فيه أن المال المدفوع ليس ثمناً للأرض وإنما ضريبة تدفع لقاء وضع النصب . وبذلك تكون حقوق مقدمي الشكوى قد حفظت .

وهكذا يثبت لنا النقش أن الملكية الخاصة للأرض وامكانية بيعها وشرائها كانت موجودة في اللاذقية البحرية في القرن الثاني ق . م . وقد حافظت سلطات المدينة على قدسية هذه الملكية . ومن المشكوك فيه أن يكون الوضع في المدن السورية الهلنستية الأخرى مغايراً لما كان عليه الأمر في اللاذقية .

ونعتقد أيضاً أن هذه المدن كانت مركزاً مهماً للإنتاج الحرفي . ولكن لا تتوفر لدينا أية معطيات بهذا الخصوص . ومع كل هذا فنحن نستطيع القول أن صناعة السفن التي كانت متطورة في المدن الفينيقية لم يكن لها إلا أن تتابع تقاليد هذا كما أن حرفة البناء كانت منتشرة بشكل ملحوظ وفي كل مكان ولا بد من الإشارة أيضاً الى فن النحت حيث كان هناك ، دون شك اختصاصيون في تحضير النقوش وصناعة الفخار وغير ذلك .

ومن حسن الحظ أن المعطيات الواردة اليينا من العصر الهلنستي تعطينا الامكانية الكافية لتحديد الدور الذي لعبته المدن ، وبالدرجة الأولى المدن الفينيقية ، في التجارة الدولية لذلك العصر . فقد كانت لها علاقات تجارية مع أهم مدن العصر الهلنستي وقبل كل شيء مع ديلوس .

وفي هذا السياق تشكل سلسلة النقوش التي أصدرها س . ريناك أهمية ملحوظة حيث يعود تاريخها الى القرن الثاني ق . م . وقد جاء في أحدها (OGIS,591) : «الى آلهة روما ، صانعة البر والاحسان ، - من جماعة آلهة البحر البيروتيين - التجار والملاحين والوكلاء

التجارين ، اعترافاً بإحسانها للجماعة والشعب ، عندما أعيد انتخاب مناسي بن ديونيسيوس ثانية - صانع الخير . أعد من قبل ميلانوس الأثيني . والنقش الآخر الشبيه بهذا النقش هو Reinach,3,5, وهو أيضاً على شرف آلهة روما ولكنه مؤرخ في عهد القائد ديونيسيوس بن سوسيپاتروس وإلى جانب ذلك كان يمكن أن يذكر الكاهن في صيغة تأريخية (Reinach,3,4) . كما ونشر س . ريناك عدداً آخر من النقوش التي تحكي قصص البناء . ومنها نعرف أن عمليات البناء كانت تقوم بها جماعات أو أشخاص لصالحهم (Reinach,4,2) .

كانت جماعة آلهة البحر البيروتيين عبارة عن اتحاد حرفي ذي طابع ديني يضم أشخاصاً مرتبطين بهذا الشكل أو ذاك بالتجارة البحرية وكان يتزعم هذا الاتحاد قادة وكهنة . وكانت هذه وتلك من الوظائف الاجتماعية ذات طابع ابونيمي (ابونيم - الأول من القادة التسع في اثينا القديمة وكانت ولايته تعتمد كتأريخ للمرحلة - المترجم) . وكان يحق للقائد أن يبقى في منصبه عدداً من المرات ولكن تغييره كان ممكناً (ونحن لانعرف الأساليب التي كان يتم بموجبها تغيير القادة ولا الزمن المحدد لذلك) . كان الاتحاد يملك مخصصاته المالية ويتخذ القرارات المناسبة حيال المسائل التي تهمة . ولا شك أن وجود مثل هذه الاتحادات كان يعبر عن مصالح بيروت الراسخة والعميقة الجذور في جزيرة ديلوس .

ويعتبر التكرير المتكرر لآلهة روما ذو دلالة خاصة حيث يعكس طبيعة العلاقات النشطة التي تربط التجار البيروتيين بروما وبالإيطاليين الآخرين الذين يمارسون نشاطاتهم التجارية في ديلوس .

ولكن يجب ألا نعتبر أن المثال الوارد هو الوحيد من نوعه . فقد كان هناك أيضاً - في ديلوس - اتحاد للصوريين (نسبة إلى صور - المترجم) الذين يعظمون هرقل ووصل إلينا من هناك نقش كبير مؤرخ في الثلث الأول ، أغلب الظن ، من القرن الثاني ق . م . حيث يعطينا صورة واضحة إلى حد ما عن بنية الاتحاد المذكور وعن مجال نشاطه . وكما هو الأمر مع الاتحاد السابق فقد كان أعضاء هذا الاتحاد أيضاً من الأشخاص الذين يرتبطون بالتجارة البحرية (قارن الصيغة : «لقد قررت جماعة الصوريين الذين يعظمون هرقل ، - التجار والملاحون») . وكان يتزعم هذا الاتحاد أيضاً قائد وكاهن . ويفهم من الصيغة التأريخية التي اختتم بها النقش أن هاتين الوظيفتين كانتا ابونيميتان («في عهد القائد ديونيسيوس بن ديونيسيوس وعندما كان الكاهن هوباترون بن دوروفي») . كما ويأتي النقش على ذكر وظيفتين

آخرين - أمين الخزنة والسكرتير وكان هؤلاء مسؤولون عن تطبيق القرارات التي يتخذها الاتحاد .

أما جوهر الأمر فلا شك أنه أكثر طرافة : باقترح من باترون بن دوروفي ، الذي أقيم هذا النصب على شرفه ، قامت المجموعة بارسال ممثلية عنها الى اثينا للحصول على قطعة ارض كي تقيم عليها معبداً لهرقل . وقد لعب باترون نفسه دور السفير في هذه البعثة واستطاع أن يحقق المهمة الملقاة على عاتقه بنجاح تام . ويجب أن نتوقع بأن إقامة هذا المعبد الجماعي لم تكن لها أهميتها الدينية فقط وإنما كان الهدف منها تقوية وترسيخ علاقات صور مع اثينا عبر ديلوس . أما الامتيازات التي حصل عليها باترون شخصياً فهي : أنه تم وضع رسم له في المعبد وفي الأماكن الأخرى التي اختارها كما وأعفي من الأقساط والآتاوات التي كانت تدفع للجماعة وكذلك من الأعمال المتعلقة بالتحضير للاجتماع . وكان يجب الاعلان عن منحه الأكليل عند تقديم الأضاحي وكذلك في اجتماعات الجماعة . وهكذا نعرف أن ملكية الجماعة كانت تشكل من المساهمات التي كان يؤديها أعضاؤها .

لقد كانت لديلوس علاقات قوية ووثيقة مع سورية . يدل على ذلك العدد الكبير من المراسيم التي كانت أصدرتها سلطات ديلوس على شرف السوريين المقيمين هناك والمؤرخة في القرن الثاني والأول ق . م . وكانت تلك المراسيم عبارة عن مكافآت لهؤلاء الأشخاص لقاء خدمات أدوها للمدينة مما أعطى العلاقات بين سورية وديلوس طابعاً رسمياً أيضاً . كانت المكافآت في أغلب الأحيان هي السماح بامتلاك أرض وبيت في ديلوس (Ues kaioi khiasxukhsis) وهناك أشخاص ممن منحوا مثل هذا الشرف (1G,11,777) من سلوقية (815,11,1G) : يقول النقش بأن الطاقم الذي جرى تكريمه قدم خدمات للديليوسيين عندما كانوا في وطنه - صور (1G,11,772,773-774) ومن أرواد (1G,11,777) وانطاكية (1G,11,600,11141) . وللنقش الأخر أهمية خاصة ذلك أنه أقيم تكريماً للانطاكي هيليو دور بن اثيل ، «نديم» الملك سلوقس الرابع فيليبوباترو أحد أهم الموظفين (epiten Pra(umaton)to taumtuou) وقد أقامه على شرفه «وكلاء تجاريون وملاحون» من اللاذقية . وهذا لا يدل فقط على عمق العلاقات التي كانت قائمة بين اللاذقية وديلوس والتي بدونها ما كان بإمكان اللاذقيين إقامة النقش وإنما يدل على حماية الإدارة السلوقية للتجارة السورية آملة في ذلك ترسيخ مواقعها داخل البلاد وخارجها .

لقد قام ب . روسيل^(١١) بجمع كمية كبيرة من المواد الإضافية التي تلقي الضوء على

١١ - يؤكد روسيل أن هذه الجماعة كانت من أقدم الجماعات التي قطنت الجزيرة . ولكن لا تتوفر لدينا أية معلومات تؤكد هذا الاستنتاج .

أهمية الدور الذي لعبه السوريون في ديلوس . وكانت هناك نقوش على شرف أشخاص من صيدا وصور ودمشق (ما بين أعوام ١١٣ - ١١١ ق . م .) وماراثون (ما بين أعوام ١٠٢ - ١٠١ ق . م .) ومن سلوقس وصور وبيروت وأفاميا (أعوام ١٠٥ - ١٠٤ - ١٠٣ - ١٠٢ ق . م .) وبكلمات أخرى هناك مجموعة من السوريين الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة في ديلوس وفي نفس الوقت نرى أن الفينيقيين لا يتميزون بعاداتهم الدينية عن الهلنستيين . فقد شارك أشخاص سوريون في عمليات تجارية تخص ملكية معبد ابولو (إنطاكيون وصيداويون) .

ومن المعروف أن ديلوس لم تكن المركز الهلنستي الوحيد الذي كان للسوريين والفينيقيين علاقات وطيدة معه . فمن المعروف أنه كانت هناك عشيرة للصيداويين في أثينا في القرن الأول ق . م

(KAI.53,54,58.60) . كما وكان هناك كيتيون أيضاً

(KAI,55,57,Ditt,syll.,335) ولم يكن هناك أي فرق جوهري بين تنظيم هذه العشائر وتنظيم العشائر الفينيقية في ديلوس : كان يقف على رأس مستوطنة الصيداويين في أثينا أشخاص يحملون لقب RS وكانت القرارات تتخذ في الاجتماع العام للجماعة . وأخيراً كان يرمز اليها بمصطلحين اثنين : bd «مستوطنة» و hdw «الاتحاد المقدس» . وقد وصلت الينا من صور ارسالية «مجلس الشعب» في دلف (SEG,11,330) ويمكن إعادة تاريخها الى القرن الثاني ق . م . وما يلفت النظر هنا أن مواطني ديلف يسمون من قبل أهل صور «أقرباء» والكلام يجري هنا عن تخليد أعمال الملوك حيال ديلوس وصور . وهناك نقش آخر يعود منشؤه لنفس التاريخ (SEG,4,601) ويتضمن قرار تيوس الذي يؤكد على الصداقة مع صور وإن هذه الصداقة قائمة «منذ أقدم العصور» وتعطي تيوس الحق لصور بأن تقيم على أرضها نصباً وقدمت المكان اللازم لإقامة مثل هذه النصب وما لاشك فيه أن هذان النصبان يدلان على مدى اتساع النشاط الدبلوماسي لصور في اليونان وآسية الصغرى . ويدل المصطلح sgvuenets على أن سكان صور كانوا يطالبون بقرابتهم من اليونانيين حيث تم الاعتراف بهم شكلياً على أنهم هلنستيون .

ومن بيريا وصلت الينا قائمة بأعضاء جمعية حرفية أخرى (عام ١٠٣ - ١٠٢ ق . م) وتضم بين صفوفها أجانب ونقرأ فيها سبعة عشر اسماً لهم . بعضهم من انطاكية وبعضهم من افاميا وآخرون من اللاذقية (IG,2,3,1335) . وحسب المصدر IG,2-3,2358 (عام ١٣٥ ق . م) . وفي أثينا كان يقود إحدى الجماعات الحرفية شخص يدعى ايرينوس وهو من

انطاكية . كما وتشير المقامات الموجودة على القبور في أثينا والتي يعود تاريخها إلى العصر الهلنستي إلى أشخاص من أصل سوري (حوالي الخمسين) (٣٩ منهم) من انطاكية و (شخصان) من هيرابوليس و (٤ أشخاص) من سلوقية و (١١ شخصاً) من صور (١٢)

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن سورية كانت لها علاقة تجارية تقليدية مع مصر منذ بداية العصر الهلنستي . وكان القمح في طليعة الصادرات السورية إليها (PSI,324,325,P.col.zen.,269) حيث كانت مواسمه في سورية وفيرة جداً ذلك أنه كان يجني منه محصولين في العام والمصدر PSZ,59012 المؤرخ (حزيران - تموز عام ٢٥٩ ق . م) هو عبارة عن وثيقة بخصوص تحصيل الضرائب المترتبة على ممارسة النشاط التجاري الذي تقوم به استثمارات تعود ملكيتها لابلونيا والتي قامت بشحن بضاعة من سورية إلى بيلوزي ويذكر بيان هذه البضاعة سلعاً ك : السمّن والزيت والخمر والعسل والجبن والجوز والرمان واللحوم وأنواع مختلفة من السمك وغير ذلك . وهناك مجموعة أخرى من البضائع التي كانت تشحن إلى مصر من بلدان بحر إيجة عبر سورية ويذكر هنا نخر جزيرة هيرابوليس وعسل جزيرة رودوس .

ولاشك أنه كانت لسورية علاقات تجارية واسعة مع المناطق القريبة منها في آسيا أيضاً . حيث يفيدنا المصدر P.col.zen.2 ، الذي يعود تاريخه لعام ٢٥٩ ق . م . أن نقل الحبوب يجري من سورية إلى غالية . وفي المصدر PSZ.59093 (عام ٢٥٧ ق . م) يجري الكلام عن شخص ما من صور (؟) يدعى مينيكلا جاء بالعبيد والبضائع من غزة إلى صور ثم أخفى هذه الصفقة عن محصلي الضرائب مع العلم أنه لم يحصل على إذن قانوني مسبق باستقدام العبيد . ويتضح هنا أنه في حال وجود إذن خاص فإن مثل هذه الصفقات كانت تجري بصورة علنية .

ونحن لانملك أي دليل على انقطاع هذه العلاقات في العصر الروماني .

من المؤسف أنه لا تتوفر لدينا أية مصادر تسمح لنا بالحكم على مستويات الملكية لدى سكان المدن السورية الأحرار إبان العصر الهلنستي وبالتالي لانستطيع تحديد مستوى الانقسام الاجتماعي هناك . ولكن وجود محاربين مأجورين يعود أصلهم إلى مختلف المدن السورية له دلالة خاصة في هذا المجال . فالنقش الموجود على أحد القبور في مدينة ياسو (SEG,18,450) يعود تاريخه إلى حوالي عام ٢٠٠ ق . م) يعدد أسماء المحاربين المأجورين

الذين كانوا يخدمون في جيوش المدينة فقد ذكر منهم الانطاكيون دوريون بن دوريون وغلافكي بن ايبانيت ليساخ بن ياسون ورودون بن ايبانيت وآخرون من أرواد وصيدا وغيرها . وفي لوحة شرف أخرى (SEG.18,446) يعود تاريخها إلى القرن الثاني ق : م) يذكر اللاذقاني ليساخ فيها مرتين . بمعنى آخر نستطيع أن نقول أنه في القرن الثاني قبل الميلاد كانت توجد في سورية مجموعة من الناس لا تملك أي شيء مما أجبرها على العمل لحساب الآخرين كي تتقي العوز والجوع .

أما فيما يتعلق بالتنظيم الداخلي للمدينة السورية الهلنستية فليس لدينا سوى مجموعة سلوقية من الوثائق والمعلومات المبعثرة وغير منسقة . فنعرف منها ، مثلاً أن منح حق المواطنة في مدينة سلوقية بيرياً يتم بموجب مرسوم يصدره الاجتماع الشعبي العام . فقد جاءت في النقش GMI,4,1261 (اللاذقية البحرية ، كانون الثاني عام ١٧٤ ق . م) الصيغة التالية :

«قرر الأعضاء» والتي جاء تفسيرها لدى غيسيخي (S.V.peliunes) : «الأعضاء - الوجهاء وعند السوريين - أعضاء المجلس» . ونجد مثل هذه الإشارات لدى سترابون ولكن بخصوص جماعات أخرى (مقطع 7,2) : «يسمى المولوتيون والغيسبروتيون كبار السن pelias أما السوريون فيسمونهم peliovs وكذلك هي الحال عند المقدونيين الذين يسمونهم الوجهاء ، وهذا شرف ، وكذلك هي الحال لدى اللاكونيين أيضاً والماساليون ، - يسمونهم شيوخاً» . وهكذا نرى أمانا مصطلحاً مقدونياً يستخدم في بعض المدن اليونانية - المقدونية الهلنستية في سورية وهذا المصطلح يتطابق مع مصطلح مجلس المعروف (هذا هو موقف جالا يروموتيرد) . أماب . روسيل ، وهو أول من نشر النقش المذكور فيعتقد أن الكلام إنما يجري هنا عن مجلس الشيوخ الذي كان آنذاك عبارة عن منظمة اجتماعية بدائية عاشت في القرن الثالث والثاني ق . م في كثير من مدن آسيا الصغرى . ولكن من الصعب الموافقة مع روسيل على أن هذه المنظمة كانت منظمة بدائية . وما يلفت النظر أن النقش يعرض قرار المجلس حول المحافظة على حق الملكية الخاصة لقطعة من الأرض كما ذكرنا سابقاً . وبمعنى آخر كان لهذا المجلس الحق في تقرير مثل هذه المسائل . ومن المهم أن نشير أيضاً إلى المقدمة التي سبقت اتخاذ القرار المذكور والتي تظهر في بنية النقش الذي ينقسم إلى قسمين . يبدأ القسم الأول بالصيغة التالية : «حسب رأي اسكليبادوس - القائد والوجهاء» . كما يحوي هذا القسم الاقتراح المقدم من قبل كبار الموظفين وممثلي ملك اللاذقية إلى مجلس الشيوخ - الوجهاء لبعثه . ويتألف القسم الثاني من القرار نفسه إضافة إلى الصيغة

الواردة أعلاه . وهكذا فإننا لا نرى أية فروقات بين عمل مجلس اللاذقية البحرية وعمل أمثاله من المجالس الأخرى المعروفة لدينا . وليس صدفة أن وضع غيسهيل إشارة التساوي بين مصطلحي «الوجهاء» و«مجلس الشيوخ» . وعلى الأرجح أن ادخال هذا المصطلح المقدوني والمحافظة عليه جاء نتيجة طبيعية لكون أكثرية سكان المدينة من أصل مقدوني وقد أتوا بهذا المصطلح المعروف لديهم في وطنهم الأم . وقد أشرنا سابقاً إلى أن سكان صيدا استخدموا سابقاً في رسالتهم إلى سكان ديلغا تعبير «المجلس والشعب» ، (SEG,2,330) . وهكذا نستطيع الآن أن نؤكد على وجود المجلس والاجتماع الشعبي في المدن السورية منذ القرن الثالث وإلى القرن الأول ق . م

من بين كبار رجال الدولة تذكر الوثائق بعض كبار الموظفين فقط (GMI,4,1261,pap.Gourob) حيث جاء ذكر أحد هؤلاء وهو من أصل صيداوي في المصدر : P.Mich.Zen.3 . وعلى حد قول يوسف فلافيوس في (FL.IOS, Antt,12,169) فإن كبار الموظفين الفينيقيين وموظفي المدن السورية الأخرى شاركوا في شراء حق تعهد الضرائب من البطلمة عندما كانت سورية تحت سيطرة هؤلاء .

وهذه الإشارة الأخيرة ذات أهمية خاصة : ذلك أنها تؤكد على أنه منذ القرن الثالث ق . م . بدأت هلنسة جهاز الإدارة في المدن الفينيقية وقد ترافقت بالقضاء على سلطة الملك .

إلا أن الغموض لا زال يشوب طابع العلاقات التي كانت قائمة بين سلطة الملك والمدن (١٣) ولكن الذي لا شك فيه هو أن هذه العلاقات لم تكن مستقرة على وتيرة واحدة .

(١٣) على مدى الخمسين عاما الأخيرة وحتى الآن لا تزال تبحث المسألة المتعلقة بطابع جهاز الدولة الهلنستي . فقد اشار يو . كيست في حينه انه لا يمكن فهم قيام امبراطورية الاسكندر على أساس الوضع الذي كان قائماً في مقدونيا حينها ولا على أساس «التطور السياسي الهلنستي» فهي نموذج لتنظيم جهاز دولة نبت في التربة السياسية للشرق . والحقيقة أن كيرست يعترف بأن أفكار السلطة الملكية وجدت في اليونان أيضاً الامر الذي كانت له أهميته في التحضير لقيام الامبراطورية المقدونية . وهو يرى أن الأساس الاجتماعي للسلطة الملكية الهلنستية جاء نتيجة لسعي الفئات الغنية في المجتمع الى اقامة سلطة قوية تستطيع احلال الأمن وضمان قدسية الملكية الخاصة وهو يرى أيضاً أنه في أساس الدولة الهلنستية كان يدخل الاحتلال المقدوني كواقع ومبدأ السلطة فردية لشخصية ذات قوة طاغية . ومع اعترافنا بصحة هذه المقدمات فإننا نعتقد بأن كيرست وقع فريسة للنظرة الأحادية حيال طابع تركيب الدولة الهلنستية . وهو على حق عندما أعلن ان «الشعب كجاعة مدنية كاملة الحقوق في البوليس الهلنستي لم يكن له وجود في المملكة الهلنستية الشعب - يتابع المؤلف - لم يكن أكثر من مجال للسلطة ولم يكن فاعلاً لاية حقوق اجتماعية ، لم يكن

لم يلاق الاسكندر أية مقاومة تذكر عندما اجتاحت سورية وكان باستطاعته الا يقوم بأية تغييرات جوهرية محافظاً بذلك على الأوضاع القائمة كما وجدها . وحتى في تلك الحالات القليلة عندما كان يجري التغيير فانه لم يتناول سوى الملك . هذه السياسة شرحها بومبي تورغ بشكل واضح غير قابل للتأويل وذلك في مؤلفه التاريخي الذي وصل اليينا في ملحق يوستين (9,6,10,2) . يقول يوستين انه عندما دخل الاسكندر البلاد السورية وجد أمامه عدداً كبيراً من «الملوك الشرقيين» فعزل بعضهم ووضع آخرين مكانهم وعقد معاهدات مع البقية ولكن هذا لم يغير شيئاً من جوهر الأمر . ويشير يوستين بشكل خاص الى عبد الأمين وهو الذي عينه الاسكندر ملكاً على صور . ومن بين الاصدقاء الجدد للاسكندر يذكر المؤلف ستراتونوس بن غيروسترانوس ملك ارواد (c.ruf.4,1,5) . ومما يلفت النظر أن الاسكندر عندما أخضع صور بعد حصار طويل وشاق حافظ تمام المحافظة على العائلة المالكة وأبقى السلطة في يديها (Ist.18,3,19)

بعد موت الاسكندر أصبحت العلاقة بين الملك والمدينة معقدة ومن الصعب تماماً

حاملًا مستقلاً لهم الدولة . ثم يتابع : «ان دولة العصر الهلنستي - هي دولة الموظفين» . ومما يلفت النظر ان المؤلف وصل في نهاية الامر الى مناقضة نفسه عندما كتب على الصفحة ٣٥٤ من مؤلفه المذكور عن العلاقة القائمة بين الحاكم الهلنستي والبوليس الخاضع لسيطرته بأنها اتحاد تمارس فيه السلطة الامبراطورية سيطرتها على البوليس (المدينة الدولة - المترجم) . فاذا كان الشعب كفاعل للسلطة لا وجود له ، حسب رأي كيرست ، فمع من اذا اقام الملوك الهلنستيون علاقاتهم الاتحادية هذه التي تتطلب وجود طرفين على الاقل ؟ ويحظى بانتشار واسع الآن الرأي القائل بأن الدولة الهلنستية كانت شكلاً من أشكال المنظمات الفدرالية . أما ب . زانكان فيعتقد ان الدولة السلوقية كانت تنصف بأنها شكلت مرحلة انتقالية من اتحاد دول ذات سيادة ، كما كانت عليه دولة الاسكندر المقدوني مثلاً الى الدولة الفدرالية حيث سيادة الدولة المستقلة ، التي تدخل في نطاقها ، محدودة ويقول أ . هيس بأن المدن من الناحية القانونية كانت خارج حدود السلطة الملكية الأمر الذي أدى الى حدوث تناقض بين حالها القانونية والواقع الفعلي للأشياء وحسب رأيه لم تكن هناك أية قاعدة قانونية خاصة تنظم العلاقة القائمة بين المدينة والملك . أماروستوفتسيف فيقول بأن المدن كانت تعتبر نفسها حرة وذات سيادة بينما كان الملوك السلوقيون يعتبرونها تابعة لهم كل التبعية (M.Rostovtzeff, The social and Economic History) . وأخيراً نستمتع الى قول ف . ارينبورغ الذي يقول بأن النظام السياسي الهلنستي الملكي كان عبارة عن مزيج من تبعية البوليسات الفعلية لسلطة الملك وبعض لمسات استقلالية هذه البوليسات ولقد وجدت نظرية الفدرالية هذه اكتمالها المنطقي لدى ف . غينشر الذي يعتبر أن المجتمع الهلنستي يتصف بنموذجين متناقضين لسلطة الدولة - النموذج العشائري حيث تعود السلطة الى الجماعة المدنية ، والنموذج الثاني سلطة الملك حيث تتجمع كل السلطة في شخص واحد . وهذا النموذج الأخير لا يعبر بأي شكل من الأشكال عن ارادة «دولة» يمكن وصفها عبر العلاقة مع اي بلد أو أي شعب . ويكشف المؤلف عن مقدمات ظهور مثل هذه العلاقات التي كانت موجودة في اليونان منذ القرن الخامس وحتى الثلاثين الأولين من القرن الرابع ق . م .

تحديد أي مبدأ يحدد طابع وحجم سيادة الملك عليها . وتجدر الإشارة هنا الى النقش الذي تركه لنا بطليموس الثالث يفيرغيت من ادوليس (54,OGIS) (النصف الثاني من القرن الثالث ق. م .) حيث يقول أنه عندما دخل سورية أخضع رؤساء الاقسام الجمركية لسلطته . ومن الطريف هنا أن الكلام يجري عن رؤساء أقسام محددة في الدولة السلوقية . ولكن هذا لم يكن لينسحب على سورية الهلنستية كلها . وهذا ما تؤكد الوثائق التي وصلت الينا من ممتلكات البطالمة خارج مصر فالنقش (506,12,1G) القرن الثالث ق. م) يقول أن صيدا دخلت في النيسوتيين بينما كان فيلوك ملكها واحداً من المبادرين والمشاركين في اتخاذ قرار لتكريم بطليموس الثاني فيلاديلف . ولكن الأهم في هذا النقش هو تقييم سياسة بطليموس الأول سوتير : «حرر» المدينة و«اعاد» اليها القوانين وخفف من وطأة الإتاوات . ويتبع الملك المكرم نفس السياسة . وسوف نرى أن سياسة روما في المناطق التي أخضعتها سوف تحظى بنفس الوصف . والكلام يجري هنا عن إعادة سيادة البطالمة على التركيبات السياسية الخاضعة لهم وقد وجدت سياستهم الخارجية تعبيراً لها في انشاء هذه التركيبات نفسها .

لقد كانت المحاولة الوحيدة ، في حدود اطلاعنا ، لتحديد الحال السياسية للبوليسات الداخلة في الدولة السلوقية هي تلك التي وصلت الينا في النقش OGIS,221 عن هبة اريستوديكيнос أرضاً بالقرب من ايلون (زمن انطوخ الاول سوتير) . ومع أن الاحداث الوارد ذكرها هنا تجري في آسيا الصغرى إلا أن الأسس التي وردت في توجيه أنطوخ الأول كانت تطبق في كل الاراضي التابعة للمملكة السلوقية بما فيها سورية . وفي التوجيه الثاني الذي أرسله الى ممثله غيلوسبونط ميلياغري عطي انطوخ الأول اريستوديكيнос حق ضم هذه الأرض **summakhiar pros un bouletai polin tonen tei khorai tekai summakhiar** يخيّل للوهلة الأولى أن هذه الوثيقة تضع فئتين من البوليسات على طرفي نقيض ولكن التوجيه الثالث لانطوخ الأول يبدد هذا الاشكال تماماً : **prosen an Bouletaipolintonenitei emeterai summakiai kaza tompoleon tonen tei emeterai ssm per khaiantei proteron summakhiar kazaperkai** ونجد في نفس الصيغة في نفس التوجيه .

وهكذا نرى أنه يتضح من هذا المصدر أن العبارات المتعلقة بالبوليسات : **enten tei konrai tekhai summakhiar en tei emteraisummakhiar** لها مضمون

واحد . فمن الناحية القانونية يتحدد وضع المدن باقتران Summakhiai en tei الكلمات en tei khorai فتحدد من دائرة المدن التي يجزي الكلام عنها في النقش . ومن الواضح أن المدن المقصودة هنا هي تلك «المتحالفة» مع انطوخ أو التي تدخل في حدود ملكيته أو تلك التي تقع في منطقة الأراضي المخصصة للهبات . وقد يبدو من هذه الوثائق أن علاقات «التحالف» مع المدن كانت الواقع السياسي الوحيد الممكن بالنسبة للملوك السلوقيين . ولكن دعونا ندرس هذه المسألة بتفصيل أكثر . اذ يتضح من كثرة الوثائق التي وصلتنا من ديوان الملوك السلوقيين أن حال المدن تتحدد مباشرة من قبل الملك إما بأمر صادر الى موظفيه المختصين 144-138, 12, 138 FL.ios.Aht. إذا كان الأمر يتعلق بأراض محتلة وأما بعد الاتفاق مع ممثلي المدينة على التحالف مع الملك (Polyb.5.68,7) أو بعقد قائم على أساس ضمانات دولية (OGIS,2,57) . وفي الحالتين الأخيرتين تكون المدينة عبارة عن وحدة سياسية لها علاقات معينة مع الملك وليست جزءاً لا يتجزأ من الدولة . ولولم يكن واقع الحال هكذا لما كانت هناك أية ضرورة لأية محادثة حول إقامة تحالف أو لضمانة دولية لسيادة المدينة . ولا شك أنه من الممكن اعتبار وجود مثل هذه الحالات تعبيراً عن ضعف دولة السلوقيين . ولكن وجودها لم يكن ممكناً فيما لو أن الحال القانونية للمدن لم تتضمن مقدمات ظهورها .

إلا أن قرار الاجتماع الشعبي لمدينة سلوقية بيرية بإعطاء حق المواطنة لاريستولوخ يناقض ما قيل منذ برهة . فقد اتخذ هذا القرار بناء على توجيه من الملك وقد أرفق هذا التوجيه بالقرار الذي اتخذته سلطات المدينة ولكنه لم يصل إلينا كاملاً . ويدعى توجيه الملك هذا الى سلطات المدينة Prostoma أي «أمر» . وقد نجح للوهلة الأولى أن استعمال مثل هذه التعابير يفترض أن تكون للملك سلطة مطلقة على المدينة . وهذا الجانب يعتبر جوهرياً للغاية - فالملك لا يستطيع أن يتصرف مباشرة بالقطاعات التي تدخل في صلاحيات المدينة ، أن يهدي اريستولوخ حق المواطنة بمرسوم منه مثلاً . إلا أنه يستطيع أن يقترح على سلطات المدينة اتخاذ هذا القرار أو ذاك ولكن حق القرار يعود لهذه السلطات فقط . وعلى الأرجح ان كل هذه المقدمات لم تتعد الشكليات إلا أن استمرارية هذه الشكليات لها دلالة خاصة . ففي ظروف خاصة وفي حال ضعف سلطة الملك كانت هذه الشكليات تكتسب محتوى حقيقياً . وأخيراً هناك أمر آخر له أهمية جوهريّة الا وهو البعثة التي أرسلتها مدينة سلوقية بيرية الى الملك والتي قدم لها اريستولوخ خدمات هامة في القصر الملكي . فالعلاقات بين الملك والمدينة كانت مبنية كما يبدو على غط أية علاقات دبلوماسية أخرى قائمة بين طرفين مستقلين شكلياً .

يفيدنا النقش OGIS,229 ان المدن التي كانت خاضعة للملك تستطيع أن تعقد فيها بينها تحالفات . كما ويؤكد مثال صور أن المدن الخاضعة لسلطة الملك كانت تستطيع اقامة علاقات دبلوماسية مع مدن أخرى غير خاضعة لنفس الملك ودون الرجوع إليه (SEG,2,330,4601) .

وهكذا نرى أنه بمعزل عن أن الملك هو الذي كان يحدد الحال السياسية للمدينة فقد كانت هذه تسلك سلوك وحدات سياسية ذات سيادة . بل وأكثر من هذا نرى أن جوهر العلاقة القائمة بين الملك والمدينة كان يرمز اليه بكلمة *eunoia* - «كلمة الخير» أما علاقة المدينة تجاه الملك فكانت أكثر خصوصية - «الاخلاص» OGIS,12,223,2290 وبهذه الكلمة كان يرمز للعلاقة القائمة بين مدينتين مستقلتين عن بعضهما البعض (SEG,4,601 ، القرن الثاني ق . م .) ولعلاقة نائب الملك نحو المدينة (OGIS,55,58,213,243) وكذلك لعلاقة فرد ما تجاه الملك (OGIS,51,113,220,247) وإلى علاقات الأفراد مع بعضهم (OGIS,256,IGRR,3,1102,1017) . أي أن تعبير *eunoia* لم تكن له أية صفة قانونية وبالتالي لم يكن يحدد حال المدينة . وفي نفس الوقت كان يجري اسخدام هذا المصطلح عندما لم يكن الأمر يتطلب تحديد المكانة التي تشغلها المدينة في وحدة سياسية ما ولكن عند تحديد موقفها حيال سياسة الملك أو تجاه سيادة هذه الشخصية أو تلك . وعليه تبرز أمامنا معضلتان : تحديداً ، كيفية تجلي سلطة الملك على المدينة وماهية الطبيعة الاجتماعية لتلك المؤسسات التي تجلت عبرها ، ظاهرياً ؟

يتردد معنا في النقوش التي وصلت إلينا من مختلف مناطق سورية السلوقية مرتين تعبير ممثل الملك في المدينة المعنية . ففي الأمر الذي مر معنا ذكره سابقاً حول منح حق المواطنة في مدينة سلوقية بيرية إلى أريستولوخ (JMI,3,1183) وردت صيغة تدل على أن الاقتراح قدم من قبل ممثل الملك ومن أعضاء المجلس . وهناك وثيقة أخرى تبحث موضوعاً آخر وقد وصلت إلينا من اللاذقية (JMI,4,1261) ووردت في مقدمتها نفس الصيغة تقريباً *Askb epiadou epistatou kai arkhontonuome* . ونحن على يقين بأن هذه المواد لا تسمح لنا أن نذهب بعيداً في استنتاجاتنا . ولكن مما لا شك فيه أن ممثل الملك كان يستطيع أن يتقدم بالاشتراك مع أعضاء المجلس باقتراحات إلى المجلس وإلى الاجتماع الشعبي . ولكن من المستبعد أن يكون ممثل الملك هذا يعمل بصفته مستشاراً أو زعيماً لجماعة من كبار الموظفين . ولا يستبعد احتمال آخر : وهو أن يكون الاقتراح المقدم قد تم الاتفاق عليه مسبقاً

بين ممثل الملك ومجموعة من أعضاء المجلس وذلك عندما رأى ممثل الملك أن تدخله ضروري . فقد كان تحرك هؤلاء الممثلين غير منتظم حيث كانوا يتدخلون عندما يكون الأمر مهماً وضرورياً فقط . بمعنى آخر لم تكن مشاركة ممثلي الملك في اتخاذ قرارات سلطات المدينة ضرورية ولكن لم يكن بالامكان إهمال رأيه عند حل هذه المشكلة أو تلك من مشاكل المدينة . وفي نفس الوقت لم يكن باستطاعة هؤلاء الممثلين تجاوز سلطات المدينة عند اتخاذ أية قرارات تهم المدينة .

ومما له دلالة خاصة أن اقتراحات الملك إلى المدينة كانت تصاغ على شكل تمنيات ولم تكن فيها أية كلمات تعبر عن صيغة الأمر . فتعبير *Prostaema* الذي تكلمنا عنه سابقاً هو رمز للعلاقة اللطيفة والمهذبة القائمة بين المدينة والملك وليس أكثر من ذلك أبداً .

والمظهر الآخر لسلطة الملك على المدينة يتجلى في جمع الضرائب ومختلف أنواع الأتاوات . ومن المعروف أن كتاب أرسطو «الاقتصاد» أعطى شرحاً مفصلاً نسبياً لطابع فرض الضرائب في المملكة السلوقية (2,1,4) حيث يعدد أرسطو الواردات الآتية من جمع الضرائب وذلك عندما يجري الكلام عن *starpikē* . ويعدد الكاتب هنا ست أنواع من هذه الواردات : من الأرض ، من الملكيات الخاصة الواقعة ضمن حدود الوحدة السياسية الإدارية المعنية (١٤) ، من ادخال واخراج السلع ، التعريفات ، ضرائب القطيع «وغيرها» . ويدقق المؤلف بعد ذلك قائلاً بأن أتاوة الأرض هي نفسها الضريبة التي تسمى *lekphorion* أو العشر (المقصود هنا التقييم الكمي للضريبة) وتتم جباية الذهب والنحاس أو انقصه من الملكيات الخاصة وذلك حسب امكانياتها الواقعية أما فيما يتعلق بالمدفوعات فالمقصود هنا ما يجمع من الأرض ومن القطاع التجاري والضريبة المترتبة على القطيع تشكل عشر الولادات . وأخيراً المقصود «بغيرها» - أي الأتاوة المترتبة على كل فرد والضرائب التي يدفعها الحرفيون .

ويشكل الجزء الأول من كتاب ماكافييف كلمة جوهرية لهذه المعطيات حيث يعدد المؤلف أنواع الضرائب التي تجبى من سكان المملكة السلوقية .

ومن المرجح أن يكون الوضع مماثلاً في باقي المناطق السورية التي كانت تخضع لسلطة

١٤ - يعتقد روستوفتسيف أن *Idia* التي يجري الكلام عنها في مصدرنا المذكور ما هي إلا استثمارات زراعية خاصة كانت تدفع الضريبة المترتبة عليها نقداً وفي حالات نادرة كانت تدفعها عينا . وقد تراجع روستوفتسيف فيما بعد عن رأيه هذا حيث اعتبر *Idia* ملكيات تعود للملك شخصياً .

البطالة . ويذكر الرقم المشهور رقم SB,8008 (عام ٢٢٦ - أو ٢٦١ ق . م .) نوعين من الملكية (والكلام هنا عن ملكية القطيع) : الملكية التي تخضع للضرائب والملكية المعفاة منها . ولكن ، حسب الأمر الملكي الذي وصل اليه عدد من مقاطعات كان يتوجب عرض القطيع الخاضع والمعفى من الضرائب على مراقب الشؤون الاقتصادية لتسجيله . أما من يتهرب من تنفيذ هذا الأمر فيفقد قطيعه ويعاقب . وكان القطيع يخضع لمراقبة دورية ويعاد تسجيله بين فترة وأخرى .

وهكذا نرى أنه يمكن تصنيف الضرائب في سورية الهلنستية في الفترة التي سبقت الاستعمار الروماني مباشرة الى : ضرائب عن الأرض ، قسم من البذار ، محصول المنتجات الحقلية وولادات القطيع ، الضرائب المترتبة على ممارسة الحرف ، الضرائب المترتبة على النشاط التجاري ، واستخراج الملح ، الضرائب المترتبة على استخراج الخمر والخبز والضرائب المفروضة على كل فرد . وهي بهذا الشكل تنقسم الى ثلاث فئات : الضرائب المترتبة على مختلف النشاطات الانتاجية ، الضرائب المترتبة على الارباح التجارية والفئة الأخيرة وهي الضرائب التي لا تنتمي لا للفئة الأولى ولا للفئة الثانية . وبالتالي فإن كل هذه الضرائب بما فيها الضرائب المترتبة على استثمار الأرض تعتبر تحقيقاً للسلطة القانونية العامة والتي جاءت نتيجة لعلاقات التحالف أو نتيجة لاستخدام القوة المباشرة .

ومن المعروف أن الضرائب في الدولة السلوقية كانت تجبى بواسطة المتعهدين وهذا ما كان ينطبق على سورية أيضاً (F'L.IOS.,Antt.,12,169) (١٥) . ولكن على ما يبدو أنه كانت هناك طريقة أخرى لجباية الضرائب وذلك عن طريق موظفي الملك أنفسهم وهذا ما يشير اليه مصدرنا (IMakk.,3,29) .

والآن غدا بإمكاننا أن نقول أن وضع المدينة في الدولة السلوقية كان يتحدد بالسمات التالية . نظرياً ، كانت المدن عبارة عن وحدات سياسية ذات سيادة ولكن هذه السيادة كانت منوطة بإرادة الملك الذي كان يمارس سلطته على المدينة وقد تجلّى ذلك في مشاركة موظفي الملك بإدارة شؤون المدينة وجمع الضرائب لصالحه .

ومن الطريف أن بوليبيوس (15,24a) لم يعتبر الخصائص التي اتصف بها العصر الهلنستي والتي أشير إليها في كل المصادر المتوفرة لدينا - لم يعتبرها جوهرية . فقد كتب يقول أن الملوك كانوا يعلنون دائماً في بداية عهدهم أنهم أصدقاء الكل وأن الكل حلفاء لهم ولكن ما

١٥ - م . د . روستوفتسيف ، تاريخ المعاهدات الحكومية في الامبراطورية الرومانية ١٨٩٩ .

ان يرسحوا مواقعهم في السلطة حتى يبدؤوا التصرف لا كحلفاء وإنما كطغاة . وهذه الصفة الأخيرة لا تنسحب على الحال القانونية للمدينة فقط وإنما هي تمثيل حي لواقع المدن وتعريف واقعي صادق لسياسة الملوك الذين كانوا ينكسون بعودهم في أغلب الأحيان .

وهنا نقول أن هذا النظام لم يكن سوى التطوير المنطقي للوضع الذي كان قائماً في الشرق الأوسط قبل العصر الهلنستي والذي يمكن وصفه ، كما نرى بازدواجية السلطة : سيادة المدينة كوحدة سياسية مستقلة شكلياً وسيادة الملك المفروضة بالقوة على المدينة .

أراضي الملك

من المعروف أن أول إشارة لهذه الفئة من الأراضي جاءت في أمر الاسكندر المقدوني بخصوص ليبية (1, OGIS) حيث جرى الكلام عن أن سكانها الذين يعيشون في نافلوخ يحافظون على استقلالهم الذاتي وعلى حريتهم وسوف يملكون الأراضي والبيوت وكل المنطقة التي يسكنون . أما الفئة الأخرى من الأراضي فتعلن أنها أراضي الملك . ويقطنها أناس ملزمون بدفع الضرائب . وهكذا فإن أراضي الملك - هي أراض منفصلة عن أراضي المدينة وتعود ملكيتها إلى الملك وحده وتؤمن له دخلاً يؤديه العاملون فيها على شكل أتاوات (١٦) .

ولكن هذه الفئة من الأراضي كانت تضم على ما يبدو قسماً آخر تعود ملكيته لأفراد . وهذا ما يؤكد العقد الذي وقعه أنطوخ الثاني لبيع أراض في بانوكوما إلى مطلقة لاوديك (OGIS, 225) يقابل (20-18, WC) ويحق لها بموجبه أن تسجل هذه الأرض في المدينة التي تختار . كما وتعطى نفس الضمانات لمن يشتريها منها أو يحصل عليها بطريقة ما أخرى . ولكن فيما إذا قامت لاوديكيا بضم هذه الأراضي إلى هذه المدينة أو تلك قبل أن تبيعها فلا يحق للمشتري بعد ذلك نقلها .

وقد منح أنطوخ الثاني نفس الإمتيازات إلى أريستوديكيسوس عندما أعطاه الأرض (OGIS, 221) يقابل (13-10, WC) ونرى من الأمر الملكي الصادر ببيع الأرض إلى لاوديكيا أنه قد أخذت هنا بعين الاعتبار الحالة التي لا تكون بموجبها الأراضي التي تعود ملكيتها لأفراد تابعة لمدينة ما . ومثل هذه الحالة ممكنة فيما إذا اعتبرنا أن أرض لاوديكيا بعد أن أصبحت ملكاً

١٦ - أن الواردات التي تأتي على شكل أتاوات لا يمكن أن تكون دليلاً على وجود ملكية الملك أو على وجود الملكية العليا الخ . . . كما يرى بعض الباحثين . ذلك أن الأمر هنا لا يعني أكثر من تحقيق سلطة الملك . ويمكن أن نتكلم عن الملك كمالك أعلى فقط . في حال أنه يمارس صلاحيات هذا المالك .

لأفراد بقيت خاضعة لمنطقة نفوذ الملك . وأوضح أيضاً : إنه لا يستطيع الفرد الذي حصل مجدداً على الأرض ، عن طريق شرائها ، أو بأية وسيلة أخرى - أن يغير من وضعها القانوني دون موافقة البائع ولكن من جهة أخرى كان باستطاعة الملك فيما إذا استخدم سلطته أن يسمح بذلك . وفي نفس الوقت لا يتحتم على الشاري أن يقوم بهذا العمل إذا لم يطلب منه الملك ذلك . وليس صدفة إن عقد لاوديكما المذكور لا ينص على وجوب وإنما ينص على حق . فضم هذه الأرض أو تلك إلى أملاك المدينة كان يتطلب (ولو شكلياً) موافقة هذه المدينة على ذلك . وهذا ما تؤكد رسالة ميلياغر الغليسبونطي التي يفتح بها النقش OGIS,221 والموجهة إلى سلطات ايلون . يعرب ممثل الملك عن تمنيه على السلطات أن تتخذ قراراً بتكريم أريستوديكيدوس أن تقدم له عدداً من الإمتيازات بينها السماح له بضم الأراضي التي حصل عليها إلى أملاك ايلون . ويفهم من صياغة هذا الاقتراح أن سلطات المدينة غير ملزمة إطلاقاً بقبول ضم هذه الأراضي إلى أملاكها . كل هذه المعطيات تدل على أن صاحب الأرض الجديد لم يكن ملزماً بتغيير وضعها القانوني .

وهكذا فإن تعليقات OGIS,225,OGIS 221 تتلخص في أن لاوديكما والأفراد الآخرين الذين من المفترض أن تصبح لهم ملكيات في بانوكوم بعدها وكذلك أريستوديكيدوس بعد أن حصلوا على الأرض من الملك كان لهم الحق في أن يغيروا الوضع القانوني لأراضيهم بعد موافقة المدينة المعنية على ذلك .

يتضح لنا الآن إذن أنه كان من الممكن أن تظهر ملكيات فردية خاصة في المنطقة التابعة للملك وذلك إما عن طريق البيع وإما عن طريق الهبات . وفي كلتا الحالتين كان الملك يمارس سيادته على هذه الأرض كسيد أوحدها وهو الذي كان يسمح بتغيير وضعها القانوني (١٧). حتى الآن كنا ندرس المصادر الواردة إلينا من آسيا الصغرى في العهد السلوقي ولكن المواد المتوفرة لدينا عن سورية نفسها تؤكد إنه كان من الممكن أن تحدث هنا أيضاً عمليات كتلك التي حدثت بين أنطوخ الثاني ولاوديكما أو أن تهدى الأرض كما حدث لأريستوديكيدوس ذلك أن تحول الأراضي والقرى إلى ملكيات خاصة لم تكن ظاهرة محصورة في منطقة واحدة . فحسب للنقش المعروف الذي وصل إلينا من قرية بيتوكيكا (OGIS 262 IJRR 3 1020) (Wadd2720a) كانت ملكية هذه القرية ، قبل أن يهبها أحد السلوقيين إلى معبد زفس ،

١٧- نبدأ من عمل روستوفتسيف M.Rostovtzeff, studi الذي يعتبر أن ضم الأراضي التي يهبها الملك لأفراد معينين إلى ملكية إحدى المدن أمر ضروري ولا بد منه . ف. تارن ، الحضارة الهلنستية ، موسكو ١٩٤٩ . أ.ب . رانوفيتش ، العصر الهلنستي . ولكن هذا يناقض تماماً نص النقش الوارد إلينا بخصوص لاوديكما وأريستوديكيدوس

تعود إلى ديميتريوس بن ديميتريوس بن مناسيا^(١٨) ويشير النقش المذكور إلى وجود أراض داخل أراضي الملك تعود ملكيتها للمعبد وهي تلك الأراضي التي وهبها الملك نفسه للمعبد وفي هذه الحال لا فرق أبداً بين المعبد وأي فرد آخر . وتفيد رسالة أنطوخ الأول إن هذا الملك قد أهدى قرية بيتوكيكا وما يتبعها إلى المعبد^(١٩) وما يميز هذه الوثيقة عن وثيقة لاوديكا وإريستوديكيدوس هو أنها لا تشير إلى إهداء الأرض مع العاملين فيها كما جاء في الوثيقتين السابقتين^(٢٠)

فالكلام هنا يجري عن إهداء المعبد موسم العام الجاري فقط . بالإضافة إلى ذلك يشترط أن تخصص الإتاوات المفروضة على السكان لتغطية نفقات تقديم الأضاحي . كما ويشار إلى الواردات الأخرى التي يحق للكهنة التصرف بها لتغطية حاجات المعبد . وهكذا فإنه بالإضافة إلى منح المعبد حق ملكية القرية المعنية (وعلى الأرجح أن المقصود هنا هي الأرض ومختلف أصناف المنشآت التي أصبحت ملكاً للمعبد) أخذ الملك أيضاً على حقه في الحصول على مختلف أنواع الواردات ووهب للمعبد حق جباية الضرائب التي كانت فيما مضى تحبى لصالح خزينة الملك . ولكن حق جباية الضرائب لم يكن يعطى بشكل أتوماتيكي مع إهداء الأرض أو القرية كما هو مفروض . وفي حال كون الأمر عكس ذلك لم تكن هناك أية حاجة للإشارة بشكل خاص إلى إعطاء الحق المذكور . بل وأكثر من ذلك أن حق جباية الضرائب لم يعط إلا لمدة عام واحد فقط .

١٨ - أن تفسير الفعل Ekho على اعتبار أنه يرمز إلى الاحتفاظ المشروط يناقض تماماً المعنى الحقيقي لهذه الكلمة التي تعني استخدام حقوق المالك .

١٩ - لقد فهم روستوفتسيف عبارة Oden kaie dunamis tou zeo katarkntai أن الآلهة عن طريق اظهار قوتها طلبت اعادة ملكية القرية الى المعبد وكانت قد سلبت منه قبل اجداد الواهب نفسه (M.rostovtzeff studien) . ولكن النقش لا يشير لآمن قريب ولا من بعيد إلى أن قرية بيتوكيكا كانت في السابق ملكا للمعبد ومن جهة أخرى لم يكن باستطاعة واضعي النقش المذكور ألا يشيروا إلى انتزاع ملكية طرف من قبل طرف آخر وبصورة غير قانونية . ويؤكد واضح النقش أنه أهدى هذه الأرض لأن قوة الآلهة تجلت هنا بالذات ولكن يبقى الأمر غير واضح لنا تمام الوضوح : كيف تجلّت قوة الآلهة هذه وبأية مظاهر ؟ ولذلك فكل مانستطيع قوله هو أن التجلي المذكور كان مناسباً للملك .

٢٠ - ولندنك نعتبر أن وجهة نظر روستوفتسيف (المصدر المذكور) التي تقول بأن الملك عندما أهدى الأرض للمعبد أصبح هذا الأخير الحق بأن يتصرف بـ Katokhoi الذين يقطنون قرية بيتوكيكا لأساس لها . ويعتقد روستوفتسيف أن سكان هذه القرية كانوا بجملةهم من Katokhoi الذين نشروا كل هذه الوثيقة ولكنه يعترف أنه من غير الواضح لنا ما إذا كان المقصود فقط رجال الدين بالمعنى المحدد لهذه الكلمة أم أن المقصود سكان القرية التابعين . لقد أوضح و . و . كروغير معتمداً في ذلك على مصادر معاصرة من العصر الهلنستي أن Katkhe هم أفراد أهدوا أنفسهم لخدمة المعبد . ويقول و . فيليكين في هذا الإطار أن Katokhe وهم قوم أهدوا أنفسهم لخدمة الآلهة بجملة إرادتهم وذلك بعد أن اختارتهم بنفسها ومنحتهم قوة الأنبياء حقيقة . وفي أية حال نحن نرى في Katokhoi فئة من السكان التابعين للمعبد .

وكما يتضح من القرار الذي اتخذته المدينة (افاميا - إ . ش .) وأرسلته إلى أوغسطس «فإن المعبد قد أصبح تابعاً للمنطقة التي تملكها المدينة اعتباراً من القرن الأول للميلاد . وتجدر الإشارة إلى أن هذا القرار جاء مباشرة بعد الرسالة التي وجهها أنطوخ إلى سلطات المدينة حول هذا الموضوع . وبالتالي إن أراضي المعبد في بيتوكيكا قد دخلت هي الأخرى في نطاق الأراضي التابعة للمدينة . وإذا أردنا أن نعرف أسباب هذه الأحداث فعلينا أن نبحث عنها في عدم الإستقرار السياسي الذي ساد الحقبة الأخيرة من عهد السلوقيين والمرحلة الأولى من العصر الروماني . والوحدة السياسية الوحيدة التي حافظت على قوتها وهيبتها في هذه الفترة هي المدينة ولذلك فقد قرر الاكليروس الإعتماد عليها .

وفي هذا السياق ترتدي أهمية خاصة بالنسبة لنا المصادر التي وصلتنا من كوموجين . فالنقش الذي أورده سابقاً (ص ١٦ - ١٧) والذي وصل إلينا من أرسام في نيمفا يقول أن الملك هو الذي أهدي المعبد أرضاً من أراضي الخاصة لسد حاجات العبادة وتقديم الأضاحي ولكنه احتفظ لنفسه بكل واردات هذه الأرض . وتفيد كلمة Kazosiesia الواردة في النقش بخصوص هذه الأرض إنها أصبحت ملكاً للآلهة أي ملكاً للمعبد . وتفيدنا الصيغة التالية Kai prosodous ektautes akinetou ape-taxa بأن الأتاوات التي تأتي من الأرض التي وهبها الملك للمعبد سوف تصب بكامل حجمها في خزانة المعبد . وقد أشير أيضاً إلى أن الملك أعطى الكهنة حق التصرف بهذه الأرزاق . ومن هنا نستطيع القول إنه عندما كان الملك يهدي هذه الأرض أو تلك لم يهب تبعاً لذلك الواردات الآتية منها .

وفيدنا النقش OGIS,383 بوضع مماثل حيث يخلد الملك الكوموجيني المذكور أنطوخ الأول أحد المعابد المحلية Khorante ikanen Kai prosodous exautes akinetous eis zusion poluteleian apeneima. «قانون» ينظم وضع المعبد ووضع الأرض المهداة إليه وقد صيغ هذا الوضع على الشكل التالي : «يأخذ الإتاوات من القرى التي أهديتها له أنا» . والأمر الجوهري الذي تجدر الإشارة إليه هنا هو تحديد حجم الحقوق التي يتمتع بها المعبد في هذه القرية : حيث أنه لا يحق لأي كان تسجيلها أو إهداؤها أو تغيير وضعها القانوني أو المس بمصالحها بأي طريقة كانت . وتنسحب هذه القيود على الواردات الآتية من الضرائب أيضاً والتي حولها الملك إلى Khtemadaimon onasulon . وقد أدى ذلك إلى الحد من سلطة خلفاء أنطوخ الأول على أراضي المعبد وفي نفس الوقت لم يكن يحق للمعبد أن يضم هذه الأراضي إلى أملاك المدينة .

وإلى جانب وجود الملكية الخاصة في الأراضي التابعة للملك كانت هناك أيضاً ملكيات حصل عليها أصحابها إما لقاء أدائهم الخدمة العسكرية في جيوش الملك وإما لقاء تقديم خدمات أخرى وذلك حسب النظام الذي كانت تعطى الأرض بموجبه طالما أن المهدي يؤدي خدماته فإذا ما انقطع عن تأديتها لسبب ما تسحب منه الأرض . وهذا النظام لم يكن سائداً في البلاد التي كانت تابعة للسلوقيين أو البطلمة فقط وإنما كان سائداً أيضاً في المناطق التي كان يحكمها حكام محليون وعلى وجه الخصوص في منطقة شرقي الأردن التي كانت تحكمها أسرة التوبياديين (I, PSZ, 59003 CPOJ) (٢١). من الناحية النظرية كان الوضع القانوني لهذه الأراضي يتحدد بالعوامل التالية : مالك الأرض هو الملك وحيازتها مشروطة بتأدية خدمات معينة وفي حال انقطاع هذه الأخيرة يسقط تبعاً لذلك حق الحيازة (٢٢). ولكن نقش منسيماخ (٢٣) المعروف والمؤرخ في نهاية القرن الرابع ق . م . يسمح لنا بمعرفة اتجاهات أخرى في هذا النموذج من حيازة الأرض . فالأمر على ما يبدو أكثر تعقيداً . إذ إنه من المعروف أن هذه الوثيقة عبارة عن عقد بيع مع حق الشراء ثانية . فمنسيماخ هذا قام ببيع عدد من أملاكه إلى المعبد بعد أن عجز عن تسديد ديونه لهذا المعبد وكان قدره من هذه الأملاك لدى هذا الأخير . ويحتوي العقد على نص يمنع على منسيماخ وخلفائه أن يطالبوا بهذه الأرض مستقبلاً كما وتحدد الغرامة التي يجب دفعها فيما إذا رفع أحدهم دعوى لاسترجاع الأرض . وتؤخذ بعين الاعتبار كيفية تغطية النفقات التي قد يتكفلها المعبد فيما إذا قام الملك باسترجاع الأرض منه « بسبب منسيماخ » .

وأثناء إعداد الوثائق والإجراءات المرتبطة بهذه العملية جرى ذكر القرى والكهنة واستثمارات الـ Laoi وكذلك العبيد والبساتين وأراضي منسيماخ نفسه . ولكن بسبب غياب مقدمة النقش لا نستطيع معرفة أي شيء عن تاريخ هذه الأملاك قبل وصولها إلى منسيماخ .

نتقل الآن لدراسة أوضاع القرى التالية : تابالمور الواقعة في سهل السرد قرب تللال ايللا وتاندوق القريبة منها وكذلك كومبديليريا (لقد كانت هذه القرى تدفع الإتاوات المترتبة

٢١ - في تعليقه على هذا الرقم يقول أ. تشيركوفير إن هذا النظام طبقه البطلمة في منطقة شرقي الأردن وكانوا قد جلبوه معهم من مصر . ولكننا نعتقد إن الحاكم المحلي كان يستطيع استخدام التقاليد المحلية في هذا المجال كما ووجد . م . دياكونوف نفس الظاهرة في الدولة الآشورية الجديدة .

٢٢ - على أية حال كان هذا هو الوضع في أملاك البطلمة . انظر R.taubech lag, the law of gree Romanegypt in the light of the papyri, warszwa, 1955.

23 — W.h.bukler, dm. Robison, greek inscriptions, from sardes i, — Aja vol, 16, 1912

عليها إلى المعبد وكانت تشكل من ٥ - ١٠ ستاترات ذهبية في العام) وكانت قرية بيريا سوسترا الواقعة في منطقة «مياه مورست» (تدفع الإتاوات المترتبة عليها إلى معبد ساغوريا وكانت هذه الإتاوات تشكل ٥ - ٧ ستاترات ذهبية في العام) ، قرية إيليوكوم في منطقة أتودا (وكانت تدفع سنوياً ثلاث أبولات ذهبية وثلاث ستاترات ذهبية) . ويتضح مما سبق إنه فيما لو لم يشترط في العقد انتقال حق جباية الضرائب إلى المالك الجديد لاستمرت هذه الأرزاق تصب ، كما في السابق في خزنة الملك . وهكذا تسقط المقولة التي مفادها أن حق جباية الضرائب كان ينتقل أوتوماتيكياً إلى المالك الجديد بعد إهدائه الأرض أو حصوله عليها كهبة .

الفئة الثانية من أراضي منسياخ هي الكليرات (*) من بينها كلير في كينار غير بعيد عن تابالمور (عائداته السنوية ثلاث ستاترات ذهبية) وكلير آخر في منطقة مورست المائية في ناغريو (عائداته السنوية ثلاث ستاترات ذهبية وأربع أبولات ذهبية تعطى لمعبد ساغوريا كسوريدا) . من حيث التوضيح الجغرافي يجب أن تشكل القرى والكليرات امتداداً واحداً . وكما أن القرى كانت تدفع ضريبة نقدية كذلك كانت الكليرات وكان حجم هذه الضرائب يتحدد على أساس مساحة الأرض وبالتالي دخلها . بالإضافة إلى ذلك كانت الكليرات ، وكذلك القرى موضوع بيع وشراء . بمعنى آخر كانت الحال القانونية للفئتين واحدة : فكلتاها ملكية خاصة للمالكهما . وما يلفت النظر في هذا المجال أن المصادر المتوفرة لدينا لا تعطي أية معلومات عن نظام فرض الإتاوات في الكليرات التي كانت موضوع البيع والشراء . ومثل هذا الصمت يمكن تفسيره إما لأن هذا النظام كان معروفاً ولا حاجة لتسجيله وإما أن الضرائب كانت تلغي الإتاوات . ونحن نعتقد أن الاقتراح الأول ضعيف ذلك أن الدفعات النقدية ونظام تسديدها مثبت في النقش . أما إذا كان الاقتراح الثاني ممكناً فعندها تزول كل الفروقات بين القرى والكليرات .

ولتأكيد ذلك يفيدنا وضع آخر : فقد خضعت ملكية منسياخ كلها إلى التقسيم بما في ذلك الكليرات والLaoi وحصل نتيجة لذلك كل من بيغي وأدراست ، ولانعرف أي شيء عن هذين الشخصين على ممتلكات في قريتي تابالمور وبيريا سوسترا تضم بيوتا وعبيداً وبساتين وLaoi .

ومهما كان الأمر فإن الكليرات في الدولة السلوقية قد أصبحت مع نهاية القرن الرابع الميلادي موضوع عمليات بيع وشراء كما وخضعت «للإهداء والهبات» وغير ذلك من عناصر الملكية الخاصة . وهكذا يتضح من النقش أنه كان هناك اتجاه لتحويل الكليرات إلى ملكية خاصة .

(*) الكليرات - قرى زراعية ذات طابع عسكري وكانت تقام على أراضي الدول الخليفة أو الخاضعة لروما بهدف تحقيق المراقبة السياسية والعسكرية وكذلك بهدف منح الأرض للمواطنين الذين لا يملكونها - المترجم .

قد يتبادر للذهن أن هناك تناقضاً بين ما قيل منذ برهة وبين ما قيل سابقاً عن إمكانية أن يسحب الملك «بسبب منسياخ» القرى والكليرات التي حصل عليها المعبد من هذا الأخير (٢٤). وفي هذه الحالة كان على منسياخ أو ورثته أن يدفعوا إلى المعبد كامل الدين المستحق له عليهم . وقد فسر بعض الباحثين ذلك بأن الملك نفسه كان المالك الأعلى لهذه الأرض (٢٥). ويقول ت . زافادسكي : مع أنه كان باستطاعة الملك أن يأخذ هذه الأرض ساعة يشاء إلا أنها مع ذلك كانت خاضعة لاستثمار الورثة الذين عبروا عن اعترافهم بحق الملكية العليا للملك وذلك بدفع الضرائب له .

ونحن نعتقد أن هذا البند ينقسم الى العناصر التالية : أولاً - الصيغة *diamn lesimakhon* التي تؤكد ان الملك يستطيع أخذ الأرض من المعبد لسبب ما يتعلق بمنسياخ . ولكن هذا يعني أنه عندما باع منسياخ الأرض الى المعبد ، انما باعها بشروط *prasisepi lusei* ولم يفقد الحقوق والواجبات المترتبة عليه كمالك لها . وقد يبدو مثل هذا الاستنتاج غريباً ذلك أن عملية *prisepi lusei* (أو كما يقترح ف : برينغسكهيم تسميتها *one epi lusei*) وهي من حيث الجوهر شكل من أشكال الرهن - وصل الى حد أن البائع لم يشتري إلا موضوع العملية المذكورة - الأرض . والسؤال الآخر الذي يطرح نفسه لماذا كان باستطاعة الملك أن يأخذ من المعبد الأرض التي كانت ملكاً لمنسياخ ؟

نحن نرى أن الإجابة على هذه الاسئلة تكمن في حل المسألة الأكثر عمومية - وهي بنية الأرض التابعة للملك وحالها القانونية .

نستنتج من المواد والمصادر التي تعرضنا لها سابقاً أن الأراضي التابعة للملك كانت تضم ثلاث فئات : (١) ملكية الملك نفسه ، (٢) الملكية الخاصة للأفراد ، (٣) حيازات مشروطة . ولكن الملكية الخاصة داخل أراضي الملك كانت محصورة في الأطر التالية : أولاً - إنها ظهرت بإرادة الملك نفسه وثانياً يمكن الغاؤها في أي وقت يريد . ومن هنا يجيل الينا اللوهلة الاولى أننا أمام وضع متناقض ، فالملك يستطيع أن يتصرف بأراض كانت في السابق ملك لأشخاص آخرين . بمعنى آخر لم يكن الملك سيداً وحسب وانما مارس فعلاً صلاحياته على الممتلكات المعنية حيث كان يتصرف بالأرض كما يشاء . وعلينا بالتالي أن نعرف بواقعية وجهة نظر روستوفتسيف .

٢٤ - يقول ت . زافادسكي أن هذه الصيغة يمكن أن تعني «بواسطة منسياخ» أو «بسبب منسياخ» . وهو يميل نحو الاعتقاد الثاني .

٢٥ - أ . ب . رانوفيتش ، العصر الهلنستي .

يعتبر المؤلف أن الملكية الخاصة ، بكل ماتعنيه هذه الكلمة غير ممكنة في أراضي الملك فالوضع الناشئ هنا هو ملكية خاصة مجزأة : الملك الاعلى هو الملك والمالك التابع - فرد ما . وعلى هذا الأساس أخذت بعين الاعتبار في نقش منسياخ امكانية الملك استرجاع الارض التي باعها منسياخ الى المعبد وكذلك نقل الاراضي التي كانت سابقاً ملكاً لديمتريوس بن ديمتريوس بن مناسيا الملكية شخص آخر . ويعتبر السماح للاوديكا واريستوديكيديوس بتغيير الوضع القانوني لارضهم تخلياً من الملك عن حقه لا كسيد وحسب وانما ، وكما أشار روستوفتسيف كمالك لهذه الأراضي .

والآن اعتقد أننا نستطيع أن نعرف الاتاوات التي كانت تجبى من أملاك الملك بأنها لم تكن سوى ضريبة - ريع^(٢٦) فعندما كان الملك يسمح بظهور استثمارات خاصة على أراضيهم كان يحتفظ لنفسه بحق جباية الضرائب + الريع وهذا الاخير كان يمكن للملك أن يمنحه (مؤقتاً أو بصورة دائمة) الى الفرد المالك . ويمكن أن يكون الريع مقسماً ، وفي هذه الحالة كان يجبى لصالح الملك كضريبة ولصالح الفرد المالك كاتاوات عينية أو نقدية .

وننتقل الآن لمعالجة أهم مشكلة من مشاكل التاريخ الاجتماعي - الاقتصادي للمجتمع السوري على أعتاب الاستعمار الروماني وهي المسألة المتعلقة بوضع تلك الفئة من السكان التي يرمز اليها في المصادر التي بين أيدينا بمصطلح Laoi^(٢٧) فهذه المعضلة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمعضلة المتعلقة بالبنية السكانية لمنطقة املاك الملك .

٢٦- لقد كتب ماركس يقول : «إذا كانت الدولة هي التي تقف مباشرة ضد المنتج وليس الأشخاص ذوو الملكية الخاصة كمالك للأرض وفي نفس الوقت كسيده ، عندها يتطابق الريع مع الضريبة أو على الأصح لا يكون عندئذ أي وجود للضريبة التي يمكن أن تتميز عن هذا الشكل من أشكال ريع الأرض» (ك . ماركس ، ف . انجلز ، المؤلفات الكاملة ، الطبعة الثانية ، مجلد ٢٥ ، الجزء الثاني ، ص ٣٥٤) .

٢٧- لقد كان لفرضية روستوفتسيف التأثير الأقوى في حل هذه المسألة حيث يعتبر المؤلف هؤلاء الـ Laoi كالأقنان (Adcripti glebae) الذين سيصبحون ملتصقين بالأرض ويقرهم مع أنهم يتمتعون بحرية الانتقال وحرية تشكيل منظمة ما تشبه الإتحاد (Rostovtzeff, the social and economic) . ويعتقد رانوفيتش إن وجود هذا الشكل الاتحادي هو دليل على أن هؤلاء الـ Laoi لم يكونوا لاعبيداً ولا حتى أقتنائاً ، وهو يعتقد إن «بيع» الفلاحين الى لاوديكا في الوثيقة المعروفة لايعني أكثر من إعطائها حق جمع الواردات التي كانت تذهب سابقاً الى خزنة الملك . (رانوفيتش ، العصر الهلنستي) . وعلى النقيض من رانوفيتش يقف ا . غ . باكشانين الذي يعتبر الـ Laoi ملكية خاصة للملك . أما ك . ك . زيلين فيعتبرهم محاصصين أنصاف عبيد . وتعتقد ي . س . سيفيتسيسكايا إنه كانت تستخدم ضد الفلاحين أشكال الإلزام غير الإقتصادي ومثل هذه الأشكال كانت ممكنة في ظل المجتمع العبودي فقط ويعتبر كل من ا . ي . تيومنيف وف . ف . ستروفه إن الـ Laoi هم فئة من السكان وضعت مقابل المستوطنين والمستغلين اليونانيين . ولكن تجب الإشارة إلى أن الباحثان لم يخصصا أي بحث خاص لهذه المسألة . ويرى تيومنيف («الشرق الأدنى والمجتمع القديم» - قضايا التاريخ» ١٩٥٧ العدد ٩) إن الـ Laoi هم «سكان محليون» يشكلون «القوة العاملة الرئيسية في الزراعة في القسم الآسيوي من

ويعتبر الأمر الذي أصدره بطليموس الثاني من أهم وثائق العصر الهلنستي المعروفة لنا حتى الآن والتي تأتي على ذكر هؤلاء الـ Laoi فقد حاول هذا الملك الحد من عملية استعباد الأحرار في المنطقة السورية التابعة له (SB,8008 يقابل ، BER,24552). تأخذ مقدمة هذه الوثيقة بعين الاعتبار الوسائل التالية لتحويل الأحرار إلى عبيد : الشراء ، الخطف ، السوق وغير ذلك من الوسائل الأخرى - التي تعتبر مبهمة ولا يضبطها أي ضابط - . يأمر الملك بتسجيل كافة الـ Laoi الذين يتم شراؤهم لدى ناظر الشؤون الاقتصادية في المنطقة المعنية ومن يتهرب من التسجيل يعاقب ويدفع غرامة . كما ويأمر الملك اعتباراً من اللحظة بمنع بيع وشراء الـ Laoi الأحرار أما الذين تم شراؤهم فيطلق سراحهم ويصبحون أحراراً . ونحن نعتقد أن ناشري هذه الوثيقة وشارحيها على حق عندما يعتبرون أن كلمة soma لا تعني بالتأكيد - من الناحية - عبداً كما هي الحال في حالات أخرى . وعلى الأرجح أن معناها في هذه الوثيقة لا يختلف عن معنى الكلمة الروسية « شخص » « فرد » . ويدعم هذا التفسير ما جاء في النقش IG,13,386 الذي وصل إلينا من أغيالا (القرن الثالث ق . م .) حيث يجري الكلام عن غارة ليلية قام بها القراصنة على المدينة « وخطفوا الصبايا والنساء وأفراداً آخرين وأحراراً وعبيداً ما مجموعه ثلاثين شخصاً » ثم « تحرير الأفراد الأحرار وبعض المحررين والعبيد » .

أما فيما يخص التعبير soma laikon eleuzeron فيعني الأحرار الذين ينتسبون إلى الفئات الاجتماعية الدنيا من السكان الأصليين في سوريا . وهناك اقتراح آخر باعتبار اقتران -euzera-somata laikxael يعني الأحرار الذين أصبحوا عبيداً (٢٨) .

امبراطورية السلوقيين . أما ف . ف . ستروخه فقد ركز اهتمامه الرئيسي على Laoi مصر - ولكن هذه المسألة خارج نطاق عملنا هذا . فيعتبر المؤلف أن هؤلاء Laoi كانوا يشكلون القسم الرئيسي من سكان القرى المصرية ، وهم غير متجانسين فبعضهم كان يملك وبعضهم لا يملك .

Laoi حسب ستروخه هم فئة تتمتع بحريتها الشخصية . ولكن لاتيومنيف ولاستروفة لم يبحثا بشكل مفصل الوضع الحقوقي والإقتصادي لهذه الفئة . ونشير هنا إلى أنه لا تتوفر أية مصادر تسمح لنا بتحديد المكانة التي شغلها هؤلاء Laoi في عملية الإنتاج الزراعي . وأخيراً يرى م . م . دياكونوف إن الـ Laoi هم طبقة مستغلة (بفتح العين) تتعرض للإضطهاد الغير إقتصادي والمباشر ولكنهم لم يكونوا ملكية خاصة للطبقة المسيطرة . ونحن نرى أن هذا التعريف الأخير للـ Laoi يهمل التمييز القائم بين مختلف شرائحهم فهؤلاء لم يكونوا دائماً من الفئات المستغلة (بفتح الغين)

٢٨ - وتعتقد بافلوفسكايا أن اقتران مصطلح Soma بالتعريف Eleuzeron يترك انطباعاً عن تداخل نقطي بداية - العبودية والحرية . «ومن المرجح إننا لآستطيع أن نتكلم عن Somta eluzera وعن Somata oiktikha إلا إذا كان الكلام يخص الـ LAOI ذلك أنه هنا فقط تنمحي الحدود بين العبودية والحرية فالإنتقال من هذا الوضع إلى ذاك كان يحدث بصورة مستمرة » (ت . بولنا فسكايا ، س . غالوبتسوكا ، ا . ي . بافلوفسكايا العبودية .

ونحن نعتقد أنه أقرب إلى الحقيقة أن نعتبر الفئة الوارد ذكرها في هذه الوثيقة ، من السكان الأحرار الذين ينتسبون إلى فئة الـ Laoi أكثر مما هم من السكان الأصليين الأحرار . وهذا ما تدل عليه صراحة الصفة Laikon . وكان من الممكن أيضاً أن ينتسب إلى هذه الفئة أناس غير أحرار كانوا موضوع مختلف عمليات البيع والشراء . وتذكر الوثيقة التي نحن بصددھا الـ SomatLaikaoika الذين كان من المسموح به قانونياً بيعهم وشراؤهم . أما إذا أثبت التقصي أن الشخص المباع كان قبل بيعه عبداً فعندئذ يجب أن يبقى لدى مالكة .

وهكذا نستطيع القول أن الانتساب إلى فئة الـ Laoi لا يعني فقدان الحرية الشخصية أو الحفاظ عليها . ونشير أيضاً إلى أن الوثيقة المذكورة تأتي على ذكر الوافدين والمحاربين الذين يعيشون في سوريا وفينيقياً والمتزوجين من نساء الـ Laoi حيث يعفون من تسجيل نسائهم كـ Somata Laika oLeuzera .

نستطيع القول الآن أن الأمر الصادر عن بطليموس الثاني فيلاديلف يبين أن الـ laoi كانوا فئتين : أحرار وعبيد ونحن نعتقد أن لهذا الوضع أهمية استثنائية عند تحديد الحال القانونية للـ Laoi الذين جرى بيعهم وهذا ما يصادفنا في عدة وثائق .

ونشير أول ما نشير إلى وثائق ديوان مملكة السلوقيين حيث تؤكد الوثائق المذكورة أن بيع الـ Laoi كان مشروطاً دائماً . فالنقش الذي يحتوي وثائق بيع لاوديكا قرية بانوكومي (OGIS,225,Wc,18—20) يشير إلى أن الشارية إلى جانب امتلاكها مختلف Topoi التي كان يمكن وجودها في بانوكومي تحصل على الـ Laoi العائدين لها مع كل ما يملكون . كما ويعطى لها أيضاً أولئك الـ Laoi الذين نشأوا في topoi وانتقلوا إلى أماكن أخرى . وهكذا نرى أنه بموجب عمليات البيع والشراء هذه حصلت لاوديكا على حق ملكية القرى والـ topoi والـ Laoi الذين جرى اعتبارهم أيضاً موضوعاً لهذه العملية التجارية . وإذا أخذنا وثيقة مماثلة من ديوان البطالمة نرى أن هؤلاء الـ Laoi كانوا حسب رأينا عبيداً للملك ولذلك فقط كان يمكن بيعهم أو إهداؤهم .

إن ما يميز وضع هذه الفئة هو أنها كانت مرتبطة إدارياً بـ topoi معينة وعبرها بـ Kome التي كانت تعتبر على ما يبدو المركز الإداري لـ topoi ومن الواضح أن هذه العلاقة لم تنقطع حتى عندما ينتقل الـ Laoi إلى مكان آخر . أي أنها لم تكن عائقاً أمام انتقال هؤلاء الناس : فاستخدام الفعل metokhomai في الوثيقة لا يعني من حيث محتواه أن انتقال الـ Laoi إلى مكان آخر هو فعل مخالف للقانون وإنما كان يجب اعلام السلطات الملكية عن هذا الانتقال

ذلك أن الامر يخص أشخاصاً تابعين مباشرة للملك . ولو كان انتقال Laoi مخالفاً للأنظمة لما كانت هناك حاجة لتأكيد هذه الإمكانية . بل كانت قد اتخذت ضدهم الإجراءات الرادعة الضرورية . وقد أشارت الوثيقة التي بين أيدينا الى امكانية مثل هذا الوضع الامر الذي يمكن تفسيره بعدم معرفة الملك بواقع الاشياء وهذا ما كان يجب التأكد منه على الطبيعة عند تسليم لاوديكالااملاك التي اشترتها .

ويبقى بدون جواب السؤال حول سبب العلاقة القائمة بين Laoi وبين topoi ذلك أنه حتى المصدر الذي بين أيدينا لا يعطي أي شرح لأسباب هذه الظاهرة . ولكن يمكن أن نتصور ، من الناحية النظرية امكانية وجود طريقين لظهور هذه الفئة من السكان . احدهما - غرس العبيد في الارض وتحويلهم الى مزارعين تابعين والطريق الآخر - تحويل سكان المنطقة المحتلة الى تابعين .

واذا علمنا أنه أثناء الحروب التي تشكلت خلالها الدول الهلنستية او تقاطلت فيما بينهما لم تحدث تلك الهجرات البشرية الكبرى كما حدث أثناء فتوحات الملوك الآشوريين فيمكننا القول أننا أمام الطريق الأول .

أما وثائق العملية التي جرت بين انطوخ الثاني ولاوديكالا فلا تتضمن أية معلومات بخصوص الأتاوات التي كان يجب على Laoi تأديتها لاسيادهم . والإشارة الوحيدة التي يمكن أن تعزى لهذا الوضع - هي البند الذي تعطى لاوديكالا بموجبه حق الحصول على واردات العام الجاري . ولكن من الممكن أن تكون هذه الواردات ضرائب تجبى لصالح الملك كتتحقيق لسلطته . وليس صدفة أن يتنازل الملك عنها لمدة عام واحد فقط . فالخزينة لا يمكن أن تحرم من هذه الواردات التي تصب فيها بشكل منتظم . والى جانب هذه الضرائب كانت تجبى أيضاً الاوتاوات المترتبة على Laoi

وفي هذا السياق نجد في نقش منسياخ المذكور معلومات أكثر تفصيلاً . فقد عرفنا سابقاً أن أملاكه تتألف من عدد من القرى والكليات التي تعطي مالكيها دخلاً يرمز اليه بمصطلح Phros ونجد تحديداً المعنى هذا المصطلح في إحدى فقرات النقش Kaitouphrs tou aruvrkov kaitov letoruiikov بمعنى آخر يمكن أن يكون الـ phors نقداً أو سخرة أو الاثنين معاً . وعليه فإنه من غير المستبعد أن تكون الاتاوات التي أداها Laoi لاوديكالا نقداً وسخرة . وفي نفس الوقت فإن من ينتقل من topos عليه أن يؤدي الـ phors aruvi الى الـ topos الذي ينتسب اليه . أما فيما يتعلق بـ phors letovruikos فيبدو

أن المهاجر كان يعود لتأدية سخرة أو كان يدفع ما يقابله نقداً .

ويتضح من وثائق لاوديكيا ومنسياخ أن Laoi كانت لهم ملكيتهم الخاصة بما في ذلك وسائل الانتاج . ولكن حتى في هذه الحالة لم يتميزوا عن العبيد الذين كانوا يملكون «بيوتاً» خاصة بهم . وليس صدفة أن توضع هاتان الفئتان في مستوى واحد : oikiaton laon kai ton oiketon وتعترضنا هنا مسألة الحال القانونية لمثل هؤلاء ان Oikiai فنحن نصطدم بملكية Laoi 9 Oikit في نفس الوقت الذي يعتبرون فيه ملكاً للآخرين . ومن هنا فإنه لا يمكن لهاتين الفئتين أن تحوزا أية ملكية دون أن تكون هذه الأخيرة ملكاً لأسيادهم . ونحن نعتقد أنه يمكن بيع وشراء Laoi وال Oikit التابعين دون بيع Oikiai وتدعم قولنا هذا إشارة خاصة والتي لا حاجة لها لو أن هؤلاء كانوا يباعون مع ما يملكون .

ونستطيع أن نجد ما يكفي من القرائن بخصوص موضوعنا هذا في النقش الذي يحوي مراسلات انطوخ الثالث وولي عهده من جهة ، وبطليموس بن فراسيوس من جهة أخرى . وقد تم اكتشاف هذه الوثائق في تل الفر . وهي تثبت ملكية بطليموس للقرى السرية الرابعة من أملاك البطلمة الى أملاك السلوقيين . ويرتدي أهمية خاصة في هذا السياق إنذار بطليموس بن فراسيوس حيث تعدد هنا القرى التابعة له : تلك التي كانت ملكاً له وتلك التي كانت من أملاكه بالوراثة وكذلك ما وهبه إياه الملك . ويطلب بطليموس بن فراسيوس من الملك إخلاء هذه الأملاك من المضارب وحمايتها وعدم السماح بطرد Laoi منها وهذا الطلب الأخير له أهمية جوهرية بالنسبة لنا . ذاك أنه لم يكن لبطليموس أن يطلب مثل هذا الطلب لو لم يكن Laoi ملكاً له . وفي إنذار آخر يطلب بطليموس بن فراسيوس إرسال الأرزاق التي تواجه في القرى التابعة له لدى Laoi على أن يجري ذلك تحت مراقبة الإدارة التي سيعينها هو .

بناء على ما سبق نستنتج أن مصطلح Laoi في سوريا الهلنستية كان يرمز الى فئة معينة من الناس يمكن أن تضم أحراراً وتابعين بغض النظر عن حالهم السياسية . ومما يلفت النظر أننا نصادف هؤلاء في الوثائق الخاصة بتلك الأراضي التي تقع ضمن حدود المدينة والتابعة قانونياً للملك . الأمر الذي يسمح لنا بالإعتقاد ان مصطلح Laoi يرمز الى فئة من الناس عاشت تحت السلطة المباشرة للملك وفي أرضه . ومن هنا جاء في نقش اريستوديكيدوس مصطلح Laoi basil koi "ناس الملك" . وعندما يجري ضم الأراضي المباعة الى أملاك مدينة ما كانت الصفة الوحيدة لهؤلاء الناس والتي تحدد وضعهم هي تبعيتهم للمالك أي أنهم في وضع العبيد .

بعد هلاك الدولة الهلنستية شكل الـLaoi الجماهير الرئيسية للسكان الذين يعيشون خارج المنطقة التابعة للمدينة ، أما التابعين منهم فقد تحولوا بالتدريج الى طبقة العبيد الذين لم يتميزوا عنهم سابقاً :

الفصل الثاني

تنظيم الإدارة الرومانية في سورية .

قيام السلطة الرومانية في سورية

بعد انحلال الإمبراطورية السلوقية تحولت سورية عملياً إلى مستعمرة رومانية . إلا أن الصراع على العرش بين الملوك السلوقيين كان لا يزال مستمراً كما حصلت بعض المراكز السياسية الكبرى على استقلالها السياسي وظهرت هنا وهناك بعض الممالك الصغيرة . وبكلمات أخرى كان الوضع السياسي في البلاد متوتراً غير مستقر : فالصدامات بين أفراد العائلة المالكة مستمرة وباتت خطر تسرب البدو الرحل من الصحراء السورية جاثماً ولم تكن إمكانية التدخل الاجنبي أقل خطورة - ومن الطبيعي أن يؤدي مثل هذا الوضع إلى تخريب اقتصاد البلاد وبالتالي إلى تفسخ النظام الاجتماعي القائم وانحيار الدولة . وما اتحاد المدن السورية الذي تأسس في هذه الفترة إلا نتيجة لهذا الخطر المائل الذي أصبح يهدد البلاد كلها . وهكذا فقد شكلت انطاكية وسلوقية بيرية واللاذقية (ابتداء من عهد اسكندر بالاسيوس وحتى انطوخ السابع) اتحاداً فيدرالياً أصدر عملة نقدية موحدة نقش عليها خرافة Adelpheion («الشعوب الشقيقة») .

ومن المرجح أن تكون المدن اليونانية الواقعة على شواطئ بحيرة (طبرية) والاردن قد شكلت هي الاخرى فيما بينها اتحاداً - ديكابوليس^(١) وذلك مع بداية ظهور الجيوش اليونانية على الحدود السورية .

ومن الطبيعي أنه في مثل هذه الظروف يظهر الميل لخلق سلطة قوية قادرة على إحلال السلام والقضاء على الفوضى وحماية البلاد من الغزوات وتأمين مصالح الارستقراطية المحلية . ويقول يوستين في هذا السياق (IVST.,40,1,4) انه كانت توجد في سورية

(١) ويعتقد هايلهايم أن ديكابوليس هذا تم تأسيسه مع بداية تشكل سورية كمقاطعة وذلك كضمانة ضد الهجمات التي يمكن أن تشنها قبائل البدو الرحل . ويوافق الرأي المذكور H.Bieterhand, Die Dekapolis von pomp-eius bis Train — ZDPV.BD,79,1963

مجموعة تسعى لضم البلاد الى المملكة البنطية أما «الحزب» الآخر فقد وضع أمامه مهمة ضم سورية الى دولة البطالمة . ولكن لم تستطع أية من هاتين الفئتين تحقيق أهدافها : فقد كان ملك البنط ميتريدات مشغولاً في حربه مع روما ولم يكن البطالمة خياراً مقبولاً فهم الأعداء التقليديون لسورية السلوقية . ويختتم يوستين أقواله هذه مشيراً الى موافقة «الكل» على اختيار ملك أرمينيا - تيغران الثاني - وقد دعي هذا الأخير فعلاً وتسلم عرش سورية وخلال الأربعة عشر عاماً التي قضاها على هذا العرش عاشت سورية «أهدأ فترة حكم» .

ولكن رواية يوستين هذه غير دقيقة . ذلك أن تيغران الثاني هذا ، حسب معطيات سترابون (Strabo, P.532) احتل سورية بالقوة anakrato حيث عبر الفرات وكان عليه أن يتغلب على المقاومة التي نظمها انطوخ العاشر لمواجهته (ولكن يجب أن لا نفهم محاولة ذلك الأخير للاحتفاظ بالسلطة كحركة شعبية قامت في وجه تيغران) . فلم يستطع الملك الأرمني أن يفرض سيطرته على سلوقية بيرية (Strabo, P.751, Eutrop., 6, 14, 2) أما المدن الفينيقية فلم تخضع له إلا في الفترة الأخيرة من حكمه لسورية . (Fl. Ios, Antt., 13, 419-421, Plut, Lucull, 21) بكلمات أخرى لم يحظ اختيار تيغران بالإجماع الذي يكتب عنه يوستين حيث لم تؤيده إلا المدن السورية الداخلية فقط ، أي تلك التي تتعرض بشكل مباشر لغارات البدو كما أن أوضاعها الداخلية غير مستقرة . ولا شك أن هذه الدول كانت مهتمة بالحفاظ على علاقاتها التجارية مع بلاد ما بين النهرين . أما المدن الواقعة على ساحل المتوسط فقد توجست خوفاً على تجارتها البحرية من تيغران الثاني وهذا ما يفسر مقاومتها لهذا المحتل . ومع كل هذا فإننا لا نستطيع أن ننكر وجود حركة لصالح تيغران الثاني أما الفترة التي حكم فيها سورية (من عام ٨٣ حتى عام ٦٩ ق . م) فقد كانت فترة هدوء ونظام نسبيين ^(٢) .

في عام ٦٩ ق . م . أدى انتصار لوكول على تيغران الثاني الى خروج سوريا من تحت سيطرة هذا الأخير كما كانت هناك محاولة لإعادة سلطة السلوقيين . وفي هذه الفترة التي تميزت بغياب كل سلطة حقيقية تم تنصيب أنطوخ الثالث عشر الآسيوي ابن أنطوخ العاشر ملكاً على البلاد ^(٣) . ويقول يوستين ٢, 2, 40, 2 lvst. إن لوكول هو الذي أعلن أنطوخ الثالث عشر ملكاً (ab eodem iuculo appellatur) وفي هذه الحالة يمكن أن يكون المقصود هنا دولة

(٢) عن سورية في ظل دولة تيغران الثاني انظر : يا . ١ . ماندانيان ، تيغران الثاني وروما . يريفان ١٩٤٣

(٣) يخطيء يوستين في تسميته ابن أنطوخ التاسع كيزيكن .

مستقلة غير تابعة لروما . ولكن أبيان (App.syr.,49) يعرض لنا رواية أخرى : فعندما سحب ماغادات ، ممثل تيغران الثاني في سورية - جيوشه لمساعدة ملكه تسلل انطوخ الثالث عشر خفية واستولى على السلطة في سورية بمساعدة السوريين أنفسهم وأمام هذا الواقع وجد لوكول نفسه مضطراً للإعتراف بحق انطوخ الوراثي في استلام السلطة . ويبدو أنه من الصعب هنا أن نقول : عن أية التقاليد تتوافق وواقع الأشياء . فكل ما نعرفه أنه توجد في رواية يوستين أخطاء تخالف وقائع معروفة لدينا . ولكننا نستطيع أن نؤكد دون شك أن انطوخ الثالث عشر قد استلم السلطة فعلاً وأن حكومة روما (ممثلة بلوكول) قد اعترفت بهذه الحقيقة .

لقد أعطينا المصادر معلومات متناقضة عن المرحلة الأخيرة من حكم انطوخ الثالث عشر . فقد كتب يوستين (Iust.,40,2,3-4) يقول بأن بومبي الذي استلم قيادة الجيوش الرومانية في الشرق قد ألغى القرارات التي أصدرها سلفه بخصوص بناء الدولة في سورية . وعندما طلب انطوخ الثالث عشر إبقاء السلطة في يديه أجابه بومبي بأنه لا يستطيع أن يبقى في السلطة شخصاً بقي أربعة عشر عاماً في كليكية في الوقت الذي كان عليه أن يقاتل ضد تيغران الثاني وبعد أن قضى الرومان على هذا الأخير جاء هوليسلم السلطة . بالإضافة إلى ذلك فإن انطوخ لا يستطيع تأمين حماية سورية من غارات اليهود والبدو . ويتعرض انطوخ بدوره إلى هذا اللقاء (Mithr,106) وإلى الطلبات المحددة التي قدمها الأول والثاني ويبرر رفض بومبي لطلبات انطوخ أنه بعد طرد تيغران الثاني أصبحت سورية ملكاً للرومان . وفي رواية أخرى لإبيان نفسه (App.,sur.,49) يشرح المؤرخ أسباب رفض القائد الروماني بشكل مغاير . حيث يقول أن هذا الأخير خشي من أنه إذا امتلك انطوخ جيشاً فإنه قد يسعى للحصول على كامل السلطة . وكان القناع الذي أخفى بومبي وراءه مخاوفه هذه هو أن السلوقيين الذين انتصر عليهم تيغران الثاني ليسوا أهلاً لحكم سورية .

ولكن بغض النظر عن الاختلاف القائم في الروايات التي سردها كل من بومبي تورغ - يوستين وإبيان إلا أنها مجملها تعكس الخط السياسي الذي انتهجه بومبي برفضه رفضاً قاطعاً أية مطالبة من قبل السلوقيين بالسلطة في سورية وتخليه عن مجمل السياسة التي اتبعها لوكول . ومما له دلالة خاصة أنه أثناء تسوية العلاقات بين تيغران الثاني وروما خرجت سورية وفينيقيا نهائياً من تحت سلطة تيغران ودخلت مجال السيطرة الرومانية . أي أن بومبي بالذات هو الذي احتل سورية وجعل منها مستعمرة رومانية جديدة . وفي نفس الوقت رفضت أية مطالبة لانطوخ الثالث عشر بالعرش السوري بل واعتبرت غير قانونية .

ويسروي ديودور (Diod., 40, 1a-1b) أن أنطوخ الثالث عشر تكبد خسائر كبيرة في إحدى معاركه مع البدو الرحل واندحر أمامهم مما أدى إلى فقدان ثقة الناس به وبقوته . الأمر الذي أدى بدوره الى تنظيم مؤامرة في إنطاكية ضده ولكنه استطاع سحقها وفر منظموها إلى كيليكية . ومن هناك وجهوا الدعوة الى المنافس الآخر لاستلام العرش فيليب الثاني (ابن فيليب الاول وحفيد أنطوخ الثامن غريب) . لقد استغل هذا دعم عزيز - زعيم إحدى القبائل البدوية - له واستلم السلطة . حيث قام عزيز هذا بتتويجه ملكاً . مما أدى بأنطوخ الثالث الى الاستنجد بحاكم اميس (حمص - المترجم) سامسيغرام فقام هذا الأخير باعتقاله وأعدمه . أما فيليب فبالكاد نجا من سيف عزيز .

ينقطع سرد ديودور في منتصف الكلمة ويبقى مصير فيليب الثاني في دائرة الغموض . ولكنه قد يدخل ضمن تحليل حيثيات السياسة التي اتبعها بومبي في سورية الذي نجده عند بلوتارخ (Plut., pomp., 39) : «عندما دخل سورية أعلنها بلاداً ليس فيها ملوك شرعيون ، مستعمرة من مستعمرات الشعب الروماني» . والإشارة إلى عدم وجود ملوك «شرعيين» تعني أن أنطوخ الثالث عشر وفيليب الثاني قد قتلا . والآن ، أية رواية من هذه الروايات توافق واقع الأشياء ؟ المسألة لازالت حتى الآن مفتوحة . ذلك أن تطور الأحداث بهذا الاتجاه أو ذاك أمر محتمل^(٤) . ولكن على أية حال فإن جيوش بومبي قامت في عام ٦٤ ق . م باحتلال سورية التي أعلنت مقاطعة رومانية .

سورية إبان الحروب الأهلية .

من المعروف أن البنية الإدارية - السياسية للمستعمرات الرومانية وعلاقتها مع السلطة المركزية في روما كانت تضبط بقانون خاص (Lex provinciae) وعلى الأرجح أن هذا القانون كان ينسحب على سورية أيضاً ولكن المصادر لاتعطينا أية معلومات بهذا الخصوص . ونحن نعتقد أن السبب في ذلك هو أن القانون المذكور لم يأت بجديد ، من

(٤) نجد في الأدبيات التي تعالج هذا الموضوع عدة محاولات للتوفيق بين هاتين الروايتين . ولكننا نعتقد أن مثل هذا التوفيق غير ممكن . إذ كيف يستطيع أنطوخ الثالث عشر أن يقابل بومبي بينما هو في السجن لدى سامسيغرام . كما أنه لم يكن باستطاعته أن يشكل أي خطر على السلطة الرومانية كما يؤكد إبيان . وبما يلفت النظر أيضاً ما جاء في روايتي إبيان ويوستين عن الإنتفاضة التي حدثت في إنطاكية واستلام فيليب الثاني السلطة هناك . إذ أن المسألة على الشكل التالي : إما أنه لاوجود لهذه الحوادث وإما أن هناك ثغرة في هذه الروايات يمكن إصلاحها .

حيث الجوهر للوضع القانوني والاقتصادي لسكان سورية . ومن البديهي أنه فرضت على السوريين تأدية أتاوات لصالح خزينة روما (App., Mither., 118, App., syr., 50, vell., Pat., 2, 5.) بعد أن كانت هذه الاتاوات تؤدي لصالح خزنة السلوقيين وهكذا لاشيء جديد بالنسبة لدافع الضرائب أو لمؤدي الاتاوات .

وعند تقييمه لنشاط بومبي في سورية يبرز بلوتارخ (Plut., pomp., 39) النواحي التالية : فقد «أسس» بومبي المدن و«حرر» بعضها وعاقب الحكام المحليين واتخذ عدداً من القرارات لحل بعض القضايا المختلف عليها بين المدن و«الملوك» . وأدى «تأسيس» المدن إلى منح بومبي لقب Oikist وبالتالي إلى تبعية هذه المدن مباشرة له . وهذا ما كان يتفق ، من حيث المبدأ والتقاليد الرومانية التي تعطي الحق لفاتح المدن أن يصبح وليها^٥ .

أما عملية «تحرير المدن» فيمكن فهمها باتجاهين اثنين . أولاً - القضاء على السلطة المطلقة التي ، لهذا السبب أو ذاك ظهرت في بعض المدن وإعادة كامل السلطة (نسبيّاً ، طبعاً) للهيئات الشعبية الجماعية . فقد جرى القضاء على السلطة المطلقة لحاكمي بيبيلوس (Strabo, 755) ، وعلى الأرجح بعلبك . ثانياً - كان من الممكن أن يكون المقصود هنا إعفاء هذه المدن من دفع الضرائب وتأديتها لصالح روما . وهنا ترتدي المعطيات التي يسوقها لنا يفتريوس (Eutrop., 6, 14) أهمية خاصة . يقول المؤرخ أن بومبي «وهب الحرية» (Libertate donavit) إلى سلوقية بيرية مكافأة لها على المقاومة التي أبدتها في وجه تيغران . وما من شك أن المقصود هنا هو إعفاؤها من تأدية الضرائب . لقد أخذ بومبي يحل المعضلات القائمة في هذه المقاطعة آملاً أن يحل السلام الداخلي في ربوعها . وتفيدنا المعطيات التي يسوقها يفتريوس (Eutrop., 6, 14) في تتبع اتجاه آخر من اتجاهات نشاط بومبي في سوريا : فيقول أن بومبي أحيا من جديد التقليد الذي يعود أصله إلى ليفي حيث اقتطع أرضاً وأهداها إلى Daphna أي إلى انطاكية . بمعنى آخر أن بومبي الذي أصبح الآن حر التصرف في «أراضي الملك» التي أصبحت ملكاً لدولة روما أخذ باهدائها لبعض المدن السورية . لقد كان لنشاطات بومبي هذه هدف واحد : تحويل سورية إلى قاعدة قوية للاستعمار الروماني في الشرق . وكان لها هدف آخر أكثر عمقاً - ترسيخ وتشجيع التقاليد الهلنستية في تنظيم المجتمع . تلك التقاليد التي كانت قائمة في ظل السلوقيين . وهذا الاتجاه الأخير استمر حتى في الفترة التي أعقبت انتهاء الحروب الأهلية .

٥ يعتقد بوتسيوس أن بومبي أسس في سورية عدداً من المدن . ولكن ليس لهذا الاعتقاد ما يبرره . والأرجح أن بوتسيوس اعتمد على ملاحظات بلوتارخ فقط . أما نحن فلا نعرف أية مدن بناها بومبي .

لقد كان للتغيرات السياسية الحادة التي امتازت بها مرحلة الحروب الأهلية تأثير سلبي على حياة المجتمع السوري . فقد أدى الصراع على السلطة بين مختلف الشخصيات الى فرض ضرائب باهظة على السكان دون أن يكون هناك أي نظام محدد لفرضها أو جمعها . فبحجة «معاينة» المدن لاتخاذها هذا الموقف أو ذاك نهبت خيراتنا هذا بالإضافة الى التخريب الاقتصادي الذي خلفته هجمات البارفانيين . أضف إلى هذا أن العداء مع الامبراطورية البارفانية خلق صعوبات حمة أمام التجارة مع بلاد ما بين النهرين .

والواقع أن نائب القنصل في سوريا افال غابيني قام عامي ٥٧ - ٥٥ ق . م . باتخاذ اجراءات بدت للوهلة الاولى أنها تهدف لتخفيف عبء الضرائب التي قسمت ظهر السكان و خلقت صعوبات لا يمكن تجاوزها عملياً . ويقول سيتسيرون (Cic., De pr.con., 5, 10) أن غابيني رفض كل القضايا القضائية التي رفعها متعهدو الضرائب (iustitioes sine ulla iniuria publicanonon dicere) والغنى كل علاقاته معهم (Paitiones sine ulla iniuria publicanonon dicere) ولم يقدم لهم الحماية الشخصية (custodias sustulit) واستخدم بشكل واسع مبدأ الاعفاء من تأدية الاتاوات Vectidalis multos as stipendiarios liberavit وأخيراً منع المتعهدين «وعبيدهم» من التواجد في المدينة حيث كان يتواجد هو نفسه . وهذا ما يقول به التقليد الذي يعود بمنشئه الى تيتي ليقى (Cass., dio., 39, 59, 2) : لا يسمح للمتعهدين بجمع الاتاوت . ومن الواضح أن هذه السياسة كانت تتعارض تماماً مع مصلحة الفرسان وليس صدفة أن يرسم سيتسيرون ، في كلمته الاتهامية ضد غابيني حالة المتعهدين بخطوط سوداء للغاية فقد أعطاهم كعبيد لليهود والعرب والسوريين الذين خلقوا أصلاً كي يكونوا عبيداً ، ولكن يجب فهم سياسة غابيني هذه على ضوء الصراع السياسي الجاري في روما نفسها : عداؤه للفرسان . ولكن هذه الحادثة لم تستمر طويلاً . وفيما بعد أدت الانقلابات في سياسة روما الداخلية والخارجية الى تقوية نير الضرائب . وليس صدفة أن خصوم غابيني اتهموه بنهب سورية .

لقد كان ليكييتوس كراسوس صاحب أول هجوم للجيش الروماني في منطقة ماوراء الفرات وكان ذلك في عام ٥٤ ق . م . وقد انتهى هذا الهجوم ، كما هو معروف بهزيمة منكرة للجيش الغازية في موقعة قاراح في حزيران عام ٥٣ ق . م . وقد كان لهذه الحملة آثارها على الأوضاع الداخلية في سورية نفسها . فيفيدنا بلوتارخ أن القائد الروماني فرض الضرائب على السكان (من الواضح أن المقصود هنا ضرائب باهظة لمواجهة وضع استثنائي) حتى أنه اغتصب أملاك المعبد في بعلبك كما وجد السكان المحليين في جيوش احتياطية . وبعد مقتل

كراسوس أضحت سورية مكشوفة لدخول القوات البارفانية إليها . ففي عام ٥٣ ق . م . كانت المعارك قد انتقلت إلى أراضيها وفي عام ٥٢ ق . م . صد الرومان هجوماً بارفانياً على انطاكية ولم يغادر هؤلاء البلاد إلا في عام ٥٠ ق . م .

عندما اندلعت المعارك بين قيصر وبومبي وقفت سورية في صف الأخير . وكان السوريون في عداد جيوشه عندما خاض معركة فارسال كما وكانت سورية مصدراً هاماً لتزويد جيوشه بالمال والمواد التموينية . ويشير قيصر إلى الأساليب البشعة التي اتبعها بومبي في جمع الضرائب والأرجح أنه أراد تشويه صورة هذا الأخير . ونحن على أية حال لانعرف إلى أي حد كان قيصر صادقاً .

بعد معركة فارسال (عام ٤٩ ق . م .) والانتصار الذي حققه قيصر أصبحت سورية تابعة ظاهرياً لهذا الأخير الذي نظر في مطالب السوريين وقضاياهم واتخذ إجراءات لحلها . وأخذت بعض المدن موقفاً مهادئاً .

للسلطة الجديدة . ولكن سورية بالذات كانت المسرح الذي بدأت منه الانتفاضات التي نظمها اتباع بومبي في السنوات الأخيرة من عمر ديكتاتورية قيصر . هنا بالذات استطاع تيسيتيلوس باسيوس ، وهو رجل مغمور غير معروف قط في المجتمع الروماني - أن يؤلب إحدى الفرق العسكرية في سورية وتمكن من احتلال أفاميا وصد كافة الهجمات التي نظمت ضده^(٦) مما اضطر اتباع قيصر لمحاصرة المدينة واستمر هذا الحصار حتى مقتل قيصر .

كيف كان سلوك السوريين في هذا الوضع ؟ في حديثه عن احتلال باسيوس لكل من صور وأفاميا يعطي ديون كراسوس امكانية للقول بأن هذه المدن أخذت بالقوة ولذلك فإنه من

(٦) من المؤسف أن المعلومات التي وصلت إلينا عن الحقبة القديمة تتضمن معطيات متناقضة عن تيسيتيلوس باسيوس يروي ابيان (App., Bellaciv. 377) روايتين . تقول إحداهما أن قيصر عهد إلى باسيوس «العناية» (Epimeleian) بإحدى القطع العسكرية المتواجدة في سورية للوقوف في وجه البارفانيين ، شكلياً كان قريب قيصر سيكست يوليوس هو قائد القطعة . فقتل الجنود هذا الأخير أثناء إحدى الصدامات مع تيسيتلوس حتى أنهم أجبروا تيسيتيلوس أن يشاركهم الإنتفاضة . وتقول الرواية الثانية التي ينسبها ابيان إلى ليبون أن تيسيتيلوس هو من اتباع بومبي وكان قد كمن في صور بعد هزيمة قائده/وعندما سمحت له الفرصة استطاع شراء جنود سيكست يوليوس ودفعهم لقتله ثم دفعهم إلى إعلان العصيان على قيصر . ويقول ديون كاسيوس (Cass. Dio, 47, 26) أن تيسيتيلوس كان يتسبب لفئة الفرسان وكان يخدم في جيوش بومبي وقد اختفى في صور بعد هزيمة قائده في معركة فارسال . وعندما حاول القيام بحركة انقلابية جرى اعتقاله ثم أطلق سراحه . وقد استطاع بعد ذلك أن يشيع خبر مقتل قيصر في افريقية وذلك بتزويده وثيقة تنص على أن المنتصر المزعوم قد عينه حاكماً على سورية . وبعد أن هزم سيكست يوليوس استطاع أن يؤلب القطعة العسكرية التي كان يقودها هذا الأخير ويجعلها في صفه هو . وهناك عدد آخر من الروايات . ولكن أيها الصحيح ؟ هذا ما لانستطيع الجزم به حتى الآن . وكل ما نستطيع قوله هو أن تيسيتيلوس قاد في سورية انتفاضة ضد سلطة قيصر .

غير المستبعد أن تكون المدن السورية قد دعمت باسيوس . وفي نفس الوقت تشير المصادر الى أن أحد الزعماء السوريين واسمه الحافدون قد دعم باسيوس كما وساعده البارفانيون أيضا . في آذار عام ٤٤ ق . م . قتل قيصر فأدى هذا التصعيد الجديد للصراع الطبقي والسياسي في روما الى تغيرات حادة في أوضاع سورية . فإذا كانت انتفاضة باسيوس قبل الآن مجرد حديث بسيط على مستوى الامبراطورية ويمكن سحقها بسرعة فقد أصبح باسيوس يشكل الآن قوة سياسية حقيقية يمكن لاعداء قيصر الاعتماد عليها . هذا العامل وموقع سورية الهام كعمق استراتيجي طبيعي في منطقة البحر المتوسط جعلها واحدة من مناطق الصراع بين أتباع قيصر والجمهوريين .

ومن المعروف أنه بعد مقتل الديكتاتور في ١٧ آذار عام ٤٤ ق . م . أقر سينات روما ، بناء على اقتراح مقدم من سيتسيرون كل تعليمات قيصر حتى تلك التي تحمل طابعاً مستقبلياً . بالتالي جرى تعيين غ . كايوس لونجين حاكماً على سورية - مع أنه من أتباع بومبي سابقاً وهو واحد من زعماء المؤامرة وهو نفسه الذي قاد عملية الدفاع عن سورية ضد هجمات البارفانيين . كان عليه أن يتسلم السلطة بعد انتهاء مراسم دفن قيصر ولكنه اضطر للفرار من روما في بداية نيسان عام ٤٤ ق . م . ابان التحركات الشعبية التي اجتاحت المدينة أثناء دفن قيصر كما وفر معه بروتوس . ذلك أن انطونيوس أحد زعماء أتباع قيصر استطاع اقناع السينات باتخاذ قرار عهد بموجه إلى كاسيوس وبروتوس بتأمين المواد التموينية لروما . (Cic.Ag,Att,15,9,1) ولا شك أن انطونيوس أراد في ذلك ابعادهما عن روما بل وكان على كاسيوس بموجب هذا القرار أن يتواجد في صقلية وهكذا اضحت سلطة كاسيوس في خطر ممت . والخطوة الثانية في هذا الاتجاه كان ذلك القرار الذي اتخذته السينات في عام ٤٤ ق . م . (APP,Bella id,4,57) والذي قضى بتعيين كاسيوس حاكماً لمقاطعة من الدرجة الثانية هي مقاطعة ليبية Cic.,phil.,2,38,et 97:APP.,Bella id,4,57,Cass.,Pio.,47,21 وتم تعيين انطونيوس دولابيلاً حاكماً على سورية برتبة نائب قنصل . وهكذا أصبح الجمهوريون بين فكي كماشة . لذلك ليس غريباً أن رفض كاسيوس الانصياع وجاء الى سورية لا كممثل رسمي للحكومة روما وإنما كرجل سياسة قطع كل علاقة له مع إدارة قيصر . وهو يرى بأمر عينه اقتراب الحرب الاهلية . أمام هذا الوضع أصبح من الطبيعي أن يغدو تسيتسيلي شخصاً «زائداً» لاجابة له وبعد مقاومة لم تستمر طويلاً تراجع واستسلم (Cic.,Ad sam.,12,12,3) وانضمت جيوشه الى كاسيوس أما تسيتسيلي (Cic.,Ad fam,12,2,1, App., Bella Civ.,3,78) نفسه فقد اختفى عن المسرح السياسي الى الابد .

ومع كل هذا فإن دولابيللا لم يتراجع عن الصراع . فبعد عودته المتأخرة الى سورية قام فوراً بمحاولة فاشلة لاجتلال انطاكية ثم تراجع وتحصن في اللاذقية . وشن من هناك هجوماً على أرواد بهدف نهب المدينة والاستيلاء على الاسطول ولكنه فشل هذه المرة أيضاً وعند عودته هاجمه كاسيوس وانتصر عليه انتصاراً ساحقاً ثم تابع تقدمه وحاصر اللاذقية وأخذها بمساعدة حراسها فانتحر دولابيللا . أمام هذا الوضع ، كيف كان موقف المدن السورية ؟

عندما هاجم دولابيللا مدينة انطاكية دحرته حاميتها . ولا يشير مصدرنا (cass. Dio, 47, 30, 2) لا من قريب ولا من بعيد الى موقف سكان انطاكية . أما عندما غزا أرواد فقد كان يستهدف سكان المدينة أنفسهم : «ليأخذ منهم المال والسفن» (Cass. Dio, 47, 30, 2) . وهذا يسمح بالقول أن سكان أرواد أنفسهم شاركوا في تنظيم المقاومة ضد الغزاة . وكان يمكننا أن نقول بأن مدينة أرواد كانت مفعمة بروح العداة لادارة قيصر لولم يكن وضعها خاصاً للغاية . ولكنها ككل المدن الفينيقية كان لها موقف مغاير فقد رفضت اتخاذ خطوات سياسية لصالح كاسيوس . ويقول ابيان (App., Bella Civ., 4, 60-61) عندما بدأ كاسيوس حصار اللاذقية «طلب سفناً من فينيقياً ومن ليكارودوس» ولكن طلبه قوبل بالرفض . ولم تستجب له سوى صيدا . وهذا يدل على أن المدن الفينيقية كلها تقريباً كانت تعتبر الجمهوريين منافسين ضعفاء لادارة قيصر ولذلك لم تشأ أن تربط مصيرها بهم . وعلى الأرجح أن ذلك كان السبب في أن كاسيوس أقام حكومات ديكتاتورية في كافة المدن السورية آملاً أن يرسخ مواقعه بمساعدة صنائعه هؤلاء . وبناء عليه يمكننا أن نتوقع أن كاسيوس لم يحصل على المساعدة من صور وأرواد إلا بعد أن نصب فيهما أزماله^(٧) .

وتشير مصادرنا صراحة الى تعاطف اللاذقية مع اتباع قيصر . يقول ابيان (APP. Billa. Civ 4, 62) أن أهل اللاذقية «كانوا يكتنون له شعوراً بالصدقة» أي لدولابيللا . ويقول كاسيوس (Caas Dio., 47, 30, 2) ان دولابيللا أخذ مدينة اللاذقية دون قتال وذلك «بفضل الشعور بالصدقة الذي كانوا يكتنونه لقيصر (أي سكان اللاذقية)» فعندما احتل كاسيوس المدينة أمعن فيها تخريباً وتهديماً دون أن تأخذه بهارحة أو شفقة (App., Bella Civ., 4, 60) فنهب المعابد وخزنة المدينة وأعدم وجهاءها وفرض على الآخرين أتاوات مرهقة . ويشير ابيان الى أن المدينة أصبحت على شفا الكارثة^(٨) .

(٧) يعتقد د. دويش أيضاً أن إقامة ديكتاتوريات في المدن السورية عجلت من عملية النفاف السوريين حول كاسيوس .

(٨) يرسم ديون كاسيوس صورة اللاذقية بشكل آخر . فيقول بأن كاسيوس لم يؤذ المدينة أبداً وكل ما فعله هو أنه جمع الأموال منها ولم يعاقب أي من معارضيه . ولكن ديون كاسيوس كان مجبراً على القول أن كاسيوس جمع الأموال وهنا يلتقي مع رواية ابيان حول نهب كاسيوس للمعابد ولأرزاق المدينة .

وهكذا نرى أن الوضع العام في سورية لم يكن في صالح الجمهوريين : فإذا كان سكان المدن السورية لم يعبروا جهاراً - باستثناء اللاذقية - عن عدائهم للجمهوريين فلأنهم على أية حال حاولوا أن يتخذوا موقفاً حيادياً بانتظار تطور الأحداث لاحقاً . وما زاد الأمر سوءاً الضرائب المرهقة التي فرضها كاسيوس .

في ربيع عام ٤٤ ق . م تم سحق الجمهوريين في موقعة فيليببي وهكذا أصبحت سورية ومعها كل الشرق تحت سيطرة مارك انطونيوس الذي كان عليه قبل كل شيء أن يجمع الأموال ليسدد جنوده . فطلب من المقاطعات الشرقية بما فيها المقاطعات السورية أن تسدله ضرائب عشر سنوات خلال عام واحد (App Bella Civ., 5,5) وبعد الحاح شديد من قبل ممثلي هذه المدن وافق على تقليص حجم الضرائب وزيادة مدة تحصيلها . الاستثناء الوحيد كانت اللاذقية التي أعلنت مدينة «حرة» وأعفيت من الضرائب مكافأة لها على وقوفها إلى جانب دولايلا .

كانت مشكلة انشاء عمق سوري قوي احدى المشاكل الرئيسية التي واجهت انطونيوس أثناء تنظيمه حملة جديدة ضد بارفيا . ويذكر ابيان (App., Bella Civ., 5,7) أن انطونيوس قام بطرد الحكام الديكتاتوريين الذين تعاونوا مع بارفيا بعد مقتل كراكوس وعلى الأرجح أن حملة انطونيوس ضد تدمير جاءت لتخدم هذه الاهداف (App., Bella Civ., 5,7)

ومن الجدير بالذكر أنه كان لكيلوباترا تأثير ملحوظ على سلوك انطونيوس وكانت هذه تسعى لاستخدام جيوشه لاعادة مجد البطالمة في مصر . فباعطائه قسماً كبيراً من سورية إلى كيلوباترا يكون انطونيوس قد قضى عملياً على كل نتائج الحرب السورية الثالثة . في عام ٤١ أو ٤٠ ق . م . كان البارفانيون سباقين إلى مهاجمة سورية وتمكنوا من احتلالها كلها تقريباً ماعدا صور . ولكن في عام ٣٩ ق . م . تمكن فينيدي باسيوس من الانتصار عليهم في موقعة طبرة . وفي عام ٣٨ ق . م . انتصر عليهم مرة أخرى في موقعة عينسدار . في ربيع عام ٣٦ ق . م . اندفع انطونيوس بجيوشه ضد بارفيا - عبر أرمينيا إلى ميديا ولكن الهجوم المعاكس الذي قام به أعداؤه أجبره على التراجع . وفي عام ٣٤ ق . م . أعاد الكرة ولكن هجمومه اقتصر هذه المرة على أرمينيا وحدها وتمكن من أسر الملك أرتافزاد وأقام احتفالاً في الاسكندرية بمناسبة انتصاره هذا^(٩) .

(٩) بتفصيل أكثر عن سياسة انطونيوس في سورية والشرق الأوسط انظر : J.Dobias, Dejini ونشر خاصة إلى ملاحظة بوخايم الذي يقول أن المدن السورية (وليس تدمر وحدها) حاولت أن تسير روما وبارفيا وكان لها موقف عدائي من سياسة انطونيوس المعادية لبارفيا .

وهكذا نرى أن الوضع العام في سورية ابان الحروب الاهلية كان يتصف بعدم الاستقرار السياسي وكذلك نظامها الاداري والضرابي والمبادئ التي قامت عليها علاقات السكان المحليين بالسلطات والتي كان من المفروض أن تتوافق مع العادات الرومانية ، كانت هي الاخرى غامضة وغير ثابتة . فقد كانت الاوضاع تتغير بشكل دائم وذلك تبعاً لتغير الاوضاع في روما نفسها وللنهج السياسي الذي كان يتبعه الاشخاص الذين استلموا زمام الامور هناك (في سورية - المترجم) بهذا الشكل أوداك .

تحويل سورية الى مقاطعة امبراطورية .

الاستعمار العسكري الروماني :

في الثاني من ايلول عام ٣١ ق . م وقعت معركة رأس اكتيوم وتقرر نهائياً مصير بلدان حوض البحر الابيض المتوسط . ففي بداية هذه المعركة ترك مارك انطوني وقواته التي تحولت ، بعد مقاومة ضعيفة ، الى جانب خصمه أكتافيان . وفي عام ٣٠ ق . م أخضع اكتافيان مصر لسلطانه ودانت له كل منطقة الشرق وبذلك كان قد أصبح السيد المطلق على كل الامبراطورية الرومانية - من الراين وشبه جزيرة إيبيريا الى الفرات وأعلى النيل .

كان النظام السياسي الذي أسسه اكتافيان أغسطس فريداً من نوعه . فهو من حيث طبيعته ليس سوى ديكتاتورية عسكرية مثلت مصالح كبار مالكي العبيد وكبار مالكي الارض داخل روما وخارجها وقد عاش هذا النظام الذي سمي (بريتيسيات) - PrinCiPaTe أكثر من مئتي عام . ومن الطريف حقاً إنه أمكن تقديم هذه الديكتاتورية على أنها «ترسيخ» للمؤسسات الجمهورية القديمة ، كسلطة شعبية وهمية . حيث شغل الحاكم الفعلي أهم المراكز المنتخبة ومنح صلاحيات تمثلي الشعب (imPerium) ، وصلاحيات المنابر الشعبية كما وتمتع بنفوذ السيناتور الأول وبحق ترشيح من يريد لشغل المناصب التي يجري انتخابها . ومن الطبعي أنه قد أصبحت لديه كل الامكانيات كي يلعب الدور الحاسم في كل مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية . وكانت أسباب الصدمات التي حدثت بين الامبراطور والسينات تعود الى أن بعضهم حاول اعطاء سلطته صيغة ملكية وأظهر قدراً كبيراً من الفردية والطغيان . وتدل الظروف التي أوصلت آل انطونيوس الى سدة الحكم انه لم يكن لدى السينات أي خيار آخر .

ولكن البريتيسيات أدخل بعض التغيرات الهامه على تنظيم وادارة المستعمرات وخاصة سورية . ومن المعروف أن جوهر هذه التغيرات كان في نقل عدد من المستعمرات (ومنها سورية) من مجال سلطة السينات ووضعها تحت الاشراف المباشر للامبراطور . بمعنى آخر ، ما جرى هنا ليس سوى اقامة سلطة فردية عارية من أي غطاء جمهوري . فقد كان لاغسطس وخلفائه هنا جهاز اداري مستقل كل الاستقلال عن الجهاز الجمهوري . وكان يقف على رأس هذا الجهاز ، في سورية - مفوض برتبة نائب قنصل .

ومن الصعب تماماً حصر أهمية هذا الاجراء الذي يبدو وكأنه اجراء اداري بحث .
أولاً - أصبح الامبراطور ، بموجب هذا الاجراء خلفاً وحاملاً للتقاليد الملكية ما قبل عصر
روما . وفي سورية - لتقاليد النظام السياسي السلوقي ثانياً أصبح الامبراطور يلعب دوراً
مزدوجاً ومتناقضاً في جوهره . فمهما كانت الاسباب والذوافع فإن تأسيس المستعمرات
الامبراطورية من حيث الجوهر ليس إلانفياً لأسس الاصلاحات السياسية الجمهورية حتى وإن
كانت صورية . ولا شك في أن هذه كانت الخطوة الاولى لقيام نظام الدومينات .

لقد كان لتأسيس بيروت وبعلبك (هيلوبوليس) في العشرينات من القرن الاول
ق . م . كمستعمرتين للمحاربين الرومان القدمات دور خاص في الحياة الاجتماعية -
الاقتصادية والسياسية في سورية . أما أسباب هذا التأسيس فواضحة فهذا الحدث لا يقع
خارج اطار السياسة العامة التي انتهجها اغسطس في ايطاليا نفسها حيث أسس ثمان وعشرين
مستعمرة في المقاطعات الرومانية . وتفيدنا المعطيات الرسمية التي يعود مصدرها الى
الامبراطور مباشرة أن مستعمرات للمحاربين القدمات قد تم تأسيسها في كل من غالية
البوربونيه واسبانيا وافريقيا وصقلية ومقدونية وآخيه وآسية وبيسيدا (RgdA,28,1-2) .
لقد سعى اغسطس جهده لارضاء مجاهدي الحروب الاهلية ليس بتقديم الاموال وحسب
ولمنا بإعطائهم قطعاً من الارض أيضاً . ولذلك فليس مستغرباً أن يتوقف خصيصاً عند هذه
المسألة في الوثيقة التي لخص فيها كل نشاطه السياسي إذ يقول : إنه أرسل الى المستعمرات اكثر
من ثلاثمئة ألف شخص وقد حصلوا جميعاً على الارض وعلى مكافآت مالية (RgdA3,3) .
ويشير أيضاً الى أن محاربي انطونيوس وليتسيد قد حصلوا هم أيضاً على الارض . وبهذا تكون
القاعدة الاجتماعية للامبراطورية قد زادت اتساعاً . ويؤكد اغسطس أنه وزع الارض التي
صادرهما من مالكيها السابقين (RgdA,16,1) وكان من شأن هذا الاجراء الفريد من نوعه أن
يفجر أزمة خطيرة في ايطاليا لولا الاموال الهائلة التي جرى انفاقها .

هذه السياسة التي جرى وصفها بخطوطها العامة في «مآثر اغسطس الالهي» وجدت
تحقيقاً واقعياً لها في سورية بتأسيس مدينتي بيروت وبعلبك . وتجدر الاشارة هنا الى أن
اغسطس لم يستخدم لبناء هاتين المدينتين مناطق أهلة . فبيروت بنيت على انقاض مدينة
فينيقية هدمها تريفون ابان حروبه لانتزاع السلطة من بين يدي ديمتري الثاني وانطوخ السابع
سيديت وجرى هنا توطين محاربي الفيلق المقدوني الخامس وفيلق اغسطس الثالث . أما
بعلبك فقد بنيت مكان قرية تم انتزاعها من ممتلكات حكام ايتوريا . فهذا المكان بالذات هو
الاكثر ملائمة للرومان لتأمين صلاتهم بأهم مراكز العبادات المحلية وبالتالي تحولهم من غرباء

إلى جزء عضوي من سكان سورية .

كان يجب أن يترتب على بناء هذه المستعمرات خلق قاعدة اجتماعية معينة للسلطة الامبراطورية ومراكز انطلاق للسيطرة الرومانية على البلاد وهذا ما كان له أهمية خاصة على تخوم ايتوريا . كما ولعبت هذه المستعمرات دوراً ملحوظاً في ترسيخ تبعية الحكام السوريين المحليين لروما . ويفيد أحد النقوش التي وصلتنا من بعلبك ، وهو مؤرخ في القرن الأول أن الخيوط التي كانت تربط هؤلاء الحكام بروما كثيرة ومتعددة فإلى جانب منحهم حق المواطنة الرومانية كان هناك امتياز آخر وهو منحهم لقب باترون Patronat (صاحب ، حامى ، المترجم) المستعمرة . ونجد بين باترونات بعلبك الملك اغرييو وقد جرى تكريمه على الشكل التالي : «/للملك / المعظم / اغد / ريب / والطاهر ، صديق قيصر وصديق الروما ٢٨١ ن ٢٥٧ ، باترون المست / عمرة / وعلى نفقة الشعب / تمت اقامة هذا النصب » لاشك أن ل . أرمان وج ب . ريكوي على حق عندما أشارا الى أن هذا التكريم يمكن أن يكون إما لاغرييو الاول وإما لاغرييو الثاني فالثنان حملتا نفس الالقاب . ويفيدنا النقش jml,u,2760 بتكريم ملك آخر هو ملك حمص غاي يوليوس سوخيم

(«الى الملك المعظم غد / اي / يوليوس سوخيم اب / ن / الملك العظيم سامسغرام ، صديق قيصر وصديق / الر / ومان / « Philo/r/ohmaeo) . حسب هذا النص كان الملك المذكور مخصوصاً بالشارات القنصلية وتمييزاً (honorat/o or namentis/ Con- Cularip/us/) وفي نفس المستعمرة كان يشغل أعلى منصب في مجلس المستعمرة وهو منصب دومفير (/duum/ viro guinguenn/ali/) . وما تجدر الإشارة إليه هو أنه إذا كان النصب الأول قد أقيم على نفقة Puplice الشعب فإن النصب الثاني أقيم على نفقة شخص فرد - هولوتسي فيتيلي بن لوتسي سوسييان من قبيلة فايبي . وهذا الحدث الأخير يدل على عمق العلاقة القائمة بين هذا الأخير وملك حمص .

لقد كان لتعيين الملوك المحليين باترونات للمستعمرة التي ينتسبون اليها هدف آخر : تقوية مواقع المستعمرة نفسها (وهذا ما حددته طبيعة العلاقات بين الباترونات وموكلين الرومان) وحمايتها من غارات البدو وغير ذلك من الاخطار . وتجدر الإشارة هنا إلى أن Tapulas patronatos التي جمعها وصنفها ل . هارمان تشترط عادة وجود Hospitium fides روابط كرم الضيافة والثقة / ومع أنه لم تتوفر لدينا حتى الآن أية معطيات عن سورية نفسها إلا أن هذه العلاقات كانت ، لاشك قائمة في العلاقات بين بعلبك من جهة واغرييو وغاي من جهة أخرى .

وهكذا ، فقد حددت سياسة اغسطس الاتجاهات العامة لتطور سورية على مدى مئتي عام تقريباً . حيث خلقت حالة من الاستقرار السياسي وأحلت السلام . ولم يجز أي تجاوز يذكر لهذا الوضع ماعدا بعض التحركات الشعبية الداخلية والتي لم تكن لها أهمية تذكر . كما توقفت نهائياً الاعتداءات الخارجية . فقد دارت رحى المعارك مع مملكة بارفيا على مدى مئة وخمسين عاماً بعيداً عن الحدود السورية - داخل أرمينيا وفي منطقة ما بين النهرين . وفي عام ١٦١ ، فقط ، استطاع البارفانيون دخول الأراضي السورية ولكن تم طردهم منها في شتاء عام ١٦٢ - ١٦٣ .

لاشك أن «السلام الروماني» أدى الى ازدهار سورية ورفع المستوى المعاشي لشعبها كما وأدى الى نمو التغيرات والاندفاعات الاجتماعية التي أدت في نهاية المطاف الى انفجار تلك الازمة الاجتماعية السياسية التي بدأت تلوح بوادرها في نهاية القرن الثاني الميلادي .

الفصل الثالث

النظام الاقتصادي السوري في عصر البريتسبات

العلاقات الزراعية

حتى الآن لم تحظ مسألة العلاقات الزراعية في سورية في الفترة ما بين القرن الاول وحتى القرن الثالث بالدراسة الوافية لافي التاريخ الوصفى السوفيتي ولا في التاريخ الوصفى الاجنبى . وغالباً ما يشار إلى وجود الملكية الخاصة للأرض بفئتيها الكبيرة والصغيرة في سورية حتى أنه يجري التأكيد على وجود علاقات الاستئجار والتأجير . ولكن تسجيل مثل هذه الاستنتاجات يقوم على بعض المعطيات التي يعود تاريخها إلى فترة متأخرة من تاريخ البلاد . وهذا لا يغنينا عن إعادة دراسة كافة المواد المتعلقة بهذه المسألة من جديد خاصة عندما يكون واضحاً لنا مدى صحة الاستنتاجات القائمة عليها . بالإضافة إلى ذلك فإن هذه الموضوعات العامة لا تلقي الضوء على الحال القانونية لبعض فئات الأراضي لذلك فهي لا تسمح لنا بالكشف عن خصائص ملكية الأرض واستخدامها في سورية . ونود أن نشير هنا إلى المحاولة الوحيدة لتصنيف الأراضي السورية في الحقبة التي نحن بصدددها والتي قام بها ، كما هو معروف . هـاييلهايم فقد اعتمد هذا نفس المقاييس التي اعتمدها روستوفسكى لعصر السلوقيين لتحديد فئات الأراضي هنا حيث أشار إلى أراضي الكليرو وأراضي المحاربين القدماء وأراضي المعابد والقيصر وكذلك ممتلكات البوليسات . ولكن التناسب بين مختلف أشكال الملكية هذه يبقى غير واضح وبالتالي فإن الصورة تبدو مشوهة

العلاقات الزراعية في أراضي البوليسات :

لقد كانت البوليسات أهم وحدة سياسية - إدارية للمجتمع السوري في الفترة ما بين القرن الأول وحتى القرن الثالث الميلادي . وكانت سلطة هذه البوليسات تمتد على حدود واسعة ، إلى حد ما خارج سور المدينة . فقد جاء في أحد الشواهد الأثرية التي

يعود تاريخها الى القرن الثالث ، — A.Maricq, Res gestae sq (أصدره) Res gestae divi Saporis. poris. «Syria», t35, 1955, PP.255-360), الجزء الذي يدون قصة إحدى حملات شاپور الأول على سورية أن هذا نهب المدن السورية التالية «وضواحيها» : انات ، بيرت ، اسبوراك ، سور ، بارباريك ، هيرابوليس ، بيرية ، خالكيد ، افاميا ، ريقانية ، زبغيم ، اوريم ، عيندار ، لارميناز ، سلوقية ، انطاكية ، قارة ، وسلوقية أخرى ، الاسكندرية ، نيقوبول ، سيندزار ، حماة ، اريست ، دنجور ، دولينا ، دورا ، قرقيسون ، غيرمانيكيا ، باتن ، وخنار . «وضاحية» كل مدينة من هذه المدن هي دون شك المنطقة التابعة لنفس البوليس .

كما وكانت المدن التجارية تملك مثل هذه الحدود ، خاصة تلك التي تهتم بتطور التجارة البحرية ومثال ذلك المدن الفينيقية . حيث يذكر سترابون e ton Ardion Parafia.(P.735) ويروي اريان (Arr.Anab,2,13,8) انه كانت تتبع لارواد مستوطنات مثل ماراتون وسيغون وماريام ويسمي اريان هذه المستوطنات بوليسات . وتلفت النظر تلك الألقاب التي يذكرها المؤلف (Arr.Anab.,2,13,7) -«ملك اراديان وجيران ارواد» . وهذا يسمح لنا بأن نقول بأن مملكة ارواد وحدود بوليس - ارواد لم تكن متطابقة وخاصة في نهاية القرن الرابع ق . م . ولكن مايرويه سترابون (P.753) يبين أنه كان هناك اتجاه لمطابقة هذين المفهومين . وعندما يذكر «ماراثون - البوليس الفينيقي القديم المهدم» سترابون يضيف أن الأرواديين احتلوا أراضيه وأراضي سيمير المجاورة . ومن الواضح أن الأراضي التي كانت سابقاً تتبع ماراثون أصبحت الآن تابعة لأرواد وبقيت الحال كما هي عليه حتى القرن في الأول .

ومعروفة أيضاً قرية بلاتنة - وهي قرية صيداوية تقع ، على ما يبدو ، على حدودهم . (Fl.IOS.BJ,1,539) كما وكانت منطقة الكرمل وأراضي أخرى تدخل في أملاك صور . (FL.IOS.BJ,35) وتكشف لنا المصادر المتوفرة لدينا عن حالات مشابهة في بقية المناطق السورية . كاللاذقية ، كما يروي سترابون (PP.751-752) كانت تملك منطقة مهمة لزراعة الكرمة فالتلال المحيطة بالمدينة كانت مغطاة تماماً بالكروم . وهذا مآدى الى تخصص اللاذقية في تصدير الكرمة حيث يروي سترابون أن القسم الأكبر من الخمر المصدرة الى الاسكندرية كان يأتي من اللاذقية .

وكانت افاميا تملك مساحات واسعة من الأراضي الزراعية . . (Strabo.P.752) وماله أهمية خاصة في رواية سترابون هذه أن المدينة كانت محاطة بعدد كبير من القرى المحصنة . وكانت حدودها تمر بمحاذاة نهر مارسي الذي يفصل أراضي افاميا عن محمية النازيرين (Plin,NH,5,81)

هذا ويتوفر لدينا نقشان سجلت فيهما أسماء القرى المتوضعة في الأراضي التابعة لأفاميا . ويذكر في احدهما (SEG,19,648) سورياً من قرية قبروزبادين . وفي الاخر (SEG,19,893) يجري الكلام عن احدى الأماكن المقدسة التابعة «لقرية الافاميين الفانا» . والجدير بالاهتمام هنا (وهذا مانجد له أمثلة مماثلة في الوثائق الواردة اليينا من دواربوروبوس) الأسماء السامية للقرى : Kaprozabdaion والتي توافق Kpr Zbdy : « القرية المهداة » و. L'phn – Elfana « الإله تجلى » . ويحمل الشخص الذي يتنسب الى القرية الأولى اسماً عربياً سورياً . عزيز أغريبو- Azizos Agripa. ونحن لانستطيع حتى الآن أن نعرف ما إذا كان سكان هذه القرى مواطنين من افاميا أم أنهم يتمتعون بالمواطنة فيها فقط . فعزیز أغريبو هذا لم يستطع وهو على قيد الحياة أن يعلن عن أنه أفامي الأصل بل كان مجبراً عندما يعرف عن نفسه أن يلجأ إلى صيغة معقدة تفيد أنه من احدى القرى الواقعة «ضمن حدود أفاميا . وهكذا يبدو أن عزيز أغريبو مواطن القرية التي كانت قائمة داخل حدود افاميا لم يكن مواطناً من المدينة . وبكلمات أخرى نريد أن نقول أنه الى جانب اليونانيين كان يوجد في أفاميا أناس ساميون (آراميون - سوريون ومن المحتمل - عرب) وإذا صح استنتاجنا هذا فقد كان هناك ليس فقط من يتمتع بالمواطنة الكاملة وإنما وجد أيضاً أناس يعيشون في قرى زراعية تابعة للمدينة وتدخل في تركيبها . وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن عزيز أغريبو أنهى أواخر أيامه في مدينة أغسطس تريفيروم فلا نستطيع التكهن بأن هذه الفئة كانت غير متمتعة بكامل حقوق المواطنة .

وكان هناك عدد كبير من هذه القرى داخل الحدود التابعة لانطاكية - Liban)ومن اشهرها قرية دفنة الواقعة على بعد أربعين مرحلة عن 231-230 انطاكية ويعرف سترابون هذه القرية بأنها Katoikia Metria . وتشير المصادر الى عدد آخر من هذه القرى . ويشير غ . ل . كورباتوف بحق إلى أن المنطقة الريفية التابعة لانطاكية كانت تشكل الجزء الأكبر من شمال سورية أما المنطقة التي كانت مرتبطة بها اقتصادياً فقد فاقت كثيراً مساحة هذه الـ Xora . ويروي لنا سترابون (P.751) أنه كانت لانطاكية حدود

مع كل من كوموجين وافاميا وقرة وكانت تروي أراضيها أنهار : ارقفت واورونت (العاصي) ولوبوت واينوبار . وتؤكد معطيات سترابون هذه مرة أخرى أن ماجاء به لبيانوس لا ينطبق على الوضع السائد في عصره فقط وإنما يرسم صورة صادقة لمرحلة أكثر تقدماً في العهد . فقد أدت الأبحاث الأرخيولوجية في شمال سورية ، بما في ذلك انطاكية الى اكتشاف بقايا عدد كبير من القرى التي يعود تاريخها الى العصر الروماني بما في ذلك الفترة الواقعة ما بين القرن الأول والثالث للميلاد .

ويروي كاسيوس ديون (78,37,3) ، ويعود تاريخ روايته هذا الى بداية القرن الثالث للميلاد أن احدى القرى التي كانت تابعة لمنطقة انطاكية كانت تبعد عن المدينة مسافة مئة وثمانين مرحلة أي ٢٢,٢ ميل .

ونعلم من وصف تدمير الذي وصلنا في « التاريخ الطبيعي » لبليبي الأكبر ، (5,88) أنه كانت تتبع لهذه المدينة منطقة واسعة من الأراضي . ويذكر كتاب التعرفة الجمركية ، الذي وصلنا من تدمير (CIS,2,3913) غير مرة « حدود تدمير » - (Oria) Palmurenon وفي النموذج الآرامي (Thwnyh) إلا أننا لم نستطع تحديد المنطقة الحدودية لهذه الأراضي إلا في عام ١٩٣٩ عندما نشر د . شلومبرجه النقوش التي وجدها هنا . حيث علمنا منها أن النقطة التي يقع فيها قصر الحير كانت الحد الفاصل بين حدود تدمير وحدود حمص والنقطة الثانية - خربة البلعاس - وكانت تشكل أيضاً نقطة فصل بين حدود تدمير وأحد جيرانها . وكانت هذه المنطقة موضع خلاف على ما يبدو فقد تم الاتفاق عليها مرات عديدة . وحددت للمرة الأولى عام ١٢/١١ م . في عهد ميتيل كريتيك سيلان ثم في عهد ترويان (حوالي عام ١٠٢) ومرة أخرى في عهد ارديان وقد أقرها من بعده انطونيويبي في عام ١٥٣ م ويقدم شلومبرجه اقتراحاً موفقاً لرسم حدود تدمير : في الشمال والشمال الشرقي - على امتداد الفرات ثم عبر منطقة سهل الرصافة في الجنوب حتى خربة البلعاس ومن هناك الى خربة الفي وعبر قصر الحير وسهل الضو .

لقد درس شلومبرجه المنطقة الشمالية الغربية من تدمير دراسة دقيقة ومفصلة ثم توصل الى أن هذه المنطقة كانت مسكونة من قبل قبائل متنقلة مارست مهنة الرعي ثم تحولت الى التحضر . وفي هذا المجال يثير اهتمامنا بشكل خاص الوصف الذي أعطاه بطليموس لتدمير في كتابه الشهير « الجغرافيا » (5,15,24) . حيث يعدد كافة البوليستات الموجودة في هذه المنطقة وطالما أن الكلام يجري عن « مدن تدمير » فنحن نستطيع أن

نتكهن أن هذه المدن كانت ولفترة طويلة خاضعة لسلطة تدمر . وفي كتاب التعرفة الجمركية التدمري المذكور (CIS,2,3913) يرمز الى القرى الريفية بمصطلح qry بالتالي Xoria . وفي أحد النقوش المكتشفة في خربة القيروان يوجد اهداء Lgdh dy qryt . واهداء مماثل Lgd dy qrt نشره ج . ستاركه عام ١٩٦٢ .

كما وكانت هناك منطقة ريفية واسعة تابعة لمدينة دورايوروبوس . وتشير المصادر الى عمليات بيع وشراء أراض في قرى تابعة لسلطات مدينة دورايوروبوس . وقد صيغت العقود المتعلقة بالأراضي الخاضعة لهذه Xomia في مدينة دورايوروبوس وحفظت في الأرشيف المحلي . ويمكن أن نذكر منها على سبيل المثال قرية تثير (DEPP.17A) ونصادف قرية أخرى في DEPP.20 ولكننا لم نستطع معرفة اسمها . أحد الوجوه الفاعلة في الوثيقة DEPP.25 شخص يدعى ليكتيوس بن ليكتيوس الذي يعيش في on Nabagatois Kome (i) tes Peri Gabalein iparxeias وكون الفقرة الأخيرة جاءت متعارضة مع أسماء القبائل المتعارف عليها « في دورايوروبوس » فهي على الأرجح دليل على أن ناباغاتا لم تكن تابعة للمدينة المذكورة خاصة والكلام هنا عن بيع أراض ليست تابعة للبوليس . وما يلفت النظر أيضاً أن هذه القرية تقع خارج حدود سلطة المدينة .

ونرى نفس الظاهرة في منطقة شرقي الأردن . حيث كانت تتبع مدينة جرش منطقة ريفية واسعة جداً .

مما تقدم نرى أنه لم يكن بإمكان البوليسات السورية ألا تكون مراكز هامة للإنتاج الزراعي .

وهكذا نرى أن المعطيات المتوفرة لدينا ، المباشرة ، وغير المباشرة ، تسمح لنا أن نقوم العلاقات الزراعية التي كانت سائدة في كل من تدمر ودورايوروبوس وانطاكية .

العلاقات الزراعية وعلاقات الملكية في تدمر القرن ١ - ٣ م

لا تحتوي النقوش التدمرية على كثرتها معطيات مباشرة تسمح لنا أن نلقي الضوء على علاقات الملكية التي كانت سائدة في تدمر في الفترة الزمنية التي نحن بصدددها . وحتى لائحة التعرفة الجمركية التدمرية المشهورة (CIS,2,3913) لا تتضمن معلومات

بهذا الشأن . غير أن هذه النقوش والنصب ولوحات القبور وغيرها تتضمن معلومات غير مباشرة تسمح لنا أن نوضح ، الى هذه الدرجة أو تلك ، ليس طابع علاقات الملكية السائدة بين العائلات فقط وإنما داخل العائلة نفسها أيضاً . والموضوع الرئيسي للملكية هنا كما وفي كل مكان آخر هو الأرض .

كما أننا نستطيع القول أنه تتوفر لدينا معلومات عن طابع الانتاج الزراعي في تدمر . ولكن هذه المعلومات مجتزأة ومبعثرة . فالنقوش التي وجدت في المنطقة الريفية المحيطة بتدمر تكرر غالباً كلمة بستان (gny) . فنقش خربة القيروان الذي مر ذكره معنا على (ص ٤٢) الى جانب اهداء «غاديّ القرية» يتضمن اهداء « غاديّ بستان » Lgd,dy gny . وفي نقش اخر من خربة ألدهور (عام ٢٣٨ - ٢٣٩) نقرأ كلمة gny على الأغلب ، « بساتين » . وأخيراً نقرأ في أحد النقوش التي نشرها ج ستاركه : اهداء «غاديّ بساتين» (lgd dy gny) وعدداً آخر من الآلهة . ومن هنا نستنتج أن البستنة كانت منتشرة في تدمر .

وتزودنا المصادر التدمرية . بمعطيات اضافية عن هذا القطاع من الانتاج الزراعي حيث تتكرر في هذه المصادر كلمة خمرة (hmr) ويبدو أن استخراج الخمرة كان يشكل قطاعاً رئيسياً في النشاط الانتاجي لأولئك الذين كانت بساتين الكرمة تحت تصرفهم . ومن الطريف أن نجد في إحدى الوثائق تعداداً لأنواع الخمور : « الخمرة الجديدة » (hmr) (hdt,RTP,701-702) «خمرة كثيفة» (hmr...qs'r,RTP,699-700) وهناك نوع آخر من الخمرة الكثيفة لم نستطع حتى الآن تحديد ماهيته وتسمى : (hmr...qs'r) (bsmk, RTP, 694-697) وعلى الأرجح أن مايميز هذا النوع الأخير عن سواه هو فقط طريقة استخراجه حيث تستخدم لهذا الهدف عصارات خاصة (Smk')

وتفيدنا لائحة التعرفة الجمركية التدمرية (CIS.2,3913) أن المنطقة الزراعية الريفية كانت تزود مدينة تدمر بالمواد الغذائية التي يرمز اليها النص اليوناني بـ : Ton broton والنص التدمري بـ : St'Mt: . ولقد علمتنا تجربة التاريخ القديم أن مثل هذه العملية الانتاجية تؤدي بالضرورة الى ولادة الاستثمارات الفردية وبعد ايقاف عملية التقسيم الدوري للأرض تتحول هذه الاستثمارات الى قاعدة تنمو عليها علاقات الملكية الخاصة .

ولكن ما تجدر الإشارة اليه أن المصادر التدمرية لا تفيدنا بأية معطيات مباشرة عن سير هذه العملية أو حتى وجودها في منطقة تدمر الريفية الزراعية . ولكي يتيسر لنا لقاء

بعض من ضوء على هذه النقطة يتحتم علينا أن نلجأ لتحليل النقوش التدمرية وخاصة شواهد القبور التي تحتوي على المعلومات المتعلقة بمختلف عمليات الملكية التي كان موضوعها الأضرحة . ويثير الفضول في هذا المجال مصطلح hd الذي جاء في أحد النقوش المكتشفة في بازورية (آذار عام ١٧١م) وهذا المصطلح يعني الملكية العشائرية الوراثية للأرض والتي يمنع منعاً باتاً إهداؤها أو هبتها أو بيعها خارج العشيرة إلا بشرط حق شرائها مستقبلاً أو استعادتها في العام اليوبيلي . ولكن في المرحلة الأخيرة انحى كل فرق بين الملكية العشائرية للأرض وبين ملكيتها المكتسبة (Miqna) ولم يستمر هذا الفرق إلا في المجال الاكليريوسي الأكثر محافظة ويسمح لنا مبدأ المقارنة بالقول أن تدمر أيضاً عرفت مثل هذه العملية حيث كان يرمز للمقابر هناد : Hd ولكن مؤلف النقش سعى لأن يظهر أن هذه العملية لا تخرج عن اطار الملكية العشائرية غير القابلة لعمليات نقل الملكية .

تحتوي المصادر التدمرية المعروفة والمنشورة حتى الآن صيغاً لمختلف أنواع المحظورات . وقد أورد النقش CIS,2,4218 النموذج الأول للمحظورات المذكورة : « فلتبق هذه المشكاة مغلقة إلى الأبد لا يفتحها عليه أحد . فلتنقطع ذرية كل من يفتحها ولحرم من كل مساعدة (gr) إلى الأبد ، بل وليحرم من العدل (Wl.Yqst) وليبق إلى الأبد محتاج الى الخبز والماء » .

ومن الواضح أن هذه المقولات لاعلاقة لها بأية عمليات تجارية وهدفها هو المحافظة على حرمة القبر فقط وحمايته من اللصوص . وكانت النصوص التي يعود تاريخها الى ما قبل العصر الهلنستي بكثير قد أشارت الى مثل هذه الظاهرة وعلى وجه الخصوص النصوص الفينيقية^(١) والآرامية القديمة^(٢) التي وجدت على شواهد القبور . إلا أن صياغتها تختلف .

وهناك نوع آخر من المحظورات وهو يتعلق بالعمليات التجارية وعمليات البيع والشراء وما شابه . وتجدر الإشارة هنا الى النقش CIS,2,4214 . حيث جاء في النص اليوناني لهذا النقش : « لقد بنيت هذا النصب وكرسته لأولادي وأحفادي الذكور بحيث لا يقبلون فيه أي شريك تماماً كما كتبت » . وهناك نص تدمري شبيه به : « هذا القبر الذي شيدته لأبنائي وأحفادي الذكور (dkryn) » .

١ - نشير ، على سبيل المثال الى نقش اهيرام . لجيبلي 1, kAl, ي . ن . فينيكوف ، قرية اهيرام الجبيلي في مفهوم جديد « دليل التاريخ القديم ١٩٥٢ رقم ٤) وقبرية يهاميلك ملك جبيل 1, CIS, : يقابل (kAl,10) وكذلك خبر ملك صور تايبتا .
٢ - مثلاً في النقوش المكتشفة في نيراب (I, haudbuuch.pjzd I, kAl,225,M.Lidzbav,1vi, المؤرخة في القرن السابع قبل الميلاد

وليس لهم الحق ببيعه أو التصرف به أو قبول شركاء لهم/ فيه $wl'Yhwh[s']tynwlb'r$ $wl'hbwr brh$ حسب ما كتبت . كما ونجد صيغاً مماثلة في النقوش CIS.24215 («لا يسمح لأحد أن يتصرف به») ، 4217 . ومن الجدير بالذكر أن هذه الظاهرة لم تكن ظاهرة تدمرية خاصة . وكل ما تتميز به النصب التدمرية أنها لم تسجل حجم الغرامة المترتبة على مخالفة وصية المشيد كما هي الحال في المناطق الأخرى .

لا شك أنه كان لهذه المحظورات أهمية عملية محددة . فعدم وجودها كان يعني وجود امكانية حقيقية لخضوع هذه القبور لعمليات البيع والشراء وغيرها وذلك حسب القانون التدمري نفسه . حيث يرمز لمثل هذه العمليات بـ : $rhq\ hbr$.

فالنقش CIS,2,4211 يسجل عمليات من النموذج hbr (آب عام ١٣٧ م .) وهانحن ننقل الترجمة اليونانية للنص المثبت في هذا النقش :
«لقد قبل يوليوس افيريلي يفتيخ بن أغاي شريكاً له في المقبرة هوغاي يوليوس غيرمبي - أخاه بعد بنائها سوياً قام الاثنان بترميمها على نفقتهما الخاصة لصالحتهما ولأبنائهما وأحفادهما وكذلك تكريماً لأبناء ماين أخيهما . كان ذلك في شهر دووس عام ٥٤٨ » . أما القسم التدمري من هذه الوثيقة فتألف تماماً ولم يصلنا منه سوى الأسطر الثلاث الأولى : «يوليوس افيريلي يفتيخ بن . اغاي اتخذ لنفسه شريكاً hbr في هذه المقبرة ($b'yt$) هذا الغاي يولي غيرمبي أخاه الذي » .

من المرجح ان لا تكون لدى هؤلاء الأخوة ملكية جماعية ذلك أن حيازتهم المشتركة لأرض المقبرة قد صيغت كعقد بين أطراف مستقلة اقتصادياً . بالتالي مانراه أمانا ليس إلا حادثاً مرتبطاً بعملية انشطار عشيرة العائلة الكبيرة وخروج خلايا اقتصادية منها ، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الخلايا الصغيرة مستقلة من الناحيتين الاقتصادية والقانونية . وهذا ما يؤكد النقش : CIS,2,4197 ، (عام ٨١) حيث يجري الكلام عن ترميم مقبرة من قبل أشخاص لا يشار إلى صلة القربى التي تجمعهم . أما الفرضية المقترحة ، في التعليقات على النقش بخصوص علاقات القربى بينهم فليس لدينا ما يؤكدها .

ويروي لنا نقشان آخران CIS,2,4194 و4195 عن عمليات مشابهة ليشامش بن ليشامش بن تايبي . لقد اتخذ هذا لنفسه شريكاً (hbr) هو سراي بن زابديعات بن عطا قاب حيث قدم له في آذار عام ١٨١ مصطبة وست فجوات مقبرية . ($gwmhy'$) وكذلك حصل بوني بن بولاخ بن يقرور على ثمانين فجوات مقبرية . وقد جرت مثل هذه العمليات لمقبرة يوليوس افيريلي مالي في عام ١٨٣ وعام ٢١٥ .

وترمز النقوش التدمرية للنوع الآخر من هذه العمليات بفعل rhq ، والمعنى المتعارف عليه لهذا الفعل هو «يصبح معزولاً» «يقصي»^(٣) . وقد سجلت هذه العملية سلسلة النقوش التي نشرها ب. ك. كوكوفتسوف والتي اكتشفت في مغارة الجديدة (CIS,2,4171,4175) ويعود تاريخها لعام ١٦٠ وعام ١٩١ م . ويحدو كوكوفتسوف حدو كليرمون - غانوف في تفسير الفعل rhq الذي هو ترجمة حرفية للفعل اليوناني exestesato أي («تخلّى عن» ، «حرم من») والذي كان يستعمل للدلالة على العمليات المتعلقة بالتصرف بالملكية . وتجدر الإشارة إلى أن استخدام مصطلح rhq في الوثائق الواردة إلينا من إيليفانتينا ليس ترجمة للمصطلح اليوناني إلى اللغة الآرامية وإنما هو تطابق تقليديين حقوقيين - محلي وهلنستي . ومن الطريف أن نجد في لائحة مقبرة نصر اللات أن المصطلح التدمري rhq يقابله المصطلح اليوناني exekHopesen . كما نجد مثلاً آخر لمثل هذه العملية في أحد النقوش التي نشرها ج. كانتينوف عام ١٩٣٠ . لقد أعطى كوكوفتسوف الفعل rhq الوارد في هذه النقوش معنى الكلمة الروسية «تخلّى عن» . ولا زال المحتوى القانوني لهاتين العمليتين غير واضح حتى الآن . ولكن هذا لا يمنعنا من دراسة بعض خصائصها .

يؤكد عدد كبير من الوثائق أنه بموجب عمليات الصنف الثاني المرموزة بالمصطلح rhq كان المالك السابق يفقد كامل سلطته على الجزء المباع أو المهدي من الضريح . وكان باستطاعة المالك الجديد أن ينقل ملكية القسم الذي يعود إليه إلى شخص ثالث . وهذا ما حدث فعلاً لمقبرة مالك التي انتقلت ملكيتها لعدد من الأشخاص وقد نشر ج. انكهولت عدداً كبيراً من الوثائق التي تم اكتشافها في هذه المقبرة . من هنا نستطيع أن نستنتج أن العمليات المرموزة بالمصطلح rhq كانت تعطي المالك الجديد مطلق الصلاحية في موضوع الملكية التي اكتسبها . بمعنى آخر إن ما تراه هو وجود الملكية الخاصة للمقابر .

أما العمليات المرموزة بالمصطلح hbr فقد كانت ذات محتوى حقوقي آخر . وهذا ما يدل عليه علم اشتقاق المصطلحات التدمرية ، ويمكن أن نفترض أن الكلام إنما جرى ليس عن اقتطاع قطعة من الأرض فقط وإنما تقديم حصة ، أي أن الذي أمامنا هو ظهور الملكية الجماعية للممتلكات التي هي موضوع العملية . فقد تم تحديد قطعة من الأرض لكل من

٣ - تسجل الوثائق المكتشفة في إيليفانتينا مصطلح mrhq الذي كان يستخدم للدلالة على رفع موضوع عملية البيع والشراء من مجال صلاحيات فاعل العملية . ومن الطريف حقاً أن هذا المصطلح لا يس الجانِب الحقوقي للعملية . أما أن كلمة mrhq كانت ترمز في تدمر إلى أحد صنفَي العمليات فهذا ليس إلا نتيجة لعملية تطوّر طويلة وسابقة .

المشاركين في العملية يستخدمها كما يشاء . ولكن هذه الأرض التي قسمت على الجميع ليست سوى ملكية جماعية . أي أن التملك الشخصي بدأ يظهر ، ولكن في إطار الملكية الجماعية . وفي القرن الثاني بعد الميلاد تظهر إحدى الخصائص الفريدة للوضع القانوني لهذا الصنف من التملك . فقد غدت عمليات hbr عبارة بيع حقيقي لهذه الملكية ولم تعد ، كما في السابق تقديم حصة من ملكية الجماعة ، وفي إطارها . في عام ١٩٣٠ نشر ج . كاتينو إحدى الوثائق التدمرية التي وافق فيها المصطلح التدمري hbr المصطلح اليوناني exekhoresen - «تنازل عن» . (يعود تاريخ هذا النص لنيسان عام ١٩١ م .) . وهكذا يتضح لنا أن الفرق بين هذين الصنفين من العمليات بدأ يتلاشى . كما وبدأت تتلاشى أيضاً الملكية الجماعية .

يمثل أهمية خاصة في هذا السياق النقشان اللذان يحتويان على نسخة طبق الأصل أو على عرض (وهنا نجد صعوبة خاصة في أن ندقق المعنى أكثر من ذلك) للوثائق العملية المطابقة . أحدهما من مقبرة مالك وقد نشرها خ . انكهولت في عام ١٩٦٢ ويعود تاريخه لعام ٢١٤ م - وجاء فيه « في شهر أيلول من عام ٥٢٥ . يوليوس افريلي عيد بيل الملقب بمزبنة وهو ابن يوليوس افريلي انين . لقد قدمت ما كتبته يدي نيابة عن يوليوس بن افريلي الى عقيل بن ابراهات ، العبد المحرر (brhry) زبيديبول ، ذلك أنه لا يعرف الكتابة ، بما أعلنه هـ يوليوس افريلي اغريبا بن اغتاب عبد هيلودور بن يرخيول المحرر عن أنه يمنحه (lwtlh) حصة في الدار (brbw't) التي تقع مقابل الثلاث فجوات (gwmhyn) العائدة ملكيتها لاغريبا ولكن بشرط (md'nkl lmtl dy) أن يكون نصف هذه الحصة ملكاً له (mnth) ، نصف له ، والمدى (rwh') حتى الفجوات الثلاث له أيضاً ، وأنه سوف يحافظ ولن يكون له الحق (wl'yh'slyth) في توسيع حصته هذه داخل الدار (lmrh l'lw'h l'rbw't') بأية طريقة كانت ، وإذا هو أراد أن يبني في حصته أيّ نصب (hwlwhmd'n) ، حجراً أم جداراً من الكلس (ktl dy hwr') أو من الطين (hmryn) بحيث يزيد من مساحة جهته . يوليوس افريلي نيشابن برعاتينما ، شاهد ، يوليوس افريلي يرخبول بن مالك ، شاهد .

من الواضح أن هذه العملية من صنف rhq . وتؤكد مقارنتها مع وثيقة مور ٣٠ أن طريقة رسم حدود العقار المنقول كما جاءت في هذا النقش ، وكذلك في الوثائق الأخرى التي تنص على مثل هذه البنود تتطابق مع الطريقة التي ترسم بها حدود قطعة أرض منقولة . وهذا يحملنا على الاعتقاد بأن عقود نقل ملكية الأرض كانت المقياس المعتمد لنقل ملكية العقارات وغيرها من الأملاك .

لدينا نقش آخر يحوي نصاً مماثلاً وقد وصلنا من البازورية ويعود تاريخه الى آذار عام ٤٨٢ . ويقول النص : « في شهر أيار عام ٤٨٢ . سلمى ابنة بولاخ بن بوروفانيابة عن (bmqmwt) عقيل بن بوروفا ، زوجها وموكلها (wgnsts) يداي بن فايلاي يعلنون (mwdy) للملك بن مقيم بن عوكي أنها استلمت منه مئة وعشرين ديناراً من الفضة أعطته مقابلها (wthwthln) ونقلت اليه (yhbtlhwb'dt) ن [ص] ف الحصة التي تملكها هي (p[l]gwt mnt''hd'dydh) وهي عبارة عن مقبرة مؤلفة من ثلاثة أقسام (mnmnwn tlt m'rt dydqbwr) سجلت مرتين طريقك من مكان الحزن هذا عبر حصتك (s'mik) (١٠) مفتوح باتجاه الشرق سوية مع مالك (b'swtpwt) وبمشاركة (ws'wtpwt) عقيل زوجها . وكل حصة - ثلاثة أكواع التي أعطتها هي الى مالك » إن ما يميز هذا النص هو التأكيد على أهلية المرأة .

كما هو واضح ، تقسم الوثائق الواردة أعلاه الى : الصيغة التأريخية ، الاطراف المشاركة في العملية ، عرض لجوهر العملية والشهود . ويحتوي عرض جوهر العملية بدوره البنود التالية : التأكيد على فعل النقل نفسه ، تحديد العقارات الخاضعة لعملية النقل ثم منع توسيع حدود العقار المنقول . الوثيقتان ، كما هو واضح صيغتا على شكل اعلان موجه من البائع الى الشاري . وتؤكد مقارنة هذه المواد مع المواد التي وصلتنا من ايليفانتينا (١١) أن صياغة عقود نقل الملكية على هذا الشكل هو تقليد محلي يعود تاريخه الى ما قبل العصر الهلنستي .

لا شك أن المواد التي عرضناها تسمح لنا أن نقول بكل ثقة بأن الملكية الخاصة للأرض كانت موجودة في تدمر والمنطقة التابعة لها .

٤- قارن الكلمة العربية شملن - S'amlun أي «شمل» ، «شيء ما مستقل» .

٥- من المعروف أن اطراف العمليات التي سجلتها وثائق اليفانتينا تدخل الصيغة التالية في كل وثائق نقل الملكية : « قال س بن ع ل . ز بن ن » أما الوثيقة نفسها فكانت عبارة عن إعلان موجه من أحد أطراف العملية الى طرفها الآخر يلخص فيه الطرف الأول جوهر العملية والشروط التي يتوجب على الطرف الآخر تنفيذها والتقيدها . أما واجبات الطرف الأول فتعتبر متفذة قبل البدء بالعملية (انظر R.yaron.Introduction) وقد بقي هذا الشكل من صياغة الوثائق حتى القرن الثاني الميلادي (ي . د . اموسين ، العقد الآرامي عام ١٣٤ م . في منطقة البحر الميت ، العالم القديم ، موسكو عام ١٩٦٢ .

العلاقات الزراعية في دورايبورو بوس

لقد وصلتنا من دورايبورو بوس سلسلة من الوثائق التي يعود تاريخها إلى مرحلة تاريخية قريبة من تلك التي وصلتنا من تدمر كما أنها ليست بعيدة عنها من الناحية الجغرافية أيضاً وهي تنقل إلينا نفس الصورة التي أعطينا إياها الوثائق التدمرية .

أول ما تجب الإشارة إليه هو الرُّقم الآرامي الذي وجد في برج قاذفٍ السهام ويعود تاريخه لعام ٢٠٠ م . ويشير ناشر هذه الوثيقة إلى أن طابعها لا يزال غير واضح حتى الآن . وهي تتألف من عدد كبير من المقاطع . ويعتقد ج . ث . ميليك - ناشر الوثيقة - أن الرُّقم عبارة عن وصية تحتوي على نصائح مختلفة في مجال الاقتصاد بما في ذلك مسائل العمل الزراعي .

يأتي نص الوثيقة على ذكر النخيل (tmr) ولكن الارشادات المتعلقة به غير واضحة . ويتبع ذلك نصائح بخصوص ريّ أشجار التين (rwyyln[y]) . وأغلب الظن أن الرُّقم احتوى على أوامر بخصوص ضريبة العبادة والطقوس الدينية (e[ˈsyry[nd']ˈsrh]) بمقدار العشر من كافة محاصيل الحبوب (mnkl gnsyh[wnd]zr[y]) . تنصح الوثيقة بزراعة الحبوب «حبوباً صيفية» (zr'h[d]qyt[']) . من المفروض أن يأتي «البستاني» (gnyh) ، قد يكون المقصود هنا ذلك الذي يشرف على إدارة الاستئارة ، مع أن كلمة prns غير موجودة ؟) بالحبوب خلال ثلاثة أيام - الشعير (s'r[y]) وباقي المحصول (ws[']wr'lylt) . نعتقد أن ما يقصد به هنا هو جلب الحبوب إلى عنبر المزارع بعد تحضير الأرض لاستقبال البذار . عندما تتم حراثة حقل مزروع بالقصب (bytsygly) ينصح ببذره شعيراً (s'ry) وريّه جيداً .

من الواضح أن واضع هذه الوثيقة يوجه نصائحه إلى مالك مفترض لمجمع زراعي معقد . حيث نجد هنا مزارع النخيل وكروم التين والحبوب . كما وتفترض هنا إمكانية استصلاح الأراضي المهجورة . ولا شك أن هذه المزرعة لم تكن الوحيدة في أراضي دورايبورو بوس . وتفيدنا في هذا المجال الوثيقة DEPP, 15 : والتي تتحدث عن بيع قطعة من الأرض تحتوي على أشجار وبيت مع كافة خدماته وحدائق و«كل هذا تابع له» . ولكننا حتى الآن لانعرف سقف مساحة مثل هذه المزارع كما لانعرف أيضاً مستوى التناسب بين الملكية الكبيرة والملكية الصغيرة للأرض .

وعلى ما يبدو أننا نستطيع تقسيم الأراضي التي خضعت لعمليات البيع والشراء في دورايوروبوس . الى ثلاث فئات . الأولى - D.Pg.,2, khora يقابل (DEPP,17,DEPP,26) يقابل (D.Pg101) ، والثانية - هي الأراضي التي من فئة 'ue epifuteike' (DEPP,25) يقابل (D.Pg.23) ، والثالثة - 'kle'ros - « حصّة » . ولكن النص الذي بين يدينا يسجل عملية نقل فئة واحدة من الأراضي فقط . (DEPP,15) يقابل (D.Pg.1) ولكن لا شك في أن كل الفئات المذكورة كانت تخضع لعملية البيع والشراء وهذا ما يؤكد وضعها القانوني الواحد في القرن الثاني والقرن الثالث للميلاد . وتجدر الإشارة هنا الى أن ما يجري الكلام عنه في الوثيقة DEPP.15 هو بيع جزء من الكلير الذي خضع سابقاً لعمليات متعددة من البيع والشراء مما أدى الى تقسيمه الى أجزاء . أمّا التمايز في استخدام المصطلحات فلا نعتقد أنه يعكس ظواهر من واقع المرحلة القائمة وإنما يعكس وقائع تعود الى التاريخ البعيد أو الأكثر قرباً . إنها بقايا من الماضي ولم تكن لها أية فاعلية قانونية .

مع أنه لم تكن لهذه الفروقات فاعلية قانونية إلا أنها تؤكد أنه إلى جانب أراضي المدينة نفسها (khora) كانت ضواحي دورايوروبوس تضم أراضي القيصر التي كان السلوقيون يؤجرونها حتى أصبح استئجارها وراثياً فيما إذا تابع الوريث استثمارها دون انقطاع وأدى بعض الاتاوات ('ue'epifuteetike) وكذلك كان وضع الكليرات - وهي الأراضي التي حصل عليها الجنود لقاء خدمتهم العسكرية .

أن المواد التي نحن بصدددها والتي تهمنا كثيراً في هذا المجال نجدها مسجلة في العمليات التالية المتعلقة بالأرض .

تحتوي الوثيقة DEPP,15 (القرن الثاني الميلادي) على عقد بيع أرض مع حق إعادة شرائها ثانية (وهذا ما تشير اليه الصيغة apedoto lysima ، انظر تعليقات س بريدفورد ويلليس) . تباع هذه القطعة من الأرض بـ ٢٤٠ دراخم ، مئة وعشرون منها كانت ديناً للبائع بذمة اميننادر «باسمه» والباقي عبارة عن غرامات مستحقة على المدين . لقد كانت هذه الأرض رهناً لدى البائع وقد تمت عملية البيع بعد انقضاء المدة المحددة لاستيفاء الدين .

وفي وثيقة أخرى (DEPP,25) يباع نصف البستان وتشير الوثيقة الى مكان توضع الأرض المباعة كما وتؤكد على بيع الأشجار وعرائش العنب وكل ما هو ملحق بهذا البستان . وتسجل الوثيقة بنداً خاصاً يحمي الشاري من أية مطالبات جانبية تتعلق بموضوع الملكية التي اشتراها .

ولكن الوثيقة التي تحظى بأكبر قدر من الاهتمام هي DEPP, 26 وكانت قد وضعت على أساس القوانين الهلنستية المحلية والتي اعتمدتها القوانين الرومانية أيضاً . وجاء في نصها «الأعلى» : «لقد اشترى [يو] ل [ي] موسديميوس ، الذي كان فيما مضى محار [با] في الكتبية الأ[غسطسية] الثالثة ، والذي يعيش الآن في راكوكيتا ، من اثيرنوس بن عبداب من [قرية] سهرادا - أوراي أرضاً تعود ملكيتها له ، وتقع داخل حدود هذه القرية [ية] التي اشتراها هو نفسه من عبيب ابن قريته زايرادا - سهراري ، التي يسميها الاثنان معاً قرقفة ، عام ١٧٥ » . أما النص «السفلي» فقد جاء فيه : «في عهد القنصلين نوموس ألبين و ليليوس مكسيم وفي اليوم السابع قبل الأيام الأولى من شهر حزيران وبحضور الرجال الموقعين أدناه على أختامهم الشخصية ، في صهارا ، وفي الثكنات الشتوية التابعة للكتبية الاغسطسية الثالثة . اشترى يوليوس ديميريوس الذي كان فيما مضى جندياً من جنود الكتبية المذكورة ، والذي يعيش حالياً في راكوكيتا ، من اثيرنوس بن عبداب من قرية صهاريدا - أواراي ، أرضاً تعود ملكيتها له وهي واقعة في المنطقة المحيطة بهذه القرية وكان هو نفسه قد اشتراها بالحجم الذي هي فيه من عبيب بن بوزان ابن قريته في زايرادا - سهراري والتي يسميها الاثنان معاً قرقفة ، مع طريق للدخول إليها والخروج منها بالإضافة إلى الأشجار المثمرة وغير المثمرة ومع كل الحقوق المتعلقة بهذه الأرض . بثمن قدره مئة وخمسة وسبعين دينارا ، استلمها البائع من الشاري ونقل اليه ملكية الأرض لتصبح ملكاً قانونياً إلى الأبد يستخدمها ، يبيعها يتصرف بها كما يشاء^(٦) . جيران هذه الأرض : من الشرق - قناة مائية لنهر الخابور ، من الغرب - كرم العنب الذي تعود ملكيته للبائع ، من الجنوب - عبد اللات ، من الشمال - أرض البائع وأرض عبد اللات . وإذا سقط أحدهم سهواً فلن يكون هذا عائقاً لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل . حتى الآن كان في هذه الأرض ٦٠٠ غرسة عنب . لقد سلم البائع هذه الأرض الى الشاري سليمة من كل أذية وغير مرهونة أو مختلف عليها أو مطالب بها . أما إذا لم يسلمها هكذا وطالب أحدهم بحق له فيها أو بقسم منها فيتوجب على البائع القيام بكافة الاجراءات القانونية والمحاكمات الكفيلة بإعادتها له خالية من كل مطلب وإذا لم يستطع فيدفع له ضعف ثمنها مع كافة المصاريف^(٧) . كما ويعطي البائع كل ما يترتب على هذه لتنفيذ الأمر الامبراطوري والأتاوة الريفية . يتمتع هذا العقد

٦- نفس الصيغة تقريباً نجدها في MYP. (عام ١٣٤) .

٧- قارن Mpv.30 «كل ما عندي وما سأشتريه - ضمانة لافراغ ما يعته لك من أي اعتراض أو مطلب» .

بكل قوته حيثما أبرز . لقد سأل الشاري بكل شرف وضمير وأجابته اثيرنوس البائع بكل شرف وضمير . لقد كتب هذا العقد اثيريلي سلمان ، المحارب القديم نيابة عن اثيرنوس بن عبداب ، الامي ، والذي يؤكد أنه باع أرضه هذه وقبض ثمنها مئة وخمسة وسبعين ديناراً وهو موافق على ماورد أعلاه . فلأفي سيرابيون - رسول بابوي وضع توقيعه . يوليوس ديوجين - أشهد . كلافريوس فيودور - تاجر جملة ، وضع توقيعه . يوليوس مونيم - محاسب ، وضع توقيعه . خيبون فلافي وضع توقيعه «هذه الوثيقة التي وصلتنا من دورايوروبوس نظمت على غط الوثائق اليونانية الهلنستية من النموذج paraA epriatoB والذي يتمتع بانتشار واسع في الحياة العملية اليونانية . وسوف نشير هنا إلى أهم الخصائص التي يتميز بها هذا النموذج . افتتاحيته - صيغة تأريخية حسب العصر الروماني (العام حسب القنصل واليوم حسب التعداد الروماني) . ثم يذكر المكان الذي تجري فيه العملية ويشار إلى وجود الشهود . أما جوهر العملية فيصاغ على الشكل التالي : اسمي طرفي العملية (اشترى A من B) ، وصف المكان وما فيه ، السعر واستلام الثمن ، حقوق البائع والحدود . ثم يشار إلى أن العملية شريفة كما يشار إلى الضمانات التي يترتب على البائع اعطاؤها فيما إذا كانت الملكية المباعة تخضع لمطالبات الآخرين . وهنا يترتب على البائع القيام بكافة الاجراءات الكفيلة بتخليص الملكية المباعة لصالح الشاري أو دفع قيمتها مضاعفة مع تعويض الخسائر .

مواد لدراسة العلاقات الزراعية في انطاكية

ومع أنه لا تتوفر لدينا المعطيات الكافية لاعطاء صورة كاملة عن العلاقات الزراعية في انطاكية في القرن الأول وحتى الثالث ولكن وثائق يعود تاريخها الى مرحلة متأخرة توفر لنا امكانية تحديد بعض اتجاهات التطور التي يتصف بها هذا البوليس . فقد تجلت الاتجاهات المذكورة ، قبل كل شيء ، في انشاء ملكيات عقارية كبيرة وفي تجميع عدد كبير من قطع الأرض الصغيرة والمتوسطة في أيدي قلة من الناس . وكانت هذه الاستثمارات تضم مساحات واسعة من الأراضي (loan.Chrys.,In Matth.63,4) وعدداً كبيراً من البيوت والحمامات . كما وكان العبيد العنصر الذي لاغنى عن وجوده في هذه الاستثمارات . وهكذا فالتشابه واضح بين هذه الصورة وتلك التي تسمح برسمها الوثائق التي وصلتنا من دورايوروبوس . ويؤكد مصدرنا المذكور أن القطبين الاجتماعيين الرئيسيين كانا يشكلان

أقلية (١/٣) الاغنياء و (١/٣) الفقراء) بينما كانت الشريحة الوسطى تشكل الجزء الأعظم من الجماهير . وكانت هي التي تملك قطع الأرض «المتوسطة» المساحة . ومن المعتقد أنه لم يطرأ أي تغيير جوهري على الوضع الذي كان قائماً في المرحلة التي نحن بصددتها بالمقارنة مع الصورة التي ترسمها المصادر التي يعود تاريخها لمرحلة متأخرة أكثر .

منطقة شرقي الاردن

يعتبر النقش GRR,3,1341 من أهم الوثائق التي بين يدينا بخصوص تقويم العلاقات الزراعية في منطقة شرقي الاردن . وقد تم اكتشاف هذه الوثيقة في منطقة غير بعيدة عن مدينة جرش وهي تحتوي على مرسوم يحدد الغرامات التي تفرض على الأشخاص الذين قد ينتهكون حرمة الكرامين . ولكن مع الأسف فإن الوثيقة لا تسجل أية معطيات تسمح لنا بتحديد منشئها (هل هي أمر امبراطوري أم أنها نص لقرار اتخذته سلطات المدينة) ولكنها مع ذلك تسمح لنا بإبراز نقطتين جوهريتين : التطور الملحوظ لزراعة الكرمة في المنطقة المحيطة بمدينة جرش وسيطرة علاقات الملكية الخاصة هنا . كما ويلفت النظر أيضاً حجم الغرامات المذكورة والذي يصل الى خمسين ديناراً .

العلاقات الزراعية في المستعمرات الرومانية

من المعروف أنه عندما تأسست المستعمرات الرومانية حصل مستوطنوها على إقطاع من الأرض مساحتها متقاربة . ومن الطبيعي ألا تكون بيروت و بعلبك استثناء لهذه القاعدة ولكن لا تتوفر لدينا حتى الآن أية معطيات أو وثائق يعود مصدرها إلى هاتين المدينتين بالذات . ولكننا نستطيع أن نفترض أن النظام القائم هناك لم يكن ليشتمل بجوهره عن الحالات المماثلة التي عرفت بها بقية أجزاء الامبراطورية .

تخفى النتائج التي توصل إليها ف . ي فان لييري عن العلاقات الزراعية في حصص باهتمام متزايد من قبل الباحثين . فقد أكدت هذه النتائج أنه في الوقت الذي أقرت فيه وضعية هذه المدينة كمستعمرة كانت تجري هنا عملية مساواة في ملكية الأراضي الموزعة على المستوطنين . ويتضح من أبحاث واستقراءات ف . ي فان لييري

أنه جرت هنا إعادة توزيع الأرض ، ومن المرجح أن يكون السبب في ذلك قدوم موجة جديدة من المستوطنين .

بمعنى آخر ، إن حصول المدينة على وضعية المستعمرة كان يجزّ وراءه (وهذا ما حدث للمدينة التي نحن بصدددها) تغيرات جوهرية في الحياة الاجتماعية - الاقتصادية للبوليس المعني . غير أن المعطيات المتوفرة لدينا عن مخطط مدينة حمص لا تسمح لنا بتحديد مساحات قطع الأرض التي جرى توزيعها . ولكن هناك ثلاث نقاط تلفت النظر إليها : ١) ليس هناك تماثل بين هذه القطع ، ٢) مساحاتها صغيرة نسبياً ، حتى القطع الكبيرة منها ، ٣) لم ينسحب نظام التقسيم المتساوي على كل أراضي حمص . ولكن هل هذا يعني بقاءها جزئياً لسكان المدينة السابقين وعدم تأثر الأراضي التي يملكونها بالإصلاح الجديد الذي رافق تحول المدينة الى مستعمرة ؟ يجب اعتبار هذه الفرضية ممكنة .

وأغلب الظن أن الأوضاع في باقي المستعمرات كانت مماثلة أيضاً .

x x x x x x x
x x x x x, x x

تأسيساً على ما سبق نستطيع الآن أن نؤكد أن الملكية الخاصة للأرض كانت هي السائدة في المدن السورية والمناطق التابعة لها في الفترة من القرن الأول وحتى الثالث للميلاد . والحقيقة أنه يمكننا أن نعتبر أن القانون الذي تسحب بموجبه الأرض من مالكيها فيما إذا لم يستخدمها لمدة سنتين وتصبح ملكاً قانونياً لصاحبها الجديد - هذا القانون كان ساري المفعول في سورية أيضاً . وتؤكد ي . م . شتايرمن أن هذا القانون ليس سوى نتيجة لاعتبار كل قطعة جزءاً لا يتجزأ من الوحدة الكلية التي هي أراضي المدينة ككل فلم تكن المدينة لتسمح ، مهما كانت الظروف بإيقاف عملية استثمار أراضيها ولذلك كانت تعطيتها للشخص الذي يستطيع استثمارها فقط . بكلمات أخرى لقد كانت المدينة هي صاحبة الحق المطلق في التصرف بهذه الأراضي . ولكننا في نفس الوقت لا نملك أية معطيات يستتبع منها أن المدينة كانت عائقاً أمام تحقيق صاحب الأرض للملكية على أرضه الخاصة .

ولو عدنا الى عقود بيع وشراء الأرض لما وجدنا فيها اشارة لتأثير ما كانت المدينة تمارسه على هذه العمليات . فقد كانت الفاعلية القانونية لهذه العقود أصيلة فيها ولم تكن بحاجة للتصديق من سلطات المدينة.. إذاً المدينة لم تكن مالكة أعلى للأرض وإنما الادارة السياسية التي تمارس سيادتها على الأراضي التابعة لها ضمن هذا الاطار السياسي فقط . فالمدينة هي صاحبة السيادة على الأراضي الواقعة داخل حدودها وكان طبيعياً أن تطلب من مالك ما تحقيق سيادتها هذه على الأراضي التي هي ملكه ، أي مصادرتها منه . في حال عدم قيامه بواجباته وجعلها ملكاً لغيره . وفي نهاية الأمر فإن أية سلطة سوف تفرض نظاماً معيناً لضبط مسألة تحقيق حقوق المالك تجاه أملاكه بشكل لا تسمح له فيه أن يسيء استخدام هذه الحقوق . ولم تكن المدن السورية استثناء لهذه القاعدة .

لقد رأينا أن الأرض كانت موضوع بيع وشراء مما خلق امكانية واقعية لتمرکز ملكية الأراضي في أيدي قلة وانتزاعها من مالكيها المفلسين . وتؤكد الوثائق التي وصلتنا من دورايوروبوس أن هذه الامكانية كانت تأخذ شكلاً واقعياً بصورة مستمرة . فنحن نرى هنا انتقال ملكية الأرض الناتج عن عدم توفر القدرة على ايفاء الدين المستحق ، أي أننا أمام حالة فقد فيها انسان ما وسيلة عيشه وأساس استقلاله . ونرى من جهة أخرى المحارب الروماني الذي حصل على الأرض . وناريخ هذه الأرض بحد ذاته ذو دلالة خاصة : فالقطعة من الأرض التي حصل عليها هذا الروماني كان قد اشتراها شخص ما ليجمع أملاكه في دائرة واحدة . بعد ذلك تباع لشخص ليست له أملاك قريبة . وهنا قد يكون الشاري يملك أرضاً للمرة الأولى بهدف ترسيخ أقدامه في القرية المعينة ، وقد يكون الشاري مالكة لعقارات ما ويود توسيعها . ونحن نرجح الحالة الثانية حيث تشير الوثائق الى أن الشاري هو من سكان القرية المعينة وعلى الأرجح كان يملك هنا أرضاً ما .

إذاً يمكننا الآن أن نؤكد على وجود فئتين من الملكية الخاصة للأرض في سورية في القرن الأول وحتى الثالث ضمناً : ملكية كبيرة تتركز في أيدي قلة ، وعدد كبير من قطع الأرض المتباعدة احداها عن الأخرى والتي يملكها أشخاص .

الأراضي الامبراطورية في سورية

في الفترة من القرن الأول وحتى القرن الثالث ضمناً

عندما هلك المالك الهلنستي لم تنهر معها منظومة أراضي «الملك» اذا جاز لنا استخدام هذا المصطلح . فبعد أن خضعت سورية للسيطرة الرومانية ظهرت هنا مساحات واسعة من الأراضي التابعة مباشرة للسلطات الرومانية (انظر . سورية ابان الحروب الاهلية) وبعد أن تحولت سورية الى مستعمرة امبراطورية غدت هذه الأراضي تابعة للامبراطور . منها مثلاً ، القسم الشمالي من البسلاد الذي بدأ استغلاله في العصر الامبراطوري . وهذا يسمح لنا ان نؤكد بأن هذه الأراضي لم تكن تابعة للبوليسات وعلى الاغلب ان استيطانها لم يبدأ إلا في ظل السلطة المركزية .

تسمح لنا المواد الارخولوجية التي اكتشفها ج . تشالينكو في سورية وبشكل رئيسي في منطقة انطاكية أن نتعرف بصورة أكثر تحديداً على خصائص ملكية الارض هنا . فقد تم العثور على مجموعة من المزارع في منطقة الرفادة (أكثر المنشآت قدماً هنا يعود تاريخها الى القرن الثاني الميلادي ومن المحتمل الى القرن الاول الميلادي) . وكل مزرعة من المزارع المكتشفة هنا عبارة عن مجموعة من المنشآت والابنية التي تضم بيت سكن مستقل مع أقسام أخرى هي عبارة عن مصاطب مفتوحة باتجاه واحد أو أكثر وعليات واماكن لتخزين المؤونة وغيرها . لقد كانت مثل هذه التجمعات موجودة في مناطق أخرى أيضاً حيث يشير ج . تشالينكو الى وجودها في دير عمّان ، دير سامبيل ، شينشار ، وفي سيرجل والرومجة . ويشير المؤلف الى أن أراضي مثل هذه الفيلات لم تكن واسعة بشكل عام ؛ فهي لم تتجاوز «بعض الدسات» من الهكتارات الصالحة للزراعة . ويشير ج . تشالينكو ، بحق الى ان ظهور هذه الفيلات جاء نتيجة لتوزيع أراضي الامبراطور على المحاربين القدماء والموظفين وغيرهم .

نحن نعتقد ، ان النهاية الطبيعية لعملية تشكل الملكيات الخاصة في أراضي الامبراطور قد جاءت مبنية في سلسلة من الرقوم التي يعود تاريخها الى عصر ديوكلتيان (نهاية القرن الثالث الميلادي) والتي نشرها ج . تشالينكو في الجزء الثالث من مؤلفه . فإلى جانب

حدود القرى يشار هنا الى حدود الملكيات الموجودة (ep(oikion) ففي الرقم التاسع من هذه المجموعة ، التي اكتشفت في فرقانة يجري الكلام عن اقامة oroiep(oikiroy kaperoy umeo) . كما يسجل الرقم الثامن الوارد الينا من بازغير ظاهرة مماثلة : هنا تقام orio ep(oikion)zaeroys . وبما أنه في الحالة المعطية توضع epoikion في طرف وتوضع kome في طرف آخر لذلك نستطيع أن نؤكد مع ناشر هذا الرقم أ . سيريفغا أن المقصود هنا إنما هي الملكيات الخاصة . هل يعني المصطلح الذي بين يدينا - القرى التي هي ملك خاص ؟ نعتقد أن مثل هذا التفسير مقبول خاصة اذا ما أخذنا بعين الاعتبار اسم العقار الاول حيث ترد كلمة koper . وجديربنا أن نؤكد هنا الرقم JMI,2,569 الوارد الينا من برج المولق (عام ١٦١ م .) - مقدمة نصب (Dli BOMO(i) (الأرجح أنه مطابق للإله السوري مديح الذي كانت عبادته منتشرة في سورية) يشارك في تشييده ابولوني ابولوفان وحاليون اولاد ماريون apo epoikiroy meizoy وتفيدنا المعطيات التي جمعها ج . تشالينكو وكذلك الرقم wadd.,2505 لرسم صورة أوضح لخصائص الحياة في هذه المستوطنات الفلاحية التي تقع خارج الدائرة التابعة للبوليسيات . وحسب الرقم المذكور اعلاه كانت هناك فئة من الاراضي التي تعتبر ملكاً جماعياً لكل أعضاء الجماعة المتساوي الحقوق . فالى جانب اماكن الاستخدام العام التي تقع داخل المدينة مباشرة كالشوارع والساحات مثلاً كانت هناك المراعي أيضاً . والى جانب هذه الملكية الجماعية كانت هناك فئة أخرى من الأراضي التي يملكها أشخاص وهذه كانت تضم ، على الأرجح الأراضي الزراعية والبساتين والكروم وغيرها .

وهذا ما تشير اليه الاكتشافات الارخولوجية في الجزء الشمالي من سورية والتي قام بها ج . تشالينكو . حيث نرى أن القرى الزراعية التي وجدت هنا تتألف من استثمارات مستقلة . وبناء على ذلك يمكننا أن نؤكد بشكل قطعي أن ما نراه أمامنا - بقايا تنظيم نشأ على قاعدة الاستخدام الفردي للأرض أدى مع التطور اللاحق الى نشوء بنية قائمة على أساس الملكية الخاصة .

ولكننا حتى الآن لا نستطيع أن نحدد مستوى التناسب الذي كان قائماً بين هاتين الفئتين من الملكية . فالرقم المذكور wadd.,2505 يسجل لنا قراراً اتخذته قرية قارينا وتمنع فيه استخدام أراضي العشيرة لاقامة البيادر . ولا نعتقد أن هناك أي معنى خاص لكون أراضي العشيرة مكاناً لتجميع المحصول . ولكن ما يشير الانتباه في هذا الرقم هو الإشارة الصريحة لوجود اتجاهات لاغتصاب اراضي العشيرة وتحويلها الى ملكية خاصة . فبناء البيدر كان من

شأنه أن يثبت حق بانيه في ملكية الأرض التي استخدمها لبنائه . وهكذا يكون الرقم موجهاً ضد اغتصاب أراضي العشيرة . ولكن لاشك في انه لم يكن باستطاعة مثل هذه المراسيم ايقاف تطوّر هذا الاتجاه وكل ما هنالك أنها كانت تؤخر تطوّره فقط . لقد اجري ج . تشالينكو استقصاءات ممتعة للغاية في منطقة قطورة . حيث وجد في هذا المكان نوعين من المساكن : بيوت فلاحية متواضعة بنيت متقابلة مع بعضها وفيلات أكثر علواً من هذه البيوت بشكل ملحوظ .

ويعود تاريخ النموذجين المذكورين الى الفترة من القرن الثاني وحتى الثالث ضمناً . ونرى هنا أيضاً مدافن فخمة والى جانبها قبور عادية غاية في التواضع ويحمل المدفنون فيها أسماء سامية . كما نرى أيضاً الاضرحة المزركشة الضخمة للمواطنين الرومان . ويذكر احد النقوش المدونة على ضريح من هذه الاضرحة (JMI,2,455) والذي يعود تاريخه ، على الأرجح الى القرن الثاني الميلادي - محارباً قديماً من اللواء الثامن الاغسطسي وهوتيطوس فلافي يوليان وزوجته فلافيا تبيطا وخلفاءهم . وهناك مدفن آخر مؤرخ في عام ١٩٥ م . وهو مدفن اميل ريغان . كما أننا نلاحظ نفس الظاهرة - مجاورة البيوت الفلاحية الفقيرة للفيلات الفخمة - في ستي الروم ، وهنا ضريح ايسيدورين بطليموس الذي بني عام ١٥٢ م . ونحن لا نستطيع أن نعرف ما اذا كان السكان هنا تابعين للشخصيات المذكورة أم لا واذا كانوا تابعين فما هي أشكال هذه التبعية . ولكن مما لاشك فيه انهم كانوا يتميزون بثرائهم ، بما في ذلك المساحات الشاسعة من الاراضي التي كانوا يملكون . كما أنه لاشك في أنهم تمتعوا بنفوذ واسع . ويشير ج . تشالينكو الى ظواهر مماثلة في عدد آخر من قرى جبل سمعان .

ومما يدعو للأسف أنه لا تتوفر لدينا مواد موثوقة تسمح لنا بتحديد طابع ومدى الصلاحيات التي كان يتمتع بها الامبراطور (وبالتالي الموظفون الذين كانوا يمثلون مصالحه) في الاراضي التي كانت تعتبر ملكاً له .

إلا أنه توجد بحوزتنا مواد تؤكد تحقيق الملكية الخاصة على هذه الاراضي ولكن هل يعني هذا تطوّر حق الملكية في القرون الاولى وحتى الثالث ضمناً قد أدى الى تراجع حق الملكية العليا التي كان يتمتع بها المالك الاعلى (باستثناء تلك الحالات المتعلقة بملكيتته الخاصة) ؟ حتى الآن ليس هناك ما يناقض هذا الافتراض . ولكن الحكم النهائي سوف تعطيه الوثائق الجديدة .

أراضي المعابد في سورية في القرون الأول وحتى الثالث ضمناً

حتى الآن لم تحظ هذه المسألة بدراسة خاصة مستقلة . ويعود سبب هذا الوضع الغريب الى شح المصادر التي تقتصر حتى الآن على ثلاثة نقوش تعود لراحل تاريخية مختلفة كما أنها اكتشفت في أماكن مختلفة في المنطقة التي نحن بصدد دراستها . ولكن هذه الوثائق تنقل إلينا معطيات صحيحة وهامة حول هذه المسألة . فهي تصور المعابد في علاقاتها الاقتصادية المعقدة مع العالم المحيط بها .

عندما تحدثنا سابقاً عن النقش المعروف الذي وصلنا من بيتوكيكي IGR,3,1020 أشرنا الى أن أحد السلوقيين أعطى قرية بيتوكيكي الى معبد زفس وأكدنا على وجود ملكية المعابد للأرض في الأراضي التابعة للملك والأراضي التابعة للمدينة بعد أن أصبح المعبد تابعاً لها . وقد أكد الملكان فاليريا نوس وغالين على حقوق المعبد وامتيازاته وفي نفس الوقت يعاد نشر الوثيقة السلوقية التي تحكي عن اهداء القرية . ونحن نعتقد أن هذه الوثائق تشير الى أنه في ظروف ليست معروفة لدينا كانت تحدث تجاوزات لحقوق المعبد بما في ذلك حق الملكية . وفي نفس الوقت فإن إعادة حقوق المعبد أو التأكيد عليها لم يكن يتعارض والاعراف السائدة في المقاطعة أما التجاوزات فكانت تعتبر افعالاً غير قانونية . وعليه ، بناء على هذه الوثيقة نستطيع أن نعتقد أن معبد بيتوكيكي كان هو المالك الشرعي للقرية التي تحمل نفس الاسم حتى في العهد الروماني .

ويحكي نقش آخر وصلنا من محلة فريكي (افاميا) ويعود تاريخه الى بداية القرن الرابع أن واضع هذا النقش عبد رابس قد باع أرضه سرّاً الى «المعبد الوطني» . ويبدو أن ناشري النقش على حق عندما يعتقدون بأن من يبيع الأرض للمعبد يحتفظ لنفسه بحق استثمارها . ولكن استنتاجاً كهذا لا يعتبر كافياً . إذ أنه بغض النظر عن أن الذي بين يدينا هو وثيقة وحيدة ، وهذا ما لا يسمح لنا بمعرفة تاريخ نشوء العمليات المثبتة فيها ومدى انتشارها إلا أننا نستطيع الاعتقاد أنه في نهاية القرن الثالث - بداية القرن الرابع لوحظ في سورية وجود ظواهر تذكرنا ، عن بعد ، بالبريكاري الاوروبي في بداية القرون الوسطى هناك (البريكاري - هو حق استثمار الأرض لفترة زمنية معينة يحدد مالكا الأرض نفسه بعد أن يوافق على الطلب المقدم اليه بهذا الشأن . وكان هذا الحق أحد أشكال وقوع الفلاحين الاحرار في التبعية الاقطاعية في بداية القرون الوسطى - المترجم) .

بين يديننا نقش ثالث (JMI,6,2946) وصلنا من حصن نبحا (غير مؤرخ) .
ويساعدنا هذا النقش على رسم صورة تقريبية لمصادر دخل المعبد السوري . فقد جاء في هذا
النقش : «من الواردات (ex usu et reditu) تلك الآتية ممن هم مديونون للإله ميفسين
(obliatorum dei Mifseni) ومن القرية (et vici) و(من) عابدية (et cultoribus
eius) وطالبي حمايته حنينة وساتسردوت ، وزبيدة وقنديدة ، وأنا المخ (ضربة ؟) ومغان
وسمیعون وزبيدة وبيدياب» .

لقد أشار ش . كليرمون - غانوف في حينه إلى أن هذا النقش يدل على وجود أراض تعود
ملكيتها للآلهة وتؤجر للفلاحين وتذهب عائداً إلى خزنة المعبد ، ويعتبر المؤلف أن ملكية
الإله منفصلة تماماً عن ملكية العشيرة المحلية (vicus) ومع ذلك فقد كان المعبد يستغل
الفئتين معاً . ولكن مثل هذا الوضع كان يتطلب ، على الأغلب ، وجود كلمة مشتقة من
الفعل conduco الذي يعني من جملة ما يعني - «يأخذ بالأجرة» ، «يستأجر» . ويقترح ج .
ب . ري - كوكي أن تترجم مقدمة النقش على الشكل التالي : «على الواردات والأرباح
الآتية من الأراضي المرهونة لصالح الإله ميفسين» الخ . . . مضيفاً لهذا أن المخصصات التي
تسمح بممارسة فعل الإهداء كانت تؤمنها الواردات العادية التي تأتي من الأرض المرهونة
لصالح المعبد ومن العشيرة الريفية التي يملكها المعبد وكذلك من تقدمات المؤمنين . هذا
التفسير هو في الواقع الأقرب إلى معنى الفعل obliyo ولذلك نحن نفضل وجهة نظري . .
ب . ري - كوكي . ومع ذلك يتخيل الينا أنها هي الأخرى غير مرضية . فعلى الأرجح أن
تعبير obliatorum dei Mifseni يعني الناس المرتبطين . بمعبد ميفسين بالتزامات
محددة ويحتمل أن يكونوا تابعين له . وهذا التفسير هو الوحيد الذي يعطي صيغة الإضافة dei
Mifseni معناها الصحيح . ما هو وضع «هؤلاء المدينين للإله ميفسين» ؟ مع الأسف لا
نستطيع استجلاء الأمر بالوضوح الكافي نتيجة لشح المصادر . ولا يستبعد أبداً أن يكون
وضعهم مشابهاً للوضع الذي كان عليه عبد رابس . وأكثر من ذلك أن معبد ميفسين يلعب
هنا دور المستغل (بكسر الغين - المترجم) وعلى الأرجح ، مالك القرية كلها وهنا يكون
وضعه مشابهاً لوضع معبد بيتوكيكي .

لا شك أنه من الصعوبة بمكان تحديد مدى توافق هذه الصورة مع واقع الحال في سورية
مع العلم أنه لا شك في أن كل المعابد السورية كانت إلى هذه الدرجة أو تلك ، من كبار مالكي
الأراضي والقرى كما وشاركت هذه المعابد في مختلف العمليات المتعلقة بالأرض بما في ذلك
عمليات البيع والشراء . والأمر الذي له أهمية جوهرية في هذا الاطار أن ملكية المعبد للأرض

كانت ممكنة ليس فقط في الأراضي التابعة للملك وإنما في أراضي المدينة أيضاً . وأخيراً لا بد من الإشارة الى أن كل معلوماتنا هذه مأخوذة عن معابد صغيرة غير معروفة نسبياً . وعليه يمكننا أن نتصور حجم العمليات التي كانت تقوم بها المعابد الضخمة الغنية كمعبد هيليو بوليتان مثلاً .

الحرفة

وصف عام للإنتاج الحرفي

تفيد الإكتشافات الأرخيولوجية في مختلف انحاء سورية وكذلك الوثائق المدونة ، بغض النظر عن شحها وتبعثرها على شكل مقاطع متفرقة ، عن وجود دوائر واسعة لمختلف فروع الصناعات الحرفية - صناعة الفخار ، النسيج ، صناعة الالبسة ، صناعة الأحذية ، معالجة المعادن ، البناء والنحت . لحسن الحظ أن الوثائق المدونة تعطينا صورة مرضية عن تنظيم الصناعات الحرفية والعاملين فيها ، كيف كان تنظيم عملهم وكيف كانت علاقاتهم مع السوق .

من المعروف أن المدن الفينيقية كانت لها تقاليد عريقة في عالم الصناعات الحرفية تعود جذورها الى ما قبل العصر الهلنستي وقد حافظت المدن المذكورة على هذا التقليد واستمرت كمراكز كبيرة لهذه الصناعات . فقد كتب سترابون (b.758) أن أهل صيدا استفادوا من تجربة وشهرة أسلافهم الذين كانوا أسياداً لعدد كبير من الحرف (nobytekhnnoi) كما وانهم يستطيعون اصلاح مصنوعاتهم . ويذكر النقش الفينيقي من جبيل والمؤرخ في القرن الاول قبل الميلاد البناء (bnh) عبد سمون بن اساع (kai, 12) . أما النقش اليوناني الوارد الينا من أم العواميد (ضواحي صور) والمؤرخ في القرن الثاني - الثالث تقريباً (SEG, 7, 330) فيذكر لنا المهندس المعماري بيرنيقيان . والمهم في الأمر أن عملية بناء المدن كانت تحتاج الى الكفاءات الضرورية لهذا الهدف وكان يجب خلق كل هذه الكفاءات الامر الذي حصل فعلاً .

ويوضح من المصادر المتوفرة لدينا أن صناعة الحرير كانت منتشرة انتشاراً واسعاً في المدن الفينيقية . لو كان Lucan يتحدثنا عن صناعة الاقمشة الحريرية في صيدا (Luc, bhrs, 10, 141) - (143) . كما اشتهرت جبيل وصور - حسب معطيات Tot. orb. descr. 31 - بصناعة الكتان (Linteamen) ويشير مصدرنا هذا الى أنها كانت تصدرانه الى «كل العالم» (omni mundo) . ومن المفيد أن نشير هنا الى أن لائحة الأسعار التي أوردها ديوكليتيان (9, 18) تحدد ثمن زوج الاحذية الفينيقية الصنع ب ٦٠ ديناراً . ويشير نفس هذا المصدر الى «الجلود الفينيقية» (8, 5) حيث يبلغ ثمنها ١٠ دينار ومن المعتقد أن دباغة الجلود في المدن الفينيقية كانت تتم بطريقة خاصة تكسيها نوعية فريدة . وهكذا نرى أن الكلام إنما يجري هنا عن تخص الانتاج المحلي .

ولكن ثلاثة فروع انتاجية فقط كان لها الدور الاهم في حياة المدن الفينيقية . أولاً - بناء السفن بما يتمتع به هنا من تقاليد عريقة وراسخة . وليست خافية على أحد الاسباب التي دفعت بهذه الصناعة هنا الى القمة : فالتجارة البحرية هنا بدونها غير ممكنة . ويورد ديودور (2, 16, 6) أن سميراميس عندما كانت تستعد لحملة على الهند استدعت بنائي السفن من فينيقية وسورية وقبرص وغيرها من البلاد البحرية وأمرتهم ببناء سفن نهريّة سهلة الفك والتركيب . ونحن نعتقد أن رواية ديودور هذه مختلفة ولا أساس لها خاصة وأنه يذكر البنائين الفينيقيين أولاً علماً بأنه كان يتحدث عن الوضع في العصر الروماني .

أهم ما اشتهرت به فينيقية من صناعات هي صناعة الدمقس وصباغة الصوف . وكان دمقس صور من أجودها وأغلاها ثمناً (Strabo, b, 757) . ويشير سترابون الى وجود عدد كبير من ورش الصباغة هذه التي شكلت عماد الثروة والرخاء في المدن الفينيقية .

الفرع الانتاجي الثالث والمهم أيضاً هو صناعة الزجاج والخزف حيث كانت الاواني الزجاجية مادة للزينة فقط . وكانت صناعة الزجاج تعتمد على نوع معين من الرمل يوجد قرب عكا (F1, IOS. BJ, 2, 190) - (Plin, 191) لقد اشتهرت هذه الصناعة في كل المدن (NH, 36, 191, Starbo, P. 758, Tac., Hist., 5, 7) الفينيقية وخاصة في صيدا حيث تميّز الزجاج المصنوع هنا بشدة لمعانه وتذكر المصادر الكؤوس الزجاجية المصنوعة في مدينة صيدا (Ath., Deipnosoph., 468c) . كما ووصلت بعض المصنوعات الزجاجية التي تحمل أسماء أصحاب الورش الصيداوية التي صنعت فيها هذه الأشياء وهما ارتاس CIL, 5, 8118; 9.6085; 10, 85622; 13, 10025; 15, 10025; 16, 10025; 17, 10025; 18, 10025; 19, 10025; 20, 10025; 21, 10025; 22, 10025; 23, 10025; 24, 10025; 25, 10025; 26, 10025; 27, 10025; 28, 10025; 29, 10025; 30, 10025; 31, 10025; 32, 10025; 33, 10025; 34, 10025; 35, 10025; 36, 10025; 37, 10025; 38, 10025; 39, 10025; 40, 10025; 41, 10025; 42, 10025; 43, 10025; 44, 10025; 45, 10025; 46, 10025; 47, 10025; 48, 10025; 49, 10025; 50, 10025; 51, 10025; 52, 10025; 53, 10025; 54, 10025; 55, 10025; 56, 10025; 57, 10025; 58, 10025; 59, 10025; 60, 10025; 61, 10025; 62, 10025; 63, 10025; 64, 10025; 65, 10025; 66, 10025; 67, 10025; 68, 10025; 69, 10025; 70, 10025; 71, 10025; 72, 10025; 73, 10025; 74, 10025; 75, 10025; 76, 10025; 77, 10025; 78, 10025; 79, 10025; 80, 10025; 81, 10025; 82, 10025; 83, 10025; 84, 10025; 85, 10025; 86, 10025; 87, 10025; 88, 10025; 89, 10025; 90, 10025; 91, 10025; 92, 10025; 93, 10025; 94, 10025; 95, 10025; 96, 10025; 97, 10025; 98, 10025; 99, 10025; 100, 10025; 101, 10025; 102, 10025; 103, 10025; 104, 10025; 105, 10025; 106, 10025; 107, 10025; 108, 10025; 109, 10025; 110, 10025; 111, 10025; 112, 10025; 113, 10025; 114, 10025; 115, 10025; 116, 10025; 117, 10025; 118, 10025; 119, 10025; 120, 10025; 121, 10025; 122, 10025; 123, 10025; 124, 10025; 125, 10025; 126, 10025; 127, 10025; 128, 10025; 129, 10025; 130, 10025; 131, 10025; 132, 10025; 133, 10025; 134, 10025; 135, 10025; 136, 10025; 137, 10025; 138, 10025; 139, 10025; 140, 10025; 141, 10025; 142, 10025; 143, 10025; 144, 10025; 145, 10025; 146, 10025; 147, 10025; 148, 10025; 149, 10025; 150, 10025; 151, 10025; 152, 10025; 153, 10025; 154, 10025; 155, 10025; 156, 10025; 157, 10025; 158, 10025; 159, 10025; 160, 10025; 161, 10025; 162, 10025; 163, 10025; 164, 10025; 165, 10025; 166, 10025; 167, 10025; 168, 10025; 169, 10025; 170, 10025; 171, 10025; 172, 10025; 173, 10025; 174, 10025; 175, 10025; 176, 10025; 177, 10025; 178, 10025; 179, 10025; 180, 10025; 181, 10025; 182, 10025; 183, 10025; 184, 10025; 185, 10025; 186, 10025; 187, 10025; 188, 10025; 189, 10025; 190, 10025; 191, 10025; 192, 10025; 193, 10025; 194, 10025; 195, 10025; 196, 10025; 197, 10025; 198, 10025; 199, 10025; 200, 10025; 201, 10025; 202, 10025; 203, 10025; 204, 10025; 205, 10025; 206, 10025; 207, 10025; 208, 10025; 209, 10025; 210, 10025; 211, 10025; 212, 10025; 213, 10025; 214, 10025; 215, 10025; 216, 10025; 217, 10025; 218, 10025; 219, 10025; 220, 10025; 221, 10025; 222, 10025; 223, 10025; 224, 10025; 225, 10025; 226, 10025; 227, 10025; 228, 10025; 229, 10025; 230, 10025; 231, 10025; 232, 10025; 233, 10025; 234, 10025; 235, 10025; 236, 10025; 237, 10025; 238, 10025; 239, 10025; 240, 10025; 241, 10025; 242, 10025; 243, 10025; 244, 10025; 245, 10025; 246, 10025; 247, 10025; 248, 10025; 249, 10025; 250, 10025; 251, 10025; 252, 10025; 253, 10025; 254, 10025; 255, 10025; 256, 10025; 257, 10025; 258, 10025; 259, 10025; 260, 10025; 261, 10025; 262, 10025; 263, 10025; 264, 10025; 265, 10025; 266, 10025; 267, 10025; 268, 10025; 269, 10025; 270, 10025; 271, 10025; 272, 10025; 273, 10025; 274, 10025; 275, 10025; 276, 10025; 277, 10025; 278, 10025; 279, 10025; 280, 10025; 281, 10025; 282, 10025; 283, 10025; 284, 10025; 285, 10025; 286, 10025; 287, 10025; 288, 10025; 289, 10025; 290, 10025; 291, 10025; 292, 10025; 293, 10025; 294, 10025; 295, 10025; 296, 10025; 297, 10025; 298, 10025; 299, 10025; 300, 10025; 301, 10025; 302, 10025; 303, 10025; 304, 10025; 305, 10025; 306, 10025; 307, 10025; 308, 10025; 309, 10025; 310, 10025; 311, 10025; 312, 10025; 313, 10025; 314, 10025; 315, 10025; 316, 10025; 317, 10025; 318, 10025; 319, 10025; 320, 10025; 321, 10025; 322, 10025; 323, 10025; 324, 10025; 325, 10025; 326, 10025; 327, 10025; 328, 10025; 329, 10025; 330, 10025; 331, 10025; 332, 10025; 333, 10025; 334, 10025; 335, 10025; 336, 10025; 337, 10025; 338, 10025; 339, 10025; 340, 10025; 341, 10025; 342, 10025; 343, 10025; 344, 10025; 345, 10025; 346, 10025; 347, 10025; 348, 10025; 349, 10025; 350, 10025; 351, 10025; 352, 10025; 353, 10025; 354, 10025; 355, 10025; 356, 10025; 357, 10025; 358, 10025; 359, 10025; 360, 10025; 361, 10025; 362, 10025; 363, 10025; 364, 10025; 365, 10025; 366, 10025; 367, 10025; 368, 10025; 369, 10025; 370, 10025; 371, 10025; 372, 10025; 373, 10025; 374, 10025; 375, 10025; 376, 10025; 377, 10025; 378, 10025; 379, 10025; 380, 10025; 381, 10025; 382, 10025; 383, 10025; 384, 10025; 385, 10025; 386, 10025; 387, 10025; 388, 10025; 389, 10025; 390, 10025; 391, 10025; 392, 10025; 393, 10025; 394, 10025; 395, 10025; 396, 10025; 397, 10025; 398, 10025; 399, 10025; 400, 10025; 401, 10025; 402, 10025; 403, 10025; 404, 10025; 405, 10025; 406, 10025; 407, 10025; 408, 10025; 409, 10025; 410, 10025; 411, 10025; 412, 10025; 413, 10025; 414, 10025; 415, 10025; 416, 10025; 417, 10025; 418, 10025; 419, 10025; 420, 10025; 421, 10025; 422, 10025; 423, 10025; 424, 10025; 425, 10025; 426, 10025; 427, 10025; 428, 10025; 429, 10025; 430, 10025; 431, 10025; 432, 10025; 433, 10025; 434, 10025; 435, 10025; 436, 10025; 437, 10025; 438, 10025; 439, 10025; 440, 10025; 441, 10025; 442, 10025; 443, 10025; 444, 10025; 445, 10025; 446, 10025; 447, 10025; 448, 10025; 449, 10025; 450, 10025; 451, 10025; 452, 10025; 453, 10025; 454, 10025; 455, 10025; 456, 10025; 457, 10025; 458, 10025; 459, 10025; 460, 10025; 461, 10025; 462, 10025; 463, 10025; 464, 10025; 465, 10025; 466, 10025; 467, 10025; 468, 10025; 469, 10025; 470, 10025; 471, 10025; 472, 10025; 473, 10025; 474, 10025; 475, 10025; 476, 10025; 477, 10025; 478, 10025; 479, 10025; 480, 10025; 481, 10025; 482, 10025; 483, 10025; 484, 10025; 485, 10025; 486, 10025; 487, 10025; 488, 10025; 489, 10025; 490, 10025; 491, 10025; 492, 10025; 493, 10025; 494, 10025; 495, 10025; 496, 10025; 497, 10025; 498, 10025; 499, 10025; 500, 10025; 501, 10025; 502, 10025; 503, 10025; 504, 10025; 505, 10025; 506, 10025; 507, 10025; 508, 10025; 509, 10025; 510, 10025; 511, 10025; 512, 10025; 513, 10025; 514, 10025; 515, 10025; 516, 10025; 517, 10025; 518, 10025; 519, 10025; 520, 10025; 521, 10025; 522, 10025; 523, 10025; 524, 10025; 525, 10025; 526, 10025; 527, 10025; 528, 10025; 529, 10025; 530, 10025; 531, 10025; 532, 10025; 533, 10025; 534, 10025; 535, 10025; 536, 10025; 537, 10025; 538, 10025; 539, 10025; 540, 10025; 541, 10025; 542, 10025; 543, 10025; 544, 10025; 545, 10025; 546, 10025; 547, 10025; 548, 10025; 549, 10025; 550, 10025; 551, 10025; 552, 10025; 553, 10025; 554, 10025; 555, 10025; 556, 10025; 557, 10025; 558, 10025; 559, 10025; 560, 10025; 561, 10025; 562, 10025; 563, 10025; 564, 10025; 565, 10025; 566, 10025; 567, 10025; 568, 10025; 569, 10025; 570, 10025; 571, 10025; 572, 10025; 573, 10025; 574, 10025; 575, 10025; 576, 10025; 577, 10025; 578, 10025; 579, 10025; 580, 10025; 581, 10025; 582, 10025; 583, 10025; 584, 10025; 585, 10025; 586, 10025; 587, 10025; 588, 10025; 589, 10025; 590, 10025; 591, 10025; 592, 10025; 593, 10025; 594, 10025; 595, 10025; 596, 10025; 597, 10025; 598, 10025; 599, 10025; 600, 10025; 601, 10025; 602, 10025; 603, 10025; 604, 10025; 605, 10025; 606, 10025; 607, 10025; 608, 10025; 609, 10025; 610, 10025; 611, 10025; 612, 10025; 613, 10025; 614, 10025; 615, 10025; 616, 10025; 617, 10025; 618, 10025; 619, 10025; 620, 10025; 621, 10025; 622, 10025; 623, 10025; 624, 10025; 625, 10025; 626, 10025; 627, 10025; 628, 10025; 629, 10025; 630, 10025; 631, 10025; 632, 10025; 633, 10025; 634, 10025; 635, 10025; 636, 10025; 637, 10025; 638, 10025; 639, 10025; 640, 10025; 641, 10025; 642, 10025; 643, 10025; 644, 10025; 645, 10025; 646, 10025; 647, 10025; 648, 10025; 649, 10025; 650, 10025; 651, 10025; 652, 10025; 653, 10025; 654, 10025; 655, 10025; 656, 10025; 657, 10025; 658, 10025; 659, 10025; 660, 10025; 661, 10025; 662, 10025; 663, 10025; 664, 10025; 665, 10025; 666, 10025; 667, 10025; 668, 10025; 669, 10025; 670, 10025; 671, 10025; 672, 10025; 673, 10025; 674, 10025; 675, 10025; 676, 10025; 677, 10025; 678, 10025; 679, 10025; 680, 10025; 681, 10025; 682, 10025; 683, 10025; 684, 10025; 685, 10025; 686, 10025; 687, 10025; 688, 10025; 689, 10025; 690, 10025; 691, 10025; 692, 10025; 693, 10025; 694, 10025; 695, 10025; 696, 10025; 697, 10025; 698, 10025; 699, 10025; 700, 10025; 701, 10025; 702, 10025; 703, 10025; 704, 10025; 705, 10025; 706, 10025; 707, 10025; 708, 10025; 709, 10025; 710, 10025; 711, 10025; 712, 10025; 713, 10025; 714, 10025; 715, 10025; 716, 10025; 717, 10025; 718, 10025; 719, 10025; 720, 10025; 721, 10025; 722, 10025; 723, 10025; 724, 10025; 725, 10025; 726, 10025; 727, 10025; 728, 10025; 729, 10025; 730, 10025; 731, 10025; 732, 10025; 733, 10025; 734, 10025; 735, 10025; 736, 10025; 737, 10025; 738, 10025; 739, 10025; 740, 10025; 741, 10025; 742, 10025; 743, 10025; 744, 10025; 745, 10025; 746, 10025; 747, 10025; 748, 10025; 749, 10025; 750, 10025; 751, 10025; 752, 10025; 753, 10025; 754, 10025; 755, 10025; 756, 10025; 757, 10025; 758, 10025; 759, 10025; 760, 10025; 761, 10025; 762, 10025; 763, 10025; 764, 10025; 765, 10025; 766, 10025; 767, 10025; 768, 10025; 769, 10025; 770, 10025; 771, 10025; 772, 10025; 773, 10025; 774, 10025; 775, 10025; 776, 10025; 777, 10025; 778, 10025; 779, 10025; 780, 10025; 781, 10025; 782, 10025; 783, 10025; 784, 10025; 785, 10025; 786, 10025; 787, 10025; 788, 10025; 789, 10025; 790, 10025; 791, 10025; 792, 10025; 793, 10025; 794, 10025; 795, 10025; 796, 10025; 797, 10025; 798, 10025; 799, 10025; 800, 10025; 801, 10025; 802, 10025; 803, 10025; 804, 10025; 805, 10025; 806, 10025; 807, 10025; 808, 10025; 809, 10025; 810, 10025; 811, 10025; 812, 10025; 813, 10025; 814, 10025; 815, 10025; 816, 10025; 817, 10025; 818, 10025; 819, 10025; 820, 10025; 821, 10025; 822, 10025; 823, 10025; 824, 10025; 825, 10025; 826, 10025; 827, 10025; 828, 10025; 829, 10025; 830, 10025; 831, 10025; 832, 10025; 833, 10025; 834, 10025; 835, 10025; 836, 10025; 837, 10025; 838, 10025; 839, 10025; 840, 10025; 841, 10025; 842, 10025; 843, 10025; 844, 10025; 845, 10025; 846, 10025; 847, 10025; 848, 10025; 849, 10025; 850, 10025; 851, 10025; 852, 10025; 853, 10025; 854, 10025; 855, 10025; 856, 10025; 857, 10025; 858, 10025; 859, 10025; 860, 10025; 861, 10025; 862, 10025; 863, 10025; 864, 10025; 865, 10025; 866, 10025; 867, 10025; 868, 10025; 869, 10025; 870, 10025; 871, 10025; 872, 10025; 873, 10025; 874, 10025; 875, 10025; 876, 10025; 877, 10025; 878, 10025; 879, 10025; 880, 10025; 881, 10025; 882, 10025; 883, 10025; 884, 10025; 885, 10025; 886, 10025; 887, 10025; 888, 10025; 889, 10025; 890, 10025; 891, 10025; 892, 10025; 893, 10025; 894, 10025; 895, 10025; 896, 10025; 897, 10025; 898, 10025; 899, 10025; 900, 10025; 901, 10025; 902, 10025; 903, 10025; 904, 10025; 905, 10025; 906, 10025; 907, 10025; 908, 10025; 909, 10025; 910, 10025; 911, 10025; 912, 10025; 913, 10025; 914, 10025; 915, 10025; 916, 10025; 917, 10025; 918, 10025; 919, 10025; 920, 10025; 921, 10025; 922, 10025; 923, 10025; 924, 10025; 925, 10025; 926, 10025; 927, 10025; 928, 10025; 929, 10025; 930, 10025; 931, 10025; 932, 10025; 933, 10025; 934, 10025; 935, 10025; 936, 10025; 937, 10025; 938, 10025; 939, 10025; 940, 10025; 941, 10025; 942, 10025; 943, 10025; 944, 10025; 945, 10025; 946, 10025; 947, 10025; 948, 10025; 949, 10025; 950, 10025; 951, 10025; 952, 10025; 953, 10025; 954, 10025; 955, 10025; 956, 10025; 957, 10025; 958, 10025; 959, 10025; 960, 10025; 961, 10025; 962, 10025; 963, 10025; 964, 10025; 965, 10025; 966, 10025; 967, 10025; 968, 10025; 969, 10025; 970, 10025; 971, 10025; 972, 10025; 973, 10025; 974, 10025; 975, 10025; 976, 10025; 977, 10025; 978, 10025; 979, 10025; 980, 10025; 981, 10025; 982, 10025;

وكانت منتشرة انتشاراً واسعاً لمصنوعات مجموعة أخرى من ورش صيدا التي يعود تاريخها الى القرنين الاول والثاني للميلاد وأصحاب هذه الورش هم أنيون وياسيون وماغيس ونيكيي . وكانت توجد في صيدا أيضاً ورشة لصناعة الزجاج هي ورشة اريستي ويعتقد الباحثون أنها كانت معاصرة لورشة انيون . لقد كانت الصناعات الصيدلانية المذكورة تصدر الى كافة دول حوض المتوسط وحتى الى بعض مراكز البحر الاسود مثل بانتيكوبيي واوليفيا وقد اكتشف عدد كبير منها في مختلف المدن الاوروبية .

مما سبق يتضح لنا أن الانتاج الحرفي في المدن الفينيقية كان ينقسم في الفترة التي نحن بصدددها الى قسمين : فبعض هذه الصناعات الحرفية لم يكن يتطلب تجميع العمال (وهنا نستطيع أن نتوقع ، ولومن الناحية النظرية ، أن بعض الورش لم يكن يعمل فيها سوى صاحبها) أما بعضها الآخر فلم يكن ممكناً دون تركز عدد من العمال فيه (بناء السفن مثلاً) . وعليه ، نستطيع القول أنه كانت توجد في المدن الفينيقية ورش حرفية كبيرة وهذا ما يدل عليه الانتشار الواسع النطاق للمصنوعات الفينيقية . من ناحية أخرى نحن لا نعرف أي شيء عن وضع العاملين في هذه الورش ولا يستبعد أن يكون هناك العبيد والعمال المأجورون . ومن الاهمية بمكان أن نشير هنا الى أن الانتاج في هذه الورش كان له طابع سلعي واضح .

لقد كانت دمشق مركزاً حرفياً هاماً حيث يشير ديو كليتيان في تعريفه (19,6) إلى أن السجاد «العربي أو الدمشقي» كانت له شهرة خاصة في كل منطقة حوض البحر الابيض المتوسط . فلم يكن له سعر ثابت بل كان يتحدد على اساس وزن الصوف المستخدم في صناعته وكذلك حجم العمل المستهلك لتحضيره .

أما التعريف الجمركي التدمري المعروف فلم ينقل لنا - عكس المتوقع - سوى الشح اليسير عن الحرفيين والانتاج الحرفي . ولا يأتي ذكر هذا الأخير إلا عند تحديد التعرفة الجمركية المفروضة على الحرفي المعني لقاء السماح له بتسويق انتاجه بنفسه . فيذكر الجدول رقم (٣) (النص اليوناني ، سطر ٨٠ - ٨٣) أنه توجد هناك محلات لبيع الأحذية يدفع أصحابها ضريبة شهرية قدرها ديناراً واحداً . كما ويذكر الحداؤون في السطر ١٣٩ من النص اليوناني . بالاضافة الى ذلك يعالج التعريف (الاسطر ١١٦ - ١٢٠ ، النص اليوناني ، ٧٢ - ٧٣ - النص التدمري) الناحية القانونية لاستخراج الملح . ومن الطريف أن النص التدمري للتعرفة ينص على أن ضريبة النصب المصنوع من البرونز (slmy) (nhs,drty) تعادل ضريبة البرونز الغير مصنع (Ytyb[wn]hyk[nh]s) . ويشير تطور فن النحت في تدمر الى أن هذه المنحوتات محلية قام بصنعها حرفيون .

وتأتي الكلمات المنقوشة على النصب التذكارية مكملة لهذه المعلومات . فالتوقيع المثبت الى نصب سييتيم اذينة (CIS,2,3945) تدمر ، نيسان من عام ٢٥٨) تم تنفيذه بناء على طلب مجموعة من الحرفيين العاملين في مجال الفضة والذهب . يقول النقش CIS,2,3914 (تدمر ، آذار ١٧٥) أن أولاد العم يارخبول بن عوجة وعبيدة بن خدودان حفيدا يارخبول بن خدودان قد أقاما على نفقتهم الخاصة بوابة من الذهب والنحاس في معبد بيلا . وتشير بعض المصادر التدمرية الاخرى الى مختلف أنواع الهدايا المقدمة الى المعابد من قبل أفراد . ونعتقد أنه يحق لنا أن نتوقع أن هذه المصنوعات قد تم تحضيرها محلياً .

كما وكانت توجد في تدمر الصناعة الفخارية المحلية . ويشير الباحثون الى قرابة الصناعة الفخارية التدمرية مع مثيلتها في دورايوروبوس الامر الذي يسمح لنا بتسجيل تأثير النماذج الهلنستية على التدمرية .

وبدلنا هذا العدد الكبير من النقوش على الانتشار الواسع الذي كانت تحظى به حرفة تقطيع الحجارة في تدمر . ولكن حرفياً واحداً فقط قرر أن يخلد اسمه بأحرف ، أضعف من النص الاصيلي وجدت منقوشة على أحد النصب في تدمر (CIS,2,3974) ، تدمر ، تشرين أول عام ١١٣) : «فلينذكروا يارخاي - قاطع الحجر» . كما ويذكر النقش CEG,7,155 (تدمر ، القرن الاول - الثاني تقريباً) النحات اسكندر . ففي إحدى الشواهد (CIS,2,4261) يسمّى المدفون شعبدال بن هيدبول بن مقيم حرفيادون ذكر أية تفاصيل أخرى (mn') وهذا النقش وصلنا من تدمر وقد أُرّخ في تشرين الثاني عام ١٧٢ . وأخيراً لدينا أحد المصادر الذي يذكر فيه طبيب ('SY') .

بغض النظر عن ندرة هذه المصادر وتبعثرها إلا أنها توضح أن الحرفيين في تدمر كانوا - يملكون في القرن الاول - الثالث ورشهم الخاصة (أما مسألة من كان يعمل في هذه الورش وما عددهم فلا زالت مفتوحة) وأن طابع الانتاج هنا كان سلعيّاً مما سمح بفرض ضرائب عليه . ولا يعطينا ذكر هذا العدد القليل من الحرف في لائحة التعرف الحق بالقول أن الحرف الأخرى غير المذكورة هنا لم تكن خاضعة للضرائب .

لقد شغلت الحرفة حيزاً هاماً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمدن السورية التي أنشأها اليونان والرومان Tot.,Orbescr,31 يصنف اللاذقية كمركز هام لانتاج الكتان . ويقول اديكت ديوكليتيان أنه كانت توجد في هذه المدينة أيضاً صناعة حريرية وأخرى صوفية (20,4),(21,2,25,2) كما كانت تصدر مختلف أنواع الألبسة .

لقد دلت الاكتشافات الأثرية في دورايور وبوس على أنه كانت توجد هنا مجموعة كبيرة من ورش الحرفيين الذين مارسوا حرفة دهان المصنوعات الفخارية كما وتطورت هنا تدريجياً صناعة المصابيح (محافظة بذلك على التقليد الهلنستي في هذا المجال) . ويشير المؤرخون إلى أنه ابتداءً من عصر كلافيديوس بدأت تتطور هنا صناعة الأواني الزجاجية . ولم تكن بيروت - المستعمرة الرومانية - مقصورة في مجال تطور الصناعات الحرفية حيث تذكر المصادر حرفيين ممن مارسوا حرفة تصنيع البرونز والتعامل مع حجر المرمر .

الوضع الاجتماعي للحرفيين

لا يزال الشح يحيم على عالم المصادر التي يمكن أن تعطينا تصوراً مقبولاً عن الموقف من ممارسة المهن في المجتمع السوري أبان الفترة التي نحن بصدددها وعن التنظيم السائد داخل الورشة الحرفية . ومع أن ليبانوس يشير إلى أن ممارسة الحرفة في انطاكية كانت تمنح صاحبها من الإشتراك في أجهزة السلطة . أي أن الحرفة كمهنة كانت تنسب إلى المهن التي تدل على وضع اجتماعي وضع نسبي . وهناك وثائق أخرى تدعم هذا التصور . أحدها النقش (jmi,4,1410) الذي وصلنا من فريقي (أفاميا) وهو مؤرخ في بداية القرن الرابع تقريباً ونورد هنا نصّه : «وهكذا ، مقدماً شكره يقول عبد رابس : عندما كنت شاباً كان الهي ، (الإله) أركسيلايا ، الذي ظهر لي بوضوح ، قد أحسن لي الصنيع مراراً . عندما بلغت الخامسة والعشرين أرسلت لأتعلّم الحرفة وبعد وقت اتقنتها ولكنني بعت معلّمي أرضاً دون علم أحد كي أتخلص من الإنضمام إلى سكان المدن لقد كنت محقاً» . وقد أشرنا سابقاً إلى تلك الخصائص التي تتمتع بها ملكية المعبد للأرض والتي يكشف عنها هذا النص ، ولكن ما يهمنا في هذه الوثيقة شيء آخر لا يقل أهمية حيث يشار هنا إلى أن الشخص الذي كتبت هذه الوثيقة بإسمه تعلّم حرفة وهذا عطف خصته به الآلهة . ومن الصعب أن نعرف من النص لماذا فهم عبد رابس الأمر على هذا الوجه مع أنه يبدو للوهلة الأولى أن المسألة في غاية السذاجة . ولكننا نعتقد أنه يجب النظر إليها بالارتباط مع عملية بيع الأرض . فقد تم تنظيم عملية البيع هذه بشكل لا يظهر معه الإنحدار الاجتماعي والمادي للبائع . ولكن لم يكن لهذه العملية ألا تؤدي إلى نتائج غير منتظرة : فقد أصبح البائع تابعاً من الناحيتين الإقتصادية والحقوقية مع أنه ظل محتفظاً بحريته الشخصية . وفي هذه الحال أصبحت الحرفة التي تعلّمها عبد رابس تشكل مصدراً مالياً لعيشه . من جهة أخرى فإن استخدام صيغة الفعل السلبية تدل على أن عبد رابس لم يكن هو المبادر للعملية المذكورة وإنما المعبد . وعليه يمكن القول أن هذا الوضع قد زاد من تبعية عبد رابس للمعبد .

ولانقتصر أهمية هذا النص على ما ذكرناه فهو يلقي ضوءاً جديداً على رواية لوكيان المعروفة والتي وصلتنا من ساموساني حول الاهتمام الذي أولاه والد الكاتب لمستقبل ولده (Luc., somn., 1-2) فعندما بحث مع أصدقائه مسألة اختيار المهنة التي على ولده أن يتعلمها توجب عليه أن يأخذ بعين الاعتبار شح ميزانية العائلة وحاجتها إلى مساعدة عاجلة . ويرسم لوكيان الصورة التالية لطريقة تفكير الابن «لوتعلمت حرفة ما لأصبحت أملك ما يكفي وتحررت وأنا في هذه السن من العوز وليس هذا وحسب بل ولأدخلت السرور إلى قلب والدي مقدماً إليه مدخولي» . وعند اختيار المهنة تؤخذ بعين الاعتبار العناصر التالية : يجب أن تكون الحرفة ليست فقط «من أنبل الحرف» وسهلة الإستيعاب وإنما يجب أن تكون لا ثقة برجل حر وتؤمن له مردوداً سريعاً ومحترماً . ويقع الاختيار على حرفة النحت . أولاً لأن عم الراوي كان نحاتاً جيداً ، ثانياً لأنه هو نفسه كان يصنع اللعب من الطين عندما كان صغيراً معبراً بذلك عن ميله إلى الحرفة التي يرغب .

وهكذا تظهر لنا رواية لوكيان أن اختيار الحرفة كانت تفرضه ظروف مادية صعبة . وفي نفس الوقت كان يتم اختيار الحرفة - بشكل أساسي - على أساس ميل الشخص الذي سيتعلمها : ومن المسلم به أن الموهبة والرغبة كانتا الضمان الأكيد لنجاح المهمة . وما يلتفت النظر هنا هو السعي للإستفادة من إمكانيات الأقرباء . ولكن الأب نفسه لم يكن هو معلم الابن ، مع أنه من الأسهل والمنطقي أن تعلم ولدك المهنة التي تتقنها أنت نفسك . ولكن على ما يبدو أن والد لوكيان لم يكن يتقن أية مهنة أي أن ضرورة التوجه نحو هذه المهنة ظهرت خلال سير حياة العائلة وليس صدفة أن توجه والد لوكيان إلى خال ولده . ففي عائلة الأم كانت الأمور مختلفة تماماً (Luc., somn., 7) فالحرفة هنا وراثية من الأب إلى أبنائه : فجد الولد لأمه كان قاطع حجارة وكذلك أصبح ولداه . وهكذا تروى لنا رواية لوكيان حياة عائلتين : أساس نجاح إحداها كانت الحرفة أما الثانية فتحاول السير في نفس الطريق وعليه فقط كانت ممارسة الحرفة نتيجة لانحدار اجتماعي معين وقع لهذا الفرد . وهناك نقطتان أخريان في رواية لوكيان تلفتان النظر . أولاً وجود تصور لدى السوريين (لوكيان سوري الأصل تعلم اليونانية فيما بعد) أن هناك أنواع من الحرف لا يليق بالرجل الحر أن يمارسها . ولاتعطينا المصادر أية تفصيلات بهذا الشأن .

ثانياً ، تقودنا رواية لوكيان إلى جو الورشة التي يعمل فيها الولد ليتعلم الحرفة التي تم اختيارها . حيث يخبرنا أن التلميذ يصبح على احتكاك مباشر بالعمل منذ اليوم الأول لدخوله الورشة وإنه كان يعاقب بالضرب فيما إذا اقترف خطأ ما (Luc., somn., 3) إذا لقد كان

التلاميذ فئة من الفئات العامه في هذه الورش . ولكن مع الأسف لا يشير لوكيان للفئات الأخرى وهذا ما يمكن تفسيره بأن تلك الفئات لم تكن مهمة بالنسبة له . ولكن كون مالك الورشة يتقن الحرفة يعني أنه كان يشارك شخصياً في عملية الانتاج . ولا يشير لوكيان إلى ما إذا كانوا يتلقون أجراً ما لقاء عملهم أم لا ، يبدو أن صاحب الورشة كان يأخذ إنتاج عمل تلاميذه لنفسه (★) .

الجماعة الحرفية

تشير المصادر المتوفرة لدينا (cis,2,3945) إلى وجود جماعات كانت قد تكونت على أساس الحرفة التي تمارسها . فالمصدر المشار إليه هنا يؤكد أنه في تدمر وفي القرن الثالث الميلادي ، على الأقل كانت توجد اتحادات حرفية قامت على أساس ممارسة الحرفة الواحدة (كاتحاد العاملين في مجال المجوهرات مثلاً) . وهناك مصادر أقدم عهداً تشير إلى أن مثل هذه الجماعات كانت تتجمع في جزيرة ديلوس حول إله واحد ولذلك فنحن لانستطيع أن نحكم على تنظيم هذه الجماعات إلا بشكل غير مباشر . ومثل هذه الجماعات كانت موجودة في تدمر في القرن الأول للميلاد . فالنقش (cis,2,3980) (تدمر ، شباط عام ٣٤) يخبرنا أنه «في شهر شباط من عام ٣٤٥ شيد هذا المذبح (clt,dh) [أعضاء الجماعة] [bnym]r3h) أهليبول وما لا خبيل وأهدياه للآلهة» . يلي ذلك قائمة بأسماء أعضاء الجماعة الذين يبلغ عددهم ثمانية أشخاص . وما يلفت النظر أن أيّاً من هؤلاء الأعضاء لا يتمتع بلقب مما يدل على أنهم أشخاصاً عاديون ليست لهم أية صفة رسمية . كما أنه لا توجد هناك أية تسمية لهذه الجماعة .

ولدينا وثيقة ثانية تشير إلى وجود جماعات دينية ، وهي (cis,2,3919) مؤرخة في نيسان عام ١١٧ . تقول الوثيقة : «هذا النصب لزيدة بن سعاد بن تيموشمس أقامه المجلس (bwl') على شرفه وقد شهد له يارنجبول - الإله عندما قاد جماعة كهنة بيلا (brbnwt mrzhwth dy krmy bl) في شهر نيسان عام ٤٢٨» . وتكمن أهمية هذه الوثيقة في أنها تظهر بعض الصفات الداخلية لتنظيم هذه الجماعات : حيث كان يقف على رأس كل جماعة شخص يحمل لقب (rb) «عظيم» ، «رئيس» ، وقد اتحد أعضاء هذه الجماعة على أساس

★ - كما قال لنا مشكوراي . ف . فنيخان أنه في مصر الرومانية كانت هناك عقود لتعلم الحرفة ولم يشر فيها إلى أن المتعلم كان يدفع لقاء تعلمه . ولكن المعلم كان يأخذ لنفسه انتاج عمل هؤلاء التلاميذ .

الحرفة التي يمارسون . والواقع أن الوثيقة تتكلم عن جماعة من الكهنة ولكن وجود هذا الواقع يحد ذاته يعطينا كامل الحق في الكلام عن وجود اتحادات تمثل باقي الجماعات الاجتماعية بما في ذلك الحرفيين . وعلى الأرجح أن النقش الذي وجد على مذبح معبد بيللا في تدمر له ارتباط بهذه الجماعة وكان ج كاتينو قد نشره : «عندما كان حدّوان - السناتور (snqltyq') بن عقيل رئيساً للجماعة (brbnwtmrzhwt) كما وصلتنا وثيقة أخرى من تدمر (seg,7,151) مؤرخة في آب عام ١٩٣ ولكن في حالة يرثى لها . ميزابان بن مالح الذي جاء ذكره فيها يسمّى كاهناً أعلى (وإذا صح ترميم الناصر لها) «الإله العظيم زفس - بيللا» .

وأخيراً فلنر النقش المؤرخ عام ٢٤٣ والذي نشره خ . اينكهولت . يقول النص : «[في شهر] تشرين من عام ٥٥٥ . عندما كان رئيس الجماعة (brbnwtmrzhwt) يارخاي بن إغريب بن يارخاي بن ياديبيللا بن عوجي بن يعطا الذي خدم الآلهة (dys'ms'lh'y) وأشرف على التنجيم على مدى عام كامل (wytb'lqsm's't) (klyh) وجلب الخمرة المعتقة للكهنة على مدى عام كامل من بيته الخاص ، حقيقة جلب الخمرة بالزقاق^(٨) (l'yty) من الغرب . فليبق خالداً ومباركاً ذكر ولديه بيرتيناكس ومالكوس وعقيل - الكاتب (ktwb') وزابي بن سعدا ناظر المطبخ (dyhw'lbtdwd') ويارينخبول خلاط الخمرة (mmzgn') وأولئك الذين ساعدوا ، انتهى» .

نعرف من هذا النص أن رئيس الجماعة لم يبق في منصبه لأكثر من عام واحد (وقد أشار خ . اينكهولت الى هذه الناحية) وكانت واجباته تضم التنجيم وتأمين الخمرة للكهنة - وقد يكون بعض المواد الزراعية الأخرى (وتبقى غامضة مسألة ما إذا كان المقصود هنا تأمين الحاجات الضرورية للمعبد لتقديم الأضاحي أم الحاجات الشخصية للكهنة) . كما أنه من غير المعروف أيضاً ما إذا كانت هذه الأخيرة الزامية أم اختيارية . فالوثيقة تشير الى عدد آخر من الوظائف داخل الجماعة مما يسمح لنا بتحديد الاتجاهات الرئيسية لنشاطها والى جانب رئيس الجماعة تذكر الوثيقة الكاتب الذي يقوم - علي ما يبدو - بوظيفة السكرتير ، وهناك رئيس المطبخ والخمار . لقد كانت الجماعة تنظيماً دينياً يمارس على وجه الخصوص اقامة الولائم الجماعية . وهذا ما يدل عليه مصطلح (mrzh) الذي يعني «وليمة» «مأدبة» . الخ . وكان باستطاعة الجماعة أن تشترك في تقديم الهدايا وما شابه الى الآلهة بما في ذلك أعمال البناء . ومن الطبيعي أن مثل هذه النشاطات كانت تحتاج الى نفقات مادية يرجح أن تكون الجماعة قد خصصتها من مساهمات الأعضاء .

٨ - حول استعمال الأدوات كأداة تأكيد انظر : ل . خ . ولسكير ، حول أداة التأكيد La في اللغة السورية - كسينا ، ١٩٦٥ ، ٨٦ .

يعود منشأ هذه الجماعات الدينية الوراثية المرموز اليها بمصطلح mrzh الى مرحلة تاريخية سابقة للعصر الهلنستي . حيث تشير المصادر الى أنها كانت موجودة في أوغاريت (النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد) حيث كانت بحوزة هذه الجماعات ملكيات معينة . كما وكانت موجودة في قرطاجة mrzh إذأ ، كانت موجودة في المدن الفينيقية في الألف الأول قبل الميلاد . واذا صحت مقارنة mrzh الواردة في وثائق النصوص المقتبسة (cis,1,165) مع الولايم التي كانت تقام للرجال الأحرار والتي نوه عنها أرسطو (arist.,polit.,2,8) في وصفه لقرطاجة تكون هذه الـ mrzh منذ نشأتها عبارة عن مآدب دينية جماعية - تقليداً ، بقي موجوداً في سورية حتى في العصر الروماني . وعلى الأرجح أنها كانت في نشأتها عبارة عن اتحادات للرجال الذين تجمعهم عبادة دينية واحدة . ولكن طابع هذه الـ mrzh تغير تدريجياً . لقد كان نشوء الاتحادات المهنية في المرحلة التي نحن بصدددها قائماً على أساس الاتحادات الدينية المشار اليها . حيث استفادت الاولى من المبادئ التنظيمية والأشكال التي وضعتها الثانية . ومن الملفت للنظر حقاً أن النقش cis,2,3945 لا يشير أبداً الى الطابع الديني للجماعة الحرفية التي يصفها فقط على أساس الحرفة التي يمارسها أعضاؤها . وتجدر الإشارة الى استخدام المصطلحات في هذه الوثيقة . فكما سبق وذكرنا أننا نجد في نصها كلمة synelia التي تعني عادة جماعة ما أو بشكل أكثر تحديداً جماعة من الناس يشاركون في تأدية مدفوعات ما . هل هذا يعني أن أعضاء هذا التجمع كانوا يدفعون ضرائب للدولة ؟ نعتقد أن هذا جائز ولكن من الجائز أيضاً أن يكون المقصود هنا هو المشاركة في تغطية نفقات التجمع . كان باستطاعة التجمع أن يقيم نصب التكريم وبالتالي اتخاذ القرارات الضرورية لذلك . واذا كان الأمر كذلك فإن امكانية اتخاذ القرارات لم تقتصر على هذا المجال فقط .

نحن نعتقد أن الطابع الديني لهذه الجماعات جاء نتيجة تطوّر طويل سابق .

يؤكد لنا النقش الذي يكرّم فيه سيبيتم فورودا cis,2,3942 عام ٢٦٧ تقريباً أن بعض هذه الجماعات قد تحول الى قوة سياسية هامة ، على سبيل المثال جماعة كهنة بيل في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي حيث حاولت عائلة أذينة وزبيدة - زنوبيا الاعتماد عليها لتقوية نفوذها السياسي بالاعتماد على الأشخاص الملتفين حول الجماعة المذكورة . ومن المرجح أن تكون الجماعات الحرفية هي الأخرى قد مارست تأثيراً ملحوظاً .

ونصادف بعض المواد الأخرى عن تاريخ الجماعات الحرفية في النقوش المكتشفة في مدينة جرش والمؤرخة في بداية ومنتصف القرن الثالث الميلادي . أحدها (g,190) الذي يكرم فيه باترون المدينة أفيريلي يولييان ، ينوّه الى «الجماعة الأبدية المقدسة صانعة الكتان» حيث تضور هذه الجماعة كمبادرة لإقامة النصب المذكور .

التجارة

التجارة السورية في حوض البحر الأبيض المتوسط

لقد كانت المرحلة التي نحن بصددھا (القرن ١ - ٣) مرحلة التطور اللاحق للتجارة السورية في حوض البحر المتوسط والبلدان القريبة . وما أشرنا إليه سابقاً عن انتشار سلع الصناعة الفينيقية يوضح مدى انتشار منتجات هذه الصناعات - والى حد ما - البنية التجارية للمدن الفينيقية . فإلى جانب تصدير منتجات الحرف المحلية والمنتجات الزراعية كان يجب أن تزدهر تجارة الترانزيت وخاصة تجارة الحرير الصيني وعطور الجنوب العربي . ونحن نعتقد أن هذه العلاقات قد استمرت حتى بعد سقوط المدن الفينيقية تحت السيطرة الرومانية . كما ونعتقد أيضاً أن المستعمرات التجارية الفينيقية في أكبر المراكز التجارية اليونانية (ديلوس واثينا) بقيت هي الأخرى تحافظ على ازدهارها ذلك أن دول «العالم الروماني» ودخولها في نطاق دولة متوسطة موحدة كان يجب أن يساعد على ازدهارها .

يذكر ج . دي في بحثه الخاص بتاريخ مدينة أثينا في القرن ١ - ٣ أن شواهد القبور في هذه المدينة تحفظ لنا ١٣٣ اسماً لأشخاص سوريين . ١١٨ منهم من مدينة انطاكية ، ٦ - من صيدا ، ٤ - من صور ، ٩ - من أرواد وعسقلون ودمشق وبافا والسامرية . ونعرف أيضاً اثنين من جرش وواحد من فيلاديلفيا وآخر من - الرها . وتقول معطيات البحث المذكور أنه في الفترة من عام ٤٠٣ ق . م وحتى القرن الأول الميلادي لم يكن معروفاً سوى ٦٥ شخصاً من أصل سوري (بما في ذلك ٣٩ من انطاكية) أي أنه خلال قرنين من حكم البربرنتسبات زاد عددهم ٦٨ شخصاً أي بمعدل الضعف . قد تكون هذه الزيادة نتيجة لصدفة ما إلا أنها تعكس واقع تغير كمي في عدد السوريين الوافدين الى اليونان .
كما وكانت للسوريين علاقات تجارية مع بقية جزر الحوض . فحسب المصدر (ig, 12, 3, 6) في نهاية القرن الأول قبل الميلاد كانت هناك جماعة للسوريين - الذين يرفعون العبادة لادونيس وافروديت واسكيلبي في جزيرة سيبا .

عند الحديث عن التجارة السورية - الإيطالية لابد من التأكيد على أنه ليس السوريون وحدهم من كانت لهم نشاطات تجارية على الأراضي الإيطالية وإنما كانت للإيطاليين ، بما في ذلك الرومان اهتمامات كبيرة بالتجارة السورية . ويؤكد النقش (CIL,10,1797) (بداية القرن الأول الميلادي ، مدينة بوتيولا) أنه كانت توجد في بوتيولا جماعة من التجار يديرون أعمالهم في الاسكندرية ومقاطعات آسيا وسورية (mercatores qui Alexandriai Asiai syriai negotiantur)

وتعتبر هذه الكثرة من النقوش المكتشفة في روما دليلاً على حيوية العلاقات التجارية بين سورية وإيطاليا وخاصة روما . فهذه النقوش تعود لأشخاص من مختلف مناطق سورية وخاصة تدمر (CIS,2,3902) عام (236 . وصور (IGRR,1,132) . وإفاميا (IGRR,1,311,317) . لقد كانت عشائر أهل صور في بوتيولا لا تتمتع بامتيازات خاصة هنا . يقول النقش (IGRR,1,420) المؤرخ في ٢٩ أيار عام ٧٠ م . أنه تم إرسال «إله الشمس» من صور إلى بوتيولا عن طريق البحر ، على الأرجح بعل - آمون . ونشير في هذا السياق الى النقش (IGRR,1,421) الذي يضم نسخة من رسالة أهل صور الذين يعيشون في بوتيولا الى الميستروبوليا مؤرخة في ٢٣ تموز عام ١٧٤ ومقطع من قرار مجلس صور المتخذ في كانون الأول من نفس العام . حيث يوضح المصطلح اللاتيني (station) المستخدم هنا عند الحديث عن هذه العشيرة أنها عبارة عن ممثلية للصوريين (نسبة لمدينة صور - المترجم) في بوتيولا وكان الهدف من انشائها تسهيل أعمالهم التجارية وتنظيم علاقاتهم مع مركز الامبراطورية .

تبدأ الرسالة بالتأكيد على عظمة العشيرة التي اهتم بها سابقاً الصوريون الذين عاشوا في بوتيولا وكان عددهم كبيراً وكانوا أغنياء . وبالنسبة فالوضع « الحالي » قد تغير : ذلك أن العدد أصبح أقل ومع تغطية النفقات الضرورية لتقديم الأضاحي وفروض العبادة أصبح من العسير على الصوريين دفع الضريبة السنوية المترتبة على العشيرة والبالغة مئة ألف دينار . وعليه تطلب العشيرة من حكام صور الاهتمام بمستقبلها والحفاظ على وجودها الأمر الذي يتطلب دفع المبلغ المذكور . وتختتم الرسالة بالقول أنه لا الملاحون ولا التجار الصوريون يدفعون تبرعات لصالح العشيرة لا في بوتيولا ولا في روما . وما يثير الاهتمام حقاً في المقطع المختطف من اجتماع مجلس صور هو الاقتراح الذي تقدم به فيلو كول والذي أصبح قراراً . ونخبرنا صيغة الاقتراح أن الصوريين المقيمين في روما اعتادوا أن يدفعوا من مساهماتهم مئة ألف دينار إلى حكومة بوتيولا يجري انفاقها ، على ما يبدو لتسديد الضرائب . وقد اتضح

أن الصوريين المقيمين في بوتيولا يطلبون اعطاءهم امكانية ابقاء هذا المبلغ لديهم (أي يطلبون مساعدات اضافية لتسديد الضرائب) اوفيا إذا لم يوافق المقيمون في روما على تقديم تلك النقود ، فإعطاؤهم ، هم المقيمون في بوتيولا امكانية دعم الممثلتين حسب الشروط السابقة . أي أن يجري جمع التبرعات من الصوريين المقيمين في بوتيولا بحيث تقوم ممثلية بوتيولا بتخصيص مخصصات معينة لتمويل ممثلية روما . لقد وصلنا من قرار المجلس مقدمته فقط حيث جاء فيها أن ممثلات صور تقوم « بمحطتين » ، احدهما - في روما « الامبراطورية » والثانية ، على ما يبدو في بوتيولا . وبما أنه تمت الموافقة على كلام فيلوكل وطلب « أولئك » الذين في بوتيولا يعترف به طلباً عادلاً إذاً يجب أن نتوقع أنه تمت الاستجابة لهذا الطلب بطريقة ما من هذه الطرق .

نستطيع مما سبق أن نستنتج أن جمع التبرعات من المواطنين لدعم « المحطات » كان ظاهرة دورية ومنظمة . ويبدو أن مخصصات هذه العشيرة كانت تأتي من تبرعات أعضائها . وفي نفس الوقت كانت صور مهتمة بالوضع المادي للممثلة وما الدعم المادي الذي قدمته لها سوى دلالة واضحة على ذلك . كانت توجد في بوتيولا أيضاً عشيرة للنبطيين وكانت لها آلهتها الخاصة ((mhrrmt', CIS, 2, 150) لعام ٢٠ ق . م . ويفيد النقش عن أعمال ترميم المعبد مما يدل دلالة واضحة على وجوده في السابق أيضاً) . لقد وصلنا من بوتيولا النقش (CIS, 2, 157) عام ١١ م) الذي يروي لنا أن النبطيين زيد وعبد الله ولدي تايمود ضحيا بزواج من الجمال للاله ذو الشرى

وفي القرون الأولى للميلاد كان السوريون يعيشون أيضاً في أكبر المراكز التجارية الاسبانية كقرطاجة الجديدة ومالاكا وقردوبا (قرطبة - المترجم) وهسباليس^{٨٩}. ونشير في هذا الإطار إلى النقش الذي وصلنا من مالكا (IGRR, 1, 26) (للأسف أن النص غير مؤرخ ولكن من غير المرجح أن يكون تاريخه قبل القرن الثاني الميلادي) حيث يكرم فيه كلوديوس باترون جماعة السوريين هناك . ولكن النقش الذي وجد على شاهدة أحد القبور في (IGRR, 1, 25) في محلة جينسا غير بعيد عن تريفوفي جنوب فرنسا يعتبر غاية في الطرافة . تايمو ، ويسمى كذلك يولييان بن سعد حيث يسجل هذا النقش المراحل الرئيسية في حياته . لقد ولد هذا الشخص في قرية افيلا (وفي القسم اللاتيني اضافة هامة devico) التابعة لمدينة قناة السورية . وكان هذا اليولييان قد جاء الى غاليا في جنوب

٨٩- بتفصيل أكثر انظر : F. cumoht, les syriens en espagne et les adonies a Seville, -'Syria', vol. 8, 1927. 79- M. rostovtzev, les inscriptions.

فرنسا ليعمل بالتجارة واسيس شركته الخاصة حيث وصلت نشاطاته إلى اكتافيانا بما فيها لو غدون . ويعود تاريخ هذه الوثيقة التقريبي الى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث . وفي منطقة الراين نصادف السوريين أيضاً : فالنقش الذي مر ذكره معنا سابقاً (SEG,19,648) من اوغسطة تريفيروم يذكر أحد الاشخاص السوريين واسمه عميز اغريب من افاميا .

تعتبر الاكتشافات الفخارية الاغريقية والرومانية في دورايوروبوس ضئيلة من حيث العدد وخاصة نماذج القرن الثالث قبل الميلاد حيث يمكن أن تكون قد نقلت الى هنا عند تأسيس المدينة . ولكنها ، على أية حال تدل على أن العلاقات التجارية مع العالم الاغريقي - الروماني قد وصلت حتى أطراف سورية على حدودها مع بلاد مابين النهرين . لقد استوردت دورايوروبوس المجوهرات المصنوعة من البرونز .

ومع أن المصادر التي وصلتنا شحيحة ومبعثرة إلا أنها تؤكد على توسيع وترسيخ العلاقات التجارية بين سورية والعالم الغربي في عصر البرنيتسبات : فقد أنشئت قواعد تجارية وظهرت مستعمرات جديدة كما وانتقل الكثير من السوريين الى الغرب .

تجارة السوريين في الشرق .

أما الطريق الأخرى للتجارة السورية فقد اتجهت نحو الشرق - الى بلاد مابين النهرين ثم الى الهند وآسية الوسطى والصين . وأشهر تنظيم تجاري نخبرنا به الوثائق كان في تدمر . وأكثر مالفت انتباه الباحثين المعاصرين هو دور هذا التنظيم في تطور العلاقات مابين الامبرطورية الرومانية وبارفيا في مراحل متقدمة نسبياً . حيث نخبرنا أبيان (APP.,B.civ,5,9) عن غارة شنها انطونيوس على تدمر حيث سكانها « التجار ينقلون السلع الهندية والعربية ويبيعونها في بلاد الرومان » . وهذا القول لا يعود الى ابيان وإنما هو الاتهام الذي وجهه انطونيوس الى التدمريين بأنهم يتبعون سياسة ذات وجهين الأمر الذي اعتبر ذريعة لمهاجمة تدمر . وعليه يمكننا التأكيد على أن القول المذكور يعود الى وثائق انطونيوس الرسمية . ولاشك أنه لا يجوز أن نرى في ذلك تقييماً شاملاً ونهائياً لاقتصاد تدمر . ولكن المعاصرين يؤكدون على أن هذه الصفة هي الأكثر وضوحاً في اقتصاد هذه المملكة .

أول من أفرد بحثاً خاصاً للتنظيم التجاري في تدمر هو الباحث الألماني البارز أ . هيرن الذي أهمل - بغير حق - كواحد من أبرز الباحثين في مرحلة ما قبل المادية التاريخية . لقد استخدم في عرضه أربعة نقوش « قوافل » واتخذها أساساً لإعادة رسم طرق وأساليب تجارة القوافل هذه . وحتى بعد ظهور معطيات جديدة بقيت استنتاجات هيرن ، من حيث الجوهر صحيحة . لقد سجلت التعرفة الجمركية التدمرية السلع الأساسية لتجارة الترانزيت التدمرية في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي . من هذه السلع : العبيد وأصبغة الصوف الأرجوانية والمر والزيت والخسب والخبز والسمك المملح والقطيع . ولا شك أن هذه القائمة غير كاملة ذلك أن التعرفة وصلت اليها تالفة . ونرى أنه من الطريف الإشارة إلى أن التعرفة حددت فئتين فقط من حجم الحمولة - حمولة حمل واحد وحمولة حمار واحد . وهذا يدل على نوعين من القوافل التي كانت تأم تدمر . وعلى كل حال فالتعرفة تشير إلى وجود تجارة التجزئة في تدمر وخاصة تجارة الالبسة .

هناك عدد كبير من النقوش التوضيحية لتجارة تدمر مع مدن بلاد ما بين النهرين نوردها لاحقاً . فبفضل هذه النقوش استطعنا أن نعيد إنشاء تاريخ العلاقات التجارية لتدمر مع خاراكس وفولوكسيا وفورت وجيناي . ففي عدد من النقوش يذكر مواطنون تدمريون أقاموا في خاراكس وفولوكسيا . أي أنه ، على أقل تعديل كانت في هذه النقاط مستعمرات تدمرية الأمر الذي يدل على قوة العلاقات التجارية وأن تدمر مهتمة بمسألة فرض سيطرتها وترسيخها على الطرق التجارية المؤدية إلى بلاد ما بين النهرين . وليس صدفة أن تشجع حكومة تدمر أولئك الذين يعملون بنشاط لتطوير تجارتها في حوض دجلة والفرات . وليس صدفة أيضاً أن نجد أن بعض التدمريين قد أصبحوا من ذوي الشأن في مدن بلاد ما بين النهرين . ولا شك أن هذا التوسع الاقتصادي لتدمر قد ساعد على تغلغل النفوذ الروماني . وتجدد الإشارة هنا إلى المغزى السياسي الخاص الذي ارتداه إنشاء معبد للاغسطسيين في فولوكسيا : فهنا يظهر معبد لأهم العبادات الرومانية الحكومية على الإطلاق حيث تعتبر مشايعته دليلاً على الولاء للامبراطورية . فقد حاولت روما جهدها زرع عبادة الأباطرة الرومان في منطقة ما بين النهرين أثناء نزاعها مع الامبراطورية البارفية وذلك في محاولة منها لزرع روح العداء لبارفيا في أذهان الناس .

أما بشأن العلاقات التجارية بين تدمر ومصر فحتى الآن لا يتوفر لدينا سوى نقش واحد : (CIS,2,3910) (تاريخه التقريبي يعود إلى نهاية القرن الثاني الميلادي) حيث يذكر هذا النقش شخصاً يدعى يوليوس أفييري مكي الذي قاد القافلة إلى وادي النيل .

أما النقش الحضرموتي فهو نموذج فريد Jd,931 فقد ذكر فيه أشخاص ، تدمريون (tdmry) byryweddm يقابل الاسم الأول اسم خير باللغة التدمرية (hyr; CIS,II,3924,3939) أما الاسم الثاني فيقابله بالتدمرية اسم عزيز (zyzw, CIS,II,3924,3934) الخ . . وهذا يعتبر دلالة واضحة على أنه كانت لتدمر علاقات مباشرة مع الجنوب العربي ومن المحتمل أن هذه العلاقات كانت عبر الخليج العربي .

يشير النقش Inv.,X,96 اهتماماً خاصاً عند تقييم التجارة التدمرية . فالنقش كما هو معروف تدمري المنشأ وقد أقيم على شرف مارك اولبي يارخاي بن خيران المعروف لدينا هو الآخر . لقد أقام هذا النصب تجار جاؤوا من بلاد السكيف ، على ظهر المركب الذي يملكه حنينة بن حدودان . والصعوبة الجدية هنا هي معرفة المنطقة الجغرافية التي يقصد بها بكلمة «بلاد السكيف» نحن نعتقد أن المقصود هنا هي ممالك الساكس في شمال غربي الهند وهي المنطقة التي كان يمكن للتدمريين أن يصلوها عبر نهر هند . . .

معلومات إضافية	الأسباب	من الذي أقامه	على شرف من أقسم النقش	طابع وتاريخ النقش	رقم النقش ومكان اكتشافه
	ساهم في بناء معبد بيلّا	تجار - تدمريون وأغريق ، شاركوا في القافلة - (dy bslwky')	بياديل بن عزيزون بياديل من «أبناء» ماتريول (اليونانية ومن أجمنحة ماتابول»).	٢١٩ عام آب باللغتين اليونانية والندمية	تدمر CIS,II,3924
	على شرفه	تجار تدمريون	زييدابول بن عقيلون عات بن عاقا ، تدمري من «أبناء» معزيان .	٢١٨ عام آب باللغتين اليونانية والندمية هناك توقيع في أسفل لوحة الشرف .	تدمر Inv.,X,40 SEG,vII,142
	على شرفه	تجار تدمريون		النهف الثاني من القرن الأول . باللغتين اليونانية والندمية هناك توقيع في أسفل لوحة الشرف	تدمر، X,7,Inv.

معلومات إضافية	الأسباب	من الذي أقامه	صلى شرف من أقيم النقش	ظايع وتاريخ النقش	رقم النقش ومكان اكتشافه
الأرجح أنه أمن حماية مسلحة للقافلة	على شرفه شريف وحب للوطن ، ساعد التجار والعواقل والمواطنين في قولوكسيا لم يرحم نفسه ولم يدخل بماله خبز الوطن ولذلك كرمه الاجتماع الشعبي بإقامة نصب له وكذلك مارتسيلا (قنصل سورية أعوام ١٣٢ - ١٣٥) أنقذ القافلة من خطر داهم .	قافلة تجار منطوقة من فستوكسيا ، قلاية القافلة عشتيت بن يارخبول وتاركاريسو ، بن تاركاريسو تقام أربعة نصب في حرش مقدسة في معبد زفس ، في معبد أريسا وفي معبد أثارغاتيس .	برخاي بن نيززاباد بن سلامات بن احدانا مواطن ادريانا - تدمر ، ستراب ميريدات ملك خاراكس في منطقة التلوانين .	١٣١ عام ، نيسان ، باللغتين اليونانية والندمية . هناك توقيع في أسفل لوحة الشرف	Iny.,X,38 تدمر SEG,XV,849 تدمر اغريقي هناك توقيع في أسفل لوحة الشرف

رقم النقش ومكان اكتشافه	طابع ومواريخ النقش	صلى شرف من أقيم النقش	من الذي أقامه	الأسباب	معلومات إضافية
تدمر، 112, X, 1n7	أيلول عام ١٤٠ م . باللغتين اليونانية والتدمرية . هناك توقيع على لوحة الشرف	بن الكسندر اراخزيت (٩) فورات الذي انضم الى منطقة خاراكس .	المشاركون في القافلة والذين انطلقوا مع مالح بن عزيز من خاراكس الى فولوكسيا وتدمر .	ذلك أنه كان نافعاً لهم في كل شيء . على شرفه أقيم نقش .	
تدمر، 81, X, 1n7	كانون أول عام ١٣٥ م . باللغتين اليونانية والتدمرية . هناك توقيع على لوحة الشرف .	يوليوس مكسيموس قائد فيلق (اسم الفيلق غير موجود) .	مسارك اولي ابجر بن خيران بن ابجر والمشاركون في القافلة والذي انطلق معهم من خاراكس .	على شرفه	
تدمر، 16, 391, II, GIS	نيسان عام ١٤٢ م . باللغتين اليونانية والتدمرية . هناك توقيع على لوحة الشرف	نيسا بن هالة بن نيسا بن هالة بن ريفائيل بن ايساي قائد القوافل	المشاركون في القافلة - تجار وصلوا معه من فورات وفولوكسيا	تعبيراً عن الشكر والعرفان لقيادته لهم ومساعدتهم في كل شيء	

معلومات إضافية	الأسباب	من الذي أقامه	على شرف من أقسم النقش	طابع وتاريخ النقش	رقم النقش ومكان اكتشافه
لقد أثبتت مشاركة (انظر : تعليقاته) أنه نفسه قائد القوافل في CIS,II,3916 .	لأنه قدم إلى القافلة كل مساعدة وصل شرفه أقيم النقش .	المشاركون في القافلة الذين تزلزمهم من تدمير وفولوكسيا	نيسا بن هالة بن نيسا بن هالة قائد القوافل	شباط عام ١٥٠ م باللغتين اليونانية والعدميرية . هناك توقيع على لوحة الشرف	Inv.X,124, تدمر
على الأرجح أن يكون أخامارك أولي ابجر بن خيران بن ابجر (Inv.X,81)	تعبيراً عن الشكر واعترافاً له بالجميل لمساعدته التي قدمها للقافلة . وصل شرفه أقيم النقش .	المشاركون في القافلة المنطقة من خاراكن أما النص اليوناني فيقول أن النقش أقيم برعاية قائد القوافل زبدعات بن زبدلا بن يداي .	مارك أولي بن يارخاي بن خيران بن ابجر	آب عام ١٥٥ م باللغتين اليونانية والعدميرية . هناك توقيع على لوحة الشرف	CIS,II,3928 تدمر
مطابق لما قبله	لأنه ساعدهم في كل شيء . وصل شرفه أقيم النقش	قافلة نزولت من خاراكن	مارك أولي يارخاي بن خيران بن ابجر	آب عام ١١١ م باللغة العدميرية . هناك توقيع على لوحة الشرف	Inv.X,111 تدمر

رسم النقش ومكان اكتشافه	طابع وتاريخ النقش	على شرف من أقسم النقش	من الذي أقامه	الأسباب	معلومات إضافية
تدمر Iny.,X,90	كانون الثاني عام ١٥٧ بالمغنين اليونانية والتدمرية . هناك توقيع على لوحة الشرف .	مارك اولبي بارخاي بن خيران بن ابجر .	القافلة المنطلقة من خاراكن تحت حماية قائد القوافل (وفي النص التدمري : «عندما كان قائد قوافل») ياداي بن زبدالا بن ياداي .	على شرفه .	مطابق لما قبله وحسب ، قائد قوافل وعلى الأرجح أن يكون أخازا بديسات بن زبدالا بن ياداي CIS,II,3928
تدمر CIS,II,3960	آذار عام ١٥٧ ، بالمغنين اليونانية والتدمرية وهناك توقيع على لوحة الشرف .	مارك اولبي بارخاي بن خيران بن ابجر .	خيران بن بارخاي بن تايه وحبيبة بن بارخاي بن خيران «أبناء أنوبات» ، «صداقة» (Rhmmwhy) والتجار الذين انطلقوا معه .	على شرفه	مطابق لما قبله وحسب ترميم ش . كلرمونت فما نويذكر النص اليوناني أن القافلة انطلقت من خومان .
تدمر CIS,II,3961	لم يبق أثر للتاريخ ، وصلنا فقط القسم التدمري .	مسار [ك] اولب [ي] بارخاي بن خي [ران] بن ابجر .	التجار الذين [انطلقوا معه من . . . ؟]	لم يبق الصيغة	مطابق لما قبله . ريمه ج . ستاركة .

رقم النقش ومكان اكتشافه	طابع وتاريخ النقش	على شرف من أقيم النقش	من الذي أقامه	الأسباب	معلومات إضافية
تدمر Inv.,X,107	حزيران عام ١٥٩ م . باليونانية والشمسية . هناك توقيع على لوحة الشرف .	مارك اولي بارخاي بن خيران بن ابجر .	القنافة التي انطلقت من خاراكس وقادها بن بارخاي . ابجر .	عرفاناً على مساعدته لهم بكل الوسائل وعلى شرفه .	مطابق لاقبله .
تدمر CIS,II,3963	تقديراً ، النصف الأول من القرن الثاني الميلادي باللاتين اليونانية والتدمرية وهناك توقيع على لوحة الشرف .	تيارس بن ليشاش بن مسالك بن عبانية الشريف والحبيب للوطن	المشاركون في القنافة الذين [معه] .	لأنه كان نافعاً لهم وساعدتهم في كل شيء .	مطابق للمذكور في SEG,X,849
منطقة تدمر SES,VII,3963	متحف القرن الثاني الميلادي . نقش باللغة اليونانية . يوجد توقيع على لوحة الشرف .	سعيد بن باليلداع الشريف والحبيب للوطن .	«جلس وشعب» تدمر تقام أربعة نصب في معبد المدينة للالهة الأربعة [en teil] tetra deie tes po-leos).	مساعدة التجار والمواطنين والقوافل في فولوكسيا معبد اغسطس فكريته الحكام ادريانا وانتونيانيا ، قرار	

رقم النقش ومكان اكتشافه	طابع وتاريخ النقش	على شرف من أقيم النقش	من الذي أقامه	الأسباب	معلومات إضافية
تدمر 1h۷, x, 29.	تموز عام ١٦١ م. باللغتين اليونانية والتدمرية وهناك توقيع على لوحة الشرف .	شارك اميلي ماركيان اسمكليبيدا عضوا المجلس الحاكم في انطاكية ، مالك الربيع (tetar-tonen ,dyrb')	التجار الذين انطلقوا من خاراكس وقائداهم خاراقل - نيس بن القواقل - بليادع .	الحاكم بوريثيسيا مارتسيلا وكذلك «المجلس والشعب» والقواقل وأشخاص آخرون .	قائد قواقل وهو أخو السابق .
تدمر CIS, 11, 3948.	نيسان عام ١٩٣ م . باللغتين اليونانية والتدمرية وهناك توقيع على لوحة الشرف .	نياس بن تيمه بن مقيم بن غربة قائد قواقل .	المشاركون في القافلة التي انطلقت معه من خاراكس .	قدم لهم ٣٠٠ دينار من الذهب القديم لتفقات الطريق وكان نافعاً لهم ، على شرفه وشرف يداي وزينديبول وأولاده .	

رقم النقش ومكان اكتشافه	طابع وتاريخ النقش	على شرف من أقسم النقش	من الذي أقامه	الأسباب	معلومات إضافية
تدمر CIS,II,3949	آذار عام ٢١١ م باللغتين اليونانية والندمرية . يوجد توقيع على لوحة الشرف .	يصادي بن تيجارس بن تيمية بن مقيم بن غربة .	النقش يعاني من تلف كبير ومن المعتقد أن من أقامه هم تجار مقيمون في فولوكسيا حيث قدم لهم مبالغ كبيرة .	ذلك أنه كان نافعا لهم ، وعلى شرفه .	أبناء السابق .
تدمر CIS,II,3933	نيسان عام ٢٤٧ م باللغتين اليونانية والندمرية . هناك توقيع على لوحة الشرف .	بولي افريلي زبيدة بن مقيم بن زبيدة بن عشير بن يعقبة .	المشاركون في القافلة الذين نزلوا معه في فولوكسيا .		

ويعتمد هذا التقرير على «بيربلا البحر الأريتيري» (مقطع ٣٨) الذي يضم «السواحل السكيفية» إلى منطقة منابع نهر هنداء . ويعود مثل هذا التصور إلى افتراضات الجغرافيين الإغريق الذين افترضوا أن منابع نهر هنداء تقع في القفقاس (Av., Oramar., 1286-1293) ولكن هناك حل آخر . فالمعروف أن الجغرافيين الإغريق اختصروا بلاد السكيف أساساً في منطقة البحر الأسود (Per.Ps.Scyl., 63, Per.Ps.Scymn., 835 - 840, PS., arrper.Pont.Eux, 49, Av., Ora mar. 861 - 863) وإذا ما انطلقنا من هذا التقرير عند تفسيرنا لـ Inv., X, 96 فيجب أن نعترف أن المركب وصل من شمال البحر الأسود إلى ميناء ما يقع في منطقة شرقي البحر المتوسط . ونحن نرى أن الافتراضين منطقيان . وعلى أية حال فالثابت هو أن التدميريين اتخذوا اجراءات للمشاركة ليس فقط في تجارة القوافل وإنما في التجارة البحرية أيضاً .

وهكذا نرى أن المصادر المتوفرة لدينا تعطينا إمكانية كافية للحكم على نظام تجارة القوافل . فالقافلة (synodia, s^yr أو s^ykt') عبارة عن جماعة تستطيع أن تتخذ بكل حرية القرارات المناسبة لمختلف القضايا التي تواجهها . وتصادفنا مثل هذه القرارات فقط عند تقرير إقامة نصب تكريماً لشخص ما . ولكن لأشك في أن اجتماع القافلة العام كان يتخذ قرارات لحل مسائل أخرى ، مثلاً إقامة علاقات مع هذا الشخص أو ذاك ممن قدموا خدمات مفيدة للقافلة ، أو انتخاب قائد القافلة ، أو تحديد مسارها إلخ . . . لقد كان للقافلة مخصصات مادية عامة ، وكانت تتشكل من مساهمات المشاركين فيها وفي حالات نادرة كان شخص ما واحد يأخذ على عاتقه تغطية كافة نفقات القافلة .

ولكن لا تتوفر لدينا المعطيات الكافية لتحديد مهمات وصلاحيات قائد القافلة بالتفصيل المرجو (synodiarv, hes, rbs^yrt) والحقيقة أن بعض المصادر تعطي بعض المعلومات عن مهمات هذا الأخير فهو رئيس القافلة الذي يعمل وسعه لكي تكون أوضاع كافة أعضاء القافلة مرضية . وهذا يدل على أن رئيس القافلة كان يتمتع بامتيازات قيادية داخل الجماعة . غير أننا لا نعتقد أن روستوفتسيف محق في اعتباره قائد القافلة . «قيصر - قافلة» . هذه التسمية تتناقض والصيغ التالية : «انطلقوا» أو «نزلوا» «سوية معه» ، هذه الصيغ التي تدل دلالة واضحة على أن الكلام يجري هنا عن أشخاص متساوي الحقوق . ولو كان لقائد القافلة أي وضع حقوقي خاص لكان لابد من أن نجد له انعكاساً ما في صياغة النقوش . وتجدر الإشارة هنا إلى النقش CIS, II, 3936 حيث تحتوي هذه الوثيقة على معلومات هامة للغاية عن وضع قائد القافلة . وقد وجدت الوثيقة مرافقة لنصب يوليوس أفيريلى سلاملات

بن عبيدة والذي أقيم بقرار من «مجلس وشعب» تدمر . كان هذا الشخص قائد قوافل [a]rkHemporon,rb s`yrt) وقد قاد القافلة «دون مقابل» «على نفقته الخاصة» proika,mgn mn kysh فعلى ما يبدو أن عمل قائد القافلة كان مأجوراً . ومن الطريف أن أحد النقوش المقامة على شرف سييتيم فورودا (CIS,II,3942) أو (GRR,III.1045) أو المؤرخ عام ٢٦٧ ، تقريباً حيث يمدح فيه المذكور لأنه مؤن القافلة على حسابه الخاص .

وليس غريباً أن تكون حماية طرق تجارة القوافل إحدى المهام الأكثر أهمية بالنسبة لحكومة تدمر الأمر الذي تشير إليه المصادر صراحة . ويعتبر النقش nv.,X44 ذو أهمية خاصة في هذا المجال ويعود تاريخه لعام ١٩٩ . يقول النقش : بقرار من «المجلس والشعب» تقيم العشائر التدمرية الأربع نصباً على شرف عقيل بن مكّي بن عقيل بن سيفور عرفاناً له بالخدمات التي أداها إبان الحملة ضد البدو الرحل وكذلك لقاء تأمينه حماية القوافل على نفقته الخاصة . أما القسم التدمري فيقول أنه يكرم لقاء خدماته في مختلف الاجراءات (b'strtgwn s`gy,yn) التي اتخذت لتأمين سلامة البلاد -wb?ryhyh- وكذلك لقاء تنظيم القوافل .

لا شك أن هذا التطور العاصف لتجارة القوافل كان له تأثير بارز على حياة مجتمع تدمر . ويتضح من المصادر التي أوردناها أنه كان يوجد في تدمر في المرحلة التي نحن بصددتها أناس متخصصون بقيادة القوافل والرحلات التجارية . ومن هؤلاء مثلاً نيس بن هالة الذي كان يقود القوافل المنطلقة من تدمر إلى فولوكسيا ومن فولوكسيا وفورات إلى تدمر . كما ونجد عائلات بكاملها تمارس نفس المهنة منها مثلاً الأخوان زبيدعات ويدي أبناء زبيدل .

ولقد رأينا أن كبار العائلات الأرستقراطية كانت تشارك في تجارة القوافل حتى أن بعضهم كان يقود بنفسه مثل هذه القوافل . ويمكن أن نشير هنا إلى الأخوين سعيد ونيس ولدي بليانع حيث كان أحدهما قائداً للقوافل والآخر كان يقدم مساعدات مالية لبعض التجار وكذلك للمستعمرة التدمرية التجارية في فولوكسيا . ومثل هذه العائلات - عائلة تيمارس ابن تيمة بن مقيم بن غربة وولده يداي . فقد قادا القوافل وقدمتا مساعدات للمشاركين في تجارة القوافل . ومن الواضح أن هذه النفقات كانت تعوّض بنمو وتطور تأثيرهما في مختلف المجالات بما في ذلك - التجارة وبالتالي بإمكانية الحصول على أرباح إضافية من العلاقات التي وطّدتا ورسختها تلك المساعدات . ويعتبر نشاط الأخوين مارك أولبي الأبحر ومارك أولبي يارخاي أبناء خيران بن أبحر من أكثر النشاطات وثائقية في هذا المجال

فالأول كان قائد قوافل والثاني غالباً ما كان ينظم مثل هذه القوافل التي كان يقودها رجاله أو عملاؤه التجاريون . وكانت له علاقات تجارية مع تجار تدمريين يمارسون التجارة البحرية كما وأصبح أبجر بن مارك أولبي يارخاي قائد قوافل في حياة والده الذي أراد ، على ما يبدو أن يجعله خليفة له في هذا المجال .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل اقتصرت ملكية هؤلاء على المجال التجاري أم أنها امتدت لتطال الأرض أيضاً ؟ نعتقد أن الامكانية الأخيرة واردة ولكن حجم العمليات التجارية الذي نتحدث عنه الوثائق يؤكد أن عماد ثروة هؤلاء كانت الواردات الآتية من تجارة القوافل .

ومن المسلم به أنه كان للأرستقراطية التجارية (إذا صح هذا التعبير) تأثير واضح في حياة المجتمع التدمري . ولكن من المدهش فعلاً أن الوثائق التي تحكي عن هؤلاء لا تشير إطلاقاً إلى *cursus honorum* - هم أي الله لم تكن لهم أية مكانة في الوظائف الإدارية في المدينة . ولكن ألسنا هنا أمام اختلاط الأوضاع مصادقة ؟ من الواضح أن مزيداً من المعطيات ووجهه القادر على إلقاء مزيد من الضوء على الدور الذي لعبته الأرستقراطية التجارية في حياة مجتمع تدمر .

من المحتمل أن تكون الأرستقراطية التجارية موجودة في المراكز التجارية الأخرى إلا أنه لا تتوفر لدينا أية معطيات حول هذا الموضوع .

إذاً ، كما رأينا ، فقد دعمت تدمر علاقاتها التجارية مع المدن المذكورة ببناء مستعمرات تجارية تابعة لها فيها وكذلك ببناء معابد للآلهة التدمرية هناك . وبغض النظر عن صحة المصادر فإنه لا بد من اضافة دورايوروبوس إلى قائمة المدن التي كانت تربطها بتدمر علاقات تجارية وثيقة . والدليل على ذلك هو المعبد التدمري الذي تم العثور عليه قرب البرج الشمالي الغربي لسور المدينة . وعلى الأرجح أن تاريخ بناء هذا المعبد يعود إلى النصف الأول من القرن الأول الميلادي . وتؤكد ذلك اللوحة التذكارية التي تحمل تاريخ شباط - آذار لعام ١١٥ م حيث تقول اللوحة أن ليسوس بن كونون بن باثروكلا « أقام على نفقته الخاصة هذا البيت والطابق العلوي بعد تطهره أمام الإله زفس لتوفيقه وتوفيق خلفائه » *cumont, I, SEG, VII, 754* على الأرجح أن ف . كومون محق عندما يعتبر أن المقصود بكلمة *oikos* في النقش ليس المعبد وإنما بناء ما شيد على أرض المعبد . وأهم ما في هذه الوثيقة إشارتها إلى أن أكثر العائلات نفوذاً في دورايوروبوس كانت تعتبر أنه يجب تقديم الهدايا

والأضاحي إلى آلهة تدمرو ومن الواضح أن السبب في ذلك ليس أكثر من السعي لتستين العلاقات التجارية مع تدمر بالإضافة إلى ذلك تم بناء معبد في وسط دورايوروبوس ويدعى معبد غاد - معبد المدن الثلاث ، تدمر ودورايوروبوس ومدينة ماثالثة من الصعب تحديدها . وعلى الأرجح أن بعض الوثائق المكتشفة في المعبد قد أثارت اهتمام الباحثين . احداها (ED, VII-VIII, 907) وجدت مع رسم الإله - حامي دورايوبوس وتنص على : «غاد دورا أعده خيران بن مالك بن ناتسور . في شهر نيسان عام ٤٧٠» (أي عام ١٥٩) أما الوثيقة الأخرى (ED, VII-VIII, 908) والتي ترافق رسم الإله - حامي تدمر فهي على نفس النمط : «غاد تدمر أعده خيران بن مالك بن ناتسور . في شهر نيسان عام ٤٧٠» لقد أشار ناشر وهذه الوثيقة إلى أن اسم ناتسور في الوثائق التدمرية (GIS, II, 4202) يشار إليه على أنه أحد أجداد سيبتيم أذينة الذي تبدأ شجرة العائلة منه . واعتقاداً على هذا التشابه في أسماء الأجداد يعتقد الباحثون بحذر شديد أن هناك علاقة ما بين عائلة أذينة وعائلة مُعد الرسمين المذكورين في معبد غاد . لا شك أنه يتوجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الفارق الزمني (حوالي ٦٠ سنة تقريباً) الذي يفصل CIS, II, 4202 (عام ٢٢٥ تقريباً) عن وثائق معبد غاد . ولكننا يمكن أن نعزي هذا الفارق إلى أنه في CIS, II, 4202 يشار إلى أربعة أجيال بينهما يشار في وثائق معبد غاد إلى ثلاثة أجيال فقط . أما تشابه الأسماء فيمكن أن يكبرن مجرد صدفة خاصة وأن اسم 'nsr' القريب يصادف مرتين على شواهد القبور في النقش CIS, II, 4403 وهكذا تبقى مسألة القرابة خاضعة للبحث ولكن على أية حال فقد كان خيران بن مالك بن ناتسور في منتصف القرن الثاني الميلادي واحداً من الرجال ذوي النفوذ في العشيرة التدمرية المقيمة في دورايوروبوس . ويبدو أن معبد غاد الذي أعيد بناؤه مرّات عدة كان مكاناً للعبادة واجتماع التدمريين المقيمين في دورايوروبوس . أما رسوم الآلهة - حامية دورايوروبوس وتدمر فقد كانت تعبيراً عن ولاء التدمريين لوطنهم وللمدينة التي فيها يعيشون . كما وتشير المصادر إلى وجود اتحاد راسخ ومتكافئ بين المدينتين في منتصف القرن الثاني الميلادي .

ويلفت النظر النقش ED, VII-VIII, 909 الذي يرافق رسم أحد آلهة تدمر وهو الإله يارنجبول . وقد أعد هذا الرسم «بن مايقي وقاذفو السهام (b d b n y m y t ' q s ' t') ومن الطريف حقاً أن وثائق دورايوروبوس تأتي على ذكر قاذفي السهام التدمريين . ويعود تاريخ مثل هذه الوثائق لعام ١٦٨ (ED, VII-VIII, p. 83-84) لقد كتبت احداها بلغيتين . ويقول نصها اليوناني EXFanei idtapteua : «إبتاني - القائد» - يعرف بشكل تام اللغتين الآرامية والتدمرية . أما النص التدمري لهذا النقش فهو أكثر تفصيلاً : «ذكرى طيبة .

أعدها إيتاني - القائد بن زبيدة الذي يقود قاذفي السهام الذين في دورا 't'nstrtg'br في zbdch dy 'lqst' dy bdwr شهر آذار عام ٤٨٠. وهناك نقش آخر باليونانية يرافق رسم الإله ميترا وقد أعده «زينوبا والذي أيضاً بايا باين ياريجبول قائد قاذفي السهام» ويعود تاريخ هذا النقش لعام ١٧٠ - ١٧١. نستدل مما تقدم ، دون أي لبس أنه في منتصف القرن الثاني الميلادي وفي نصفه الثاني كانت توجد في دورايوروبوس فرقة قاذفي سهام تدمرية . ولا يجوز القول أن هذه الفرقة كانت ضمن القطع العسكرية الرومانية المتواجدة هناك - الكتبية عشرون لقاذفي السهام التدمريين جماعة السواحل والتي كانت معسكرة في دورايوروبوس منذ عام ٢٠٨ وحتى عام ٢٥٦ ، على أقل تقدير ، وذلك لسبب رئيسي هو أن وثائق هذه الكتبية كانت مكتوبة باللغة اللاتينية ، بما في ذلك النقوش (قارن ED,VII-VIII,906 ويعتقد . ي . روستوفتسف أنه تم إعداد قاذفي السهام هؤلاء لحماية القوافل التجارية . وكان من الممكن الموافقة على هذا الرأي لو كانت الوثائق قد أشارت إلى شيء ما عن مهام هؤلاء الجنود .

ونحن نعتقد أن صيغة «قاذفي السهام من القوس الذين في دورا» (qs^t'dy bdwr') تدل دلالة واضحة على أن مهمة هؤلاء الجنود في دورايوروبوس هي حماية المدينة . ويدعم هذا القول نقشان يفصلهما عن بعضهما فاصل زمني قصير يقدر بعامين أو ثلاثة . فنحن لا يدهشنا أبداً التغير المستمر لقادة هذه القطع . إذ أن الوضع الذي كانت عليه دورايوروبوس في الفترة التي أعادت فيها وثائقنا هذه يدل على أنه كان على قاذفي السهام التدمريين المتواجدين في هذه المدينة أن يكونوا حلفاء مساعدين للقوات الرومانية . أما إعادة تنظيمهم في الكتبية عشرين فيعتبر الإجراء الدوري الذي هدف الرومان من ورائه إلى استخدام أكثر فعالية للجنود التدمريين . ولكن تجب الإشارة إلى أننا لا نملك أية وثائق تشير إلى وجود قاذفي السهام هؤلاء في دورايوروبوس في مراحل أكثر قدماً .

ويدل وجود السوق التجارية والدكاكين المجاورة لها في دورايوروبوس على أن هذه المدينة كانت مركزاً تجارياً محلياً وتدمرياً هاماً . ومما لا شك فيه أن تنظيم هذه السوق التجارية قد تعرض لتغيرات هامة خاصة في عصر مملكة بارفيا فقد تقلصت مساحتها بشكل ملحوظ نتيجة لبناء المزيد من المحلات التجارية فيها وبالتالي فقد تبدل تنظيمها بشكل واضح . ونحن لا نشك في أهمية هذه الظاهرة أبداً فهي مرتبطة - حسب رأينا - بالنمو المضطرد للمؤسسات التجارية الكبيرة التي سحقت المؤسسات الصغيرة ووضعت في قبضتها كل العمليات التجارية الهامة . فسلسلة النقوش SEG,VII,أعوام (٣٨١ - ٤٣٠ أي ٢٣٥ -

- ٢٤٠) تحوي معطيات هامة عن نشاط مثل هذه المؤسسات . ونظراً للأهمية التي تتمتع بها هذه السلسلة نجد من المهم عرض ترجمتها كاملة .
- ٣٨١) . بعد ذلك : ساهمت أنا نيبوخيل بـ ٢١٢٠ ديناراً . بعد ذلك : أرسلت بابة عبر ييميلابن أداغابار ٢٠٢ ديناراً وعبر باتا بن خميني ٨٥٠ ديناراً وعبر برنابو بن سميرة ١٠٠ دينار .
- ٣٨٢) . بعد ذلك ساهمت أنا نيبوخيل بـ ٢١٢٠ ديناراً . أعطيت فرعات ١١٤٠ ديناراً وغيرها ٦١٦ ديناراً . بعد ذلك : أرسلت بابة عبر ييميلابن ٢٠٢ ديناراً وعبر باتا ٨٥٠ ديناراً . وأخذ ماريبال ١٥٢ ديناراً .
- ٣٨٣) . عندما وصلت كاخاندس جلبت ٧٨ ديناراً .
- ٣٨٤) . لقاء أخذ ماريبال ٧٤ ديناراً و ٣٤ .
- ٣٨٥) . بعد ذلك : تم دفع : ماريبال أخذ ١٥٢ ديناراً وفرعات ١١٤٠ وغيرها ٦١٦ وغيرها ١١٦٠ . وأخذ فرحات ١١٤٠ ديناراً أخرى . لقد أرسلت إلى عبدان ٢٠٠ ديناراً والمجموع ٣٢٦٨ .
- ٣٨٦) . تقرير . بعد ذلك : أخذت من بيلانتي (?) لننيوخيل ١٥٠ ديناراً وأخذت لبحير من ٢٤ . لشراء اللحم ١٩ ديناراً وجوب ٢٩ وفراء --- ديناراً وشعير ١٥٢ ديناراً ولحمة ٣ دنانير .
- ٣٨٧) . بعد ذلك : أعطيت أغريبات --- ، أعطيت --- t --- ، وفي دورا --- da .
- ٣٨٨) . لتنظيم الحامية المسلحة --- onoa ديناراً --- لشراء البخور ٥٠ ديناراً ، --- ديناراً ، ١٥٠ ديناراً ، --- den --- ، ٨٠٠ دينار ، --- ٨ دنانير ، ٥ دنانير إلى بابيليتا و ١١ ديناراً إلى هيرقليت .
- ٣٨٩) . بعد ذلك : أعطيت إغريبات ، أعطيته ٣٠٠ ديناركي يجلب لي --- ثلاثة قدور .
- ٣٩٠) . أعطيت فانا سلمان ٨ دنانير .
- ٣٩١) . بعد ذلك :
- ٣٩٢) . ٨ دنانير أعطيت للمالك .
- ٣٩٣) . لقد استلم منا من آل KOKOMOI العائد لسلمان طقماً واحداً من الثياب .
- ٣٩٤) . لقد حصلت من آخر تأجير (*) على شعير ٦٢٠ قيراط .
- ٣٩٥) . بعد ذلك : استلمت --- .

★- على الأرجح ربيع تأجير الأرض .

- ٤١٥ . إلى با --- ٢٧ ديناراً .
- ٤١٦ . بنفسى ٥٠ ديناراً ، ديناراً واحداً على الشعير . أعطيت مانو ٤ دنانير ، و ٤ دنانير للحمه ؟ ١١ ديناراً للشوح و ٤ دنانير للخمر ، ----
- ٤١٧ . مجموعة ١ . بعد ذلك : أرسلت إلى عبدان نيبوخيل : قمصان ٢٠٤٧ ، ٢٠٤٦ ، ٢٠٤٦ روبياً ، ٧٠٤٢ منشفة ، ٢٠٥٠ شرسفاً وغيرها ٣٠٤٢ ، ٢٠٥٥ منشفة حمام ، ٢٠٤٦ روبياً ، ٢٠٣٥ منشفة حمام ، ٤٠١١ ولادية من الصنف الرديء . مجموعة الاصبغة أرجوانية ٩ ليرات .
- ٤١٨ . إلى خلا ميد ٣ دنانير .
- ٤١٩ . إلى افادان --- ١٥٦٠ .
- ٤٢٠ . ولادي ١٠١٣ ، ١٠٩٠ روبياً ، ---
- ٤٢١ . صبغتنا الأرجوانية ١٢ ليتراً .
- ٤٢٢ . باراغافديا 2 da قمصان صوفية نصف كم ١ ، روب صوفي نسائي واحد ، قميص صوفي واحد أرجواني بدون أكمام . ربطة . عُصابة واحدة ، بطانية واحدة ، بطانية مزركشة واحدة ، روب أبيض واحد --- skade3mia (؟) ٥ ، وسادة واحدة .
- ٤٢٣ . ٢٠٤٤ زوجاً من الجزم ، ٢٠٤٨ منشفة حمام ، لاوديكية (لاذقانية) ١٠٣٢ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٦ .
- ٤٢٤ . --- ٤ ، --- ٢ ، مشاعل عدد ٢ .
- ٤٢٥ . إبيميلا ٢٠ رباط .
- ٤٢٦ . pd مشاعل ٣ ، ٦ ، ١٠١٠ ، ٥ .
- ٤٢٧ . مجموعة أولى . هيل ١ ، كوستامين ١ ، (؟) asnabo 3 - مين ١ ، - sibal (؟) anal - مين ١ .
- مجموعة ثانية و ١٠ أزواج جزم ، ريمين ٢ ، روبين نسائين solal - مين عدد ٦ .
- ٤٢٨ . أربطة صوفية جديدة ٨ ، ٣ ، سوار عدد ٢٣ ، ١٨
- ٤٢٩ . لدي رهن : أربطة بقيمة ٤ دنانير ، خاتم بقيمة ٨ دنانير .
- ٤٣٠ . لدي رهن : أم فرعات بقيمة ٣٢ ديناراً ، زوجة مارييلا بقيمة ٨ دنانير .
- وهكذا نرى أن عمليات نيبوخيل التجارية والتي تحكي عنها الوثائق تتكون من مدفوعات نقدية مجهولة الغاية وفي حالات أخرى نراه يشارك في شركات تجارية ويساهم في مؤسسات غريبة وبالإضافة إلى ذلك نرى أنه يقدم القروض مقابل رهن معين . ولا يقتصر نشاطه على دورايور وبوس وحدها بل يمتد إلى القرى والمدن المجاورة كصور مثلاً . لقد كان نيبوخيل

يتاجر بالحبوب والمواد التموينية الأخرى (بما في ذلك الخمر) والصوف والألبسة والأحذية والأرجوان والشوح . وتبدو عملياته التجارية غير منظمة بل فوضوية فهو ينتقل من عملية إلى أخرى ولا أهمية عنده للمادة أو للشخص الذي يتاجر معه المهم بالنسبة له هي التجارة بحد ذاتها فهو مستعد للدخول في أية عملية تجارية تضعها أمامه اللحظة المعينة دون سابق تخطيط .

وهذا يسمح لنا بالاستنتاج أن التخصص التجاري لم يكن موجوداً في دورايوروبوس في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي . فالعمليات التجارية التي يقوم بها نيبوخيل لا يمكن مقارنتها بتلك التي كان يقوم بها التجار الفينيقيون والتدمريون الذين غالباً ما كانت عملياتهم تتعدى حدود مدنها . وقد يتبادر إلى الذهن السؤال التالي : وماذا يمنع وجود مثل هؤلاء التجار في دورا أيضاً ؟ لاشيء . بل هو احتمال واقعي .

والحقيقة أن الأبحاث الأرخيولوجية في دورايوروبوس تسمح لنا باقتفاء عملية نمو وتطور وحتى تمركز الرأسمال التجاري في الفترة التي نحن بصدددها . فإذا كانت الدكاكين التجارية ، في العصر الهلنستي ، والتي توضع في ساحة السوق التجارية عبارة عن محال متواضعة تتألف من المستودع ودكان البيع نفسه فقد تحولت في مرحلة لاحقة إلى مجمعات من البيوت الفنية التي تتألف غالباً من عشرة بما في ذلك بيوت سكنية ومستودعات . وهذا دليل أكيد على نمو الثروات وبالتالي توسع العمليات التجارية .

تجارة المعابد في سورية في القرن الاول وحتى الثالث ضمناً . (للميلاد)

لقد كانت المعابد تشكل إلى جانب المدن مراكز تجارية هامة في سورية في الفترة المذكورة . ولكن للأسف لاتعطينا الوثائق سوى صورة عامة وتقريبية عن تجارة المعابد في سورية وتنظيمها . غير ان بعض الوثائق (IGRR,111,1020) تشير الى تنظيم معارض تجارية دورية في أراضي المعابد كان يشارك فيها الناس من المقاطعات المجاورة وحتى البعيدة . حتى أنه في عهد انطوخ أصدر مجلس المدينة أمراً تنظم بموجبه اقامة المعارض التجارية في أراضي المعابد : وكان يجب أن تقام عبر كبار الموظفين المختصين المسؤولين عن الحدود التابعة لبيتوكيكي و kHora . ولا شك في أنه كانت تتخلل هذه المعارض طقوس وشعائر دينية ولذلك كان اليهود يمتنعون عن الاشتراك فيها .

وتدل الرواية الانجيلية المعروفة (عندما طرد يسوع المسيح التجار من الهيكل) على أن المعابد كانت تلعب دوراً هاماً كمراكز تجارية في كل آسيا الوسطى والغربية ولم تكن سورية استثناء في هذا المجال .

الفصل الرابع

البنية الاجتماعية للمجتمع السوري في الفترة ما بين القرن الاول والثالث للميلاد .

قبل أن نبدأ بمعالجة موضوع البنية الاجتماعية في سورية ابان المرحلة التي نحن بصدددها نرى لزاماً علينا أن نشير إلى أننا لا نملك معطيات مباشرة عن هذا الموضوع وخاصة عن مستوى التناسب القائم بين مختلف فئات السكان . ولكننا نستطيع أن نجزم بوجود هذه الفئة أو تلك وتحديد خصائصها .

عندما نعالج البنية الاجتماعية لهذا المجتمع القديم أو ذاك فإننا نقصد أولاً - تحديد الطبقات ، أي تلك الجماعات من الناس التي يميزها عن بعضها البعض « موقعها في نظام الانتاج الاجتماعي المحدد تاريخياً وبموقعها (القسم الأعظم مثبت ومصاغ قانونياً) من وسائل الانتاج وبدورها في تنظيم العمل الاجتماعي وبالتالي بأساليب حصولها على نصيبها من الثروات الاجتماعية التي تملكها وحجم هذا النصيب » ^(١) ، ثانياً - بما أن « الفوارق الطبقيّة في المجتمعين العبودي والاقطاعي مثبتة بموجب التقسيم الفئوي للسكان » و « طبقات المجتمع العبودي والمجتمع الاقطاعي (وكذلك نظام القنانة) كانت أيضاً فئات خاصة » ^(٢) ، - فالفئات ، هي جماعات من الناس تتميز عن بعضها البعض حسب وضعها القانوني .

× × × × × ×
× × × × × ×

١- ف . ١ . لينين ، المبادرة الكبرى - الاعمال الكاملة م . ٣٩ . ص . ١٥٠ .
٢- ف . ١ . لينين ، البرنامج الزراعي للاشتراكية - الديمقراطية الروسية ، الاعمال الكاملة م . ٦ . ص ٣١١ .

العبيد في سورية القرن ١ - ٣ م .

تتميز هذه المرحلة من تاريخ سورية بأنها (سورية) كفت أن تكون مصدراً للعبيد وهو الدور الذي لعبته منذ بداية العصر الهلنستي^(٣) وكذلك في زمن الحروب الرومانية ضد السلوقيين^(٤) . والحقيقة أن كاسيوس نفسه قام بخطط الأحرار وبيعهم عبيداً ولكن انطونيوس الذي أراد استمالة الناس الى صفه قام بتحرير كل من استعبدتهم كاسيوس وأتباعه (Flav.ios,Ahtt,14,313) . ولكننا نعرف أن العبيد استمروا موضوعاً للملكية الخاصة ولعمليات البيع والشراء .

العبيد في الوثائق التدمرية

أهم الوثائق التدمرية التي تأتي على ذكر العبيد في تدمر هي التعرفة الجمركية المشهورة (CIS,II,3913) حيث يكون العبيد هنا مجال تجارة الترانزيت . وتنص لائحة التعرفة الجديدة في اللوحة الثانية على : « يدفع مستورد العبيد ('lymy') إلى تدمر أو الى خارج حدودها [فليدفع المشتري] عن كل شخص (lklrgl)^(٥) ٢٢ ديناراً . عن كل عبد يباع في المدينة أو خارجها ١٢ ديناراً . أما عن مخضرمي الحرب - العبيد (mn 'lmwtr[n]) فمن يباعون في المدينة فعشرة دنائير وإذا أراد الشاري اخراج العبيد وبيعهم خارج المدينة

٣- يقول النقش Seg,X,242 ان بين العبيد الذين بيعوا لاستشارة اكسيوخ - اثني - كان هناك رجل يدعى فانوس وهو سوري الاصل . كما ورافق احتلال الاسكندر المقدوني لصور بعمليات استعباد واسعة . لقد استعبد الاسكندر ثلاثين الفا من أهالي صور ؟ Diod.,17.46 وكذلك Arr Anab.2,24 ويقول آريان ان الاسكندر استثنى من أهل صور العائلات الارستقراطية وعلى رأسها الملك ازميلك وكذلك قناصل قرطاجة ذوي الصفة الدينية الذين اختبأوا في معبد هرقل - ميلكارت . ويقول بعض المصادر أن هؤلاء الناس تم بيعهم كعبيد وعلى الأرجح خارج حدود سورية . كما واتسم بسمه جماعية سوق الناس من سورية الى مصر بعد تحويلهم الى عبيد . وليس صدفة ان يكون بطليموس الثاني فيلادلف مجبراً على اصدار امر بمنع بموجبه استعباد الأحرار من سكان المنطقة التي نحن بصدددها .

٤- بعد انتهاء حرب روما ضد انطوخ الثالث أصبح ظهور العبيد السوريين ظاهرة عامة في منطقة غربي المتوسط . وعلى الأرجح أن هؤلاء وكانوا اسرى حرب وقد بيعوا في أسواق جزيرة ديلوس . وكان العبيد السوريون من الشخصيات الرئيسية في الفن الكوميدي الروماني في المرحلة التي نحن بصدددها . قد يكون هذا نتيجة لتأثير غط الاسكندرية الكوميدي على الروماني . ويذكر سيتسرون بدوره العبيد السوريين المباعين . ولكن الملفت للنظر حقاً أن هؤلاء كانوا يشكلون عماد انتفاضة العبيد التي هزت بعض جزيرة صقلية في القرن الثاني ق . م . ونعرف أيضاً بعض كبار رجال الفن الروماني الذين كانوا عبيداً ومن أصل سوري : عالم النجوم . بوميلي اندرونيك ، وعالم الفلك مانيلي انطوخ وصانع الفن الايمائي بوبيلي سير وغيرهم .

٥- قارن بالعربية Ragulun - «رجل»

٦- ترميمنا لها Bmdyt - « في المدينة » قائمة على مقارنتها بالسطر الرابع .

فعلية أن يدفع ١٢ ديناراً عن كل عبد » . وهناك نص مماثل في لائحة التعرفة القديمة « فليدفع للشاري ذلك الذي يجلب الناس الى تدمير أو المناطق التابعة لها ثم يخرجهم منها للتجارة - عن كل شخص ٢٢ ديناراً . أما ذلك الذي يخرجهم فعليه أن يدفع للشاري ١٢ ديناراً . أما من يبيع عبداً - من قدماء المحاربين فعليه أن يدفع عشرة دنانير » .

يرمز للعبد في المقاطع التي نحن بصدها بمصطلح 'lm . وفي اللغة السورية الكلاسيكية عبر عن مفهوم العبد بمصطلح -'abḏā ونادراً -'alayma والذي يعني « شاب » ، « ولد » . ولكن وثائق اوغاريت التي يعود تاريخها الى النصف الثاني من الألف الثاني ق . م تأتي على كلمة glm بمعنى شاب وخدام ، عبد .

يتضح مما تقدم أن الكلمات التي جذرها lm قد استخدمت في اللغة السورية للدلالة على مفهوم العبد ولكن بشكل نادر تقريباً مع أن مثل هذا الاستخدام للكلمات معروف في اللغات السامية . ولكن لماذا استخدموا وضعوا لائحة التعرفة التدمرية هذه الصيغة بالذات ؟ ألم تؤثر المصطلحات اليونانية على التدمرية في هذا المجال ؟

يحتل مصطلح soma مكانة خاصة في هذه الوثيقة ويقابله في التدمرية kgl للدلالة على الشخصية المباعة . ولكن أهم مصطلح في لائحة التعرفة في الموضوع الذي نحن بصده هو مصطلح wtrh (يقابله في اليونانية oyetrana) الذي يسمح لنا أن نحدد بشكل أدق ماهية العبيد الذين يجري الكلام عنهم . لقد أشار ديتنبرغ في معرض تعليقاته على اللائحة إلى مقطع من كتاب مارتسيال « De delatoribus » وحسب هذا المقطع يعتبر ال-man-cipia vete-raua في ذلك العبيد منهم ، طبعاً ، تلك الفئة من الناس التي تخضع للاستغلال المستمر لفترة لا تقل عن عام واحد . ولكن ماهو الفارق بينهم وبين mancípia novicia . وتفيدنا في هذا المجال ملاحظات ويجيست بخصوص العبيد - « المسؤولين » حيث تؤكد لنا أن مصطلح wtrn استخدم للدلالة على تلك الفئة من العبيد الذين لهم مكانة ما في قيادة استشارة مالكمهم أو أولئك الذين تعلموا « علماً حراً » . ولقد كان هؤلاء أقل قيمة من أولئك الذين لاهنة لهم كونهم أكثر نفعاً كعبيد .

وهكذا نرى أن اللائحتين القديمة والجديدة أخذتا بعين الاعتبار الحالات التالية : (١) جلب العبيد الى داخل حدود تدمر ، (٢) بيعهم في المدينة وضواحيها ، (٣) اخراج العبيد خارج حدود تدمر . كل هذه الحالات تعامل العبيد كموضوع بيع وشراء يجلب عائدات - أي ملكية خاصة . وما يلفت النظر أن الضريبة عن

كل عبد تحدد بغض النظر عن قيمته الحقيقية فهو على اية حال سلعة ولكن قيمته تحددها نوعيته ثم مسألة العرض والطلب في السوق . وتثير الدهشة حقاً الضريبة التي تترتب على استيراد العبيد حيث تصل الى الضعف بالمقارنة مع الضريبة المترتبة على عمليات البيع والشراء الحاصلة داخل حدود تدمر . وهذا ما يخلق انطباعاً بأنه لامصلحة لواضعي اللائحة في استيراد العبيد ولذلك سعوا لعرقله هذه العملية . ومن الصعوبة بمكان فهم وجود مثل هذه الظاهرة في ذلك الوقت فالمعطيات في هذا المجال معدومة حتى الآن . وهي على ما نعتقد ليست مرتبطة بخصائص ما جديدة لأسلوب استغلال المنتج المباشر بل علاقتها على الأرجح تنحصر في محاولة حماية السوق المحلية لتجارة العبيد من المنافسة الخارجية . وإذا كان الامر كذلك فهذا يعني أنه كان هناك مصدر محلي لسد النقص في سوق تجارة العبيد . وبالإمكان الإشارة الى حل آخر أيضاً وهذا أيضاً ممكن . فقد يكون السبب في عرقلة استيراد العبيد هو الخوف من أن يشكل عمل هؤلاء منافساً خطراً للعمل الحر المأجور . ولكن نعتقد أن الجواب النهائي على هذه المسألة لا زال خارج حدود الممكن .

يحتل « أبناء البيت » مكانة خاصة في الوثائق التدمرية (bny byt) التي يعود تاريخها الى القرنين ١ - ٢ م . ونلاحظ أن هذا التعبير يستخدم في الحالات التالية . في خمس حالات، كسبب لإقامة نصب يشار فيه الى الأمنيات بالخير والتوفيق له و « لأبناء بيته » . وفي ثلاث حالات يقام النصب لتحقيق الخير والبركة لمجموعة من الناس تذكر أسماءهم و « لكل أبناء البيت » .

كما وتذكر الوثائق التدمرية أو تلك الذين تحرروا من العبودية . وتشير احداها الى أن أحد السادة حرر عبده ليتزوجها . وهناك حالات لا يذكر فيها سبب أو أسباب تحرير العبيد . وتشير بعض الوثائق الى مشاركة هؤلاء في عمليات تتعلق ببناء الأضرحة أو أجزاء منها مما يدل على أهليتهم . وتجدر الإشارة الى أن العبد المحرر لا يعرف أباه وهذا أمر طبيعي ولذلك فهم ينتسبون الى مالكلهم السابق . وتشير إحدى الوثائق التدمرية الى أن أحدهم أقام نقشاً وهو غير من بسام ، عبد محرر لمالك بن وهاب . وفي نقش آخر مهدى الى « الاله الأعظم » يذكر شخص ما يدعى يوليوس ، عبد محرر سيده كان غاي يوليوس باسوس . وهذا يدل على أن القانون التدمري حافظ على علاقة ما بين العبد المحرر وبين سيده السابق . ولكن مع الاسف لاتعطينا وثائق تدمرية تفصيلات بهذا الخصوص .

العبيد في وثائق دورايور وبوس

تحتوي وثائق دورايور وبوس هي الأخرى على معطيات ثمينة عن وضع العبيد والمكانة التي شغلوها في نظام الانتاج الاجتماعي . وماله أهمية خاصة هنا هو أن هذه الوثائق لا تعطي صورة عن دورايور وبوس وحدها وإنما تتطرق إلى المدن المجاورة أيضاً وعلى وجه الخصوص الرها وحرّاك .

وتسمح لنا هذه الوثائق أن نحدد نمطين للعبودية هنا . - دائمة وكذلك مؤقتة ، جزئية مرتبطة بتسديد الدين وفوائده . ويذكرنا هذا بالوضع الذي كان سائداً في الآلاخ Alalakh بغض النظر عن الفارق الزمني الكبير بينهما .

وتذكر وثائق دورايور وبوس العبيد الدائمين خمس مرّات . وذلك في معرض الكلام عن عملية بيع أو نقل ملكية أو طلاق وإمكانية بروز أية مطالبة بحق الملكية . لقد كان العبيد جزءاً من هذه الملكية . حيث تذكر إحدى هذه الوثائق ، وهي مؤرخة في عام ١٨٠ م . أن ليسي بن ليسي بن غيلودور بن اريستونيّ قد باع عبده إيهاب الذي له من العمر عشرون عاماً كما باع نصف كرمه . وهذا لا يعني أبداً ، أن هذا العبد كان يعمل في الكرم وهو مرتبط به غير مفكوك عنه . لأنه لا يمكن للوثيقة أن تغفل مثل هذه الناحية الهامة .

وتروي لنا وثيقة أخرى مؤرخة عام ٨٧ م عن عملية بيع وشراء أكثر تعقيداً . فيها يقوم نيكانور بن كسينوقراط بإعادة ملكية ما إلى حماته تيموفاسا بنت سلوقس حيث كان قد أخذ منها سابقاً استيفاء لدين كان قد قدمه لزوجها ديوكل بن دانيما ولها نفسها . ولكنه احتفظ لنفسه من هذه الملكية بثلاثة عبيد . ونقرأ في الوثيقة الشرط التالي : « كل شيء مما يملكون ماعدا العبيد الذين أسماؤهم : نابوبارك ، تيناناي ونبوعاب الملقب ببايسا » .

وهناك وثيقة أخرى مؤرخة عام ١٨٠ م تروي لنا عن إعطاء أحدهم عبيداً له إلى ابنته . وتقول الوثيقة أن الرجل (اسمه لم يصلنا) ابن سلوقس بن تيومينستا قد أعطى هؤلاء العبيد إلى ابنته أمافارا ملكية خاصة لها ولورثتها إلى الأبد . ويقول أن هذا الأمر لا يجوز أن يتبدل أو يلغى أبداً .

وهكذا نرى أننا لا نصادف أي ذكر لهؤلاء العبيد إلا عندما يخضعون لعملية نقل من ملكية شخص لملكية آخر - وهذا أحد أهم حقوق المالك في موضوع ملكيته الخاصة . وفي الوثائق لا نعثر على أي شرح لظهور العبودية في الحالات التي ذكرنا . وتجدر الملاحظة هنا أن

العبيد الذين صادفناهم يحملون أسماء سامية بينما يحمل مالكوهم أسماء يونانية . ولكننا نسرع ونقول أنه لا يجوز أن نبتعد كثيراً في أي استنتاج يمكن أن نستخلصه من هذا الواقع . فهناك رأي مفاده أن هؤلاء العبيد الذين يعود منشؤهم إلى السكان الأصليين قد أصبحوا عبيداً بعد أن عجزوا عن تسديد ديونهم . ولكن من المرجح أن ظهور حالة العبودية في الحالات التي نحن بصددتها يعود لأسباب أخرى : إما بالولادة أو لسبب ما آخر غير معروف ولا يستبعد أن يكونوا قد باعوا أنفسهم . وفي هذه الحالة فقط يمكن الإعتراف بصحة الاقتراض القائل بأن هؤلاء العبيد من أصل محلي - أي من السكان الأصليين . أما فيما يتعلق بالأسماء التي يحملونها فلا نعتقد أنها دليل كافٍ على أنهم من سكان دورايوروبوس ذلك أن متكلمي اللغة الآرامية كانوا منتشرين في كل أنحاء سورية ومنطقة ما بين النهرين .

ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أن أية وثيقة من الوثائق التي بين يدينا لاتشير إطلاقاً إلى الثمن الذي يساويه اربد . مع أنها تتكلم بدقة متناهية عن كل السلع الأخرى موضوع الصفقة .

ننتقل الآن إلى تحليل الوثائق التي وصلتنا من الرها حيث تشير هذه الوثائق إلى وجود عبيد يملكهم أشخاص وعبيد يملكهم الملك (bd dylh dmlkwt) ولكن النص الذي وصانا من « أرشيف الرها » والذي يعود تاريخه لعام ٢٤٣ م لا يفيدنا بأية معطيات عن وضعهم ولكن هذه الوثيقة نفسها تعطي وصفاً لوضع العبيد الذين يملكهم أشخاص ، ولأصلهم . والوثيقة التي نحن بصددتها عبارة عن عقد بيع إحدى الأماء (mt) وتدعى اماتسين وهي أسيرة حرب بيعت كعبد . والبائع هو مارتسيا أفريلي تيرون بن باربيلشامين من حران . ثمن هذه الأمة - ٧٠٠ دينار وعمرها ٢٩ عاماً . وتسجل الوثيقة للشاري الحقوق التالية : ملكية العبد ، حرية بيعها واستخدامها حسب حاجته (lmqn wlm bnh wlm bd kl dtsb) .

وهناك عدد من الوثائق التي تعطي وصفاً لتلك الظاهرة التي نسميها ، اصطلاحاً العبودية المؤقتة . وسوف نتناول الآن أحداها وهي مؤرخة عام ١٢١ م . وقد وصلتنا بحالة مقبولة كما وكتب عنها عدد لا بأس به من الأبحاث تقول الوثيقة أن شخصاً يدعى فرعات - ينتمي إلى فئة الارستقراطية المحلية أقرض شخصاً آخر يدعى برلع بن تاتاي من قرية كذا (لم يصلنا اسم القرية) ٤٠٠ درهم فضي اصدار صور وقد رهن هذا الأخير لدى الاول كل ما يملك . كما وتعهده برلع أن يعمل كعبد لدى فرعات كي يعفيه هذا الأخير من فائدة المبلغ . وفي حال أخل برلع بشروط الاتفاق عليه أن يدفع درهما واحداً غرامة عن كل

يوم تأخير . ولا يحق للمدين أن يمرض لأكثر من سبعة أيام وفي حال عدم تسديد الدين يستمر العمل حتى يتم التسديد .

أصبح واضحاً أننا نستطيع الآن قبول وجهة النظر القائلة بوجود مثل هذه العقود في منطقة الشرق الأوسط منذ مرحلة ما قبل العصر الهلنستي . فبالإضافة الى ما جاء به روستوفتسف وس . بريدفورد - ويلس عن العصر البابلي الجديد نشير أيضاً الى الوثائق التي وصلتنا من الألاخ والتي تحتوي على معطيات مماثلة . والفرق الوحيد الذي نسجله بين وثائق الألاخ ووثائق دورايوروبوس هو أنه في الأولى لم يكن المدين نفسه يقوم بالعمل العبودي بل أعضاء عائلته . وعندما تصل الأمور الى درجة يترتب فيها على المدين نفسه أن يعمل تكون العملية قد وصلت إلى نهايتها الطبيعية . فالمقدمات الضرورية لنشوء مثل هذه العلاقات (الى جانب افلاس المدين نفسه) هي الإقتصاد الطبيعي وعدم نمو أو النمو غير الكافي للعلاقات النقدية . وهذا فقط يجعل من الممكن بل ومن المفيد تغطية الفائدة «عينا» أي بإعطاء جزء من المحصول أو بقوة العمل . والمقدمة الأخرى المهمة أيضاً لنشوء العلاقات المذكورة هو الوضع التالي : عدم امكانية استعباد المواطنين بشكل مباشر بسبب عدم قدرتهم على دفع ديونهم .

وتجدر الإشارة الى أن علاقات مثل هذا العبد مع سيّده تضبطها شروط العقد التي تنص ، ولو نظرياً على امكانية الغائها في حال تسديد الدين . ولذلك فالمدين هنا لا يفقد شخصيته القانونية ولا حقوقه المدنية . وليس صدفة أنه لا يصبح عبداً بل *doylikas* . وعلى الأرجح أنه هنا تكمن صحة رأي من رأى في هذه العقود شكلاً من أشكال استئجار عمل الأحرار .

ولكننا لا نستطيع أن نعتقد أن الذي أمامنا هو عمل مأجور فقط . فمع وجود كل الصفات التي أتينا على ذكرها أعلاه كان المدين يفقد الحرية الواقعية في أن يتصرف بنفسه كما يشاء ، أي فقد حريته الشخصية . بالإضافة الى ذلك يصعب علينا التصور أنه كان باستطاعة من استدان هذا الرقم (٤٠٠ درهم) تسديده دون أن تكون لديه أية مصادر دخل اضافية سوى قوة عمله .

ومع أننا لا نستطيع أن نقول أي شيء محدد عن مدى انتشار مثل هذه العقود خارج دورايوروبوس ولكن الملاحظ أن الوثائق التي وصلتنا تؤكد على وجود هذا الشكل من أشكال الاستغلال وتذكره كما وتذكر العبودية بالمعنى المحدد لهذا المصطلح .

أما الوثائق التي وصلتنا من المناطق السورية الأخرى والتي تحوي معطيات وأخباراً عن العبودية فهي مجتزأة جداً . وتذكر أحدها عبيداً تابعين للمعبد المحلي - زفس الاولبي . وتقول وثيقة أخرى مؤرخة في نهاية القرن الاول للميلاد أن النصب التذكاري **Auiei pakeidai** أقامته تبيخة عبدة أبولوبن ليسب . وقد وجدت الى جانب هذا النصب شاهدة قبر من صيدا هذا نصها : « غاي يوليوس امفيون ، السيد المطوف ، وداعا » ومن المرجح أن يكون عبيد غاي هم الذين أقاموا له هذا النصب على نفقتهم الخاصة . نقول هذا ونحن نعرف أن الوثيقة لا تشير من قريب أو بعيد الى ذلك .

وتشكل الوثيقة التي وجدت في انطاكية أهمية استثنائية لتقييم الوضع القانوني وحق الملكية للذي يتمتع به العبيد في سورية في الفترة الزمنية التي نحن بصدددها . والوثيقة عبارة عن نقش على قبر مكتوب باللغة اللاتينية على حجر من مرمر أبيض . يقول النص : « غيلنكون - الى العبد (consevo) الذي قدم خدمة (pene merenti) ، اهتم الوريث أيضاً بتحضيره » . تدل لغة النص على أن العبدین كانا يحملان كنية مواطن روماني ، وعلى الأرجح من المحاربين القدماء . ولكن ما يمننا هنا أمر آخر تماماً . فالعبد كما هو واضح لا يملك وحسب وإنما يتصرف بملكيته ! أيضاً بل ويستطيع أن يورث ما يملك لورثته كما ويستطيع أن يرث أيضاً . ويبقى غير واضح الدور الذي يلعبه هنا سيده . إذ أنه لا يؤتى على ذكر مالك العبد (أو العبيد ؟) لعله لم يكن يتدخل في مثل هذه الامور أو في أية علاقات ، من هذا النوع تقوم بين عبيده . وإلا كان يجب أن يشار الى موافقة السيد على نقل الورثة أو استلامها .

ل يصبح من الطبيعي أن يشارك العبيد في عمليات تجارية كبيرة وعلى نطاق واسع . وتلفت الانتباه في هذا الاطار الحادثة التي عالجها ستيفولا ، فبغض النظر عن أن الرواية مختلفة اختلافاً إلا أن المحامي اليوناني اعتبرها نموذجاً . فالرواية على الشكل التالي : حصل شخص ما يدعى كاليماخ على قرض من ستيخ ، عبد سبي للقيام برحلة تجارية بحرية من بيروت الى برونديزي - مدة تسديد القرض ٢٠٠ يوم . وقد اتفق على أن البضائع التي سيأتي بها كاليماخ من بيروت الى برونديزي هي الرهن مقابل المبلغ . حتى وفي حال عدم استطاعة كاليماخ انهاء عملياته التجارية في الوقت المحدد عليه أن يدفع كامل القرض وفي روما . ولكن على أعتاب انتهاء المدة شحن كاليماخ بضاعته على ظهر السفينة وتوجه الى سورية بصحبة « عبد » ستيخ . وهكذا أدركه الوقت وهو لا يزال في عرض البحر . مانعته مهم في هذه العملية هو التالي : عبد سوري يملك امكانيات تسمح له أن

يقدم قرضاً طويلاً الأجل لدعم عملية تجارية بحرية ويبدو أنه يمارس عمليات مماثلة كمحترف ولذلك نحق لنا أن نتوقع أن هذا العبد يملك علاقات تجارية واسعة في كل منطقة البحر الأبيض المتوسط بما في ذلك روما مما يسمح له أن يشترط تسديد القرض هناك إما عن طريق التحويل أو بتسديد حساب ما لعملية سابقة . على أية حال فإن حجم هذه العملية يدل بحد ذاته على غنى هذا العبد ووضعه الاجتماعي .

وهناك نقش يوناني آخر وصلنا من بصرى ولكننا مع الأسف لانستطيع تأريخه . وهو عبارة عن شاهدة على قبر عبدة . يحتوي نصه على عبارة طريفة : تسامح الآلهة العبد المسماة على الكلمات السيئة التي نفوحت بها . ونحن لانستطيع أن نعرف بالضبط ما المقصود بهذه العبارة . ولكن الذي نستطيع قوله هو أن العبد المذكورة لعبت دوراً ما في حياة المدينة .

وهكذا نرى أن العبودية كانت منتشرة في سورية في الفترة التي نحن بصدد دراستها كما وكانت عملية استعباد المنتجين الصغار الأحرار موجودة ومعمولاً بها هي الأخرى . ولكن الحد الفاصل بين هؤلاء وبين العبيد ظل قائماً من الناحية الشكلية على الأقل ، أما في الواقع فلم يكن هناك أي فرق يذكر بين هاتين الفئتين . وفي نفس الوقت كان باستطاعة العبد أن يملك ثروات كبيرة ويتصرف بها كما يشاء ويشارك في عمليات تجارية واسعة النطاق داخل البلاد وخارجها . وفي مثل هذا الحال كانت تختفي عملياً أية فروقات بين مثل هؤلاء العبيد وبين المتعهدين الأحرار أما الشكل الحقوقي لهؤلاء العبيد فقد أصبح هو الآخر لا يتناسب ووضعهم الحقيقي في المجتمع - لا كمضطهدين ومستغلين (بفتح العين) بل كمالكين ووسائل إنتاج ومستغلين (بكسر الغين) ومضطهدين .

لقد بقي العبيد المحررون مرتبطين بأسيادهم السابقين حين بقي العبد المحرر يحمل التزامات محددة تجاه سيده السابق . وتجدر الإشارة هنا إلى التشابه القائم بين وضع هؤلاء العبيد المحررين وبين الأحرار المستعبدين لهذا السبب أو ذاك فلا هم أحرار تماماً ولا هم عبيد بالمعنى التاريخي للكلمة .

لخص القانون السوري في القرن الخامس الميلادي كل التاريخ الطويل لتطور التصور الذي ساد بخصوص الوضع القانوني للعبيد . وهو ولا شك يعكس الوضع الذي كان سائداً آن ظهوره وحتى لمرحلة أكثر قدماً . فالعبد فيه ملك خاص لسيده . والعبد هو موضوع عمليات البيع والشراء وتفضل الإشارة إلى مزاياه وصفاته عند بيعه أو شرائه . وفي حال حدوث غش من قبل البائع يقضي القانون باعادة العبد المباع وفسخ الصفقة .

وأقر القانون المذكور الصفقات التي لا تذكر فيها صفات العبد ومزاياه . وأشار الى ا
سرقة عبد الغير أو استملاكه بطريقة غير قانونية تؤديان الى بيع السارق نفسه ووقوعه في
العبودية . وما يملكه العبد بين يديه يعتبر ملكاً لسيده . وإذا كان العبد يملك ، قبل حصوله
على حريته عبداً ولكي يتبع هذا العبد الاخير ملكية سيده العبد بعد تحرير السيد نفسه كان
لابد من وثيقة خاصة يصدرها سيد العبد المالك للعبد الآخر . وإذا أراد السيد أن يكون عبده
ورثته فذلك ممكن ومسموح به . وفي هذا الحال يضع القانون شرطين : أن يتم تحرير العبد
وأن لا يكون لدى المورث اولاد . ولا يسمح القانون أن ينوب العبد عن سيده في المحاكمات
القانونية . لقد حدد القانون عدد العبيد الذين يستطيع المالك تحريرهم في وصيته . فإذا كان
السيد يملك عبداً واحداً أو عبيدين امكنه تحريرهما معاً أو أحدهما أما إذا كان يملك ثلاثة عبيد
فلا يحق له أن يحرر اكثر من اثنين ، وإذا كان يملك ٥ - ١٠ عبيد فيحق له تحرير النصف ، من
٩ - ٣٠ - الثلث ، ومن ٣٠ - ١٠٠ - الربع . وتجدر الاشارة هنا الى بعض الشروط : إذا
حرر صاحب الوصية عدداً من العبيد يفوق الحد المسموح به قانونياً فيعتبر تحرير العدد الزائد
لاغياً أما إذا حرر كل عبيده فيعتبر قراره هذا لاغياً أصلاً ولا يحرر أي عبد من هؤلاء . ولا
شك أن *lex fufiaca* - *ninia* يشكل أساس مثل هذه التعليقات .

كما عرف القانون السوري شكلاً آخر من أشكال تحرير العبيد - بحضور
شهود ، وكذلك بوجود الاكليروس الكنسي - المطران والكهنة ، وفي القرية - بحضور شيخ
القرية وكاهنها . وقد اعتبرت هذه الطريقة هي الاكثر عملية من سواها . وتقول الوثيقة أن
هذه الاسس وضعت بناء على تعليقات الامبراطور قسطنطين . ولكن العلاقة بين العبد
وسيده استمرت حتى بعد التحرير الشكلي للعبد . فقد كان باستطاعة السيد اتهم عبده
السابق بعدم احترامه له وهذا وحده كان يكفي لكي يصبح المحرر عبداً من جديد .

وليس صعباً أبداً أن نرى أن أكثر بنود القانون السوري المذكور المتعلقة بتحرير العبيد
مأخوذة - عن القانون الروماني مع قليل من التكيف مع الواقع السوري .

الأحرار في سورية في القرن ١-٣ م .

قبل أن نبدأ بدراسة البنية الاجتماعية للسكان الأحرار في سورية في الحقبة المذكورة نود أن ننوه إلى أن الوثائق التي وصلتنا من تدمر ودورايسوروس وجرش هي الأكثر اكتمالاً وشمولاً لدرجة أنها تسمح لنا بتتبع مصير بعض العائلات . فالصورة التي تقدمها لنا هذه الوثائق هي الأكثر اكتمالاً ولذلك سوف نتوقف عندها بشكل رئيسي .

البنية الاجتماعية لمجتمع تدمر :

من المعروف أن أول ما تتصف به النقوش التدمرية هو أنها تعطي تسلسلاً طويلاً وبالأسماء للشخصية الرئيسية للنقش تصل في أحيان كثيرة إلى الجد الخامس . وهذه الظاهرة ترافقنا طوال المرحلة التي نحن بصدددها . وهكذا ففي آذار عام ٥١ م . يكرم مقيم بن عقيل بن باتسيلا بن تايماي الملقب حكيش ، وعلى الأرجح أنه في عام ١٢٠ م . أقيم نصب تذكاري لمالك بن وهب اللات بن معاني والتسلسل العائلي لبطل النقش يأتي على الشكل التالي مالي (هو نفسه أغريبا) بن يرخاي بن ليشماش بن رعية ، وفي حزيران من ١٤٠ م يقام نصب لآحوفال بن خيران بن سابا بن خيران بن بوني بن شعوت ، وفي عام ١٥٧ م يكرم مارك أولبي يرخاي بن خيران بن ابجر ، وفي عام ٢٤٢ م . تصلنا أخبار يوليوس أفيريلى زينوبيا (هو نفسه زبديلا) بن مالك بن مالك بن سانا سوما ، وفي عام ٢٥٤ م . نعرف عن يوليوس أفيريلى عوجة (هو نفسه سلوقس) بن عزيز بن عزيز بن شملة . ومن الطريف أن هذا التسلسل يرد في النص اليوناني بالمقارنة مع الرواية التدمرية بالطريقة المختصرة . ولا شك أن الحفاظ على هذا التسلسل دليل واضح على أن العلاقات العائلية بقيت موجودة حتى هلاك تدمر وهذا يمكن أن يكون مرتبطاً ، على الأرجح ، بتعريب المدينة إذ أن الوثائق التي وصلتنا من منطقة حوران تحوي تسلسلاً عائلياً يصل أحيانا حتى الجد العاشر . كما وتحافظ العلاقات العائلية هنا على تقاليد ما دون انقطاع .

ولكن ما هو مصير هذه العشائر والعائلات التي تشكل قوامها . تقول الوثائق التي بين أيدينا أنه كان يقف على رأس كل عائلة من العائلات المستقلة اقتصادياً رأس البيت رجل . ومع ذلك فإن الوضع الداخلي للعائلة يبدو معقداً في حالات عدة . فتشير إحدى

الوثائق ، وهي مؤرخة في نيسان عام ١٣٩ م . إلى تكريم بارق بن عمريش بن يارنجبول بالإضافة إلى ذلك يكرم ولده مقيم . ويدل هذا التكريم المشترك على أن أعمال الخير التي كانت سبب هذا التكريم قام بها الإثنان معاً . كما وتدل الإشارة إلى الابن بشكل منفرد على أنه المرشح لخلافة أبيه في قيادة العائلة ولذلك بدأ إدخاله مجال الحياة الاجتماعية . وقد يكون الأب قد منح الاستقلالية لولده وكان هذا بدوره يقود عائلة مستقلة . وهناك وثيقة أخرى تروي عن تكريم عيلام بن خيران وأباه . وهذا التسلسل يدل على أن الإبن هنا هو فاعل الخير الأساسي . ويستنتج من هذا أحد أمرين : إما أن يكون الإبن يقود عائلة مستقلة أو أنه أصبح عملياً رأس العائلة في حياة أبيه . ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن السلسلة العائلية التي وجدت في قبر زبيدة تبدأ من عيلام وتنتهي إلى الجد الرابع الأمر الذي يدل على أن عيلام هذا قد لعب دوراً هاماً للغاية في حياة هذه العائلة .

كما وتتوفر لدينا وثائق تروي عن إهداءات «لصحة» الهادي نفسه وإخوته أو أولاده وإخوته . ولا يستثنى في مثل هذه الحال ألا يكون الدافع هو الحب الأخوي فقط (وهذا ممكن أيضاً) وإنما واقع آخر وهو أنه بعد وفاة رأس العائلة قام مكانه أحد الإخوة وأصبح رأس العائلة التي بقيت محافظة على وحدتها .

ووصلتنا وثائق أخرى عن إشتراك جماعي لعدد من الأخوة في فعل ما . فقد بنى كحيل وخيران مدفناً لأبيهما عتيبتان بن كحيل . كما وبنى بناي وأراخيش وأريمو أبناء تايماش بن بناي ضرباً لهما ولأولادهما ، وفي السادس من شباط عام ١١٥ م أقام مالك ويارنجبول وحجاج أبناء بوليبا بن عبيداي نصباً على شرف «مالك العالم» ، في حزيران عام ١٤٦ م . قام خمسة أخوة - زبيدا بول وأتينور ومالكو وعمرو وويديبول أبناء برشمسا بن زبيدا بول ببناء عمود وسقف في نازال . وحجاي بن عوجة بالمشاركة مع أخيه أقام نصباً للمالكين سعداي . وفي آب عام ٢٤٠ تنازل يوليوس أفريلي خيران ومالوخ ولدا غيرمان عن جزء من المدفن إلى يوليوس أفريلي فيوفيل بن تايمارتس .

وهكذا يتضح لنا أنه بعد موت رأس العائلة كانت إما تنقسم إلى عدة عائلات مستقلة إقتصادياً عن بعضها البعض أو كانت تحافظ على وحدتها وتنم وتحت سلطة أخ واحد أو عدة أخوة .

وبما أنه كان يحق للنساء إقامة نصب تذكارية إذن كنّ ، على الأرجح ، يتمتعن بملكية خاصة بهن .

أصبح بمقدورنا الآن أن نؤكد أن الوساطة التجارية ، وعلى الأرجح الأرض كانتا تشكلا أساس ثروة أرسقراطية تدمر . حيث نصادف من ممثليها من يملك مبالغ كبيرة من النقد . وهذا ما تدل عليه تلك النفقات التي كانوا ينفقونها عندما استلموا مناصب هامة في إدارة المدينة . يقول أحد النقوش ، وهو مؤرخ عام ١٧٥ م . أن «المجلس والشعب» أقر إقامة نصب تذكاري لأثنين من أنجال يارنجبول عبدة ابن حدودان ويارنجبول بن عوجة ذلك أنها أقاما في الهيكل الرئيسي لمعبد بيلاست بوابات من البرونز المطلي بالذهب . وكان يوليوس أفريلي عوجة - سلوقس الذي مر معنا ذكره سابقا قد وضع تحت تصرف مجلس روما عشرة آلاف درهم .

ومن الجدير بالذكر هنا أن مثل هذه الوقائع لم تكن موجودة في القرن الثاني فقط بل وبقيت حتى في القرن الثالث الميلادي . ذلك أنه ، على الأرجح ، أن العائلات التدمرية الأرسقراطية قد حافظت على وجودها وثروتها حتى هذه الفترة .

كان يجب أن يلعب المواطنون الرومان دوراً هاماً في حياة تدمر وخاصة المحاربون القدماء بمن فيهم السكان الأصليون والرومان الذين حصلوا على حق المواطنة في تدمر . فمن المعروف أن الوحدات العسكرية التي شكلت في تدمر كانت تؤدي خدماتها العسكرية في نوميديا وبادونايف وعلى مسافة مباشرة من تدمر وفي دورايوروبوس . وتذكر النقوش التدمرية مرّات أربع سيرجوس - وهم مواطنون رومان في الحالات الأربع . كما ويذكر مرة واحدة غاي يوليوس خيران بن ألاخيلا عندما حصل على حق المواطنة .

بدأ ظهور المواطنين الرومان في تدمر منذ القرن الأول الميلادي وكان منهم التجار ورجال العلم وغيرهم . وقد لعبوا دوراً هاماً في تنظيم الوساطة التجارية .

وشكل صغار الملاك وصغار المنتجين وأصحاب المشاريع الصغيرة الجماهير الرئيسية من السكان الأحرار في تدمر كما تتحدث الوثائق أيضاً عن صغار الحرفيين والتجار . ولكن ما لا نستطيع معرفته هو نسبة القوى بين مختلف فئات السكان الأحرار في تدمر نتيجة لشح المعلومات أو انعدامها . ولكن ما نعرفه هو أن ممثلي الفئات الدنيا بدوياً يقعون في تبعية ممثلي الفئات العليا في فترة متقدمة نسبياً ، وعلى الأرجح منذ القرن الأول للميلاد وكان يرمز لهؤلاء التابعين بمصطلح Gr الذي نصادفه في وثائق تدمر أربع مرّات . ويعتقد ج . ب شابو أن هذا المصطلح يعني ، «كريم» (Hospes) ويعني أيضاً «باترون»* على أية حال سوف نتقل الآن

* كلمة لاتينية قديمة وتعني الحامي ، المدافع عن الاشخاص التابعين له من الاحرار المستضعفين والعبيد المحررين - المترجم .

لدراسة النصوص التي تحوي هذا المصطلح . لقد جاء في إحدى هذه الوثائق وهي مؤرخة في عام ٢٣٨ م . ما يلي : «مجد اسمه إلى الأبد . لقد بنى غادا ومنّ ، ابن خالائي لكي تأتية الصحة ولأولاده ول Gr ه ديفين . عام ٥٥٠» . وهناك صيغة أخرى شبيهة تستزل اللعنة على من يمس وحدة المدفن (تدمر عام ٥٧ م .) : «فلتنقطع ذريته و Gr ه إلى الأبد» . يدل هذان النصان على أن العلاقة مع Gr هي علاقة شخصية وأن هذا ال Gr لعب دوراً غاية في الأهمية في حياة التدمري ولذلك ليس غريباً أن نرى أن واضع النص الأخير يعتبر الحرمان من ال Gr مصيبة كبرى كالحرمان من الأولاد . وفي وثيقة أخرى (تدمر عام ٥٥ م .) يستعمل هذا المصطلح للتعبير عن العلاقة بين المهدي وبين الآلهة : «في شهر أيار من عام ٣٦٦ أقام هذا النصب عطيتان بن زبيدعات بن توشابيا للإله الرحيم شدرافاكي يكون له Gr - هو وكل أهل بيته» . ونحن نعتقد أن مصطلح Gr يجب أن يخدم هنا معنى «باترون» . كما وتستخدم أيضاً كلمة Gywm للتعبير عن معنى باترون التي يقابلها في النصوص اليونانية Prostates . تقول إحدى الوثائق (تدمر حوالي عام ٢٦٧ م .) أن الفارس يوليوس أفريلي سيبتيم إيادي أقام نصباً على شرف «صديقه» وباترونه سيبتيم فورودا . إذاً لقد كان سيبتيم فورودا باتروناً وصديقاً للفارس يوليوس أفريلي سيبتيم إيادي كما وكان صديقاً وباتروناً ليوليوس أفريلي سلاما كاسيانوس (تدمر ، نيسان عام ٢٦٧ م .) في حالة أخرى يقول النص اليوناني : أن أفريلي فيلين أقام نصباً على شرف باترونه سيبتيم خيران بن أذينة (تدمر ، تشرين الأول عام ٢٦١) . وهكذا يتبين من المصطلحات التي بين أيدينا نموذجان من العلاقات . أولاً - «الصدقة» والمعبر عنها بمختلف أعمال الخير التي غالباً ما تأخذ شكلاً مادياً ملموساً . ثانياً - باترون بالمعنى المحدد لهذه الكلمة ، أي حام ، مدافع عن . ونحن نعتقد أن العلاقة القائمة بين المصطلحين Gywm Gr/Gyr تتمتع بأهمية خاصة . فالأخير هو اقتباس من المصطلح اليوناني Prstaes وقد دخل اللغة التدمرية نتيجة لانتشار الثقافة الهلنستية - الرومانية في الوسط المحلي . وفي نفس الوقت نؤكد على أن مصطلح «Gr» كان يعبر عند التدمريين عن غمط ما من العلاقة وذلك قبل اقتباس المصطلح اليوناني وظهور مثيله التدمري . ولا يستبعد أن يكون إدخال المصطلح اليوناني مرتبطاً باختلاف العلاقة القائمة بين ال Gr والباترون وبين هذا الأخير وال Gywm وقد يكون الأمر مرتبطاً باعتماد الدولة للمصطلحات القانونية اليونانية .

ونجد في القرن الثالث للميلاد أن الموالة قد انتشرت انتشاراً واسعاً حتى أن بعض ممثلي الفئة الأرستقراطية كانوا من المواليين . فيوليوس أفريلي نيبوزابد بن سعاد وهو نفسه الذي

أقام في عام ٢٦٢ نصيباً تذكاريّاً على شرف سييتيم فورودا ، كان حاكم مستعمرة . وكان يوليوس أفريلي سييتيم اياد ينتمي هو الآخر إلى عائلة تدمرية أرستقراطية . أما يوليوس أفريلي سييتيم مالح فكان ينتمي إلى فئة الفرسان أي سيناتور . وأخيراً يوليوس أفريلي سالم كاسيانوس وكان ينتمي إلى فئة الفرسان كان موال لسيتيم فورودا . وعلى ما يبدو أن هذه الظاهرة تعكس رغبة بعض دوائر الأرستقراطية المحلية في التخلص من رقابة السلطة والأجهزة الحكومية الامبراطورية . كما وتعكس عملية التمايز الاجتماعي في الفئات التي كانت يوماً ما تنتسب إلى الارستقراطية المحلية ذات النفوذ وتعكس أيضاً ازدياد نفوذ وسلطة الدوائر البروقراطية المحلية التي ارتبطت ازدياد نفوذها ارتباطاً وثيقاً بصعود آل أذينة - زنوبيا إلى السلطة .

يعتبر مصير عشيرة السيتيميين خلفاء آل تسيرا النموذج الأكثر كمالاً حين يوضح لنا كيف جرت هذه العمليات في واقع الحال .

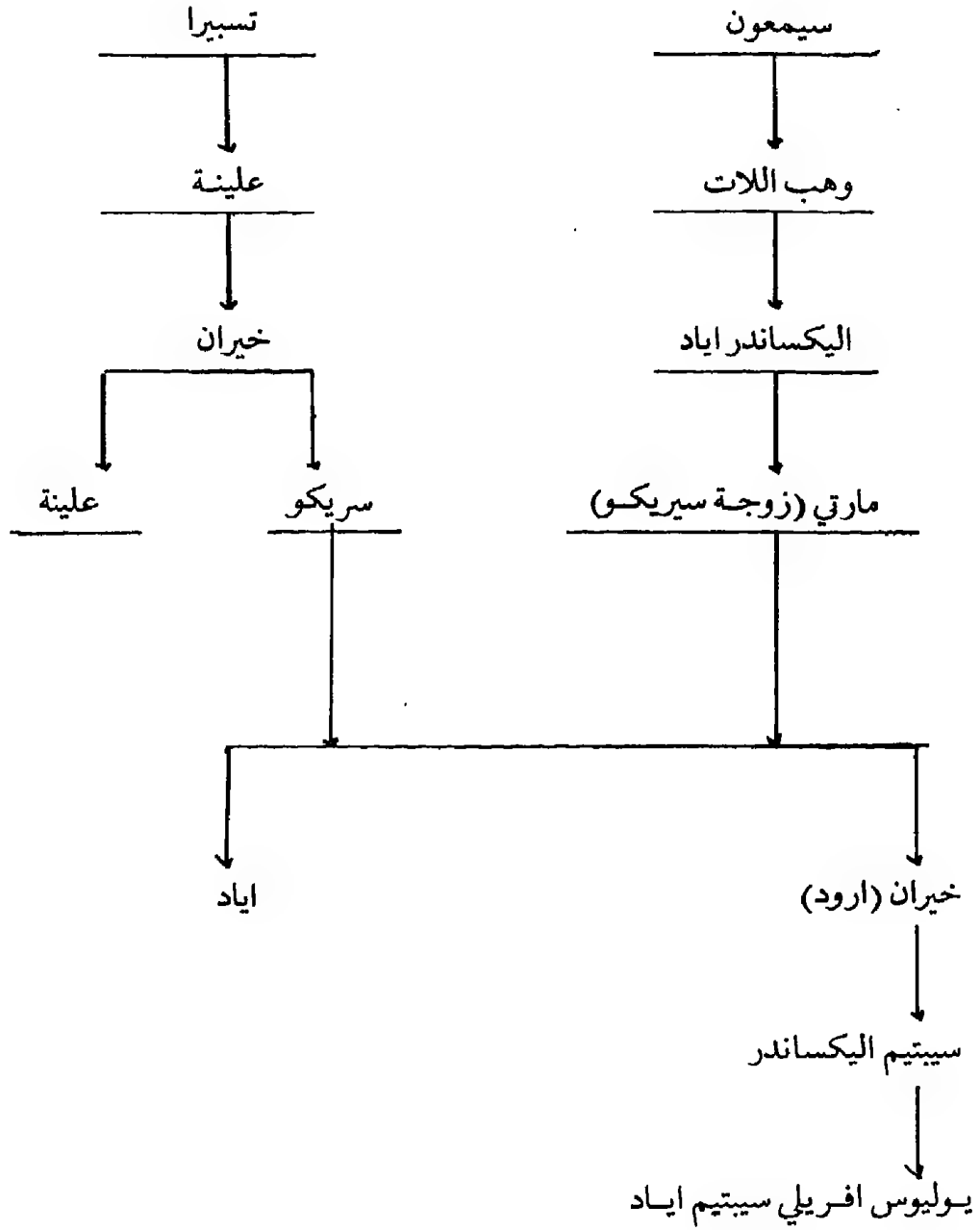
لقد زدتنا المصادر التدمرية بمعطيات تسمح لنا أن نتتبع تاريخ هذه العشيرة على مدى قرن كامل حيث اتخذت العشيرة لنفسها اسماً آخر هو سييتيم وذلك في النصف الأول من القرن الثالث . ويعرض ج . ب . شابو في معرض تعليقاته على الوثائق المذكورة - التسلسل التالي لعشيرة السيتيميين التدمرية :

سيمعون وهب اللات أليكساندر اياد ماري (زوجة سيريكو) خيران (ارود) سييتيم اليكساندر يوليوس أفريلي سييتيم اياد تسيرا علينة خيران سريكو علينة اياد .

لا شك أننا لانعرف كل أسماء أجداد وآباء هذه العشيرة والأسماء التي أتينا على ذكرها هنا وجدت مكتوبة على نصب تذكارية تخليداً لأعمالهم وخدماتهم . وتذكر الوثائق عادة اسم الشخص الذي يجري تكريمه واسم أبيه وأحياناً اسم جده ونادراً ما تذكر اسم جد الجد . ومن المعروف أن هذا التسلسل لا يأتي على ذكر أقارب آخرين . وفي هذا المجال تتشابه الوثائق التدمرية مع الوثائق النبطية من نفس الفترة الزمنية والوثائق البونية في النصف الثاني من الألف الأولى قبل الميلاد .

يمكننا تصنيف هذه الوثائق اصطلاحاً على النحو التالي . ثلاثة نقوش هي عبارة عن توابع موجودة على لوحات الشرف التي أقامتها قبيلة الزبيدبوليين ، وتوقيع - على لوحة الشرف التي أقامها مجلس تدمر وآخر على النصب التذكاري الذي أقامه أحد أعضاء العشيرة - سريكو إثر وفاة زوجته مرقى .

السيّتميين التدمرية :



نتنقل الآن لمعالجة النقوش التي أقامتها قبيلة الزبيدبوليين . لدينا في هذا الإطار نصان - عبارة عن رفع شأن الأبناء لقاء الخدمات التي أداها والدهم . يقول النص اليوناني : «ايادي بن سريكو بن خيران بن علياني بن تسبيرا - أولئك الذين من عشيرة الزبيدبوليين ، تكريماً لهم . في شهر ديستر عام ٤٩٠» . ويقول النص التدمري : «هذا النصب لايادي بن سريكو بن خيران بن علياني بن تسبيرا أقامه له أبناء زبيدبول كلهم على شرف سريكو ، أبيه في شهر آذار عام ٤٩٠» .

ويقول النص اليوناني لوثيقة أخرى : «هيروودوس ، الملقب أيضاً بخيران ، بن سريكو بن خيران بن علياني بن تسبيرا - أولئك الذين من عشيرة الزبيدبوليين ، تكريماً لهم ، في شهر ديستر عام ٤٩٠» ويقول النص التدمري : «هذا النصب لخيران بن سريكو بن خيران بن علياني بن تسبيرا أقامه له أبناء زبيدبول كلهم على شرف سريكو ، أبيه . في شهر آذار عام ٤٩٠» .

أول ما يلفت النظر هنا أن الصيغة «على شرف سريكو ، أبيه» موجودة في النص التدمري فقط أما النص اليوناني فقد احتوى على الصيغة العامة «تكريماً» وهذه الصيغة تترك انطباعاً لدى القارئ الذي لم يقرأ النص التدمري أن هذه النصب إنما أقيمت تكريماً لكلا ولدي سريكو . ولكن النص التدمري يوضح دون لبث أن الولدين إنما يكرمان لقاء الخدمات التي قدمها والبدما . علماً بأن الوثائق تثبت أن الوالد ، سريكو ، كان لا يزال على قيد الحياة . حيث يقول النص اليوناني لاحدى الوثائق : «تكريماً للذكرى مرق ابنة اليكساندر ، الملقب أيضاً بادي ، بن وهب اللات بن سمعون أقامه سريكو بن خيران ، زوجها . في شهر ديستر عام ٤٩٠» . ويقول النص التدمري : «هذا النصب لمرق ابنة ايادي بن وهب اللات بن سمعون أقامه لها سريكو ، زوجها بعد وفاتها تكريماً لها . في شهر آذار عام ٤٩٠» أي أن سريكو كان لا يزال حياً في نفس العام ونفس الشهر الذي أقيمت فيه نصب التكريم لولديه . إذاً هل أقيمت النصب تمثيلاً مع تقليد ما لدى قبيلة الزبيدبوليين ؟ ولكننا نعرف إحدى النصب التذكارية في تلك الفترة الزمنية وقد أقامتها أيضاً قبيلة الزبيدبوليين تكريماً لعلياني أخي سريكو . وقد كتب النقش المرافق لهذا النصب باللغة الآرامية فقط . يقول النص : «هذا النصب لعلياني بن خيران بن علياني بن تسبيرا أقامه له أبناء زبيدبول ذلك أنه كان شافعاً لهم . على شرفه . في شهر آذار عام ٤٩٠» وتتبع تحت هذا النقش مباشرة قائمة تعدد الخدمات التي أداها علياني . وأخيراً ، قد يتبادر إلى الذهن أن مثل هذا التكريم غير العادي الذي حظي به سريكو جاء نتيجة لطبيعة الخدمات التي أداها . وبين يدينا وثيقة مؤرخة في

نفس الفترة المذكورة وهي عبارة عن نقش مرافق لنصب تذكاري أقيم لسريكو بناء على قرار مجلس تدمر .

ويسمح لنا القرب الزمني بين هذه الوثائق التي تخلد ذكرى سريكو أن نقول بأن تكريم هذا الأخير جاء نتيجة لتأديته نفس الخدمات وإذا كانت بقية الوثائق لاتأتي على ذكر هذه الخدمات فإن إحداها على الأقل وهي الوثيقة Ci,ii,3952 تذكرها بالتفصيل : بنى على المدخل سبعة أعمدة مزينة بالزخارف كما أقام مجمرة معدنية . أي أن خدمات سريكو مشابهة من حيث طابعها للخدمات علياني .

وهكذا يتضح لنا أن إقامة نصب التكريم للأبناء على شرف والدهم وفي حياته إنما هو تقليد نابع من طبيعة الحياة الداخلية لهذه العشيرة الأمر الذي سننتقل الآن لمعالجته طالما أن الوثائق المتوفرة لدينا تسمح بذلك .

نشير قبل كل شيء إلى أن نظام القرابة لدى سييتيمي تدمر يسجل حسب الخط الأبوي . ولا ذكر للأمهات في مثل هذا النظام . ونحن لا نعرف اسم زوجة سريكو مرق إلا من خلال النصب التذكاري الذي أقيم خصيصاً لتخليد ذكراها . وفي نفس الوقت يوضح لنا هذا النقش أن المرأة لم تقطع صلتها وعلاقاتها مع عشيرتها التي ولدت فيها بعد الزواج من رجل ينتمي إلى عشيرة أخرى .

ونعتقد أنه من الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الأخوين سريكو وعلياني قد كرمّا كل على حدى ونتيجة للخدمات التي أداها كل بمفرده وعلى نفقته الخاصة . وهذا يمكن فقط في حال انقسام العائلة الكبيرة إلى عائلات صغيرة مستقلة . وهذه الصفة الأخيرة هي التي تطبع حياة العشيرة التي نحن بصددتها في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي .

ولكن هل يمكن أن تتفق إقامة النصب التذكارية على شرف الأبناء لقاء الخدمات التي أداها الأب وهذا الاتجاه الأخير ؟ نحن نقول نعم . فالأب ، وهو رأس العائلة سابقاً يمكنه إعطاء حق التكريم هذا لولديه مستخدماً سلطته العائلية ويندو أن القبيلة التي أقامت هذه النصب قد لبثت رغبته هذه . بكلمات أخرى إن مانراه هنا هو استقلال أبناء سريكو عن أعضاء العائلة الآخرين . ونحن نعتقد أن هذه الخصوصية التي يتمتع بها ولدا سريكو هذان قد جاءت نتيجة لأنها سوف يرثان مكانته في قيادة العائلة أو أنها سيقودان العائلة سوية ، بعد وفاة الأب ، أو العائلات التي ستتقسم إليها العائلة الكبيرة سريكو بن خيران ، كما يفهم من الوثائق ، لا يشغل أي منصب أو وظيفة رسمية في تدمر أي أنه كان يتصرف كمواطن عادي

وبذلك يكون قد عبّر عن شعوره بالعرفان نحو وطنه . ولكن الأهم هنا هو أن النفقات التي أنفقها سريكو وأخوه علياني تدل على أن هذه العائلة كانت تملك ثروة نقدية كبيرة .

نتنقل الآن لمعالجة نقش يعود تاريخه إلى الستينات من القرن الثالث الميلادي أي قبل مئة عام من تاريخ الوثائق التي عالجناها أعلاه .

يقول النص اليوناني للوثيقة المذكورة : «سيبتيم فورودا النائب العام البارز وغسطس - القائد والزعيم - يوليوس أفريلي سيبتيم ايادي ، الفارس بن سيبتيم اليكساندر ن ايرو ، من الجنود - لصديقه وباترونه تكريماً . عام ٥٧٨ ، شهر ساندريك» .

النص التدمري : «سيبتيم فورودا النائب العام الأبرز والقائد والزعيم . أقامها ليوليوس أفريلي سيبتيم ايادي ، الفارس بن اليكساندر بن خيران بن سريكو وعلى شرف صديقه وباترونه . في شهر سيوان عام ٥٧٥» . أهم مسألة هنا ولاشك هي مسألة التاريخ . فهناك خلاف واضح في تأريخ كل من النصين لنفس الوثيقة . فالنص اليوناني مؤرخ في شهر كاسانديك وهو ما يقابله في التاريخ التدمري شهر نيسان ، وعام ٥٧٨ عصر السلوقيين أي نيسان من عام ٢٦٧ م . أما النص التدمري فهو مؤرخ في شهر سيوان الذي يقابله في التاريخ اليوناني شهر دايسيو ، وعام ٥٧٥ عصر السلوقيين ، أي حزيران - تموز عام ٢٦٤ م . ويميل ج . ب . شابو إلى الأخذ بهذا التاريخ الأخير انطلاقاً من أن النقش المذكور كان قد وجد مع الوثائق الأخرى التي تكرّم فورودا في نيسان عام ٢٦٧ م . ولذلك فالتأريخ اليوناني ممكن .

تعتبر وجهة النظر هذه محتملة وقريبة من الحقيقة . ولكن إذا ابتعدنا قليلاً عن التأويلات والتزمنا بالنص الذي بين يدينا فإننا نستطيع أن نؤكد أنه في البداية ، في عام ٢٦٤ أقام سيبتيم ايادي نصباً تذكاريّاً «لصديقه» و«باترونه» سيبتيم فورودا ورافقها نقش تدمري واحد فقط . وبعد ثلاث سنوات ، أي في عام ٢٦٧ ولأسباب غير معروفة أضاف إلى النقش التدمري نقشاً آخر يونانياً مؤرخاً عند وضعه . ومن المحتمل أن سيبتيم ايادي لم يشأ أن يكون أقل شأنًا من الآخرين ذلك أن النقوش في ذلك الوقت كانت تكتب بلغتين فقام بإضافة النص اليوناني إلى النقش المذكور .

يسمح لنا النقش الذي نحن بصدد دراسته أن نتبع مصير أحد فروع هذه العشيرة خلال ثلاثة أجيال . لقد كان خيران ، الذي يسمّيه النص التدمري هيرودوس - Apo Stration أي أنه في بداية القرن الثالث الميلادي كان جندياً في الجيش الروماني . وهذا يدل على أن خلفاء تسبيرا قد أفلسوا مما أجبر هيرودوس خيران على اختيار العسكرية حرفة له ليس

لأنها تعد بوضع مادي مقبول بل طمعاً في وضع اجتماعي ممتاز كمحارب قديم فيما بعد . كما وحمل ولده اسم سييتيم اليكساندر الأمر الذي يدل على أنه حصل على حق المواطنة الرومانية . ولكن كيف حصل هذا ، نحن لا ندري . قد يكون ذلك بموجب القانون الذي أصدره كركلا (عام ٢١٢ م .) والذي يسمح ، مع بعض الاستثناءات بإعطاء حق المواطنة لكل سكان الامبراطورية . ولذلك يستبعد أن يكون هيرودوس خيران ، المحارب في جيش روما قد أصبح مواطناً رومانياً . وتجدر الإشارة إلى أن خلفاءه اتخذوا اسم سييتيم . وقد يكون أقرب إلى الحقيقة القول أن هذه الخطوة من قبل خلفاء تسبيرا جاءت مرتبطة مع نفس الخطوة التي اتخذتها عشيرة أذينة وسييتيم فورودا . وهذا التوافق في الأسماء له دلالة أخرى على تبعية السييتيمين - خلفاء تسبيرا إلى فورودا وهذا ما انعكس في نص النقش . ولقد أشرنا سابقاً إلى أن يوليوس افريلي سييتيم ايادي كان فارساً وهذا يؤكد على سمو مرتبته الاجتماعية . وهكذا نرى أن تاريخ عشيرة السييتيمين التدمريين - خلفاء تسبيرا هو تاريخ انهيار عشيرة كانت في وقت ما من العشائر المعروفة والغنية كما أنه تاريخ صعود أحد فروعها من جديد سلم المراتب الاجتماعية ولكن كمواكين لموظف امبراطوري وخلفاء لمحارب قديم . ولا شيء يمنعنا من الاعتقاد أن ما نراه هنا ليس ظاهرة منفردة وإنما انعكاساً لعمليات اجتماعية عميقة حدثت داخل المجتمع التدمري .

تلمع أمام أعيننا هنا شخصية سييتيم فورودا الذي تذكره الوثائق كباترون . حيث يطلق عليه النص التدمري لأحد النقوش والمؤرخ عام ٢٦٢ والذي أقيم باسم «مجلس وشعب» تدمر تكريماً له - اسم Mrn «سيدنا» مما يشير إلى أنه كان يشغل مناصب حكومية . ولكن ما يثير الدهشة فعلاً أن وثائق تدمر لا تعطي أية معلومات عن تسلسله العائلي . ولا يمكن فهم هذا الوضع إلا إذا كان سييتيم فورودا لا يملك مثل هذا التسلسل المعترف به رسمياً في تدمر أو في أية منطقة أخرى من ذلك العالم . وقد يكون فورودا قد خرج من وسط لا تسمح القوانين بتسجيل التسلسل العائلي له . ومثل هذا الوسط كان واحداً وحيداً وهو وسط العبيد . وإذا كان الأمر كذلك فيبقى أن فورودا هو عبد محرر (قد يكون سيده ومحرره أذينة) حصل على المواطنة في تدمر وصعد السلم الاجتماعي بمساعدة سيده أذينة . وإذا صح توقعنا هذا عن سييتيم فورودا فأمامنا ظاهرة فريدة امتازت بها تدمر في القرن الثالث الميلادي وهي صعود ممثلي الفئات الاجتماعية الدنيا إلى مراتب اجتماعية عليا بمساعدة الحكام المحليين . مزيجين بذلك إلى الخط الخلفي ممثلي العشائر التدمرية العريقة .

البنية الاجتماعية لمجتمع دورايوروبوس

تعطي الوثائق التي وصلتنا من دورايوروبوس صورة جلية نسبياً عن البنية الداخلية للعائلة المحلية وماهية حركتها . فالرجال حسب العرف هم الشخصيات الرئيسية في كل صفقة وعلى الأرجح أنهم أرباب هذه العائلات مما يستدعي وجود ملكية جماعية لكل من الزوج والزوجة .

ولكن بعض الوثائق تؤكد أن الوضع الداخلي للعائلة أكثر تعقيداً من ذلك بكثير .

فالعقد الذي نحن بصدده مؤرخ عام ٨٧ م . أي زمن السيطرة البارفية . ولكن السلطة البارفية لم تكن تتمتع بأي تأثير يذكر على تطور الحياة الداخلية لمجتمع دورايوروبوس . فالوثيقة ترسم لنا الوضع التالي . قدم نيكانور بن كسينوقراط بن أدائي قرضاً لديوكل بن دانيم بن أبولوني وليتموناسا ابنة سلوقس بن ليسبي زوجة الأخير وسجل كل أملاكهما رهناً لحين استرداد الدين . ويبدو أنه بعد موت ديوكل أعطت تيموناسا كل أملاكها لصاحب الدين ولكن هذا الأخير ردّها لها كاملة ماعداً ثلاثة عبيد أبقاهم في أملاكه . وفي هذا الإطار يؤكد س . بريدفورد ويلي أن تيموناسا هذه تذكر في وثيقتين أخريين وصلتا إلينا من معبد أزانا تكوني ومؤرختان على التوالي أعوام ٦٢ - ٦٣ م . وهذا نصهما : « تيموناسا ابنة سلوقس بن ليسبي ، زوجة ديوكل بن دانيم » ومعروف أيضاً ابن هذين الزوجين واسمه بوليميل بن ديوكل بن دانيم .

ويؤكد بريدفورد ويلي أنه في حال وجود أولاد (ولد ودون شك بنت حين تسجل الوثائق أن تيموناسا هي حماة نيكانور) فيجب أن يكونوا هم الورثة الشرعيين لأبيهم . ولكن الوثيقة لا تشير من قريب أو بعيد لشيء من هذا . ولم يستطع ويلي أن يعطي أي تفسير لذلك . ونحن نعتقد أنه بالإمكان فهم ذلك بكون الصفقة التي نحن بصددها إنما هي بين أقارب . فأحد ورثة ديوكل هي زوجة بيكانور ، أي أحد المستفيدين من الصفقة . ولكن النقطة الهامة هنا هي أن الوثيقة تؤكد على أن القرض يقدم إلى ديوكل وتيموناسا سوياً . وهكذا تصبح تيموناسا مشاركاً متساوي الحقوق في هذه الصفقة المشتركة . وهذا سينعكس دون شك ، على وضعها كزوجة تتمتع بكامل الحقوق التي يتمتع بها زوجها . فالوثائق المذكورة تشير إلى أنها تستطيع أن تمارس نشاطها بشكل مستقل . وهذا بدوره يتطلب أن تكون هذه المرأة متمتعة باستقلال إقتصادي .

على ضوء ما تقدم أصبح بالإمكان فهم طبيعة الوثائق التي وصلتنا من دورايوروبوس حول الطلاق والتي بدت غريبة بعض الشيء . إحدى هذه الوثائق وهي مؤرخة عام ٢٠٤ م . ومحتواها Aurafos uamos ، أي قطع زواج تم عقده دون أية وثائق مدونة ويتفق الزوجان على إعطاء كل منهما للآخر حق الزواج ثانية ويتخليا عن أية مطالبات تتعلق بالملكية . وتروي الوثيقة الأخرى (من دورايوروبوس أيضاً) وهي مؤرخة عام ٢٥٤ م . تفصيلات أكثر حول هذا الموضوع ، فالزوج (أنطوخ) أعاد لزوجته (أميمة) كل ما أخذته منها سابقاً . والفرق بين الحالتين واضح : ففي الحالة الأولى كان يسود مبدأ الاستقلال في الملكية لكل من الزوجين وفي الثانية أعطت الزوجة كل ما تملك لزوجها ولكنها احتفظت بحق الملكية واستعادتها في حال فسخ الزواج .

وهكذا نستطيع التأكيد على أن مبدأ الاستقلال في الملكية كان يسود الحياة العائلية في دورايوروبوس وبالتالي احتفظت المرأة بأهليتها واستقلالها الاقتصادي .

ويحتوي قانون الوراثة عند غياب الوصية مواداً كثيرة حول هذه المسألة وهو أيضاً من دورايوروبوس . ومن الطريف أن الرقم يحمل تاريخ عام ٢٢٥ - ٢٥٠ م . بينما يعود تاريخ القانون نفسه الى العصر الهلنستي وعلى الأرجح أنه لم يطبق إلا في القطاع التابع للملك ومع الزمن اتخذته المدينة نموذجاً . ويضع القانون النظام الوراثي التالي : في حال عدم وجود أبناء (له أو بالتبني) يرث الأب أو الأم (فيما إذا لم تكن هذه الأخيرة قد تزوجت من جديد) ينتقل حق الوراثة بعد ذلك إلى الأخوة من نفس الأب ، ثم - الأخوات من نفس الأب - ثم والذي الأب أو العم وفي حال عدم وجود أي من هؤلاء تعتبر الملكية هالكة وتعود الى الخزينة الملكية .

لا شك أنه ليست مهمتنا معالجة منشأ هذا القانون . ولكن ما يجب الاعتراف به هو أن هذا النظام كان سائداً في كل العالم الهلنستي ويعتبر وجود نظام مماثل في القانون السوري مقتبس عن القانون الهلنستي . فقانون الوراثة السوري يعتبر أنه في حال عدم وجود وصية فحق الوراثة عائد للوجوه التالية : الأولاد من الجنسين بالتساوي ، في حال عدم وجودهم - الأب ، وفي حال عدم وجوده - الأخوة والأخوات (تشاركهم الأم في حال وجودها) ثم أخوة الأب وورثتهم ، ثم - أخوات الأب وورثتهم (الرجال وثانياً النساء) ويبدو التشابه واضحاً بين القانونين . وهذا يدل على أن هذا القانون كان يسود كل الأراضي السورية في الفترة التي نحن بصدددها .

عند دراستنا لهذا القانون لا بد أن نلاحظ أنه يعني ، دون شك ، تلك الحالة التي

يستقل فيها الابن عن أبيه ويؤلف عائلة مستقلة اقتصادياً وقانونياً . ونلاحظ أيضاً أن الانتساب الى فئة الأقرباء يقتصر على أولئك الذين من أب واحد وفي حدود الدرجة الثانية للقرابة . ومثل هذا الوضع ممكن فقط في حال الانهيار التام أو الجزئي للعلاقات العشائرية .

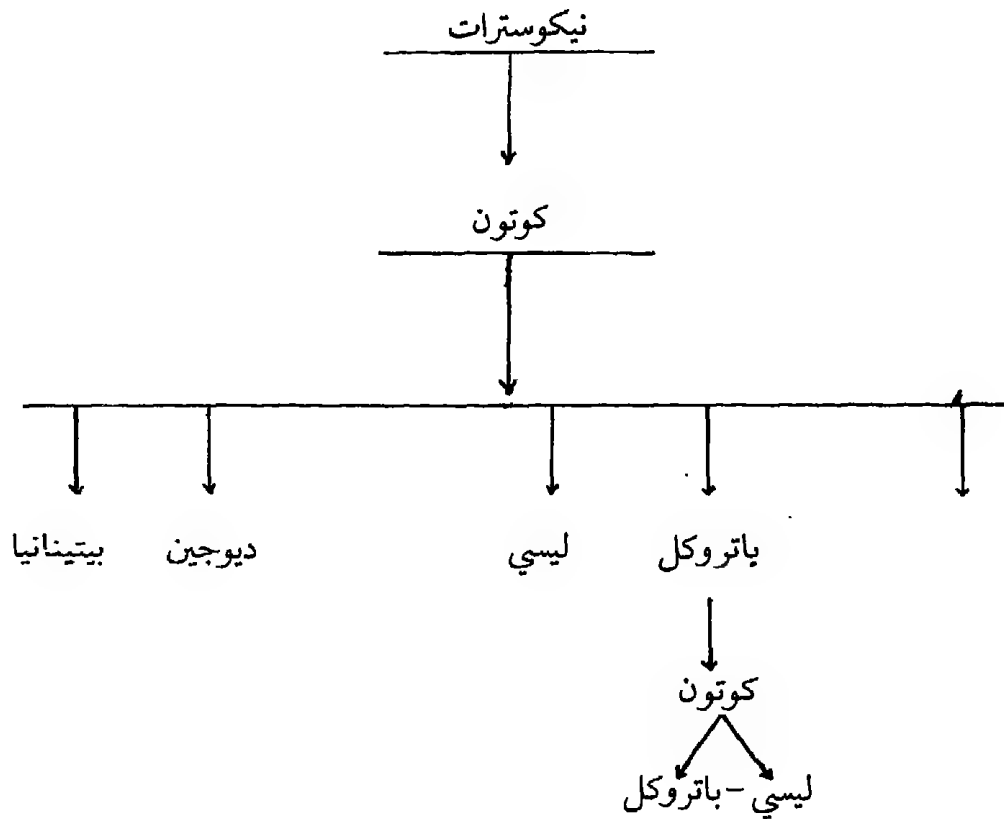
وعليه يصبح واضحاً لنا لماذا تقف الوثائق التي من دورايوروبوس عن تعدادها للأجداد عند الفخذ الثالث . وتبقى نادرة تلك الحالات (عام ٩١ م .) عندما يكون ليسانى بن سلوقس بن أمونيا بن ابولوقان فاعلاً جلدك ما . وحسب وثيقة أخرى ، وهي أيضاً نادرة يقوم ديوجين وديونسي ولدا دامونيك بن فيادر بتقديم ضحية بغية « النجاة والصحة » « لهما ولأخوتها وأبنائهما ووالدتهما وأقربائهما » . ويمكن أن نقول أنه بالمقارنة مع النقوش التدمرية فإن الفاعل هنا أخوان اثنان يقودان عائلة موحدة كبيرة . ولكن المعروف أن الكلام إنما يجري عادة عن الهادي وأولاده .

وهناك استنتاج هام آخر نستنتجه من قانون الوراثة هذا - فالمرأة تحافظ على علاقاتها مع بيت أبيها وليس هذا وحسب وإنما تحافظ أيضاً على حقوقها المترتبة عن هذه العلاقات . وهذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بما أشرنا إليه من استقلالية المرأة الاقتصادية والحقوقية .

بخض النظر عن شح المعطيات التي وصلتنا من دورايوروبوس عن تلك الفئة الاجتماعية التي امتلكت ثروات نقدية كبيرة ، وعلى الأرجح أراض واسعة ولكن بالرغم من هذا فإن مالدينا يعطي إمكانية لرسم صورة ما عن أوضاع هذه الفئة .

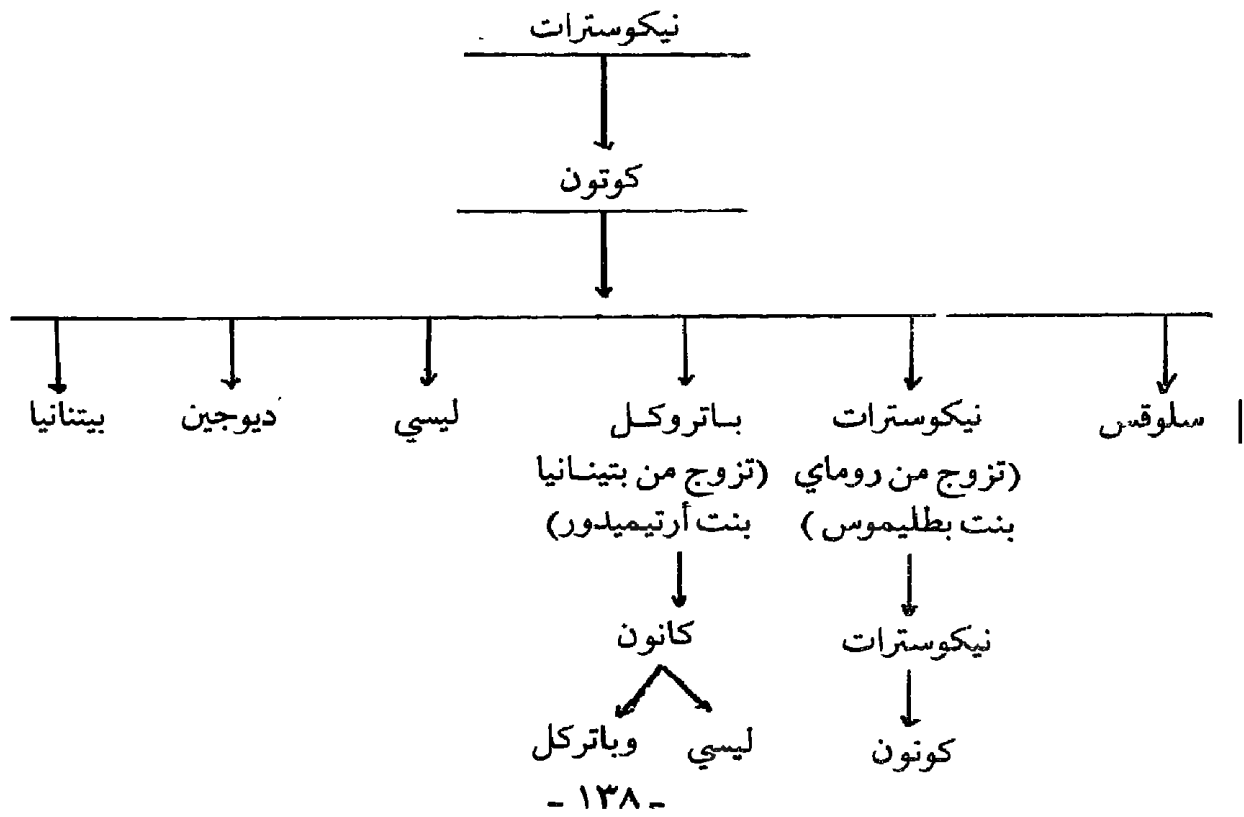
لقد أفادتنا الاكتشافات الأثرية بسلسلة من النقوش وجدت في ميثريوم والمناطق المجاورة وتتحدث عن مجموعة التقدمات التي أهدها أشخاص ينتسبون لعائلة واحدة وخلال فترة زمنية طويلة . أول هذه النقوش مؤرخ تاريخياً بوليوغرافيا في القرن الأول الميلادي ويروي أن إبينيك ، منادي وكاهن الرب أقام هيكلًا للالهة على نفقته الخاصة . ويروي النقش الثاني المؤرخ عام ١١٦ - ١١٧ ، أن الاسكندر بن إبينيك قام بترميم هذا الهيكل نفسه « الذي بناه أبوه منذ زمن بعيد » ثم أضاف بعض الأعمال الأخرى ، أعاد تركيب الأبواب التي سرقها الرومان ووضع أبواباً أخرى إضافية . ويفيد النقش الثالث أنه في العام التالي قام هذا الشخص بتشيد بناء مقدس مع بعض الإضافات التكميلية . ونعتقد أنه تجب الموافقة مع رأي روستوفتسيف أن هؤلاء الناس ينتسبون إلى ارسقراطية دورايوروبوس وقد حافظت هذه العائلة على وضعها المادي الممتاز هذا إلى النصف الثاني من القرن الأول وبداية القرن الثاني .

كما ونستطيع أن نتبع تاريخ عائلة أخرى عاشت في النصف الثاني من القرن الأول وحتى بداية القرن الثاني للميلاد . وقد وجدت رسوم وأسماء ممثليها على مسرح تقديم الأضاحي المشهور في معبد آلهة تدمر ويعود تاريخ هذا المسرح الى النصف الثاني من القرن الأول للميلاد : ديوجين وليسي وباتروكل ونيكوسترات أبناء كوتون بن نيكوسترات وابنة هذا الأخير بيتينانيا . وقد رسم على هذا المسرح أيضاً كوتون بن باتروكل عندما كان لا يزال طفلاً . ومن نفس هذا المعبد وصلتنا إحدى الوثائق المؤرخة عام ١١٥ م . وقد جاء فيها أن ليسي بن كوتون بن باتروكل أقام على نفقته الخاصة Tonde ton oikonto yperoion ومعروف لدينا أيضاً أخا ليسي الثاني ، باتروكل بن كوتون بن باتروكل . وقد أعطتنا هذه التفاصيل إمكانية إعادة رسم شجرة هذه العائلة بدرجة مقبولة من الدقة .



وتشير الوثائق المتأخرة نسبياً إلى أعضاء هذه العائلة . ففي إحداها يذكر اسم كوتون بن نيكوسترات في عملية تسديد ديون أبيه نيكوسترات . حيث أخذ الابن على عاتقه مسؤولية تسديد ديون أبيه . وفي وثيقة أخرى (عام ١٨٠ م) يذكر هذا الكوتون بن نيكوسترات نفسه كشاهد ومن الطريف أن نشير هنا إلى أن هيلودور حاكم المدينة هو شاهد أيضاً من ضمن هؤلاء الشهود . وهكذا فإن هذه العائلة حافظت على وضعها الاجتماعي في نهاية القرن الثاني الميلادي أيضاً .

وهناك وثائق أخرى تعود لعام ٣٧٣ من العصر السلوقي (عام ٦١ م) تكشف لنا عن أعضاء آخرين من هذه العائلة . فتشير إلى سلوقس بن كوتون بن نيكوسترات . ويذكر نقش آخر رومي ابنة بطليموس وزوجة نيكوسترات بن كونون وتذكر في نقش ثالث بتيانيا بنت ارتميدور وزوجة باتروكل بن كوتون . حيث كانت لهم مقصوراتهم الخاصة في لوج مسرح معبد اتارغاتيس . وهكذا نستطيع الآن أن نضيف إلى القسم الأول من شجرة هذه العائلة قسماً آخر :



وهكذا نرى أن هذه العائلة استطاعت أن تحافظ على ثروتها لفترة زمنية طويلة بغض النظر عن الكارثة المالية التي حلت بنيكوسترات الثاني وأجبرته على أن يلجأ للاستدانة كي يستطيع استعادة ثروته .

لقد قلنا سابقاً أن الأرض في دورايوربوس كانت موضوع عمليات تجارية وغالباً ما كانت تنتقل من ملكية شخص ما لتصبح ملكاً لآخر . ومثل هذا الوضع كان مقدمة طبيعية لخلق الملكية الكبيرة للأرض كما أنه دليل على حتمية إفلاس المالكين الصغار والمتوسطين . والواقع أن هناك وثيقة تدل على أن الملكية الكبيرة للأرض تكونت هنا من قطع الأرض المبعثرة والمتباعدة عن بعضها البعض . ولكن هذا الوضع لم يكن ليؤثر جدياً على النتائج الاجتماعية لمركزة ملكية الأرض . ونعتقد أنه من المفيد أن نشير إلى أن المشتري في هذه الوثيقة هو المحارب القديم يوليوس ديمتري الأمر الذي يدل على أن وجوهاً جديدة لها ارتباط وثيق بالإدارة الرومانية بدأت تتغلغل في صفوف كبار ملاك الأرض في دورايوربوس .

أما عن إفلاس صغار الملاك وصغار المنتجين فنعلم من الوثائق المدونة لعملية تقديم القروض التي كانت تؤدي في النهاية إلى استعباد حقيقي للمدين الذي لا يستطيع التسديد حيث يبقى إلى أجل غير مسمى تابعاً للدائن . والصيغة العامة التي تشترك فيها هذه الوثائق هي التأكيد على أن كل ما يملك المستدين يعتبر رهناً لدى الدائن مع العلم أن هذه الملكية تبقى في حوزة الأول حيث يستثمرها .

البنية الاجتماعية لمجتمع جرش . القرن ١-٣ م .

تؤكد النقوش التي وصلتنا من جرش على وجود أرستقراطية مالية كبيرة في هذه المدينة قامت ثروتها ، بشكل أساسي على ملكية الأرض والتجارة . وتدلل الأوصاحي والتقدمات التي تقوم بها هذه الفئة على سعة ثروتها ، فتروي إحدى الوثائق (عام ٢٢-٢٣ م) أن زابديون بن أرسطوماخ تبرع بمبلغ ألف درهم من ماله الخاص لبناء معبد زفس الأولي . أما أرسطون بن أرسطوماخ (عام ٤٣ م وقد يكون أخاً لهذا الأخير) فقد تبرع بمبلغ ١٥٠٠ درهم لنفس الغرض وقد صكت هذه الدراهم في صور . وفي عام ٤٣ م تبرع أفينيون بن أفينيون بن لوب بنفس المبلغ ولنفس الغرض أيضاً . وفي النصف الثاني من القرن الأول تميز فيون بن ديمتري بكرم لا يضاهاى أو بالأحرى بثروة لا تضاهاى . حيث يقول أحد النقوش أن هذا تبرع بمبلغ ٧١٠٠ درهم إصدار صور لبناء معبد الإله زفس الأولي كما تبرع بمبلغ ١٥٠٠ درهم لبناء

مدخل هذا المعبد بالإضافة إلى ذلك خصص مبلغ ٨٦٨٦ درهماً لأهداف متعلقة ببناء المعبد أيضاً و ١٣١٤ درهماً لصنع تمثال زفس من البرونز . وهكذا نرى أن مجموع ما تبرع به فيون هذا بلغ ١٨٦٠٠ درهم . وأخيراً تقول إحدى الوثائق أن تيطوس فلافي بن دينوسيوس ابي خصص مبلغ ٣٠٠٠ درهم لمشاريع البناء .

لا شك أنه لا يستطيع تحمل مثل هذه النفقات الضخمة إلا أشخاص أغنياء جداً . وللمقارنة نقول أنه في ٦٧-٦٨ م . لم يستطع سارابيون بن أبولوني بن ديميتري أن يخصص لنفس الأهداف سوى ٤٠٠ درهم فقط .

ولاشك أن هذه المعلومات غير كاملة ولكنها تسمح لنا بالقول أنه كان يوجد في جرش إبان الفترة التي نحن بصدد دراستها أشخاص يملكون ثروات طائلة .

فمنذ القرن الأول الميلادي بدأ المحاربون القدماء يوطدون مواقعهم في أوساط الارستقراطية المحلية . وقد أشرنا سابقاً إلى تيطوس فلافي بن دينوسيوس ابي ، إذ أنه من السهل معرفة تاريخ حياته الذي له دلالة خاصة . حيث تنبؤنا إحدى الوثائق أنه كان مواطناً من مواطني جرش الذين ولدوا فيها وانتسب إلى الجيش الروماني ثم سرح منه فيما بعد وذلك بعد أن وصل فيه إلى رتبة قائد كما أنه حصل على المواطنة الرومانية في عهد الفلاقيين . ويبدو أن هذا الشخص شغل مكانة اجتماعية رفيعة بعد عودته إلى وطنه ذلك أنه يتمتع بكل امتيازات المحاربين القدماء وحق المواطنة الرومانية وكذلك امكانيات مالية محترمة . وما قيل عن تيطوس هذا لم يكن حدثاً فريداً أبداً .

فتروي لنا إحدى الوثائق أن فلافي كيرسيلوخ قدم تقدمة للآلهة لاكاينا . وتفيدنا وثيقة أخرى بتكريم تيسلوس فلافي فلاك كيرسيلوخ من قبل شخص يدعى ديميتري وهو نفسه ديفيل بن ديميتري Eynoiias khirin وهذه الجملة الأخيرة تشير إلى أن ديميتري بن ديميتري كان موالياً لتيطوس فلافي كيرسيلوخ .

ولكن لسوء الحظ لا نملك أية معلومات عن الفئات الدنيا من سكان جرش - صغار التجار والحرفيين . . . الخ . ولكن إذا صح فهمنا للنقش G, 182 فيمكننا القول بوجود علاقات الموالاة - الباترونات - في جرش في القرن الثاني الميلادي .

★ ★ ★

★ ★ ★

تأسيساً على ما سبق عرضه نستطيع الآن أن نحدد فئات السكان الأحرار في المدن السورية في الفترة التي نحن بصدددها على النحو التالي : الارستقراطية العقارية - التجارية التي تملك ثروات مالية كبيرة ، ثم فئة الملاك المتوسطين وصغار المالكين . وتجدر الإشارة هنا الى الاتجاه الذي بدأ يسود هنا ومحتواه إفلاس هؤلاء ووقوعهم في نظام التبعية وكذلك ظهور نظام الباترونات والذي نشأ بدوره من صلب علاقات الجوار والمساعدة المتبادلة . وكان من الطبيعي أن تصبح هذه العلاقات ، في المقاطعات قاعدة قامت عليها تبعية المواطن الحر ، شكلياً للمواطن الأكثر تأثيراً أو للموظف . وهذا ما كان ينطبق على سورية أيضاً . وبشر لدينا اهتماماً خاصاً ، هنا اكتشاف قانون في مدينة ديجيستي يمنع تقديم «المساعدة» لمن لا يطلبها ولا يريدتها . وتشيري . م . شتاير من الى أن مثل هذه المساعدات كانت تؤدي الى التبعية وعلى الأرجح أن هذه العمليات كانت منتشرة انتشاراً واسعاً في كافة أرجاء الامبراطورية مما تطلب منعها . ولكن ، على الأرجح أنه لم يكن لمثل هذا المنع فاعلية تذكر ذلك أن «فاعلي الخير» هؤلاء كانوا يملكون من الوسائل ما يكفي لظهار هذه العمليات وكأنها تتم بكل حرية .

نقول ، أن المعطيات المتوفرة لدينا لدراسة وتقويم مناطق ومدن سورية تؤكد أيضاً أن ما نراه أمامنا إنما هو ظاهرة عامة تنسحب على كل المنطقة التي نحن بصدد دراستها وعلى مدى كل المرحلة الزمنية المعنية بهذه الدراسة .

ونشير هنا على وجه الخصوص الى رواية مالالا Malala الذي يعيد إحياء العادات والتقاليد الانطاكية - تقول روايته عن الانطاكي سوسيبي الذي عاش في القرن الأول الميلادي أنه كان سيناتوراً وقد انتقل مع اغسطس ليقم في روما ويمكن أن نتوقع أنه إنما أصبح سيناتوراً ومواطناً رومانياً بقرار من الامبراطور ، أن سوسيبي هذا كان من كبار الأغنياء في انطاكية إن لم يكن الأغنى على الإطلاق . فالرواية تقول أنه أوصى لمدينته مبلغاً من المال يكفي لدفع الضريبة المترتبة عليها لعام كامل وذلك لتمويل احتفالات ومباريات رياضية على مدى خمس سنوات تقام كل عام في شهر معين ولمدة ثلاثة عشر يوماً يشارك فيها المنشدون والفرق المسرحية وتضم أيضاً ألعاب القوى والفروسية وغيرها . وما تجدر الإشارة إليه أن مثل هذه الوصايا كانت معروفة في تاريخ انطاكية قبل الاحتلال الروماني . إذ يقول مالالا في إحدى رواياته أنه في العصر الهلنستي أوصى مارون بأن يبني على نفقته الخاصة معبد موز ومكتبة . وهكذا نرى أن ما قام به سوسيبي لا يدل على نمو ثروة فئة معينة من السكان في القرن الأول الميلادي فهذه الفئة كانت موجودة منذ زمن وإنما يدل على أن بعض رجال السلطة في انطاكية تميزوا بثروات طائلة للغاية .

فتروي لنا وثائق انطاكية الاخرى (القرن ١ - ٢ م) عن تقدمات أكثر تواضعاً بكثير للآلهة المحلية . ولكنها هي الأخرى تتطلب نفقات غير قليلة مما يدل على غنى فاعليها .
ومن الطريف أن الرأي العام الاجتماعي كان يقدر في مثل هؤلاء الأغنياء تواضعهم واستعدادهم للدفاع عن العدالة وعمل الخير وكذلك مختلف التقدّمات لمدينتهم .

وتعتبر المعلومات التي حصلنا عليها من تحليل الوضع الذي كان قائماً في تدمر ودورايبور وبوس وجرش عن تطوّر العلاقات العائلية ، عامة ومشتركة لكل المناطق السورية الأخرى . إذ تؤكد الوثائق التي وصلتنا من أفاميا واليكسندرية (الاسكندرية - المترجم) في ظل حكم عيسى ومن سلوقية ويبريا على الوضع الاجتماعي والاقتصادي المستقل الذي تمتعت به المرأة هنا . حيث تحوي الوثائق المذكورة معلومات تقدمات باسم نساء من أجل سعادة وخير عائلاتهن بما في ذلك أزواجهن وأولادهن كما وتحوي قرارات باسم الاجتماع الشعبي تقضي بتكريم امرأة - كاهن سابق . ولم يكن زواج المرأة عائقاً أمام استقلاليتها .
إلى جانب هذه التقدّمات الفردية نصادف أيضاً تقدمات جماعية يقوم بها أفراد عائلة واحدة . ففي ١٥٧ م . قدم كل من ألباي وياراي ولدا موسا تقدمة إلى «الإله العظيم لسكان نازالة» . أجل خلاصهم وخلاص أولادهم » . وفي عام ٨٦ م قدمت قرية قورفية (انطاكية) إلى «آلهة الوطن» زفس - مدباخ وسيلامان وقد سمي ديوجين بن انطوخ وفيوفل المتبنى من أخيه ، وزوجته فيوفلا ابنة فيوفل وأمه سوسيس وأبناء سوسيس وفيوفيل . ويبدو أن رأس العائلة قد رأى من الضروري ذكر أسماء كافة أفرادها كمشاركين في هذه العملية . وهذا ما يضع أساساً لتحركهم في المستقبل . بشكل مستقل عن إرادته . وتذكر المصادر تقدمة أخرى (عام ١٦١ من البرج المعلق) على شرف زفس - مدباخ قام بها الأخوة ابولوني وابولونوفان وحالييون أبناء ماريون . ومن معلولاً جاءنا نقش يروي عن تقدمة للإله مالاخيد قام بها أبناء كيريل بن باتروكل ويعود تاريخ النقش لعام ١٠٦ م .

وهكذا نرى أنه إلى جانب العائلات التي انقسمت بعد موت رأسها بقيت هناك عائلات لم تخضع لهذا الانقسام وحافظت على وحدتها بقيادة بعض الأخوة سوية . ومن المتعارف عليه هنا أن يتبنى الأخ أخاه .

المواطنون الرومان في سورية القرن ١ - ٣ م .

تشير المصادر المتوفرة لدينا الى أنه ابتداء من القرن الاول الميلادي بدأ المواطنون الرومان يلعبون دوراً بارزاً في حياة المجتمع السوري بما في ذلك داخل الوسط الارستقراطي وخاصة أولئك الذين ينتسبون لفئة المحاربين القدماء . وأشارت المصادر الى أنهم كانوا يشكلون فئة لها وزنها في فئة كبار مالكي الارض . وحتى الآن لم تتضح مسألة منشأ هؤلاء المواطنين وكذلك الوضع حيال مسألة تلك التغيرات التي حدثت في تركيب الشرائح العليا للمجتمع السوري وأيضاً مسألة البنية الاجتماعية لمستوطنات المحاربين القدماء والمكانة التي شغلها في الحياة السورية ابان القرن ١ - ٣ م .

البنية الاجتماعية لبعلبك - مستعمرة المحاربين الرومان القدماء

تجيز لنا مجموعة النقوش الواسعة التي نشرها ج . ب . ري - كوكي ومصدرها بعلبك أن ندرس بكثير من الدقة البنية الاجتماعية لبعلبك - واحدة من مستعمرتين للمحاربين القدماء في سورية . ولانعتقد أن الوضع في بيروت كان يختلف كثيراً عنه في بعلبك ولذلك فإن الاستنتاجات التي توصلنا اليها من دراستنا للمصادر التي وصلتنا من هذه الاخيرة تنسحب على بيروت المستعمرة الرومانية الثانية في سورية .

ولكن مع الأسف أن واحداً من أهم المصادر التي نعتمد عليها للدراسة تاريخ بعلبك ليس مؤرخاً وقد وصلنا من نيحا وهو اهداء من اثار عابثس النيجي لسلامة اغسطس . صاحب الاهداء هنا pagus Augustus (pagus Augustussecit et dedicavit) وفي معرض تعليقه على هذا المصدر يقول ري كوكي ان pagus Augustus عبارة عن اتحاد للمواطنين الرومان ظهر في أعقاب توزيع الاراضي في وادي نيحا . ويعتقد الباحث أن ورود اسم اغسطس في الوثيقة هو دليل على أن الاراضي كانت قد وزعت على عهد هذا القيصر بل وعلى الأرجح في نفس الوقت الذي بنيت فيه بعلبك وبيروت . وهناك بعض الوثائق التي وصلتنا من نيحا ويعود تاريخها الى عهد انطونيوس وهي تنقل لنا ذكراً لعائلتين متنفذتين هنا : عائلة التسلسيين وعائلة الوليين . فقد اهدى أفراد هاتين العائلتين تقدمات مشتركة للامبراطور .

وهكذا نرى أن المستعمرين لم يكتفوا ببناء مدينة أصبحت مركز المنطقة زراعية معينة وإنما أسسوا هنا قرى زراعية تابعة إدارياً للمستعمرة . أما المدينة نفسها فقد قسمت إدارياً إلى وحدتين إداريتين جاءت على ذكرهما الوثائق . من جهة أخرى ليس لدينا الكثير من الوثائق عن السكان الأحرار في مدينة بعلبك والقرى التابعة لها . وأول ما يلفت الانتباه في هذا المجال النقش الذي وصلنا من نيحا (ليس مؤرخاً) : « مينيسك عن النذور التي قدمها عن نفسه وعن ابنته وزوجته ومن يربيههم » . وتؤكد لنا وثائق آسيا الصغرى في هذا السياق أن كلمة Zreptos كانت تعني الأولاد الأحرار الذين يتربون في كنف السيد كما وكانت تعني أيضاً المطعمين - العبيد . وبالتالي نحن لانستطيع أن نعتمد على هذا المصطلح لتحديد الوضع الاجتماعي للأشخاص المعنيين في هذا النقش إذ أنه من الممكن أن يكونوا Zreptos في نقش مينيسك إما أولاداً أحراراً يتربون في كنفه منذ الصغر لأسباب نجهلها وإما عبيداً ولدوا في بيته . ولكننا ، على أية حال نعتقد أن المقصود في هذا النقش هم أولاده الشرعيون (أو يصبح من غير المفهوم التأكيد على ابنته) . ولكن ما يلفت النظر أن مينيسك يقدم النذر باسم Zreptos الذين يبدو أن عناصر مكونة للعائلة المعنية وفي الوقت نفسه - عناصر سلبية .

الوثيقة الثانية وصلتنا من حرملة وهي غير مؤرخة أيضاً . وتنص على « أقام أتاري ريغينا على نفقته الخاصة » يشير ري كوكي إلى أن الصيغة « أتاري ريغينا » . تحمل معنيين : « أتاري بن ريغينا » أو « أتاري عبد ريغينا » وبما أن الاسم الثاني هنا هو اسم امرأة لذلك نعتقد أنه من الأقرب إلى الحقيقة أن يكون أتاري عبداً . أو كان من المفروض أن ينتسب إلى أبيه . وإذا صح تفسيرنا هنا فأمامنا حالة يتمتع فيها العبد بشيء من الملكية الخاصة (ومن هنا جاءت الصيغة exiden) تسمح له أن ينفق حسب رأيه . والشيء الوحيد الذي يمكننا أن نؤكد عليه هنا هو وجود شكل ما من أشكال التبعية بين أتاري وريغينا - تبعية الأول طبعاً .

ونشير هنا إلى أن النقشين مكتوبان باللغة اليونانية وهذا يسمح لنا بالقول أن أشخاص هذه الوثائق هم من السكان المحليين . وتتميز هنا الوثيقة التي جاءتنا من دير - لباس حيث كتبت باللاتينية . وهذا يدل على أنها جاءتنا من أوساط المستعمرين . يقول نص هذه الوثيقة : « للاله جوبيتر البعلبكي الأفضل والأعظم وفي كل من كاليست وابلوفي النذر الذي نذراه لصحة السادة » . يعتقد . مويرد أن المقصود بالسادة هنا لا يمكن أن يكون الامبراطور وإنما سادة هذين العبدین الذين وفيًا نذرهما . ونحن نعتقد أن هذا التفسير معقول ولكنه يقودنا إلى عدة استنتاجات . أولاً العبيد يدخلون دائرة الملكية الجماعية . غير أننا نفتقر

الى الوثائق التي يمكن أن تعطينا صورة ما عن هذه الجماعة ولذلك لن يكون باستطاعتنا تقييمها . ثانياً - يتمتع العبدان كاليست وابولوني بحق الملكية الخاصة ويتصرفان بملكيتهما كما يشاءان ، ثالثاً - يستطيع العبدان تحمل نفقات جماعية وبالتالي المشاركة في الحياة العملية وتكوين جماعات ، عند الضرورة .

وإذا صحَّ ما ذكرناه سابقاً فإننا نستطيع أن نؤكد على وجود فئة غير حرة من السكان في بعلبك بما في ذلك العبيد . وقد كان من حق هؤلاء أن تكون لديهم ملكيتهم الخاصة التي يتصرفون بها كما يشاؤون . وفي هذا المجال لم يكن هناك فرق بين وضع العبيد في المستعمرات الرومانية وبين وضعهم في المدن السورية الأخرى .

أما عن وضع العبيد المحررين فهناك كمية من الوثائق أكبر بكثير . فهناك ثلاثة نقوش غير مؤرخة في هذه المجموعة . أحدها اقامه العبد المحرر بوبلي ستاتيلي اتسيليان على شرف شخص ما يدعى بوبلي ستاتيلي بن غاي يوست سيتيان ، على الأرجح أنه حاميه وسيده . ويبدو أن هذا الأخير كان يتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة : فعندما كان يخدم في الجيش كان برتبة *praefectus fabrorum* وعندما تقاعد وأقام في بعلبك أصبح عضواً في مجلس المدينة .

وأخيراً تفيدنا إحدى الوثائق التي وصلتنا من بعلبك أن كوينت بيبى يانوار أوفى نذره للاله جوبيتر « لصحة (*prosalute*) حاميه بيبى نوات وولده باسمه واسم زوجته بيبياتالوسا وأولاده وأخوته . نعتقد كما يعتقد ري - كوكي أن صاحب النذر عبد محرر لبيبى نوات وإذا صحَّ هذا الاعتقاد ترسم أمامنا الصورة التالية : عندما كان كوينت بيبى عبداً لدى سيده سمح له هذا الأخير بتكوين أسرة وبالتالي استثماره مستقلة . ونحن لانعرف شيئاً عن الظروف المحيطة بحصوله على حريته ولا بوضعه المادي اللاحق . ولكن مايلفت النظر أن هذا العبد المحرر هو رأس لعائلة أبوية وهو سيدها وتضم هذه العائلة زوجته وأبناءه وأخوته . كيف أصبح هؤلاء أعضاء في عائلته ، نحن لانعرف . كل ما نعرفه أن عدد أعضاء هذه العائلة يدل على أن كوينت بيبى يانوار كان شخصاً ثرياً . ووصلنا نقش آخر من النصف الثاني من القرن الأول وكان هذا النقش قد أقيم على شرف شخص غير معروف شارك في حملة تسييسينا بيتا على كوجين (عام ٧٢ م) وحاز على عدد كبير من الأوسمة ومن هذه الأخيرة *ornamentea duumlreria* بناء على قرار مجلس القادة . لقد أقام هذا النقش مارك انطوني حينون عبد حويلون المحرر . ولا شك أن مارك انطوني حينون يحمل *homen* و *praenomen* سيده السابق ولذلك يعاد تصحيح اسم العبد ليصبح مارك

انطوني حويلون وعليه يمكننا أن نتوقع أن أحد أجداده حصل على الجنسية الرومانية من انطونيو وأصبح ينتسب الى فئة المحاربين القدماء الذين استوطنوا بعلبك وكان موقفهم إبان الحروب الأهلية معاد لاغسطس .

نستدل مما سبق على أن العلاقة بقيت وثيقة بين العبد المحرر وسيده السابق حتى أن هؤلاء كانوا يقومون بأعمال كاعضاء في العائلة . والسبب المباشر لذلك هو أن العبد كان يأخذ nomen سيده ويصبح بذلك متصلاً صلة مباشرة بالعائلة . ويبدو أن إقامة النقوش على شرف أول صحة الباترون كانت جزءاً من reverentia الذي كان يتوجب على العبد المحرر أن يعبر عنه تجاه سيده السابق . وهذا لم يكن ليتناقض مع الاستقلال الاجتماعي والاقتصادي للعبد المحرر .

وكانت توجد في بعلبك أيضاً فئة من عبيد الامبراطور المحررين . وقد وصلنا نقش أحد هؤلاء ويعود تاريخه لعهد كركلا مقدمة إلى آلهة بعلبك الثلاثة (جوبيتر وفينيرا وميركوريا) « لعسحة » الامبراطور . قدمها سيبتيم . . . باسيوس ، على الأرجح عبد سيبتيم سيفير المحرر ، موضوع التقدمة بناء عمود من البرونز مطعم بالذهب مما يدل على الامكانية المادية الكبيرة التي كان يتمتع بها الرجل .

أما فيما يتعلق ببناء العائلة في وسط المستوطنين الأحرار كذلك دور بعض أفرادها فلا نستطيع أن نبني أي حكم إلا بناء على نصب الاهداء والتكريم . ولكن هذا بدوره يخلق لنا صعوبات ذلك أننا لا نستطيع أن نعرف ما إذا كانت الأسماء الواردة في الوثائق هي أسماء كل أعضاء العائلة ثانياً- إن ذكر اسم شخص ما يعني انه ينتسب الى العائلة المعنية فقط ولا نعرف مدى دائرة الأقارب بمن فيهم أولئك الذين لا يخضعون لسلطته ويؤق علي ذكرهم بمعيتة . وعليه تصبح هذه المعلومات تقريرية وليست دقيقة . وسوف نعتبر لاحقاً أن الأسماء الوارد ذكرها في النقش تشكل عائلة موحدة أو تربطها بهذه العائلة روابط قوية .

نستبق العرض لنقول أن المعطيات التي سنعرضها لاحقاً توصلنا إلى الاستنتاجات التالية . من المتعارف عليه أن النقوش التي تقام تقرباً من الآلهة يقيمها رأس العائلة الذي يمثلها في كل علاقاتها مع العالم الخارجي حسب وجهة النظر الرومانية حيال سلطة الأب . وفي هذه الحالة يكون بقية أفراد العائلة موضوع تمنيات بانتظار نعم الآلهة . وفي بعض النقوش الأخرى يكون الأخوة أو « الاقرباء » موضوع التمنيات . ولا نعرف حتى الآن أي شيء عن علاقتهم مع صاحب التقامة أو الاهداء .

كما وتوجد نصوص أخرى حيث رأس العائلة يتصرف بالتعاون مع بقية أفرادها - الزوجة والأولاد وهذا يدل على أن هؤلاء يتمتعون بأهلية اجتماعية وإذا كان الأمر كذلك ، زواج sinemanu ومساواة الأولاد والبنات ، تحريرهم من السلطة البطريكية للأب ولوشكليا . وفي إحدى الحالات يشارك في التقدمة إلى جانب الأب ، زوجته وأولاده وحفيده . ولكن هل كان الأب يتصرف في مثل هذه الحالات كرأس للعائلة أم كمساهم في التقدمة ؟ حتى الآن لا نعرف شيئا عن هذه المسألة .

لكننا نعرف بعض الحوادث التي يقوم فيها الأخوة - الورثة بإيفاء نذر أبيهم أو أمهم وتشير بعض الوثائق إلى أن هذا الأمر يتم بناء على وصية . وبما أن مثل هذا الشرط غير مدون في الوثائق فإننا نعتقد أنه لم يكن هناك وجود للوصايا المكتوبة ولا الشفهية . ولكن الثابت هو أن الورثة لم يكونوا يرثوا الملكية فقط وإنما كانوا يرثون الالتزامات أيضاً . ونرى مثل هذا التطبيق في الواقع عندما يدعى لورثة شخص ما أناس ليسوا أقاربه . وهذا ما يروي عنه النقش الذي وصلنا من بعلبك والمؤرخ أعوام ١٢٨ - ١٣٨ م . وهو عبارة عن تقدمة « إلى الإله البعلبكي الأفضل والأعظم جوبيتر ، لصحة الامبراطور قيصر تريان اديان اغسطس أب الوطن ، بناء على وصية لوتسيا انطوني سيلون فارس الفيلق الثالث » . ونجد أن منفذي هذا النذر هم ورثته كل حسب نصيبه : « لوتسي فارسي ماغن بن كونيت المحارب القديم وعليه يقع نصف النذر ، لوتسي فاليري ميلبور بن لوتسيا اليتيم - الربع ، وخيبي وروفي وفوكس أبناء غاي اليتامي - الربع أيضاً » لاشك أن العلاقة القائمة بين صاحب الوصية والورثة الذين أوصى لهم بثروته ترتدي هنا أهمية خاصة . وبما أن النقش لا يعطينا أية معلومات بهذا الخصوص لذلك سيكون جوابنا على هذا السؤال استقرائياً . فالوضع الاجتماعي للورثة يتحدد بالمعطيات التالية : أحدهم من المحاربين القدماء ، والأرجح أنه لم يحصل على مرتبة قيادية ، وباقي الورثة - يتامي . وعلى الأغلب أن لا يكون هؤلاء قد بلغوا سن الرشد . وعليه نعتقد أن ورثة لوتسي انطوني سيلون لا يتمتعون بمنزلة اجتماعية رفيعة والواقع أنهم كانوا يماثلونه في هذا المجال .

صيغة الجنام	تركيب العائلة	اسم الذي أهدى أو قدم	الصيغة التمهيدية	رسم النقش حسب MIVI لمصدره وتاريخه
أقيم احتراماً	تنفيذاً لوصية انطوني طوراً	انطونيا بنت تيريباكاكات وبريستسيلا	الى المقدس فيسبانيان اغسطس	٢٧٦١ ، بعلبك ، النصف الثاني من القرن الاول الميلادي
أوفي النذر من كل قلبه .	لرحمته وصحة أولاده واحفاده .	توينت تيدى مكسيم	الاله البعلبكى الأفضل والأعظم جويستر ، لصحة الامبراطور تيطوس ابيليا ادريان انتونين اغسطس بيسا ، اب الوطن	٢٧١٥ ، بعلبك ، في عهد انطوني بيسا (عام ١٣١ - ١٦١ م) .
أوفي النذر من كل قلبه .	تنفيذاً لوصية بوسلي كراخي ر	كوينت كراخي	مارك افريلي ولده قيصر .	٢٧٤٦ ، بعلبك ، في عهد م . افريلي ؟ يوناني .
	لرحمته وصحة أهله اينون .		٢٧٥٢ ، بعلبك ، بدون تاريخ .

صيفة الختام	تركيب العائلة	اسم الذي أهلى أو قدم	الصيفة التمهيدية	رقم النطق حسب MIV لمصدره وتاريخه
أوفى النذر .	ونبي سيكست ، ري ، كونت ، وأبنائه .	كونت بيسي روف بن كونت .	الإله البعلبكي الأفضل والأعظم جوير .	٢٧١٨ ، بعلبك ، بدون تاريخ .
أوفى النذر .	لصحته وصحة تبرينا ابنته وصحة يوفتسي زوجته .	تيطوس بونتي كلافدي بروتين .	الإله البعلبكي الأفضل والأعظم جوير .	٢٧٢٠ ، بعلبك ، دون تاريخ .
أوفى النذر من كل قلبه .	مع زوجته وأولاده .	تيري كلافدي نابيلس بن تيري .	الإله البعلبكي الأفضل والأعظم جوير .	٢٧٢١ ، بعلبك ، دون تاريخ .
أوفى النذر من كل قلبه	لصحته وصحة انطوني ديودورا والزوجة المحترمة والأولاد جميعهم مع خاربيونا الزوجة المحترمة جلدا .	بيبي افريليان دي ، عضو مجلس مدينة بعلبك .	بناء على اجابة الإله كونار .	٢٧٤٣ ، بعلبك ، دون تاريخ .

صيغة الختام	تركيب العائلة	اسم الذي أهدى أو قدم	الصيغة التمهيدية	رقم النقش حسب M171 المعياره وتاريخه
أوفى النذر من كل قلبه .	لصحته وصحة فبرميننا زوجته ، وأولاده - وصحة فبرميننا ومونتان ومارتسيلا .	كاسيوس فبر كارهي مونتنان كورتيليان بن تيسيريا كارمي كورتيللا الذي هو باستور .	الى الإله العليكي العظيم سيد الكل .	٢٧٣٠ ، بعلبك ، دون تاريخ . ٢٧٤٨ ، بعلبك ، دون تاريخ .
نذره الاب ، بكل رغبة .	لصحته هو يوليان وصحة سيكوندا وغيميللا - والأولاد وصحة زوجته غيميللا وتيسيري ومارك وصحة اخته غيرا وكارليست وسيكوندا وكورينت ولدا اختيه .	مارتسيلا وكورينت فولين ، أولاد مارك فولين سيكست بن سيفير . يوليان :		٢٧٤٩ - ٢٧٥٠ ، بعلبك ، دون تاريخ والنصان متاثلان . ٢٧٥١ ، بعلبك ، القرن ٣ - ٤ .
أوفى النذر من كل قلبه .				

صيغة الختام	تركيب العائلة	اسم الذي أهدى أو قدم	الصيغة التمهيدية	رقم النقش حسب M171 للمصدر وتاريخه
أقامه للإله	أوفاه يولي غير ميسون وإنشاء فيكتورين وحفيد غير المتساوي الحقوق . لصحة زوجته وأولاده وأقربائه . لصحة أبنائه	نذره لوتسي، يولي عيمير . كريسكي ... صاحب النذر بصحة امبراطورنا وسيدنا اغسطس . الى الإله البعلبكي الاعظم زفس	٢٧٤٥ - بعلبك ، بداية القرن الثالث م . ٢٧٢٨ ، بعلبك ، دون تاريخ ٢٩٣١ ، نيقا ، دون تاريخ باللغة اليونانية
صاحب النذر .	عن نفسه وعن ابنته وزوجته ومطعميه . لصحته وصحة أبنائه وأخوته .	مينيك أقامه فيسي اموني .		٢٩٣٠ ، نيقا ، دون تاريخ . باللغة اليونانية . ٢٩٣٢ ، نيقا ، دون تاريخ باللغة اليونانية .
صاحب النذر .	وأخوته ...	ميس بن غيا .	الى سفرون المقتصد .	٢٩٤٧ ، حصن

صيفة الختام	تركيب العائلة	اسم الذي اهدى أو قدم	الصيغة التمهيدية	رقم النقش حسب MIMI المصدره وتاريخه
أوفى النذر .	لصحته وصحة أولاده .	غاي التوفي ايمني .	الى الاله الغداري	نيحسا ، دون تاريخ . باللغة اليونانية . ٢٩٠٤ ، دير الاحمر ، دون تاريخ .
صيفة الختام .	لصحته وصحة أولاده .	خايي .	الى الاله الغداري	٢٩٠٨ ، دير الاحمر ، دون تاريخ .
صيفة الختام .	تركيب العائلة .	اسم الذي اهدى أو قدم	الصيغة التمهيدية .	رقم النقش حسب JM1,7
أقامه على نفقته الخاصة .	تنفيذاً للرعية والدتهم	كيرتون بن ديودور	الى زفس إله بيت مرعي .	٢٩٨٩ ، باب مرعي ، ١٢١ - ١٢٢ . باللغة اليونانية .
		الاخرة غاي وغرميل بيتي	الى القيصرة بزنون	٢٩٦٤ ، جيميتا ،

صيغة الختام	ترتيب العائلة	اسم الذي أهدي أو قدم	الصيغة التمهيدية	رقم النسخ حسب MIV المصدرة وتاريخه
	بيتيلي لورتي لصحته وصحة زوجته وأولاده وأخوته .		لصحة الامبراطور فيهر تيطوس إلى اندريان انتونين اغسطس بيا اب الوطن . وصحة أولاده	عهد انتونين بيا ٢٩٠٢ ، رأس بعلبك دون تاريخ . باللغة اليونانية

اذن نحن أمام حالة إما أن يكون فيها الورثة هم من الموالين لصاحب الوصية ، وهنا تبدى لنا علاقات الباترونات ، أو أنهم أصدقاء وأولادهم أو ماشابه . وتشغل النقوش الخاصة الموجهة من اشخاص لآخرين مكانة خاصة وسوف نعرضها أدناه .

نعرف من هذه النقوش أن موجهيها أشخاص يشغلون مكانة رفيعة في مجتمع بعلبك وغالباً أولئك الذين قفزوا قفزات هائلة في سلم المراتب الاجتماعية ووصلوا إلى فئة الفرسان وحازوا على كل ما يترتب على ذلك من أوسمة ومكافآت . ويقابلهم آخرون ممن يشغلون مكانة اجتماعية أدنى : في إحدى الحالات - عبد محرر وفي حالة أخرى ابن العبد المحرر . أعلى مرتبة اجتماعية بين كل مقيمي هذه النقوش كان يشغلها مارك الفي اليمبيك - محارب قديم ، وكذلك مارك يوليوس ماتسير - عضو جماعة اغسطس .

نقول : أننا لانعرف ما دفع هؤلاء الناس لاقامة هذه النقوش إلا أن الصيغة المألوفة obmerita التي نصادفها هنا مرتين يمكن أن تعني ليس فقط الخدمات الاجتماعية وإنما تعني أيضاً أعمال الخير والحماية وغير ذلك من الخدمات الخاصة . ولكن على أية حال تدل هذه النقوش على وجود علاقات اجتماعية في بعلبك قريبة من الباترونات مع أنها قد لا تكون مطابقة لها . .

وهكذا تسمح لنا هذه النقوش أن نلقي ضوءاً على تلك الفئة الاجتماعية العليا التي تكونت في بعلبك . فقد خدم هؤلاء سنين طويلة في الجيش وحققوا فيه نجاحات باهرة أهلتههم لاكتساب مكانة اجتماعية مرموقة في الامبراطورية الرومانية حيث شاركوا في أعظم الحملات التي شنتها روما في هذه المرحلة . ثم أصبحوا فيما بعد الفئة الحاكمة في المقاطعات الرومانية .

الواقع أنه ليس لدينا ما يكفي من الوثائق لمعرفة الحالة المادية لهذه المجموعة . لقد لفت غ . يولي نيكانور البعلبكي أنظار العالم القديم كله تقريباً ذلك أنه اشترى جزيرة سالامين التي باعها أثينا بعد أن حطمها سولا Sulla ثم أعادها لها فيما بعد . كما أوصى ل . انطوني سيلون ورثته بتقديم ٨٠ جنيهاً أي ٢٦ كغ من الفضة .

إن ما يثير فضولنا في هذه النقوش أن الاشخاص المحوريين فيها بعد أن تقاعدوا لم يساهموا رسمياً في إدارة المستعمرات فلا مكان لهم في المجلس أو غيره من المؤسسات الادارية . ونحن نعتقد أن هذه الظاهرة لم تأت مصادفة بل هي رغبة واعية ومقصودة

هدفها عدم الارتباط بالسلطات المحلية . ولكن تأثيرهم على سير أعمال الإدارة كان واضحاً إذ أنه كانت لهم علاقات واسعة جداً مع السلطات الامبراطورية كما أن سمعتهم كمحاربين قدماء وضباط قادة كان لها فعلها هي أيضاً . ومن الطبيعي أن امكانياتهم لحماية من هم ادنى منهم في سلم المراتب الاجتماعية كانت كبيرة جداً .

ويدل ظهور أشخاص في أوساط ارستقراطية بعلبك لا يرسلون مصيرهم بجهاز السلطة المحلية ، على بداية تشكل فئة اجتماعية بدأت تفقد اهتمامها تدريجياً في ادارة المدينة وسيادتها .

ولكننا نصادف أيضاً فئة أخرى تهتم بجهاز الإدارة المحلي بل وتعمل على التغلغل فيه . ونشير في هذا السياق إلى مارك انطوني ليسيانيا ومينا باتيت اوريان (منتصف القرن الثاني م .) . لقد كان هذا كاهن جوبيتر البعلبكي ثم انتقل في عهد اديان إلى فئة الفرسان وكان ديكوريون (قائد عشرة) ثم تدرج وحصل على مراتب اخرى اعلى بكثير وحصل على وسام الاستحقاق لقادة العشرة .

بالاضافة الى ذلك تشير النقوش الى قادة العشرة وقرارات النخبة . ويلفت انتباهنا في هذا السياق نصان . الأول من بعلبك وهو مؤرخ في الفترة ما بين أعوام ٢٣٨ - ٢٤٤ . ويقول أن قائد العشرة ل . يوليوس سيفير يقدم الى جوبيتر البعلبكي «شمعداناً» . بمناسبة حصوله على مرتبة قائد عشرة (statuam luciferam decurionatus sui) وعلى ما يبدو أن الكلام يجري هنا عن اتفاق summa honoraria أو جزء ما منها . والنص الثاني وصلنا من نيجا وهو يسمي ناركيس بن كاريوس عضواً في مجلس مستعمرة بعلبك . وهذا الأخير من عائلة ارستقراطية - كما يرى وبحق ج . ب . ري - كوكي - وحصل على مرتبة قائد عشرة والامتيازات المترتبة عنها . ونحن نعتقد أننا أمام عملية على درجة كبيرة من الاهمية - امتزاج الارستقراطية الهلنستية المحلية مع ارستقراطية المستعمرات في فئة اجتماعية واحدة . ولكن المعلومات المتوفرة لدينا لا تسمح لنا بدراسة هذه الظاهرة دراسة اعمق .

لا تزال معلوماتنا عن الأحرار العاديين من سكان بعلبك محدودة جداً . إذ أن غالبية النقوش لا تشير فقط الى نشاط الأشخاص الذين تأتي على ذكرهم ولا الى وضعهم المادي أو المراكز التي شغلوها أو يشغلونها . ومع كل هذا فهناك بعض الاستثناءات التي تعطينا امكانية رسم صورة ما عن احدي الشخصيات التي يبدو للوهلة الاولى أنها لا تتميز عن غيرها من الشخصيات العادية في المدينة . فالمسمى تيطوس فيولي كورنوت بي مستأجر لمساحة ما من

رقم النسخ حسب ١٣١١ م ، مصطلحه وتاريخه	الاسم	اسم المهدي اليه ووضعه الاجتماعي	من اهلى ووضعه الاجتماعي	سبب اقامة النسخ
٢٧٩٨ ، بعلبك ، نهاية القرن الاول الميلادي		... الذي قلده الامبراطور في حرب كوموجين اكيللا من ذهب والبس بامر منه زي العرض الأبيض ، وقد وسام الفيلق العالي الثالث ووسام الاستحقاق ببناء على قراة العشرة .	شارك انطوني جينون . عبد خابلون المحرر	لقاء خدامته .
٢٧٨١ ، بعلبك ، النصف الثاني من القرن الاول الميلادي .	لوتسي انتوني نازون بن شارك الفاني .	الى قائد العشرة من الفيلق الثالث ، وقائد العشرة من الفيلق الثالث عشر غيمين الذي كرم في العرض بالباسه الزري الأبيض بقرار الامبراطور ، مدينة كولا فيان	أفريلي	

رسم النقش حسب JM1 ، مملو وتاريخه	الاسم	اسم المهدى اليه ووضعه الاجتماعي	من اهدى وما وضعه الاجتماعي	سبب اقامة النقش
٢٧٩٤ ، بعلبك ، القرن الثاني الميلادي .	بولي ستاتي يورست ستيان بن غاي .	الى رئيس الحرفيين ، خسطين الفيلق الثاني ترويان القسوي قائد الرتل .	مارك يوهي ماستير بن بولي . سيفر .	لقاء خدماته
٢٧٩٢ ، بعلبك ، دون تاريخ .	تيرزيفي كلافيدي سوسيان سيفيريان بن كونت	الى كاهن جويتر البعلبي الافضل والا عظم .	كونت يفي بن اياخانا	

الأرض (الوثيقة وصلتنا من بعلبك ومؤرخه عام ١١٧ / ١١٨ م) رأى أنه من الضروري أن يسجل تسلسله العائلي حتى الجدد الرابع : تيطوس ، ابن الحفيد مارك ويبدو أن هدفه من ذلك كان اثبات أصله الروماني . ثم انصاف في النقوش حرفيين ، على الأرجح ممن يملكون ورشاً . حيث تقول احدى الوثائق من بعلبك أن من أقام النصب هو غاي تيطوس كارمي الذي يمتن صنع أنابيب المياه من الرصاص . أمام هذا النصب للشمس والقمر ويشغل مكاناً آخر ليقوم نصباً ثالثاً للنصر موشى بالذهب . كما تذكر الوثائق النحات يوليان بن يوليان الذي أهدي أحد أعماله للإله ايرسيم . وأخيراً تشير الوثائق الى مكان تملكه مجموعة من الاطباء .

ونحن نعتقد أن المخاربين القدماء (الجنود والرتب الصغيرة) هم وخلفاؤهم الذين شكلوا جماهير الاحرار في مستعمرة بعلبك وكذلك صغار الفلاحين والفلاحون متوسطي الملكية ومستأجري الأرض وأيضاً الحرفيون مالكو الورش ونعتقد أيضاً أن السكان الأصليين لعبوا دوراً ما ولكننا مجبرون على ترك هذه المسألة مفتوحة .

المواطنون الرومان في المدن السورية نفسها

سوف نترك جانباً مسألة الرومان الأصليين - لشح الوثائق السورية التي تتحدث عنهم - الذين لا يدخلون في قوام الجماعات المدنية المحلية والذين شكلوا تجمعاتهم الخاصة ونلتفت لدراسة أوضاع فئة أخرى - أولئك الذين حصلوا على حقوق المواطنة الرومانية وبدأوا يتوافدون الى سورية منذ القرن الاول الميلادي .

تفيدنا الوثيقة الشهيرة MI,II,718 من روسوس (نهاية الثلاثينات ما قبل الميلاد) أنه بموجب القانون الذي أصدره موتاسي وإميل حصل أحد محاربي اكتافيان القدامى على حقوق المواطنة الرومانية وهو قبطان سفينة - سلوقس بن قيودوت . فأعطيت هذه الحقوق لسلوقس نفسه ولأهله وأولاده وزوجته (إذا لم تكن مطلقة) . بالإضافة الى ذلك منح هؤلاء حق الاعفاء

من دفع الضرائب ، وهذا يتوافق والحال القانونية الطبيعية للمواطنين الرومان كما تم اعفاؤهم من كافة الالتزامات المحلية للمدينة ومن الالتزامات العسكرية أيضاً . كما أعفي سلوكس وأفراد عائلته من كافة الضرائب المترتبة على عمليات ادخال واخراج البضائع من وإلى أية مدينة من مدن آسية وأوروبا . وأخيراً منح حق المشاركة في الاجتماع الشعبي . وتجدر الإشارة إلى أن الأشخاص الذين حصلوا على المواطنة الرومانية يستطيعون إقامة الدعاوى القانونية إما في وطنهم حيث يقيمون مسترشدين بالقوانين النافذة في نفس المدينة أو في أية مدينة أخرى تتمتع بالاستقلال الذاتي . وفي نفس الوقت أية دعوى ترفع ضدهم كان يجب أن توجه عبر السفارة إلى سينات روما أو عبر رئيس مجلس المدينة أو نائبه . وتترتب على مخالفة هذه القاعدة غرامة تبلغ مليون سيستيرتسي (عملة فضية) . وهكذا أصبح أولئك الذين يحصلون على حق المواطنة الرومانية ، عملياً خارج سلطة أجهزة السلطة المحلية مع احتفاظهم بمواظنتهم الأصلية .

ومن المعروف أن أغسطس حاول الحد من الامتيازات والحصانات التي حصل عليها المحاربون القدماء . فقد وصل إلينا نقش مؤرخ في القرن ٦/٧ ق . م ويحتوي على شرح مفاده أن أولئك الذين حصلوا على حق المواطنة الرومانية لا يعفون من الالتزامات والاتاوات المحلية ويكون مثلهم كمثل بقية السكان ويستثنى من هذا الوضع أولئك الذين ، حسب القانون ، أو بقرار من السينات أو بقرار من يوليوس قيصر أو أغسطس نفسه حصلوا على حق المواطنة وحق الاعفاء . وحتى في هذه الحالة لم يشمل الاعفاء سوى تلك الالتزامات والاتاوات التي نص عليها قرار الاعفاء . لقد وجه هذا القرار إلى كيرنية ولكنه يعكس ، دون شك ، الاتجاه العام لسياسة أغسطس والتي كان يجب أن تترك آثارها على الأشخاص الذين حصلوا على حق المواطنة الرومانية في سورية أيضاً .

ولكن الحال ما لبثت أن تغيرت في ظل الدومينات الذي أعفى المحاربين القدماء ووالديهم وأبناءهم وزوجاتهم من كافة أشكال الضرائب والاتاوات . وتشير الدبلومات العسكرية ، بما فيها تلك التي تذكر أشخاصاً سوريين إلى منح حق المواطنة الرومانية وراثياً فقط .

يتضح مما سبق أن العسكريين من أصل سوري كانوا يؤدون خدمتهم في كافة أصقاع الامبراطورية الرومانية : في بريطانيا ، ميزيا ونوميديا ، كما تشير الوثائق إلى مجموعة كبيرة من السوريين الذي كانوا يؤدون خدمتهم العسكرية في القطعات الرومانية العسكرية في ليبيا (سوف ندرس هذه النصوص لاحقاً) : لونجين ، ديونيسودوربن انطوخ ، فاليري

بن - - - دور ، وهناك شخص آخر لم يحفظ اسمه ، الافامي قائد العشرة ماغيون بن ارتيميدور ، الافامي الآخر - قائد العشرة لونجين ، الانطاكي - بن غيرموغين الذي لم يصلنا اسمه . كما وحفظت لنا الدبلومات العسكرية أسماء السوريين : ماتاي بن بولاي والتدمري م . اتسيلي اليكساندر الذي قاد في عام ١٣٤ الكتيبة الكلاندية الاولى التي عسكرت في داكيا ، كما وتذكر لنا هذه الدبلومات مارك بن دامة من جرش (وقد أرخ هذا الدبلوم عام ٧١ م . ومصدره افاميا) . ويشير الدبلوم العسكري الذي وجد في عام ١٩٥٤ في فولوييلوس الى الكتيبة الاولى لقاذفي السهام والمؤلفة من المواطنين الرومان . وفي عام ١٩٦٧ اصدر خ . غ . بغلاوم دبلوماً عسكرياً جديداً وجد في سورية ويعود تاريخه لعام ١٠٥ م . تقول هذه الوثيقة أن مارك ستيدي كوربولون بن مارك من غييون قد حصل على حقوق المواطنة الرومانية و conubim مع خروجه المشرف على التقاعد . ومن بين القطع العسكرية العاملة في هذه المرحلة في مصر تذكر الوثائق كتيبتي المشاة الثانية والثالثة .

لقد وصلت الينا النقوش التالية التي تتحدث عن المواطنين الرومان (المحاربين القدماء أو أولئك الذين حصلوا على حق المواطنة الرومانية بطريقة ما أو أخرى) الذين استوطنوا مختلف المناطق السورية :

قائد عشرة في الفيلق الكيرناسي الثالث .	غ . دوميتسي اليكساندر .	مادبا .	١٣٨٠ GRR, III
قائد عشرة .	فلافي ابني .	بصري .	١٣٢٧ GRR, III
مرتبه غير معروفة .	سايين اقربلي .	بصري القرن الثاني م .	١٣٢٥ GRR, III
مرتبه غير معروفة .	يوليس مارتسيان .	بصري .	١٣٢١ GRR, III
رئيس --	كلافدي اندروماخ .	بصري .	IGRR, III ١٣٣٣ .
قائد عشرة في الفيلق الكيرناسي الثالث . من المحاربين القدماء يكرمان سويه مع السكان المحليين .	ايلي فيتالي ماغن ومالج . فالييتين .	بصري . آفا ، عام ٢٩٥ / ٢٩٤ ق . م .	١٨٠ ، coyvais - Rey ١٣١٣ ، IGRR, III
عارب قديم ، زوجته أفريليا انطونيا أقامت على نفقة الأزواج والاولاد نصيباً مقدساً ، تبرعت بأربعين ألف .	فلافي مكسيم .	القرن خيمسة ، الثالث ؟	١٣١٠ ، IGRR, III

من المحاربين القدماء .	باسوس بن فيكتور .	أيون .	١٣٠٤ ، IGRR,III
من المحاربين القدماء .	تافرين بن صيونان .	ساخونة الخضر .	١٣٠١ ، IGRR,III
مرتبة غير معروفة .	ماغن باسوس .	اذرع . عام ٢٦١ - ٢٦٢ م .	١٢٨٦ ، IGRR,III
محارب الفيلق الكبير ناسي الثالث عضو مجلس المدينة .	ستورزين بن يفتومة .	المزيريب .	١١٦٧ ، IGRR,III
من المحاربين القدماء .	مالح غاي يوليرس .	صور .	١١٠٤ ، IGRR,III
شاهدة قبر . على الأرجح أقامها له عبيدة .	امفيون .	صيدا .	٦٠٠ ، SEG,XVIII
معلم فلسفة مأجور . يكرم كمواطن ويقام له نصب من البرونز .	افريلي فيل	جيل القرن الثاني م .	١٩١ ، SEG,XVIII
حائز على عدة بطولات في الألعاب الرياضية ، مواطن انطاكية والاسكندرية	تيري كلافي باتروني . أصله من انطاكية .	حوالي عام ٦٠ م .	٦١٣ ، SEG,XIV

<p>معلم فلسفة ماجور ، يكرم كمواطن من مواطني المدينة .</p> <p>رئيس مجموعة الثلاثين .</p> <p>قائد عشرة في الفيلق السكيني الرابع ، مواطن ارواد ، يكرمه «المجلس والشعب» .</p> <p>من المحاربين القدماء .</p> <p>ممثل ، مواطن مدينة افاميا ، يكرم بقرار من «المجلس والشعب» .</p> <p>«من المحاربين» ، اصبح ولده سينتورا .</p> <p>قائد عشرة في الفيلق الرابع .</p>	<p>مارك ايلي مكسيم .</p> <p>لوكي غاي سولن .</p> <p>م . سيتيم ماغن بن مارك .</p> <p>غاي يولوس بن ميتادر .</p> <p>لوتسي انطوني .</p> <p>فلاني اوليان .</p> <p>بولي ايلي كريسب .</p> <p>ليسيني ساينيان .</p> <p>كاسيرس بريسك .</p>	<p>انطاكية .</p> <p>دير القلح .</p> <p>ارواد .</p> <p>بعليك عام ٢٨ م .</p> <p>حصن عام ١٢٨ م .</p> <p>دمشق .</p> <p>افاميا .</p> <p>افاميا .</p> <p>سلوقية .</p>	<p>. ١٩٢ ، SEG,XVIII</p> <p>. ١٠٨٠ ، IGRR,III</p> <p>. ١٠١٧ ، IGRR,III</p> <p>. ١٠٧٣ ، IGRR,III</p> <p>. ١٠٢٤ ، IGRR,III</p> <p>. ١٠٩١ ، IGRR,III</p> <p>. ٥٢٩ ، SEG,I</p> <p>. ١٣١٥ ، JMI,IV</p> <p>. ١٠٠٥ ، IGRR,III</p>
--	---	---	--

حرفيون .	غسيري انطوني - دوميتسيان غاي .	١٢٤ عام ، ٢ .	١٠٠٩ ، IGRR,III
احد قادة المدينة .	اولي سكافيربان .	كفرلاها ، عام ٢٣٦ ٢ .	١٢١٣ ، IGRR,III
من المحاربين القدماء .	اغريبي آني بن ديوييد .	نيلا .	١٢٦٦ ، IGRR,III
من المحاربين القدماء من فرسان الفيلق الرابع .	فاليري مارك .	افيقا .	١١١٠ ، IGRR,III
قائد عشرة في الفيلق العالي الثالث .	اغريبي كفيرنالي .	فينة القرن الثاني م .	١١١٤ ، IGRR,III
من المحاربين القدماء في الفيلق الكيرناسي الثالث .	اغريبي مايور .	الكسيفة .	١١٣٥ IGRR,III
محارب في الفيلق العالي الثالث .	يرليوس مكسيم .	للحاة .	١١٤٨ IGRR,III
محارب .	غ فاليري مكسيم .	تل إشتهاب .	١١٦٨ ، IGRR,III
من المحاربين القدماء .	يرليوس فالنت .	جدودة .	١١٧٠ ، IGRR,III

من المحاربين القدماء في الفيلق الكيرنابي الثالث .	بوليوس غيرمان .	نجران .	١١٧٣ ، IGR,III
بنى توبة على نفقته الخاصة .	ت . افريلي كفيرشالي .	ابريشة ، عام ١٦٩٢ .	١١٧٩ ، IGR,III
محارب قديم . يساهم في بناء المكان المقدس .	اولي كاسيان .	ام الزيتون .	١١٨٧ IGR,III
من المحاربين القدماء .	سيلفان .	عمرة .	١١١٨ IGR,III
	ابلي يوليان .	السودا .	١٢٨١ ، IGR,III
محارب في الفيلق الكيرنابي الثالث ، اهدى ثلاث قناطر .	٢ . كركسي غيرمان .	السودا .	١٢٨٢ IGR,III
قائد عشرة .	تيميري كلاغدي ناتاريل .	قناطة .	١٢٣١ ، IGR,III
من المحاربين القدماء .	غ . بوليوس مكسيم .	خبران .	108, CIL,III
من المحاربين القدماء .	سيفير بن سليمة .	عومان .	١٣٠٩ ، IGR,III

<p>قائد عشرة في الفيلق السكيني الرابع .</p> <p>من المحاربين القدماء .</p> <p>من المحاربين القدماء وأصبح رئيس مجلس المدينة .</p> <p>من المحاربين القدماء في الفيلق الاغسطي الثامن .</p> <p>اقام مذبحاً للاله زفس على نفقته الخاصة .</p> <p>من المحاربين القدماء .</p> <p>يذكر النقش المحاربين القدماء - المطارنة .</p> <p>من المحاربين القدماء .</p> <p>من المحاربين القدماء .</p>	<p>بوليان .</p> <p>فلافي اليكساند .</p> <p>فيليب .</p> <p>ت . فلافي بوليان .</p> <p>اميلي ريفين بن المحارب اولبي ريفيلا واميلي بطليموس .</p> <p>غ . فلافي غلافيو .</p> <p>سينير مكسيم .</p> <p>الاسم غير معروف .</p> <p>بوليرس مكسيم .</p> <p>افريلي ساين .</p>	<p>رامه خازم .</p> <p>راضيم .</p> <p>دوما .</p> <p>برية نهاية القرن الثاني م .</p> <p>حاطورا عام ١٩٥ م .</p> <p>عيلات عام ١٤٥ م .</p> <p>صحني .</p> <p>صالحة .</p> <p>مردوخة .</p> <p>مجدلة .</p>	<p>١٢٤٢ ، IGRR,III</p> <p>١٢٤٦ ، IGRR,III</p> <p>١٢٤٩ ، IGRR,III</p> <p>٤٥٥ ، JM,II</p> <p>١٠٠٨ ، IGRR,III</p> <p>١٠٦١ ، IGRR,III</p> <p>١٢٧١ ، IGRR,III</p> <p>١٣١٦ ، IGRR,III</p> <p>١٢١٨ ، IGRR,III</p> <p>١٢١٦ ، IGRR,III</p>
---	---	---	---

بناء على ما تقدم نستطيع أن نؤكد أن استيطان المحاربين القدماء الرومان في سورية قد حدث في الفترة من القرن الأول وحتى الثالث الميلادي ضمناً . وكان بينهم جنود كانوا قد أدوا خدمتهم كمقاتلين في قطعات الجيش الروماني المتواجدة في سورية . حيث أقام هؤلاء هنا فترة زمنية طويلة وانقطعت علاقاتهم مع أوطانهم الأصلية وبنوا علاقات أخرى جديدة في أماكن تواجدهم فاستقروا هنا وانخرطوا في الجماعات المدنية . أما الفئة الثانية من المحاربين القدماء فقد تكونت من المحاربين المحليين الذين أدوا خدمتهم العسكرية في أماكن بعيدة عن مسقط رأسهم . ولكنهم عادوا بعد أن سرحوا إلى موطنهم الأصلي وانضموا إلى الوضع التقليدي لعائلاتهم المتواجدة في مجتمع المحاربين القدماء، والحاصلون على حق المواطنة الرومانية أكثرته الساقية . ونحن لانشك في أنه جرى الحصول على المواطنة الرومانية بطرق أخرى (مثلاً ، شغل مناصب عالية في المدن) ولكن لا تتوفر لدينا وثائق من سورية بهذا الشأن . وكان المواطنون الرومان الجدد يتخذون لأنفسهم أسماء الأباطرة المتواجدين أثناءها في السلطة ، أي أن هذا المواطن الجديد أصبح تابعاً للبيت الامبراطوري وأمن لنفسه دعم ومساعدة السلطات في مختلف مجالات النشاط الاقتصادي والاجتماعي . ومن الطبيعي أن هذا المواطن الجديد عندما ينفذ واجباته كتابع فعلياً أن يقدم كل الدعم للسلطات الرومانية أي أن هذه السياسة قد خلقت مركزاً اجتماعياً للامبراطورية في المستعمرة .

بالإضافة إلى ذلك كان هؤلاء المواطنون الجدد يحصلون بانتقالهم من أوساط المحكومين إلى أوساط الحاكمين على مخرج - في حال توفر الامكانيات المادية اللازمة - إلى جهاز إدارة المستعمرة وتفتح أمامهم وأمام خلفائهم الطريق واسعة للوصول إلى فئة الفرسان وحتى إلى فئة السيناتورية وبالتالي إلى المستويات الرفيعة في الامبراطورية .

بين يدينا معطيات هامة تحكي عن سلوك بعض المواطنين الرومان من أصل سوري سلم الرقي الاجتماعي وتؤكد هذه الأمثلة على أن الامكانيات التي تحدثنا عنها كانت تتحول إلى واقع فعلي .

من أوائل السوريين اللامعين - من وجهة نظر المواطن الروماني في القرن ١ - ٣ م . - والمعروفين لنا المدعول . اميلي يونك . يقول النقش أنه كان من المواطنين الخيرين للمدينة الفينيقية تريبوليس (طرابلس) . وتعتقد أكثرية الباحثين

أن يونك هذا ولد ونشأ في هذه المدينة . وفي عام ١٢٥ عين ليغاتاً (ليغات ، لدى الرومان - سفير ، يؤدي مهمة سياسية - المترجم) لمقاطعة آخاي . وفي عام ١٢٧ م . أصبح سوية مع سيكست يوليوس سيفير coksul suftus . ومن المحتمل أنه كان نائب قنصل في آسيا أيضاً . لقد لعب خلفاء هذا الرجل من بعده دوراً هاماً في حياة روما . فالمدعو اميلي يونك شغل منصب concul suffectus في عام ١٨٢ سوية مع ايتيلي سيفير . . .

وليس أقل متعة تتبع مصير آل افديف من قرّة . وأول رجل معروف لنا من هذه العائلة هو - معلم فن الخطابة غ . افيدي غيلودور . لقد كان هذا stulis ab epi في جهاز اديان من عام ١٢٠ م وحتى عام ١٢٢ م . وأصبح في عهد انتونين بيا من ١٣٨ وحتى ١٥٠ بريغيكتا (منصب اداري قضائي وعسكري في العصر الروماني - المترجم) . أما ولده غ افيدي كاسيوس فقد كان في الفترة الواقعة بين ١٦١ - ١٦٨ م . coonsul suffectus - سوية مع تسيلس بلانتسيان . وعندما أصبح قائد الفيلق الغالي الثالث شارك في الحرب ضد البارفيين في تحطيم فزلاوغز . ثم أصبح ليغاتاً على سورية من عام ١٦٨ م (؟) حتى ١٧٥ م . في عام ١٧٥ حاول انتزاع العرش الامبراطوري ولكنه فشل وقتل .

ولدينا مثال آخر في التدمري ل . يولي يوليان الذي أصبح أجداده ، على ما يبدو ، مواطنين رومان منذ النصف الاول من القرن الاول الميلادي . في عهد كومود شغل يوليان منصب بريغيكت . وفي نهاية حياته شغل دوميتسي اولبيان هذا المنصب - وديميتري اولبيان هذا اشهر محام روماني على الإطلاق ، ولد في صور .

وأخيراً نشير إلى حياة رجل آخر من هؤلاء الرجال اللامعين - إنه الانطاكي تيبيري كلافدي بومبيان . لقد حصل أجداده من جهة أبيه على المواطنة الرومانية في النصف الأول من القرن الأول الميلادي بينما حصل عليها أجداده من جهة أمه منذ القرن الأول قبل الميلاد . لقد كان والده ينتمي الى فئة الفرسان أما هو فقد أصبح سناتوراً . وفي عام ١٦٧ م . أصبح ليغات بانونيا السفلى وفي عام ١٦٩ م تزوج من ابنة مارك افريلي - لوتسيلا اغسطة ، أرملة لوتسيا فيرا . في عام ١٣٧ م كان يقوم مع كلافدي سيفير بمهام قنصل . وفي عهد جابير تيناكس ، الذي اقترح عليه مشاركته السلطة الامبراطورية ، وصل الى قاعة السينات عضواً كامل الحقوق .

نعتقد أنه من المهم أن نشير الى أن ترويان كان قد طلب أن يوظف السيناتور - من المقاطعة ثلث ثروته في ملكية الارض في ايطاليا نفسها ولكن مارك افريلي خفض هذه الحصة الى الربع . وبهذا يصبح هؤلاء جزءاً لايتجزأ من الارستقراطية الايطالية نفسها .

وإذا أردنا أن نبحث عن تفسير لظهور السوريين في سينات روما فإننا نقع عليه في اطار السياسة العامة للأباطرة تجاه المقاطعات ، وخاصة الشرقية - في سعي السلطات الرومانية لكسب الارستقراطية المحلية الى جانبها . ولقد بدأ التطبيق العملي لهذه السياسة منذ عهد اغسطس .

لقد أصبح واضحاً الآن أن الوضع الاجتماعي للأشخاص الذين حملوا أسماء رومانية لم يكن واحداً . فممن الحر في ومنهم الأغنياء وأصحاب الثروة الذين استطاعوا تقديم هدايا ثمينة وتقديمات كبيرة (وصلت حتى عشرة آلاف دينار) . ومنهم رؤساء مجالس المدن ، ومن حمل لقب «محسن» المدينة . بكلمات أخرى ما نراه هو تغلغل المواطنين الرومان إلى صفوف الارستقراطية المحلية . وفي بعض الحالات يجري التأكيد على أن المحارب القديم هو في نفس الوقت مواظن من مواطني المدينة . وهذا التأكيد لم يأت مصادفة : فهو يؤكد أن المحارب القديم الذي حصل على حق المواطنة الرومانية واستوطن المدن السورية لم يفقد مواظنيته الاصلية .

ولكن الأمر الذي لا زال في دائرة الغموض هو هل كان سحب المواطنين الرومان ، أي الذي حصلوا على المواطنة الرومانية ، من تحت سلطة الاجهزة المحلية - هل كان امتيازاً خاصاً يهدى بموجب قرار خاص تصدره السلطات الرومانية ، كما كان الأمر مع سلوقس بن فيودوت أم كان نتيجة طبيعية للحصول على المواطنة . ولكن الالتزامات التالية تلفت النظر : ليس هناك أي بند خاص بهذا الشأن في «الدبلومات العسكرية» الشهيرة ، وفي التفسير الذي أعطاه اغسطس حول عدم اعفاء المحاربين القدماء من ضريبة الملكية لاجود للمادة الصريحة بهذا الشأن أيضاً . ولكن وجود فقرة خاصة في حادثة سلوقس إنما يدعم الاحتمال الاول . ولكننا نعتقد أنه في الحالات العادية لم تظهر هناك مسألة محاكمة المواطن «موجب شكوى» ولذلك لم يكن هناك أي خلاف بينه وبين الادارة الرومانية أو المحلية . ومن هنا نستنتج أن محاكمة المواطن الروماني هي مهمة

السلطات الرومانية وحدها فقط وهذا لم يكن بحاجة لأي تأكيد . وهذا هو واقع الحال فعلاً فلو أن السلطات الرومانية وضعت سيادة مواطنيها تحت تصرف السلطات المحلية للمقاطعات لفقدت المواطنة أهليتها الحكومية الفريدة .

وهذا يخلق في نفس الوقت فئة من الناس في المدينة لها تأثيرها المتنامي في المجتمع ومستقلة ، إلى حد بعيد ، عن السلطات المحلية ، ولها علاقاتها وصلاتها المباشرة مع السلطة الامبراطورية والباب مفتوح أمامها للوصول الى صفوف الفئات العليا في الامبراطورية ذلك أنها سندها المباشر في المدن . أما نتائج هذه العمليات فقد لخصها مرسوم كركلا .

من المعروف مرسوم كركلا أعطى حق المواطنة الرومانية لكل سكان الامبراطورية . أما الأهداف التي سعى الامبراطور لتحقيقها من وراء اصدار هذا المرسوم فليست واضحة تماماً . يقول الاتجاه المعادي للامبراطور أن هدفه الاساسي (وهذا ممكن) كان توسيع دائرة دافعي الضرائب وبالتالي زيادة دخل الخزينة الامبراطورية .

ولكن أية كانت أهداف كركلا فإن أهمية مرسومه تجاوزت كثيراً حدود السياسة المالية الصرفة . فتأسيساً على الوثائق التي وصلتنا من مختلف المناطق والمدن السورية لابد وأن نوافق الباحثين الذين رأوا أهمية مرسوم كركلا في أنه توج عملية تحويل كل الأراضي التابعة للامبراطورية الى *orbis romans* ، كما وجعل كل قاطنيها مواطنين رومان ، بعد أن كانوا تابعين للسلطة الامبراطورية وبذلك تكون القاعدة الاجتماعية للسلطة الامبراطورية الرومانية قد توسعت إلى أقصى حد ممكن .

هل ألغى هذا المرسوم المواطنة الأصلية - المحلية ؟ نحن لانعرف . فالوثائق لم تعطينا أية اشارات بهذا الخصوص . ولكن استمرار وجود البناء البولييسي حتى عام ٢١٢ م يجعلنا نتوقع أن المواطنة المحلية لم تلغ .

بالغائه للتناقض القائم بين الرومان وسكان المقاطعات جعل مرسوم كركلا كل سكان الامبراطورية كتلة واحدة تابعة للامبراطور الأمر الذي دفع التناقضات الاجتماعية إلى الواجهة - التناقضات بين *honestiores* و *humiliores* . لقد أعد هذا المرسوم التربة الملائمة لظهور نظام الدومينات .

وهكذا نستطيع أن نقول الآن أن نظام التبعية الشخصية - عبيداً وأحراراً هو الذي طبع بميئته البنية الاجتماعية للمجتمع السوري في المرحلة الواقعة ما بين القرنين الأول

والثالث للميلاد (بما في ذلك «العبيد المؤقتين» في دورا - يوروبوس) . أما السكان الأحرار فقد انقسموا من حيث الشخصية المدنية إلى : تابعين للامبراطور ، المواطنين الرومان والناس التابعين لسلطة البوليسات . وهؤلاء الآخرون انقسموا بدورهم الى أحرار ونصف أحرار .

أما التركيب الطبقي للمجتمع السوري في هذه المرحلة فقد كان على الشكل التالي : المستغلون (بفتح الغين) وهم المنتجون المباشرون المحرومون من ملكية وسائل الانتاج (العبيد والأحرار شكلياً والعمال المأجورون) ، صغار الملاك وأصحاب الملكيات المتوسطة الذين يشاركون مشاركة مباشرة في عملية الانتاج والذين يستغلون عمل الغير لتوفير الامكانيات اللازمة ، ثم كبار الملاك الذين لا يشاركون مباشرة في عملية الانتاج ويعيشون على حساب استغلال عمل الآخرين .

الفصل الخامس

المدينة السورية : الجماعة المدنية والبناء الإداري

سكان المدينة السورية

تتصف المعلومات التي وصلتنا عن عدد السكان الأحرار في المدن السورية بالتقطع والتبعثر . والواقع أن ما أورده يوستيان من معلومات عن الهزة الأرضية التي اجتاحت سورية في النصف الأول من القرن الأول م . يعطينا صورة عامة عن عدد سكان البلاد ككل . فقد أودت هذه الكارثة بحياة ١٧٠ ألف إنسان كما قضي على مدن بأكملها وعانت البلاد كلها من خراب كبير . ولكننا لا نعتقد أن هذا الرقم يطابق واقع الحال بالنسبة لعدد سكان البلاد في الفترة المذكورة فإذا قارنا هذا الرقم بالأرقام المعروفة لنا من مصادر أخرى لا تضح لنا أنه إذا ما كان رقم يوستيان صحيحاً فإن أي كلام عن خراب البلاد من الناحية السكانية يصبح مبالغاً فيه . والصورة الواقعية فعلاً هي التي يعطينا إياها الإحصاء الذي أمر بإجرائه كفيريني (أعوام ٦ - ٧ م .) لسكان أفاميا وحدها حيث بلغ عدد سكانها الأحرار آنشد ١١٧ ألف نسمة . وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذا الرقم لا يشمل العبيد ولا غير المواطنين (أي الأحرار الذين لا يتمتعون بحقوق المواطنة) فإن عدد سكان أفاميا كان - كما يعتقد - ٤٠٠ - ٥٠٠ ألف نسمة . ولكن كيومون لم يشر إلى المقاييس التي اعتمدها في تقدير هذا الرقم . وإذا ما قارنا هذا التقدير بمعطيات مصادر انطاكية يصبح لزاماً علينا أن نشك في تقدير كيومون هذا . فحسب 1 MAKK., 2,45 شارك في الإنتفاضة ضد ديميتري الأول ١٢٠ ألف نسمة .

إلى أي حد يتطابق هذا الرقم مع الواقع ؟ نحن لا نعرف . ولكننا نعتقد أنه لا يتناقض كثيراً مع واقع الحال الذي كان سائداً فعلاً في تلك الفترة (النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي) . ويورد يوحنا الذهبي الفم رقم ٢٠٠ ألف نسمة في نهاية القرن الأول الميلادي . أما الفرق، فيمكن أن نحسبه الزيادة الطبيعية لعدد السكان . ونعتقد أن ما يقترحه ج . حداد من أن يوحنا الذهبي الفم كان يقصد كل سكان المدينة الأحرار له أيضاً نصيبه من الصحة . ولقد حاول هذا الأخير التأكيد على أهمية وجدارة ووقار أغناطوس الأسقف السابق لهذه المدينة الضخمة بعدد سكانها . وفي مثل هذه الحال يجب أن يكون الأمر سياناً بالنسبة للكاتب أدخل

أولئك الذين لا يتمتعون بحقوق المواطنة في عداد السكان أم لا . ونحن نعتقد أن مصطلحات هذا المقطع تتناقض مع مثل هذا المفهوم . يقول يوحنا الذهبي الفم : de- mon eis eikosinek., teinomenon myriadas وكما تكرم غ . ل . كورباتوف وقال لنا بأن كلمة demos هي اصطلاح يعني لدى كل رجال الدين بما فيهم يوحنا الذهبي الفم الرعية كلها ومن هنا نستطيع القول أن المقصود هنا كل سكان انطاكية دون أي فرق وعلى الأرجح أن يوحنا الذهبي الفم استقى معلوماته من المصادر المحلية الرسمية . ولذلك تأسيساً على معطياته نعتقد أن عدد سكان انطاكية وكذلك أقامياً لم يتجاوز في القرن الأول الميلادي المئتي ألف نسمة . وعلى الأرجح أن هذا العدد الوسطي لسكان المدن السورية الكبرى .

الجماعة المدنية

تؤكد المعطيات المتوفرة لدينا أن المدن السورية بقيت حتى في القرن الأول الميلادي عبارة عن جماعات مغلقة من العسير جداً الدخول إليها . وتروي إحدى الوثائق التي وصلتنا من سلوقية بيريا (حزيران عام ١٨٦) عن حصول المدعو أرسطولوخ على حقوق المواطنة في المدينة (كان هذا ممن يحملون لقب «من الأصدقاء المفضلين» للملك سلوقس الرابع) . ومن الملفت للنظر هنا أن مجلس الشعب هو الذي اتخذ هذا القرار بناءً على طلب من الملك إلى مجلس المدينة عبر ممثله في هذا المجلس . فقبل اتخاذ مثل هذا القرار كان على الملك أن يطلب من ممثله تقديم اقتراح إلى مجلس المدينة . وكان منح حق المواطنة هذا عبارة عن مكافأة كرم بها أرسطولوخ لقاء خدماته - الحقيقية أو الكاذبة - للملك والمدينة وكذلك لقاء الصفات الحسنة التي يتمتع بها . وبما أن أمر الملك (أو طلب الملك الذي يعتبر أمراً) يتعلق هنا بشخص من الحاشية يتمتع بلقب مهم جداً لذلك نقرأ في مقدمة مرسوم منح حقوق المواطنة ما يلي : لقد قدم مجلس المدينة الاقتراح إلى مجلس الشعب ومجلس الشعب له اتخاذ القرار النهائي . ويبدو أن مثل هذا النظام بقي سائداً حتى في ظل الحكم الروماني إذ أنه ليست لدينا أية وثائق تثبت العكس . ويبدو أنه وضع خصيصاً ليطال الأشخاص الذين يتمتعون بوضع اجتماعي راق وبالتالي بثروة مادية محترمة .

ويشير كيومون إلى أنه لكي يحصل المرء على حق المواطنة في تارس ، التي كانت حتى عام ٧٣ م تحت لىغات سورية - كان عليه أن يدفع ٥٠٠ درهم لخزنة المدينة وتقول بعض الوثائق بهذا الشأن أنه حتى المولود في تارس لا يستطيع الحصول على حقوق المواطنة ما لم يدفع

هذا المبلغ حتى ولو كان أجداده من أصل تارس . وتنطبق هذه القيود على الفقراء وكذلك على أولئك الذين لم تدرج أسماؤهم في قوائم الإحصاء الدوري لعدد مواطني البوليس . ويبدو واضحاً كل الوضوح الطابع الطبقي لهذه البنود التي يبقى بموجبها قسم كبير من السكان «خارج الدولة» .

ومما يدل على مدى أهمية الانتساب إلى الجماعة المدنية أن واضعي اللوائح كانوا يرون أنه من الضروري الإشارة إلى أصل ومواطنة الشخص المعني . فالنقش التدمري المؤرخ عام ١٣٢ والمذكور سابقاً يأتي على ذكر المدعو عبيدوبن عناموبن سعد الله . عندما أصبح هذا الشخص فارساً في هيرت سماه النقش «نبطياً» أي أنه لم يتخل عن مواطنته السابقة ولم يحصل على المواطنة التدمرية مع وجوده في منطقة تابعة لتدمر . ونجد في نقش آخر مثالا مشابها لهذا . إذ يكرم النقش المدعو مارك يولي مكسيم أريستيد - وهو مواطن من بيروت ووالد لوكولا زوجة بيرتيناكس فهذا أيضاً لم يكتسب المواطنة التدمرية . وعندما كان التدمري يقيم نصبا في مكان ما بعيد عن تدمر كان يشير إلى أصله وموطنه .

في بداية القرن الثالث حاولت السلطات الرومانية الحد من الجماعة المدنية وذلك بمنع تغلغل أي شخص كان فيها دون موافقة أعضائها . ويعتبر النقش الذي وصلنا من فينة ذو دلالة خاصة في هذا المجال . فهو عبارة عن نسخة عن رسالة موجهة من ليغات سورية يوليوس ساتورنين إلى «ميتروكومية الفينيين» والتي كانت المركز الإداري للتراخونيتيين . ويندرج هنا أمر صريح صادر عن رئيس الإدارة الرومانية : «إذا ما سكنكم أحدا ما عنوة ، محاربا كان أم عاديا ، فسوف يعاقب بعد أن تحبروني» ونرى هنا أنه يمنع منعاً باتاً حتى الاستيطان العادي في الأراضي التابعة للجماعة دون إذن منها - حتى ولو كان المستوطن شخصاً يتمتع بحد ما من الامتيازات . كما ويشار في هذه الرسالة إلى أن سكان ميتروكومية غير ملزمين بأداء مساهمات جماعية لصالح الوافدين إليها ومنع إلزامهم بذلك فهم غير ملزمين باستضافتهم في بيوتهم طالما أنه يوجد في القرية نزل . ويبدو أن هذا القيد يدخل في إطار تنظيم تواجد عابري السبيل في أراضي الجماعة . ولانجد عناء في أن نرى في هذه السياسة ما يناقض سعي السلطات الرومانية للاعتماد على فئة المحاربين القدماء وخلق فئة مماثلة بين السكان . ولكن هذا التناقض ليس إلا تناقضاً ظاهرياً فقط . فإذا ما وافقت الميتروكومية على استيطان شخص ما فإن السلطات عندها لا تمنع ونحن لا نشك في أنه كانت تتوفر لدى السلطات الرومانية والأغنياء والمحاربين القدماء مختلف الوسائل التي تجعلهم يحصلون على الموافقة المطلوبة .

فنحن نعرف حالات كان فيها الشخص الواحد مواطناً لعدد من البوليسات . فقد أشرنا سابقاً إلى أشخاص من جبيل وإنطاكية ممن حصلوا على حق المواطنة في ديلفيا . ولكن هذين الشخصين كانا فيلسوفين وقد يكون حصوئها على مواطنة ديلفا بمثابة مكافأة لهما . ويشير أحد النقوش الرومانية المؤرخ عام ٦٠ م . إلى تيري كلافدي باتروبي - بطل عدد من المباريات الرياضية حيث منحه نيرون حق المواطنة الرومانية ، أصله من انطاكية وكان يحمل الجنسية الاسكندرانية . كما وصلتنا بعض الوثائق الأخرى (من اللاذقية مثلاً) تروي نفس الحوادث . ولكن يبدو أنه لا يجوز أن نستخلص من هذه الحوادث أية نتائج حول انتشار هذه الظاهرة في الفترة ما بين القرن الأول والقرن الثالث فكم بالأحرى عن أنها كانت تطبع بطابعها المرحلة التي نحن بصدد دراستها . إذ أنه يبدو أن هذه الحوادث ليست سوى مكافآت قدمتها المدن لأشخاص متميزين في مجال الرياضة أو العلم أو الفن أو غير ذلك .

ونحن نعتقد بأهمية الناحية التالية وهي أنه حسب التصورات التي كانت سائدة في العصر الذي نحن بصدد دراسته - أن تصبح مواطناً لمدينة ما لا يعني فقط أن تعيش في هذه المدينة بل أن تستغل بنشاط هذه الحقوق . فقد كتب فيلون الإسكندراني : «وكيف لا ، فلن يكون من السذاجة بل من الغرابة أن نسمي أولئك الذين لا يعيشون فقط في المدينة بل ويشاركون في المجلس والقضاء ومجلس الشعب ويمارسون التجارة والفن - مخلوعين وأولئك الذين لا ذكر لهم إطلاقاً في اللوائح أو محكومين بجرم شائن - مواطنين» . ونرى هنا عرضاً لواجبات وصلاحيات المواطن ولكن بأسلوب سلبي ويبين هذا العرض أن النشاط السياسي في إطار المدينة لم يكن مجرد مثال أعلى بل حقيقة لها جذورها الممتدة في التاريخ البعيد . لقد اقتضى وجود حقوق المواطنة إمكانية المشاركة في إدارة المدينة وفي تحقيق سلطة قانونية عامة على أراضيها . ومن الطبيعي أن يكون وجود كل هذه الحقوق سبباً للحد من دائرة الناس الذين يحق لهم التمتع بها .

التنظيم الداخلي للجماعة المدنية

لقد اصطلح على تسمية الوحدة الادارية للبوليس الكلاسيكي القديم «بالقبيلة» - وهي أهم وحدة بنوية لهذا البوليس على الاطلاق . ولا شك أنها تكونت ونمت من الوحدات العائلية التي تربطها ببعضها البعض صلة القرى ولكنها تكاملت مع الزمن وتوسعت حتى شكلت البوليس . وفي المرحلة التي نحن بصدها كانت «القبائل» في الأراضي السورية عبارة

عن تشكيلات اصطناعية قامت على أساس عامل الحدود (الواقع أنه ليس لدينا ما يدل دلالة مباشرة على ذلك) . إلا أن الوضع في تدمر كان أكثر تعقيداً ، كما سنرى حيث «القبائل» التي تجمعها صلة القرى تعايشت لفترة طويلة من الزمن مع «القبائل» الادارية - فيلات (أي وحدات ادارية تجمعها وحدة الأرض File - المترجم) .

ونادراً ما تشير الوثائق والمصادر من البوليسات اليونانية في سورية اشارة مباشرة الى الفيلات . ولكن مثل هذه الإشارات موجودة على أية حال . ففي المرسوم الذي أصدرته سلطات سلوقية بيرية بإعطاء أرسطولوخ حقوق المواطنة طلب إلى أمين السجل المحلي تسجيل أرسطولوخ في سجلات الديم - Dem (وحدة إدارية تشكل جزءاً لا يتجزأ من الفيلا) الأولومبيي لقلية اللاذقية وبناء على ذلك نستطيع القول أن المدينة احتوت قسمين إداريين : الديم والفيلا والانتساب الى الجماعة المدنية كان يعني الدخول في سجلات هذا وذاك . وتسمح لنا المقارنة بين هذا الوضع وشبيهه الذي كان سائداً في اليونان بالقول أن الديم هو جزء لا يتجزأ من الفيلا . وحسب رواية لياني ، فإن مثل هذا التنظيم كان موجوداً في إنطاكية أيضاً : فقد كانت الجماعة المدنية تنقسم هنا إلى ثمانية عشرة فيلا . ولكن يبقى السؤال التالي غير واضح . كيف تم التوفيق بين هذا التقسيم الاداري لانطاكية وبين التقسيم الذي نشأ هنا تاريخياً والذي انقسم البوليس بموجبه إلى أربعة أجزاء . يقول سترابون ان كل جزء من هذه الأجزاء الأربعة كان محاطاً بسور يفصله عن الجزء الآخر . ولقد بنى أحد هذه الأسوار سلوقس الأول نفسه ويبدو أن الآخر ظهر بشكل عفوي نتيجة لتدفق موجة جديدة من المستوطنين والثالث بناء سلوقس الثاني كالينيك أما الرابع فقد بناه أنطوخ الرابع إبيغان . وبما أن عدد الفيلات لا يتطابق مع عدد المناطق الأربع فليس من المحتمل أن تكون الفيلات قد توزعت بينها بالتساوي مع العلم أن هذين التقسيمين تقاطعا مع بعضهما بطريقة ما ومعنى ذلك أن كل مواطن من مواطني انطاكية كان مسجلاً في إحدى الفيلات بغض النظر عن المنطقة التي عاش فيها . كما وتشير الوثيقة السورية المعروفة عن بيع عبدة إلى الفيلا الثانية عشر في مدينة الرها . ويبدو أن الفيلات هنا لم تحمل أسماء ، وعددها لم يكن أقل من إثنتي عشر كما هو مذكور .

سوف نتقل الآن إلى تحليل النقوش التدمرية التي تحوي الكثير من المواد عن البنية «القبيلة للبوليس السوري» . ونرى أنه من المفيد أن نحدد مجموعتين من «القبائل» المذكورة هنا : القبائل التي تحمل أسماء تدمرية محلية والقبائل التي لا تحمل أية أسماء .

يقول ج فيفريه في معرض حديثه عن الأولى أنها مستقلة عن بعضها البعض ونشاطها

موازٍ لنشاط مجلس تدمر . وقد رأى فيفريه في سمعتها ومكانتها «موروثات حياة التنقل» - الرحل . ويرى روستوفتسيف أن الكثير من هذه الفيلات كانت له مراكزه - وهي عبارة عن قرية وأن بعضها تحول فيما بعد إلى وحدات إدارية - حدودية في البوليس الذي اندمجت فيه . أمار . ديومينيل ديوبيسون فيرى في هذا التقسيم للمجتمع التدمري موروثات عصر البداوة وإن مجموعة القبائل التي كانت تشكل - حسب رأيه - الأقسام البنيوية لسكان المدينة شكلت الآن العشيرة . وسوف نرى أن هذه المقولات والاستنتاجات تحتاج إلى تحديد وتدقيق .

ليست المصطلحات التي تأتي على ذكر التشكيلات القبلية لذوي القربى معقدة أبداً . ففي النصوص اليونانية نصادف المصطلحات العادية Fyie و uenos وفي النصوص التدمرية إما كلمة phd/z (فخد أو فخذ - المترجم -) أو الإشارة «أبناء NN» . ولا شك أن كلمة phd/z مأخوذة من اللغة العربية مباشرة وهي تعني : «جزءاً ، أصغر شق من القبيلة» . أما النصوص الآرامية بما في ذلك السورية فلا تحتوي على هذه الكلمة . وفي النصوص التدمرية تستخدم هذه الكلمة للتعبير عن معنى آخر يختلف كل الاختلاف عن المعنى الذي تعطيه هذه الكلمة في اللغة العربية الكلاسيكية . ونحن نعتقد أن التدمريين لم يعوا حتى الآن الفرق بين القبيلة والأقسام التي تتفرع عنها . وكذلك استخدام كلمتي

uynos و fyle في القسم اليوناني من النصوص لتأدية نفس المعنى يدل هو الآخر على صحة وجهة نظرنا هذه . ولكن هذا يخلق لنا مشكلة ليست أقل أهمية : ما هي تلك الجماعة التي كان بعض أعضائها fylai أو ، وهنا نفس الشيء ، uene ؟ هل تتطابق هذه الجماعة مع الجماعة المدنية للتدمريين ؟ من الواضح أن الجواب على هذين السؤالين وغيرهما من الأسئلة التي تخص هذه المسألة - تعطينا إياه دراسة الوثائق والمصادر المتوفرة لدينا وخاصة تلك التي تتحدث عن هذه القبائل .

١ - بني قمر (bny kmr') . تذكر إحدى الوثائق التدمرية القديمة والمؤرخة عام ٦ م . (شهر كانون عام ٣٠٧ من عهد السلوقيين) انتساب الشخص المكرم لهذه القبيلة - المدعو عقيلوبن أدان الذي أقام له كهنة معبد الإله خارت نصباً لقاء تقدمته للمعبد . وفي وثيقة أخرى من نفس الحقبة نقرأ أن صاحب هذا الضريح (qbr') زبيد يبول بن --- بن أتاشور يعود أصله إلى «بني قمر» (bny kmr) . ويحتوي النقش الذي أصدره ج . كانتينو ومصدره نيكروبول الغربي (عام ٦٧ م .) بناء شواهد القبور يدبيل بن تايماخ «يعود بأصله إلى فرع «بني قمر» dymnphz bny kmr' ، واليونانية fyles khomarenon . ويذكر أحد نقوش دورايور وبوس (عام ٣٢ م .) مالكو بن رامو ، «الذي من بني قمر» (dymn bny kmr') والذي ساهم في بناء معبد الإلهين التدمريين بيل ويارنجبول . ولا يقتصر دور «بني

قمر» على أنهم مجرد جماعة يتنسب إليها هذا الفرد أو ذاك بل نصادفهم أيضاً جماعة نشطة تفعل في الحياة . فالنقش التدمري (عام ٨٣ م .) الذي يرافق نصب عتام ، إبنة أحد الأشخاص والذي لم يصلنا اسمه ، وهي زوجة بولوخ . لقد أقام لها هذا النصب عقليبول (الواضح أنه ابنها) و «بني قمر» (bny kmr) . ويبدو أن عائلة بولوخ وعتام نفسها قد لعبتا دوراً هاماً في حياة «بني قمر» وإلا لما شارك هؤلاء في هذا الحدث العائلي البحت . وأخيراً في عام ٢١ م . قام «بني قمر» (bny kmr) سوية مع «بني متبول» (bny mtbwl) ببناء نصب على شرف هشاش بن نيش الذي أحل السلام وعقد اتحاد هاتين القبيلتين . ونشير هنا إلى أن بعض الباحثين يقارنون هذا النقش مع نقش آخر يحتوي على نص قصير موضوع باللغة اليونانية : اسمه لمالح بن نيش بن كوم الملقب بالهشاش ، من قبيلة القمو - شعب تدمر تعبيراً عن شكره ، ولا شك أن الشخص المقصود هنا ليس نفسه المقصود في النص السابق . وتجدر شارة إلى أن النص اليوناني يسمى «بني قمر» fyle .

- «بني غديبول» (bny gdybwl) . في النقش الذي أتينا على ذكره سابقاً ومنشؤه إيوروبوس والذي يروي عن معبدي بيل ويارينجبول يذكر بين من ساهموا في بنائهما دبول بن بايخو «الذي من بني غديبول» . ويستحق الاهتمام في هذا المجال النقش التدمري لتوب باللغتين التدمرية واليونانية (تشرين الثاني عام ١٠٨ م .) . النص اليوناني لهذا نص قصير جداً : «أقامه آل غديبول على شرف أكبي بن نواري بن أكبي» . أما النص تدمري فهو أكثر تفصيلاً : «أقام هذه النصب لأكبيخ بن نوعاري بن أكبيخ من بني غديبول ذلك أنه بنى لهم بوابة وكذلك بنى لهم في فولوجيسي مذبحاً كاملاً للحمد والتسبيح ، هو ومكانه ، لقد كان مفيداً لهم في كل شيء . لذلك أقاموا هذا النصب على شرفه . في شهر كانون عام ٤٢٠» . وهكذا نرى أن «بني غديبول» كـ «بني قمر» عبارة عن جماعة كان بمقدور أعضائها اتخاذ قرارات شبيهة من حيث تركيبها بقرارات السلطات التدمرية كما سنرى لاحقاً . وبما أنه ليست هناك أية إشارة إلى أنه كان هناك مجلس «لبنى غديبول» لذلك نستطيع القول أن قرار إقامة النصب لأكبيخ اتخذته الاجتماع العام للقبيلة . ولكن ما هو الدور الذي لعبه أكبيخ بن نوعاري في حياة «بني غديبول» . فمن الواضح أنه لم يكن عضواً في مجلس تدمر ؛ لأنه لا يجوز إغفال مثل هذا الأمر في مقدمة النقش . بالتالي فكل ما قام به الرجل من أعمال كان يحمل طابعاً فردياً ويبدو أن أكبيخ كان صاحب ثروة محترمة وقد حاول الحصول على وضع ما بين آل غديبول هؤلاء ويبدو أنه نجح في الوصول إلى هدفه . ويجدر القول أن طابع أعمال الخير التي قام بها أكبيخ له أهمية جوهرية . حيث نرى أن إحدى المنشآت التي أقامها كانت في مكان مقدس بالنسبة لكل «بني غديبول» ويقع هذا المكان ضمن حدود تدمر . أما

الثانية فكانت في معبد «بني غديبول» في أراضي فولوجيسي . إذاً لقد كان هناك مكان واحد مشترك يؤدي آل غديبول فيه فروض العبادة - أي وحدة العبادة . ثانياً - يبدو أنه كان لآل غديبول مصالح مشتركة في فولوجيسي وقد تكون هذه المصالح مرتبطة بتجارة القوافل وكذلك بمركز العبادة الخاص بهم والمتواجد في هذه المدينة وهذا يفترض وجود مجموعة متراسة من آل غديبول تعيش بصورة دائمة في هذه المدينة .

٣ - «بني زبيدبول» (bny zbdbwl) . تذكر هذه المجموعة القبلية في عدد من النقوش ذات محتويات مختلفة . أحدها عبارة عن توقيع على نصب لمقيم بن عقيل بن باسايل بن تايمان - أقامه له مجلس الشعب في تدمر 'gbldtmry - يقول أن هذا الشخص المكرم هو من «بني زبيدبول» . تفيدنا الوثائق بثلاث حالات يتصرف فيها «بني زبيدبول» كمجموعة متراسة تتخذ قرارات بتكريم أشخاص ويعود تاريخ هذه الوثائق إلى الربع الأخير من القرن الثاني الميلادي .

٤ - «بني نبت» (bny 'nv'bt) . يقول النقش التدمري المؤرخ في آذار عام ١٥٧ أن خيران بن يارخاي بن تايمة وحييب بن يارخاي بن خيران وهما من «بني نبت» أقاما نصباً لمارك أولبي يارخاي بن خيران بن أبجر . ويشير النقش إلى أن هذين الأخيرين هما «صديقه» ، وهذا ما يسمح لنا بالاعتقاد أنهما من زبائنه الموالين له . ولكن النقش لا يشير ما إذا كان مارك أولبي يارخاي ينتسب إلى «بني نبت» أولاً .

٥ - «بني معزن» (bny m'zyn) . يفيدنا نقش تدمري مؤرخ في آب عام ٨١ م . أن أحد الأشخاص المذكورين فيه من «بني معزن» في عام ١٩٣٦ نشرج . كانتينونقشاً يندرج فيه اسم أحد الأشخاص من «بني معزن» . ولكن النقش الذي يشير الاهتمام حقاً هو النقش التدمري المؤرخ عام ٦٤ م . والموضوع باللغتين التدمرية واليونانية وهو يرافق نصباً أقيم لسلامات بن يارنجبول . يقول النص اليوناني الذي سقطت سطور الأولى « -- إلى سلامات بن يارنجبول بن نوربيل الملقب ---- التدمري ومن هذه الفيلا ، الطاهر ، مقدم الخدمات لهم في أعمال كثيرة وفي التشييد وفي التقديمات والنفقات وهي غير قليلة » . ويقول النص التدمري : « هذا النصب لسلامات بن يارنجبول بن نوربيل والملقب ---- يدعيبيل التدمري ، من بني معزن ، أقامته له القبيلة ('It) ---- ذلك أنه أقام وبني وأهدى ---- وكان نافعاً لهم في كل شيء ---- هذا النصب وهذا العمود . في شهر شباط عام ٣٧٥ » . ويعتبر تحديد معنى كلمة 'It إحدى أهم الصعوبات التي نتجت عن تأويل هذا النقش . فقد أشار ج . ب . شابو في معرض تعليقه على هذا النقش إلى أن معنى هذه الكلمة غير محدد ، فإذا كانت اسماً لكان يجب أن تعني - حسب صيغة الفعل السابق لها - مجموعة أو أنها صيغة

جمع . ويتابع شابو أن م . ليدزبارسكي اقترح - انطلاقاً من معنى هذه الكلمة عند العرب الجنوبيين - أنها تعني «هذه» . أمام . سوبير نخيم فيترجمها - «عائلة» معتقداً أن tهي بداية للكلمة التالية . وكان ش كليرمون - غانوقد عارض في حينه هذا التفسير . ونحن لأنشك في أن تفسير هذه الكلمة مرتبط بمحتوى القسم اليوناني من النص . فالصيغة fyles tes aytes تفترض أن يكون قد ورد اسم هذه القبيلة في الجزء التالف من النقش إما كجماعة أقامت هذا النصب أو كجماعة تنتسب إليها المجموعة التي أقامت النصب المذكور . وفي الحالتين يجب أن تطابق الكلمة التدمرية tالمعنيين المذكورين . وإذا ما قورنت بالكلمة العربية آل - «عائلة» فإنها يجب أن تعني مجموعة من الناس تربطها صلة القربى ، وقد تكون شقاً من قبيلة «بني معزن» على أية حال ، نعتقد أن مصطلح tيشكل إلى جانب المصطلح الآخر phd/z أحد معنيين للقبيلة في تدمر . ولكننا نجد أنفسنا مضطرين لترك السؤال التالي مفتوحاً : لماذا تستعمل اللغة التدمرية هذه الصيغة الغريبة tالمنتهية بحرف التأنيث tبدلاً من لكما هو مفروض ؟

٦ - «بني متبول» bny mtbwl يأتي ذكر أحد أفراد هذه العائلة في نقش تدمري مؤرخ عام ١٩ م . - يديعيل ، بن عزيز وبن يديعيل ، الذي من «بني متبول» . لقد ساهم هذا الشخص في بناء معبد بيل فأقامت له مجموعة من التيجارات التدمريين واليونانيين نصباً تذكاريّاً . وتستحق الاهتمام المصطلحات الواردة في القسم اليوناني من النص : Fyles Mattaboleion ويحتوي نقش تدمري آخر (عام ٤١ م .) النص التالي : «في شهر سيوان عام ٣٥٢ . هذا الضريح لكائتوت بن تايمارتسوبن كائتوت بن تايماخ الذي من «بني متبول» (phd bny mtbwl) الذي بناه هو لنفسه ولأبنائه إلى الأبد» . أما النقش التدمري المؤرخ عام ٩ م . فهو عبارة عن شاهدة لقبر سلمان بن تايمارتسوبن شوقاي الذي من «فرع بني متبول» phd bny mtbwl وهناك نقش آخر وهو غير عادي في صياغته GIS,II,3975 (تدمر ، لا يوجد تاريخ) : «جلب (qrb) رايبيل بن أمريشي الذي من أبناء متبول ، هذا الهيكل للإله أرس» ويشير أحد النقوش التي نشرها ج . كائتينو إلى أن باني قبر تايمارتسوبن بوروف بن مالك بن عسيلة هو من أحد «فروع بني متبول» وهنا نقول إن أبجدية هذه الوثيقة تسمح لنا أن نقرر بأن كتابة phd وphz لم تأت نتيجة لاختلاف اللهجات ولكنها تعطي معنيين متكافئين للحرف العربي (ذ) هذا ويفيدنا عدد آخر من النقوش التدمرية بأخبار متفرقة ومبعثرة عن أشخاص من «بني متبول» .

٧ - «بني يديعيل» (bny ydy'bl) . حتى الآن لا نعرف سوى نقش واحد يحوي صيغة : «من بني يديعيل» . وهو نقش تدمري مؤرخ عام ١٣١ م . عرضه غير واضح .

- ٨ - «بني ختري» (bnyhtry) . المعروف لدينا نقش واحد مؤرخ عام ١٢٨ م . - تمثال (nps^٨) ، أقامه مقيم بن زبيدة بن يارخان «الذي من بني ختري» (dymnbnyhtry) .
- ٩ - «بني ميث» (bnymyl') . في النقش التدمري المؤرخ في نيسان عام ٥٦ م . نقرأ النص التالي : «هذا الضريح هو بيت الأبدية ايتعقاب بن غداي بن ايتعقاب الذي من فرع بني ميث ، بناء في حياته وعلى شرفه وشرف أبنائه ولاجل غداي ، والده هو . في شهر نيسان عام ٣٦٧» . وإلى المرحلة الزمنية نفسها يعود النقش الذي هو عبارة عن صيغة على شاهدة قبر عقيل بن أوشاي بن كحيل الذي يوصف على الشكل التالي : «تدمري من فروع بني ميث» .
- ١٠ - «فيلا آل ماغرين» . حتى الآن نعرف إشارة واحدة لهذه الفيلا - في القسم اليوناني من النقش التدمري المؤرخ في نيسان ٥٩ م . والذي وجد القسم التدمري منه تالفاً تماماً . أقيمت هذه الشاهدة من قبل شخص لم يصلنا اسمه ، بن نوربيل «من فيلا آل ماغرين» . أقيمت الشاهدة «على شرفه ، وعقيل أخيه ، وأبنائه إلى الأبد» .
- ١١ - «بني زمر» (bnyzmr') . الوثيقة الوحيدة هي الإهداء الذي قدمه مالك بن بلعقاب «من فرع بني زمر» . الوثيقة مؤرخة عام ٣٠ / ٣١ م .
- ١٢ - «بني غرود» (bny'grwd) . يرد ذكر هذه المجموعة في عدد من الوثائق ، إحداها نقش غير مؤرخ وتالف لم يبق منه إلا مقاطع . ولكن الباقي من النص ، كما يشير ج . كانتينو ، يوضح أن هذا النقش عبارة عن نص على شاهدة قبر بناء مقيم بن زبيدبول بن عريم «الذي من بني غرود» له ولأبنائه وكذلك لأبيه زبيدبول . والوثيقة الأخرى وهي نقش على نصب تكريمي (آب عام ٨١ م) . أقيم للملك بن ليشامش بن هانيبال - من قبل آل غرود .
- ١٣ - «بني قنبت» (bnyknbt) . المرة الوحيدة التي يذكر فيها هؤلاء هي على شاهدة قبر خيران بن بالشور بن غدارتسو (تدمر ، تشرين الثاني عام ٣٣ م) ، الذي من فرع «بني قنبت» .
- ١٤ - «بني مجدت» (bnymgdt) . ويأتي على ذكرهم النقش التدمري المؤرخ في أيلول عام ٨٥ م . والذي يحوي النص التالي : «في شهر أيلول عام ٣٩٦ . هذا الهيكل للعبادة ، بني هذا الهيكل وأهداه إلى الإله شمش ، إله بيت أبيهم - ليشامش وزبيدة ولدا مالك بن يدعبيل بن نيشا الذين من «بني مجدت» لصحتهما وصحة إختوتها . وإلى جانب العائلات المذكورة تذكر لنا الوثائق التدمرية : «بني بور» (bnybowr') ، «بني تيمارسو» (bny tymrsw) ، «بني جوجو» (bnygwgw) ، «بني بولخ» (bnybwlh) ، «بني بلع» (bnybwl') ، «بني خشاش» (bnyhs^٨s^٨) ، «بني ساكنة» (bnyskn) ، «بني حنور» (bnyhnwr) ، «بني علاي» (bny'ly) ، «بني قسمة» (bnyksmyt) ، «بني تيمة»

(bny tymy) - تذكر بعض الوثائق التدمرية الإله - حامي هذه المجموعة : gd tymy ، «بني نوربل» (bny nwrbl) ، «بني علياي» (bny 'lyy) ، «بني عباد» (bny cbd) ، «بني ربل» (bny rb'l) ، «بني سعدو» (bny s'cdw) ، «بني حكيم» (bny hkym) .

وتفيدنا وثائق تدمر أن هذه الجماعات كانت تتمتع بقدر لا بأس به من الاستقلالية . حيث يقول النص الذي يهمننا : «هذا نصب هشاش بن نيس بن بولخ بن هشاش أقامه له بني قمر (bny kmr) وبني متبول (bny mtbwl) ذلك أنه قادهم وأحل السلام فيما بينهم وساعدهم على حل كل مشاكلهم الكبيرة والصغيرة ، وتكريماً له أقيم هذا النصب . في شهر كانون عام ٣٣٣» . يرى قارىء هذا النص هاتين المجموعتين في وضعين اثنين : (أ) بينهما صدام ولكن السلام حل بينهما بفضل الجهود التي بذلها الشخص موضوع التكريم ، (ب) تشترك المجموعتان في تكريم رجل السلام هذا . وهذا يعني أن كل فئة من هاتين الفئتين كانت لها سياستها المستقلة ، تتعاديان أو تتحدان للقيام بأعمال مشتركة . وبما أننا نعلم أن هشاش بن نيس لم تكن له أية صفة حكومية فإننا نستنتج أن حكومة تدمر لم تكن تتدخل في شؤون القبائل بل تركت لها حل خلافاتها الداخلية .

فالنص يقول صراحة أن هشاش كان يقف «على رأس» هاتين المجموعتين . ويبدو من غير المعقول أنه كان قائدا لهذه وتلك في وقت تملك العداء فيما بينهما . لقد كان هشاش مجرد رجل سلام استلم السلطة في هاتين المجموعتين لوقت ما فقط . وبما أنه لم يكن ينتسب لأي من الفئتين المتخاصمتين ، وقد يكون شخصاً غريباً عنهما ودعي من قبلهما لإحلال السلام أو أنه كان زعيماً لإحدى التجمعات القبلية التي ضمت بني قمر وبني متبول . وفي نفس الوقت تؤكد المصادر أنه كان باستطاعة حكومة تدمر التدخل في شؤون بعض الجماعات التي كانت تحمل إسم «فيلا» وتعطيها بعض الأوامر المحددة . وهذا ما يؤكد النقش Inv. x, 44 (تدمر كانون الثاني عام ١٩٩) . ونشير هنا إلى أن هـ . إنكهولت نشر النص اليوناني لهذا النقش . يقول النقش أنه «بقرار من المجلس والشعب» توجب على أربع فيلات أن تقيم نصباً على شرف عقيل بن مكاي بن عقيل بن سيفير . وتتوافق هنا تمام الموافقة ، تقريباً صيغ مقدماتي النصين التدمري واليوناني . ولكن الملفت للنظر أن النص التدمري يذكر عدد النصب التي أقيمت لعقيل وعدد الفيلات التي أقامتها - أربعة نصب أقامتها أربع فيلات .

ويبدو أن هذه الإشارة - كما تؤكد بعض النقوش الأخرى - تحتاج إلى شيء من التدقيق . فلنعرض الآن لأحد هذه النقوش وهو مؤرخ في تشرين الثاني عام ١٧١ . وجد

هذا النقش على نصب تذكاري أقيم لشخص غير معروف وذلك بناءً على قرار من المجلس والشعب . وقد أقامته أربع فيلات كل في معبدها الخاص . يقول النص التدمري : «أربع فيلات من البوليس كل في معبدها» . ونورد أيضاً النص التدمري لهذا النقش والذي يقول : rb'ph3y ph3 ph3 bt'lh yh ونشاهد نفس الحالة أيضاً في النقش المؤرخ في ٢٥ شباط عام ١٩٨ حيث أقيم هذا النقش على شرف عضو مجلس المدينة إيلي بن تيطوس عقيل : «أقامته أربع فيلات في معابدها وعلى نفقتها ومنها فيلا آل خونيت» . وفي النص التدمري آل خونيت هم بني قمر . كل فيلا من هذه الفيلات تنفذ قراراً اتخذته «المجلس والشعب» . وهي تنفذه بشكل مستقل تماماً . أي أنها كانت تملك موارد مالية معينة بالتالي ، كانت لها خزنتها الخاصة بها وكذلك معابدها المستقلة . ونحن نعتقد أن الصيغة ai de tes poleos tesapes fylai لها أهمية جوهرية فهي تثبت أن الفيلات التي يجري الكلام عنها كانت عبارة عن خلية بنوية في النظام السياسي للمدينة . وما يشير إليه أنه لا أسماء لهذه الفيلات - باستثناء إحداها . ففي النقش المقام تكريماً لإيلي بورا جرى ذكر فيلا آل خونيت . ولا نستطيع فهم عدم ذكر الفيلات الأربع في النقش إلا باتجاه واحد ، وهو أنها كانت معروفة بما فيه الكفاية بالنسبة لأي قارئ ويؤكد ذلك ذكر عددها - ويبدو أنه نهائي فلو كان عدد الفيلات أكثر لتوجب ذكر أسمائها وإلا لما أصبح واضحاً من هي الفيلات التي تنفذ قرار «المجلس والشعب» . ونحن نعرف أن المصادر التدمرية تشير إلى ٣٤ خلية قبلية . ويؤكد هذا الاختلاف بين عدد الفيلات وعدد الخلايا القبلية أنها لم تكن مندجة مع بعضها . والواقع أنه يمكن الاعتقاد أن كل أعضاء هذه الـ ٣٤ «فرعاً» كانوا موزعين على فيلات أربع . وإذا صح هذا التوقع فيمكن أن نستنتج أن بناء هذه الأخيرة لم يقم على رابطة القربى وإنما على أساس آخر قد يكون وحدة الأرض . يمكن الاعتقاد أن هذه «الفروع» الـ ٣٤ كانت عبارة عن أجزاء تكونت منها هذه الفيلات الأربع . ولكن استعمال المصطلح اليوناني fyle للدلالة على هذه وتلك دون أي فرق يضع إشارة استفهام على استنتاجنا هذا . كل «فرع» من هذه الفروع يحمل اسماً ما «بني -- كذا» . وهذا يرجع ، على ما نعتقد إلى أن كل أفراد هذا «الفرع» يعود أصلهم إلى جد واحد . وخلال فترة زمنية معينة تشير المصادر إلى الانتساب لهذا «الفرع» أو ذاك . ولكن التقييد بهذه القاعدة لم يكن منتظماً . نستنتج من هذا أن ذكر انتساب الفرد إلى هذه الخلية أو تلك لم يكن إلزامياً لدى التدمريين . لقد كان «الفرع» عبارة عن جماعة مغلقة تتخذ قراراتها دون الرجوع إلى سلطات تدمر . وكانت لها معابدها الخاصة . أما الفيلات فكانت تتصرف بناءً على أوامر وقرارات «المجلس والشعب» وهي بالتالي دخلت في التركيب العضوي للمؤسسات الحكومية في تدمر .

وهكذا نرى أن المصادر التدمرية تؤكد لنا وجود مجموعتين من الفيلات : البوليسية والفيلات التي تجمعها رابطة القربى - وهي الفيلات العربية على الأرجح . ويبدو أن الباحثين الذين يرون في هذه التشكلات الأخيرة «موروثات عصر البداوة» محقين في اعتقادهم هذا . ولكننا نعتقد أنه من الأصح القول - موروثات عصر ما قبل ظهور الدولة لدى هذه القبائل التي استوطنت تدمر .

على أية حال نستطيع القول أن البنية الإدارية على أساس الفيلات لم تحظ بانتشار واسع في المدن السورية الهلنستية والرومانية . فلا ذكر لها في مصادر المدن الفينيقية حيث كانت البنية الإدارية هنا مختلفة تماماً .

مشاعات الغرباء في المدن السورية .

لقد شغلت وضعا خاصا في المدن السورية تلك الفئات السكانية التي لم تكن جزءا عضويا مكونا للجماعة المدنية بل غالبا ما عاشت خارجها في مشاعات مستقلة . ويعطينا الرومان مثالا نموذجيا لهذه المشاعات . فمن المعروف أن *hegotiatores* الرومان الذين : تواجدوا في سورية منذ القرن الأول الميلادي كانوا موضوعا تناولته الآثار الادبية (TAC., ANN., 2, 28) واذا ما قارنا وضع هؤلاء بالوضع السائد في آسيا الصغرى لأمكننا الاعتقاد أنهم أسسوا مشاعاتهم المستقلة هنا ، في المدن السورية ، وكان باستطاعة هذه المشاعات أن تتخذ القرارات الضرورية سوية مع سلطات المدينة (ونشير في هذا السياق إلى أننا لانستطيع الموافقة مع وجهة النظر القائلة بأن مشاعات التجار الرومان في افاميا قد سقطت وانحلت بسرعة وأنها بذلك لم تعمر طويلا . فالمصادر التي وصلتنا من افاميا تفيد عكس ذلك) . كما وشكل مواطنو المدن الاخرى الذين هاجروا من أوطانهم مشاعات مماثلة أيضا . وهذا ما يفيدنا به النقش OGIS, 593 من تل سندخانة حيث وجدت هنا مشاعة للصيдаويين في ماريس ومن المعروف أيضا أنه كانت للصيдаويين مشاعات في بيروت وأرواد - في الماراثون . وتشير الوثائق الى انتشار المشاعات اليهودية أيضا في المدن السورية ، وخاصة في مدينة انطاكية . ويقول يوسف فلافي أن اليهود كانوا يتمتعون هنا بكافة الحقوق التي يتمتع بها مواطنو انطاكية أنفسهم ويروي لنا النقش الآرامي (ED, VL, p. 390) والذي وصلنا من

دورايبوروبوس والمؤرخ عام ٢٤٥ أنه يقف على رأس المشاعة اليهودية الموجودة في هذه المدينة رئيس - كبير المشاعة . وكان يوجد فيها أيضاً مسؤول الخزانة والمسؤول الاداري ، ومهمة هذا الأخير توزيع الأعمال التي يتوجب على أفراد المشاعة تنفيذها .



وتسمح لنا المصادر التي بين أيدينا أن نرسم صورة واضحة ومحددة للبنية الادارية للمدن السورية ابان الاستعمار الروماني . والكمية الأكبر من هذه المصادر وصلتنا ، خاصة من تدمر ولذلك نرى من المفيد ان نتوقف عندها .

البنية الإدارية لتدمر .

تؤكد المصادر التاريخية التدمرية أن جهازين جماعيين من أجهزة السلطة قد لعبا دوراً هاماً في الحياة السياسية لهذه المدينة : المجلس والاجتماع الشعبي . ويلفت النظر في مصطلحاتها الادارية كلمة gbl - وهي واحدة من الكلمات الدائمة القليلة التي وصلت اليها والتي تتعلق بهذه الدائرة من المفاهيم . ويشير المختصون في تاريخ تدمر الى أن هذا المصطلح يعني الاجتماع الشعبي الذي يضم مختلف التشكيلات القبلية . ولكن يبدو أن هذه المقولة تحتاج الى تدقيق ملحوظ . فالنصان اللذان استعملت فيهما كلمة gbl لا يعطيان امكانية لفهمها على أنها تعني - اجتماع القبائل .

أحد هذين النصين وصلنا في النقش CIS,II,3923 . ونقرأ في نصه اليوناني ما يلي : « أقامها بوليس تدمر /palmyrenone polis/ على شرف مقيم بن عقيل . . . الذي هو أيضاً أوقايس » . أما النص التدمري فيقول : « هذا النصب لمقيم بن عقيل بن باتسيل بن تاجماي الملقب بخوكيش وهو من بني زبيدبول ، أقامه له gbltdmry » . وفي النقش الآخر يتطابق مفهوم gbltdmry مع مفهوم palmyrenon odemos (Inv.,X,12) . ونحن لا نشك في ان مصطلح gbladmry كان يعني في الحالتين ، في القرن الاول ، مجموع الجماعة المدنية في تدمر . وهذا التفسير لا يتعارض مع مفهوم كلمة gbl في اللغة العربية الكلاسيكية (gibillun) - « حشد » ، « اجتماع » . وفي هذا السياق يستحق كل الاهتمام تغلغل المفردات العربية الى الوثائق التدمرية الأمر الذي يعني بداية تعريب سكان المدينة وهذا يتضح أكثر من كثرة الأسماء العربية التي نصادفها في النقوش التدمرية . وفي نفس الوقت يعتبر

وجود مثل هذا المصطلح دليلاً على أن هناك اتجاهاً معادياً لليونانيين وإلا لما استخدم المصطلح العربي بديلاً عنه . ولكن مثل هذا الاتجاه كان لا يزال ضعيفاً . فالأكثريّة الساحقة من المصطلحات الإدارية بقيت باللغة اليونانية .

ومن بين المصطلحات اليونانية يلقي اثنان منها أهمية خاصة : dmws - demos و Boyle ، أي «مجلس» و «شعب» . وقياساً على ما قيل سابقاً عن المصطلح العربي - التدمري gbl الذي يقابل اليوناني demos - يمكن القول أن كلمة demos سقطت من قاموس الاستخدام هنا ليحل محلها المصطلح القديم والذي أتينا على ذكره . لقد كان من الممكن أن نعتقد أن هذا التغيير في المصطلحات قد جاء نتيجة لتغير ما في وظائف هذه الأجهزة . ولكن الوثائق التي بين أيدينا لا تشير إلى ذلك قط . أما استبدال مصطلح demos بمصطلح gbl فقد جاء نتيجة لانتشار هذا الأخير في الوسط الإداري . وتسوق لنا بعض النقوش التدمرية معطيات عن أعضاء المجلس . فالنقش (IKV,X,57) يرافق نصب التكريم الذي أقامه المجلس لأحد أعضائه . ومثل هذه الإشارة نجد ها في النص التدمري لتقش آخر (IKV,X,69) المؤرخ في آب عام ١١٢ . ومن الطريف أننا نجد مثل هذا اللقب (عضو المجلس) في أحد النقوش التي يعود تاريخها إلى منتصف القرن الثالث الميلادي . IKV,III,12 . وقد أقيم هذا النقش على شرف افريلي فورودا . ويجري هنا وصف الطاقم المذكور في هذا النقش على الشكل التالي : BoYleyten polmyrenon ، وفي النص التدمري bylett dmry . ومما له دلالة خاصة أنه حتى بعد أن قامت في تدمر ديكتاتورية فردية بقي المجلس يمارس مهماته وبقي أعضاؤه ، كالقيادة من أوساط الارستقراطية التدمرية التي استخدمت المجلس للدفاع عن مصالحها . وهذا ما يفسر ذلك الدعم المالي الذي قدمه ارستقراطيون تدمريون الى المجلس في منتصف القرن الثالث . فقد أفادنا النقش (CIS,II,3934) المؤرخ عام ٢٥٤ أن شخصاً يدعى يوليوس افريلي عووجة والملقب بسلو فس قد تبرع للمجلس بمبلغ ١٠ آلاف درهم .

ولكن يجب أن نعترف أننا لا نعرف إلا القليل عن وظائف ومهام مجلس تدمر . فهو يذكر في عدد هائل من النقوش التي هي عبارة عن نصب تكريم أقيمت بناء على قراراته تكريماً لأشخاص . ويقول ج . فيفريه أن نصب التكريم التي أقيمت قبل عام ١١٨ كانت بناء على قرارات المجلس وحده وبعد عام ١٢١ أصبحت هذه النصب تقام تنفيذاً لقرارات «المجلس والشعب» . ولقد ربط الباحث هذه الظاهرة بالاستعمار اليوناني متوقعاً في نفس الوقت أنها جاءت لتعكس تغيراً حدث في دستور تدمر . ولكننا نعتقد أن أساس مثل هذا البناء غاية في

الضعف . ذلك أن أحد هذه النقوش وهو مؤرخ عام ٧٤ قد أقيم بناء على قرار صادر عن «المجلس والشعب» سوية . وحتى المصادرات التي أوردناها نحن تؤكد أن الشعب التدمري كان يتصرف كتنظيم مستقل قبل عام ١١٨ بزمان طويل .

وفي نفس الوقت يجب أن نشير إلى أن أهم وثيقة تدمرية وصلتنا حتى الآن - التعرفة الجمركية ، عام ١٣٧ - قد اقرت من قبل المجلس فقط . ومن المأمود هنا أن نورد مقدمة الوثيقة المذكورة (CIS,D,3913) : «عام ٤٤٨ ، شهر كسانديك ١٨ . قرار المجلس . (douma Boyles)» ويعيد النص التدمري حرفياً المصطلحات اليونانية : «قرار المجلس (dgm dy bwl) ، في شهر نيسان ، اليوم الثامن عشر ، عام ٤٤٨» الخ لقد كانت «التعرفة الجمركية» أهم وثيقة تدمرية على الإطلاق وكانت لها أهمية خاصة بالنسبة لتدمير أيضاً . حيث نظمت كل الحياة التجارية في المدينة وقد كان لموضوعاتها تأثير مباشر على حياة كل مواطن من مواطني المدينة وسكانها . وكون المجلس هو الذي أقر قانونية هذه الوثيقة وشرعيتها يعني أنه حتى النصف الثاني من القرن الثاني كان لا يزال هذا الجهاز يتمتع بقوة فعلية . حيث كانت له كل المؤهلات التي تخوله اتخاذ قرارات تتعلق بأهم نواحي حياة المدينة .

لقد جاءت في مقدمة هذه الوثيقة صيغة لها أهمية خاصة : «عندما التأم المجلس بشكل قانوني» ، وفي النص التدمري Kd hw bwl knys mn nmws في الحالتين يجري الكلام عن شيء واحد : اجتماع المجلس الذي أقر التعرفة تم مع مراعاة كافة الأصول والقواعد والتقاليد المرعية . وهذا التأكيد لا يعني سوى أنه لم يكن باستطاعة المجلس أن يلتزم إلا بعد أن يكتمل نصابه القانوني . وهذا ما تفيد به أيضاً مصادر القوانين الرومانية .

من جهة أخرى لم تصلنا أية قرارات اتخذها الاجتماع الشعبي في تدمر - ماعدا إقامة نصب التكريم - سواء سوية مع المجلس أو تلك التي تتخذ من قبل الاجتماع نفسه . ولكن واقع قرارات نصب التكريم يدل على أن الاجتماع الشعبي كان له وجود في القرارات الحكومية .

وتفيد النقوش التدمرية الواقعة في الفترة من القرن الثاني وحتى الثالث ضمناً أن نظام . الوظائف الحكومية هنا كان له وجوده الواضح . فلائحة التعرفة المذكورة تشير إلى وجود فئتين من الوظائف الحكومية في هذه المدينة . تضم الفئة الأولى أولئك الذين يرتبط عملهم ارتباطاً مباشراً بعمل المجلس والاجتماع الشعبي . وإليهم ينتمي ، قبل كل شيء ممثل المجلس - ويدعى برويدور وقد ورد اسمه في قرار التعيين . ويقول النص التدمري :

« في عهد بوني بن بوني بن خيران بريدو » . وفي وثيقة أخرى مؤرخة عام ٢٠٠ يؤكد البرويدر - مالح بن باري بن مالح بن سيماني « يقيم المجلس والشعب » نصباً على شرفه . الوظيفة الهامة الأخرى التي تنتمي إلى هذه الفئة هي وظيفة كاتب المجلس والشعب . وتذكر لائحة التعرف اسم أحد هؤلاء وهو الاسكندر بن الاسكندر بن فيلوباتر . وتعني صيغة « كاتب المجلس والشعب » أنه كان يقوم بوظائف السكرتارية للمجلس وللإجتماع الشعبي . وكان من شأن مثل هذا الجمع للسلطات أن يكرس تنسيق سياسة هذين الجهازين بما يخدم مصالح المجلس . وعليه فقد كان صاحب هذه الوظيفة يتمتع بصلاحيات واسعة جداً . ولذلك ليس صدفة أن يصلنا هذا العدد الكبير من النقوش التي تكرم مثل هؤلاء الكتاب الذين تعدى مجال نشاطهم أعمال السكرتارية . أحد هذه النقوش يشير من بعيد إلى أن زبيدبول بن شمشيجيرام كان يقوم بوظيفة الكاتب . وهذا النقش يرافق النصب الذي أقامه المجلس تكريماً لهذا الشخص . ويقول النص اليوناني لهذا النقش : « ولم يكلف بها الكاتب السابق » ، ويقول مثيله التدمري : « لقد قام بوظائفه ككاتب بشكل جيد » . ويقول نقش آخر أن الكاتب قد أخذ على عاتقه نصيباً من النفقات التي صرفت على البناء وذلك أثناء قيامه بوظيفته هذه . ولكن ليس واضحاً حتى الآن ما إذا كانت هذه المهام تدخل في صميم واجباته أم أنه كان مجبراً على القيام بها بغض النظر عن أنها لا تدخل في دائرة واجباته هذه وذلك سعياً منه لتقوية مواقفه الشعبية .

أمّا الفئة الثانية من هؤلاء الموظفين فهي الفئة التي لا ترتبط أعمالها بنشاط المجلس والإجتماع الشعبي مباشرة . وتجدر الإشارة هنا قبل كل شيء إلى ما يسمى بالارخونت . حيث تشير لائحة تعرف الضرائب إلى هؤلاء بالأسماء (مالك بن عليان بن مقيم وزبيدة بن نيش) ويأتي ذكر هؤلاء في صياغة المقدمة سوية مع البرويدرات والكتاب . وتجدر الإشارة هنا إلى أن النقوش التدمرية كانت تؤرخ على الطريقة السلوقية والتعرفة لا تشكل استثناء في هذا المجال .

يفهم من لائحة التعرف أن مجموعة الارخونت هذه تتألف من شخصين لهما نفس الصلاحيات . وحسب قرارات المجلس فإن مجال نشاطهما واحد أيضاً . انطلاقاً من أن امكانياتهما متماثلة بشكل عام . ولقد ضمت صلاحيات الارخونت ووظائف إدارية ورقابية وتشريعية ولكن هذه الأخيرة بتكليف من المجلس . ولا توجد لدينا أية معطيات من تدمر وللحكم على أسباب تحديد عدد مجموعة الارخونت وأساليب دستوريته .

إلى جانب هذه الوظائف الحكومية أخذ دستور تدمر بعين الاعتبار وظائف أخرى

تذكرها النقوش التدمرية . منها مثلاً مدير الشؤون الزراعية (سييتيم فورودا) . وهناك أيضاً منصب الاستراتيجي . وتظهر النقوش أن هذه الوظيفة تطوّرت في تدمر من وظيفة مرتبطة بتنظيم مقاومة البدو الرحل وتأمين سلامة القوافل التجارية . وتدلنا النقوش على أن هذا الأمر عرف في نهاية القرن الثاني . وعلى أية حال فإن ظهور وظيفة الاستراتيجي لا يرتبط أبداً بإلغاء وظيفة الارخونت . فبين يدينا نقش مكتوب باللغتين التدمرية واليونانية (CIS,II,3934) ويروي لنا هذا النقش عن نشاط يوليوس افريلي عوجة - الدوفير السابق الذي قام «بكل رحابة صدر» بواجبات الاستراتيجي . ولكن النص التدمري لا يشير سوى الى وظيفته الأخيرة فقط .

ونحن لانعرف سبب عدم اشارة النص التدمري الى وظيفة الدومفير ولكن النص اليوناني يظهر أن وظائف الدومفير والاستراتيجي ليست واحدة . فالدومفير ، على ما نعتقد هو وريث الارخونت . وظهوره مرتبط بالتغيرات التي طرأت على الشخصية السياسية لمدينة تدمر ، وقبل كل شيء حصولها على الحقوق الايطالية في أواسط أو النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي .

يذكر أحد النقوش المقامة على شرف «زفس الأعظم» ومهدى الى «ذلك الذي سيبقى اسمه خالداً» - مجموعة الارغبروتيين والتي ضمت أربعة أشخاص : زبيدة بن تيموراميد ، مقيم بن يريخبول ، يرخاي بن نورييل وعنان بن مالك . ويشير النقش الى أعمال بناء ما على شرف الآلهة المذكورة وقد قامت بها المدينة على نفقتها الخاصة . وهؤلاء الأشخاص هم الذين أشرفوا على عملية الانفاق من خزانة المدينة وتنظيم أعمال البناء هذه . وتشير بعض النقوش الأخرى إلى أن مجال عمل الارغبروتيين لم يتعد الاشراف على عمليات الانفاق من خزانة المدينة .

تذكر لائحة التعرف الضريبية ووظائف جماعية أخرى - ديكابروتيين (srt) والسينديكيين (sdqY) . وقد حدد المجلس طابع نشاطهما على الشكل التالي . يقوم الديكابروتيون سوية مع الارخونت بتحديد حجم الضرائب وتوقيع الاتفاق مع متعهد جمعها ، صياغة وكتابة نص القانون وكذلك مراقبة تنفيذ . وهذه الأخيرة فقط انبسطت بالسينديكيين . وبما أن هؤلاء لم يكونوا يتمتعون بسلطة تنفيذية أو تشريعية فقد اقتضت الأعراف السائدة في تدمر أن تبقى هذه الجماعة مجرد جهاز مراقبة . وفي نفس الوقت لم يكن هناك فرق بين صلاحيات الارخونت والديكابروتيين . وتجدر الاشارة أنه حتى الآن لا تتوفر لدينا معطيات عن أسباب هذه الظاهرة .

عند دراسة البنية الادارية لمجتمع تدمر برزت أمامنا مسألة معرفة علاقة الدوائر الحاكمة في المدينة بتنظيم البوليس . فعلى امتداد المرحلة التي نحن بصدد دراستها نرى أن ارسنقراطية المدينة تسعى جاهدة للحصول على المناصب والوظائف العليا فيها ولم تدخر مالا لتحقيق هذا السعي . ومن الواضح أن السبب في ذلك هو الدور الكبير الذي كانت تلعبه أجهزة البوليس حتى في القرن الثاني الميلادي . وفي منتصف القرن الثالث - بغض النظر عن أن دولة أذينة - زنبوية كانت قائمة - استمرت الارسنقراطية التدمرية تشارك في المجلس وتقوم بالوظائف الحكومية . وهذا ليس غريباً : فنصب التكريم التي أقيمت تنفيذاً لقرار «المجلس والشعب» أو المجلس فقط تدل على أن هذين الجهازين كانا لا يزالان قوين بما فيه الكفاية وبالتالي كان - يمكن استخدامهما في بعض الحالات لخدمة مصالح الدوائر الحاكمة . ويثبت مثال سيبتم فورودا أنه كانت لممثلي الفئات الحاكمة القرييين من العائلة الحاكمة مصلحة في تدعيم أجهزة سلطة البوليس . ونعتقد أن السبب في ذلك يكمن في أن نظام البوليس هو النظام الأنجع والأكثر فاعلية لتحقيق سيطرة تلك الفئات .

البنية الادارية لانطاكية

وفي انطاكية أيضاً كان المجلس والاجتماع الشعبي - جهازي السلطة الجماعية . وهذا ما تحدثنا عنه المصادر التي وصلتنا من هذه المدينة . فيذكر تاتسيت الاجتماع الشعبي هنا : «عندما دخل الى مسرح الانطاكيين ، حيث يجتمعون عادة» وهذا ما رواه مرآت عديدة يوسف فلافي . ويؤكد هذان المصدران أن الاجتماع الشعبي كان لا يزال قائماً حتى القرن الثاني الميلادي . ولكن هذه الروايات لم تشر الى المسائل التي كان يناقشها ويقرها الاجتماع .

أما فيما يتعلق بالمجلس فيعود تاريخ تقاليد الانطاكية ، كما جاء في خطب لبيانوس الى زمن الاجداد . حيث يشير ملالا الى أن أول من بنى مجلساً في انطاكية هو انطوخ الرابع ابيغان . ولكن يبدو أن هذه الرواية تحتاج الى دراسة خاصة . يقول ملالا : «هذا الملك ، انطوخ نفسه ، الملقب ابيغان هو أول من أسس في انطاكية ما يسمى . بمجلس خارج المدينة حيث كان يجتمع هنا كل السيناتورية سوية مع أعضاء المجلس وكل سادة المدينة وقد بحثت هنا كل الأحداث الهامة الراهنة . وكان يتوجب على المجتمعين أن يصيغوا له القرارات الواجب اتخاذها» . كما نرى ، يدل هذا النص على وجود جهاز تشريعي تابع للملك نفسه ويتألف من مستشاريه وكبار موظفيه وكذلك من أعضاء المجلس وأغنياء انطاكية . وما يميز أعمال هذا الجهاز أن كل قراراته كانت تحول إلى الملك ليبت فيها . وعليه لا يمكننا القول أن

المجلس كان مجلس انطاكية . ومع ذلك فإن ذكر oi politeyomenoi دليل صريح على وجود مجلس في المدينة كان له دور ملحوظ في حياتها السياسية .

ويشير ملالا نفسه الى رواية أخرى عن تأسيس المجلس ولكن هذا التقليد يرتبط الآن - حسب روايته - بنشاط بومبي في انطاكية . ومن الواضح أن المقصود هنا هو بناء دار لمجلس المدينة . فإقامة بناء خاص له كان من شأنها أن تؤكد على الاهتمام الذي أولاه المحتلون الرومان لجهاز السلطة هذا وفي الوقت نفسه لفاعلية هذا الجهاز . ويؤكد أحد المصادر على وجوب ارسال نسخة من المرسوم إلى «مجلس وشعب» انطاكية .

لقد جاء في خطبة ليبانوس المذكورة أنه في المراحل المبكرة من تاريخ المدينة كان المجلس يضم ممثلي الطبقات الغنية من سكان المدينة . وكان المجلس حسب الخطبة المذكورة - يراقب الحياة الاخلاقية في المدينة . وهو يقود كل نواحي الحياة فيها بما في ذلك عمل الموظفين .

ولسوء الحظ أنه لا تتوفر لدينا أية مصادر ، تعود لعصر البريتنسبات وتسمح لنا بمعرفة طرق وتقاليد تشكيل نصاب المجلس . ولكن المواد الأكثر حداثة تسمح لنا بتحديد فئتين داخل مجالس القرن الرابع : أولئك الذين ينتسبون من حيث المنشأ الى الفئة المعنية وأولئك الذين جرى ضمهم الى المجلس عن طريق التعيين بناء على قرار المجلس نفسه . وعلى صعيد آخر لا تتوفر لدينا أية معلومات عن المرحلة التي أصبحت فيها عضوية المجلس وراثية . ولكننا نستطيع أن نعتقد أن نشوء هذا التقليد بدأ يشق طريقه تدريجياً منذ عصر البريتنسبات نتيجة لاكمال نصاب المجلس من أوساط دوائر محدودة جداً من العائلات ذات النفوذ . ولكن الوراثة هنا ، بحد ذاتها ليست اجراء فنشوءها ووجودها لم يتعارضاً إطلاقاً مع واقع اتخاذ قرار خاص حيال كل شاغر في مقاعد المجلس ونحن لا نعتقد أن نظام التعيين في مجالس القرن الرابع قد نشأ في القرن الرابع نفسه . وبما أن كل نشاط المجلس يعود في أصله الى عصر البريتنسبات وحتى الى مرحلة مبكرة أكثر - العصر الهلنستي فيجب أن يكون اجراء التعيين هو الآخر يعود بمنشئه الى القرن الأول - الثالث وقد يكون الى عصر الاستعمار اليوناني لسورية . وهكذا نستطيع القول أن نظام التعيين في المجلس كان قد وجد في سورية ، وخاصة في انطاكية منذ القرن الأول - الثالث . ونعتقد أننا لانحتاج لشرح ديمقراطية هذا النظام . أما فيما يتعلق بالاجتماع الشعبي فيقول ليبانوس أن نشاطه كان يتوافق عملياً مع قرارات المجلس وليس صدفة أن يقول رجل كليبانوس أن الاجتماع الشعبي «عندنا» يذكرنا بالأطفال أما المجلس فيذكرنا بالآباء .

الواقع أن وصف لبيانوس يرسم لنا صورة مثالية وهذا سببه الطابع الدفاعي الذي تمتاز به خطبته وإضافة إلى ذلك يعود وصفه هذا الى نهاية القرن الرابع ولكنه على أية حال يعطي وصفاً واضحاً للعلاقة المتبادلة بين مجلس انطاكية واجتماعها الشعبي ووظائف كل منها . وما يثير الاهتمام أن لبيانوس كان يستطيع حينها أن يتكلم عن هذين الجهازين كفاعلين .

وفيما يتعلق بالوظائف الجماعية هنا فنحن لا نعرف إلا القليل القليل . يذكر بلوتارخ الارخونت - في انطاكية - وتذكر بعض الوثائق الأخرى مسؤولي الشؤون الزراعية . وعليه يمكننا أن نعتقد أن الوظائف الجماعية في انطاكية كانت شبيهة - من حيث الخطوط العامة - بمثيلتها في تدمر .

البنية الادارية لمدينة دورايوروبوس .

لا نزال حتى الآن نفتقد الى الوثائق التي يمكن أن تساعدنا في الفاء الضوء على نشاط الاجتماع الشعبي في دورايوروبوس ولكن ، على ما يبدو أن غ . كوشيلينكو يحق في اعتقاده بوجود مثل هذا الاجتماع ابان العصر السلوقي . كما ولا يستبعد أن يكون النقش ED,II,PP.86 -

المؤرخ عام ١٦٠ م . تأكيداً لهذا الاعتقاد . حيث يقول النقش أن «البوليس» يقيم هيكلاً «لنفس المعظم» . وفي معرض تعليقه على نص هذا النقش كان ك . غوبكنيز جذراً للغاية عندما قال أن مصطلح *epolis* لم يعن فقط *eBoyle* وإنما يعني أيضاً *demos* . وعلى أية حال فإن بناء السوق التجارية ابان سيطرة البارفانيين والرومان في دورايوروبوس لا يعني بالتأكيد وقف عمل الاجتماع الشعبي الذي كان من الممكن أن يعقد في المسرح ، مثلاً - كما هي الحال في بقية المدن السورية . أما عمل المجلس فتوضحه الوثائق بشكل أكثر تحديداً . حيث يؤكد النقش ED,III,D,14 المقام على شرف يولي دمنه أن المجلس أقر إقامة هذا النصب . كما وتذكر نقوش أخرى أعضاء المجلس وهم يحملون أسماء سورية علماً أنهم يحملون أيضاً حق المواطنة الرومانية .

لقد اتصف نظام الوثائق الجماعية في دورايوروبوس بالطابع المتميز التالي . فالنقوش تشير دائماً الى الاستراتيجيين - كبار موظفي جهاز الدولة ، أحدهم ، وهو سلوقس بن ليسبي ينتمي إلى أعرق عشيرة في المدينة . ويذكر أحد نقوش القرن الثالث *dtoateu poleos ueneakhes* وبعض المصادر يكون الاستراتيجي نفسه الكاتب . ويعتقد كوشيلينكو أن

هذا الجمع بين الموظفين عائد لتعدد جهاز الدولة ابان السيطرة البارفانية وجدير بالذكر أنه كان يجري انتخاب الشخص الذي سيقوم بمهام هاتين الوظيفتين من قبل الاجتماع الشعبي .

مواد عن البنية الادارية لباقي المدن السورية .

يلزمنا شح المعلومات المتوفرة لدينا عن البنية الادارية للمدن السورية الأخرى أن ندرس هذا الموضوع بشكل جماعي يشمل هذه المدن كلها مجتمعة . وفي نفس الوقت تسمح لنا هذه الطريقة أن نرسم صورة عن الشكل البنوي السائد في النظام الاداري لهذه المدن . وهذا لا يعيقنا أبداً أن نشير الى الخصائص المحلية إن وجدت .

تعتبر الرسائل التي وجهت إلى المدن السورية بمختلف المواضع الشاهد المتكرر على وجود المجلس والاجتماع الشعبي (وأحياناً المجلس وحده) فمثلاً ، غاي يوليوس قيصر وجه رسالته الى «الارخونت الصيداويين والمجلس ، والشعب» (FL.LOS.,ANTT,14,190) . ويؤكد النقش IRR,III,10,3 على وجود هذين الجهازين في صيدا في القرن الثاني من القرن الثاني الميلادي . وتحتوي رسالة مارك انطوني إلى صور صيغة مماثلة : «إلى الارخونت الصوريين والمجلس والشعب تحية» (Fl.los.Antt,14,314) . وتجدر الإشارة هنا الى النقش IRR,I,421 الذي يحوي مقتطفات من محاضر اجتماعات المجلس . اذ يرافق تأريخ هذا النقش بالصيغة التالية : «أبان مناوبة فاليري قوليقراط بن بافساني ، البرويدر» . أي ان برويدرات المجلس كانوا يتناوبون على رئاسته . ومن الطريف هنا طريقة اتخاذ القرارات : تقرأ رسالة عشيرة البوتولييين ويقوم بعد ذلك احد أعضاء المجلس بتقديم اقتراح («قال») ثم تجري صياغة القرار نفسه بالثناء على كلمة مقدم الاقتراح («حسنأ قال فلان») . ومما له أهمية خاصة هنا أن قرار المجلس - جواب على الرسالة الموجهة الى «الارخونت» والمجلس والشعب سيّد الوطن» .

تتوفر لدينا مجموعة كبيرة من النقوش التي أقيمت تكريماً لأشخاص بارزين في مختلف مجالات الحياة وقد أقيمت هذه النقوش بناء على « قرار المجلس والشعب » في مختلف المدن السورية . ونورد هنا مثلاً ، تلك النقوش التي وصلتنا من مدينة أرواد (Igr,III,1015,1017,Wadd) ومن مدينة - 1840- (Ogis,587,119,Ctl,III,14165.CIVITAS et bule aradia) ومن بيروت (IRR,III,1450,WADD,1814 D) ومن مريجة (exdecr/eto/dec/urionum/et/

Jmi,V 2106, (po/ pu/ i voluntate) فحص عام ١٩٥ ، ومن أفاميا (عهد كركلا ، JMI,1346) وهناك نقوش أخرى نقرأ فيها كلمة « شعب » . وقد وصلنا أحدها من ارواد ويعود تاريخه الى منتصف القرن الأول الميلادي (Igr,III,1018) كما وصلنا نقش آخر من عينا (Igr,III,1142) وهناك حالات لا يتضمن النقش فيها سوى ذكر المجلس .

لقد كان من المغربي جداً أن نستنتج من هذه الحالات ازدياد دور المجلس أحياناً ودور الاجتماع الشعبي أحياناً أخرى ولكن المصادر المتوفرة لدينا تحرمنا من مثل هذه المتعة . وعلى أية حال فإننا نقترح ترك هذه المسألة مفتوحة لحين ظهور مواد جديدة .

ففي بعض الحالات تصادفنا ترمينولوجيا (علم المصطلحات) فريدة . فالنقش Igr,III,1185 121/2 من سلوقية بيرية يستخدم صيغة غير عادية -O'demos kai epro- boule التي يقارنها الناشر بالصبغتين الواردتين في رسائل ابولون تريانسكي : Seleu- keon tots proboulois و Kaid sape on proboulois وكان يجب أن نضيف الى هذا مقاطع من مؤلفات فيولون الاسكندراني حيث أعضاء المجلس والبروبولي (أعلى بدرجة من أعضاء المجلس ولكنهم أعضاء في المجلس أيضاً - المترجم) يتمتعون بحقوق غير متساوية ويعتقد فيلون أن محاولة مساواتهم سوف تكون سبب القلاقل والكوارث . ولكن مثل هذه المقارنة تلقي ضوءاً ضعيفاً على البروبولية كجهاز من أجهزة السلطة . ومع ذلك فالناشرون لهذا النقش يعتقدون أن الجهاز السلطوي المذكور كان يوجه عمل المجلس وكان كل عضو من أعضائه يحمل لقب Proboulos . ومع أن هذا الاعتقاد معقول إلا أنه يثير الشك . فلو كان الأمر كذلك فعلاً لتوجب علينا أن نعترف أن مثل هذا (المجلس الرئاسي) داخل مجلس المدينة يستطيع تقديم اقتراحاته مباشرة الى الاجتماع الشعبي متخطياً أعضاء المجلس . ونحن نعتقد أن هذا الإجراء غير وارد وهذا ما يؤكد عدم إشارة أية وثيقة إلى ذلك . ولذلك فنحن نرى أن هذه الترمينولوجيا الغير عادية لا تعني سوى أن المجلس الرئاسي في سلوقية ، بيريا كان يتمتع بمثل هذه الصلاحيات . أي أنه كان باستطاعة هذا المجلس أن يتخذ القرارات الضرورية بهذا الشأن أو ذاك قبل عرضها على الاجتماع الشعبي لبحثها . وفي نفس الوقت كان الاجتماع الشعبي هو الذي أقر منح اريستولوخ حق المواطنة .

أما فيما يتعلق بنظام الوظائف الجماعية فتؤكد الوثائق على وجود نظام الارخونت في مختلف المدن السورية . وتشير إحداها الى الارخونت انحريب بن مارك الذي استمر في هذا المنصب عاماً واحداً وبالتالي فنظام الارخونت هنا كان سنوياً . ويؤكد النقش Ogis,587 وقد وصلنا من طرابلس على وجود نظام الارخونت هنا أيضاً . فقد أقيم هذا النقش تكراراً !

لأحد الأشخاص حيث أقامه الارخوننتات « والمجلس والشعب » ويفيدنا يوسف فلافي أن هذه الوظيفة حافظت على وجودها في صور حتى القرن الأول الميلادي . ويشير هذا النقش أيضاً الى أن « ارخونت صور » كان يلعب دور المنفذ لتعليمات انطونيوس حيث كلفه هذا الأخير بمعاينة اليهود الذين انتفضوا ضد هيرودوس . ولكن هذا لا يعني أنه لم تكن لدى ارخونت صور مجالات مستقلة لنشاطه ولكن الظرف الراهن فرض عليه أن يتصرف ضمن هذه الدائرة . لقد كان نظام الارخونت معروفاً في بعلبك أيضاً حيث كانت توجد هنا لجنة ارخوننتات مؤلفة من ثلاثة أشخاص .

وترتدي أهمية خاصة تلك الوثائق التي وصلتنا من مدينتي بصرى وجرش . وخاصة النقش Igr,III,1376 : « حظاً سعيداً . في عام ١٢٩ من عالم اغسطس في عهد ابولون بن اريستون البرويدر بن ديمتري ديكابروت - المدينة مدى الحياة وانطوخ بن اون وقيصر الكاتب » . ولكن بما أن النقش مؤرخ في عام ١٢٩ أي بعد معركة اكتيوم لذلك يجب أن يكون تاريخه عائداً لعام ٩٨ م . وهذا ما جرت الإشارة إليه في التعليقات التي رافقت نشر النقش . ويؤكد النقش المذكور أن عدد الارخوننتات في جرش لم يكن أقل من ثلاثة ولكن واحداً منهم فقط كان ارخوننتاً بكل معنى الكلمة . فالأول من هؤلاء الثلاثة كان برويدر والثاني ديكابروتاً مدى الحياة . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه : هل ارخوننتية هذه المجموعة مرتبطة بتنفيذ مهمات هذه المناصب ؟ بعضاً من الضوء على هذه المسألة يلقيه النقش G.74 (عام ٢٥٩) حيث تقول صيغة التاريخ Kaisynar-khias aytoy Gamoy arkhontos kai Malkmaioy epi urammatias maronos abiboy ونرى هنا أن ملاك جماعة الارخونت لا يتطابق مع ما ذكرنا أعلاه وهذا لا يمكن أن يكون إلا نتيجة لاصلاح داخلي . فالنص الذي أوردناه هنا يضع الكاتب في المكان الأول وعلى ما يبدو أنه قد طرأ تغير ملحوظ على المكانة والدور اللذين شغلتهما هذه الوظيفة في منتصف القرن الثالث الميلادي : فقد اتسع مجال الصلاحيات المعطاة لصاحبها وأصبح يدخل في عداد جماعة الارخونت . وفي نفس الوقت لم يكن لا البرويدر ولا الديكابروت في عداد الارخوننتات . ونحن نعتقد أن جماعة الارخونت في جرش كانت تضم في عدادها أشخاصاً لهم صلاحيات متباينة ولكن تغيراً ملحوظاً وتدرجياً طرأ على تركيب ملاك هذه الجماعة .

على سعيد آخر نصادف وضعاً مماثلاً في بصرى نقله إلينا النقش Igr,III,1325 . المؤرخ في عام ١٨٨ م . تقول الصيغة التاريخية لهذا النقش : « في عهد سابينه بن امريل ،

البرويدر للمرة الثانية ، والارخونيات » . ويلفت النظر هنا أن الشخص المذكور بالاسم لا يحمل لقب Arkhon الذي يعتبر أنه يحمله حكماً (وإلا لكان ذكر الارخونيات المشاركين له في الحكم غير مفهوم) . وهنا يجب الاعتراف أن البرويدر يعتبر في نفس الوقت ارخونياً من حيث المركز الذي يشغله . وعلى أية حال بين أيدينا نقش آخر من بصرى (Wadd,1910) مؤرخ عام ٣٢٠ م . ، تأسيس معبد Xeilonos Malkmionos arkmonton ek pronoiias kai spoydes meuezioy b' kai أن تكون لها أية وظائف أخرى .

لكن المسألة المعقدة حقاً هي عندما يجمع شخص ما صلاحيات الارخون والديكابروتية مدى الحياة . وإذا اعترفنا أن الارخونية كانت وظيفة جماعية محدودة زمن معين (إذ أن كل المواد المتوفرة لاتعطي أساساً لتصور آخر) فإن إمكانية جمع هاتين الوظيفتين في شخص واحد أمر غير وارد أبداً . ويلفت النظر هنا الشرط التالي : Dekprotoy dia bioy نعتقد أن هذا الاشتراط يفترض خروجاً على القاعدة المعمول بها وإذا كان الأمر كذلك فالديكابروتية وظيفة محدودة زمن معين . وعليه يبقى من غير الواضح كيفية جمع هاتين الوظيفتين مع العلم أن الشخص الذي أصبح ارخونياً - حسب النقش المذكور - كان قد أصبح ديكابروتياً على هذا الأساس بالذات .

يفيدنا النقش Seg XIV,826 (قرب أبو كمال ، عام ٢٢٧ م .) في معرفة طباع الوظائف الإدارية التي يقوم بها الارخون : ثلاثة أرخونيات ، أخلب ، تيرادات وبوروسين يقرون عقوبة ما (النص هنا تالف) لأشخاص حاولوا رمي القاذورات في مدخل المعبد . وهذا يدل على أنه كان باستطاعة الارخون أن يتخذ قرارات إدارية بمبادرة شخصية ، مع أنه يعتمد هنا على إرادة الآلهة .

إلى جانب هذا كان مصطلح « الاستراتيجي » يحظى بانتشار واسع وكان يستخدم للدلالة على أهم وأعلى (أو إحدى أهم وأعلى) وظيفة في المدينة . ويبدو أن هذا المصطلح واسع الدلالة ذلك أنه يستخدم في مختلف الحالات حتى عندما لا يتعلق الأمر بمنصب حكومي . ويروي يوسف فلافي في هذا المجال أنه أثناء الصدامات التي جرت بين اليهود وسكان غزة كان استراتيجي غزة ، ويدعي ابلودوت يقود فيلقاً من المحاربين قوامه ثمانية آلاف محارب بالاضافة إلى عشرة آلاف عبد وقام بمهاجمة معسكر اليهود . ولا شك أن الاستراتيجي هنا ليس أعلى منصب في المدينة فهو يقود قسماً من الجيش وقد يكون كله . وغالباً ما أطلق على الاستراتيجيين لقب موظفي الملك الذين يعهد إليهم بحكم مقاطعة ما من المملكة .

ولكن غالباً ما كان الاستراتيجيون مجرد أشخاص مسؤولين في المدينة وفي أحيان كثيرة كانوا يتابعون ارتقاءهم في سلم المسؤوليات هذا . فهناك أحد النقوش الذي أقيم تكريماً لشخص ما لم يصلنا اسمه كاملاً فيعدد النقش المسؤوليات التي اضطلع بها هذا الشخص المذكور : استراتيجياً ، ارخونياً ، سفيراً لدى الامبراطور الإلهي ، كاتباً ، مسؤولاً للشؤون الزراعية ثم ديكابروتاً . من الواضح كل الوضوح أن هذا الشخص بدأ حياته ديكابروتاً وانهاها استراتيجياً . والأمر الجوهري الآخر أن وجود الاستراتيجية في المدينة لم ينف وجود الارخوننتية مع أن هذه الأخيرة لم تعد تحتفظ بالمكانة الأولى في سلم المسؤوليات . وتجنّدر الإشارة هنا الى النقش Gmi, V, 2114 من مرمية (حمص عام ٢٧٢ / ٣ م) وهو عبارة عن شاهدة على قبر شخص يدعى مارك وقد كان هذا استراتيجياً وعضواً في المجلس في نفس الوقت . ويروي لنا النقش lgr, III, 1125 من الشعرة أن الاستراتيجية يمكن أن تكون جماعية أيضاً حيث يذكر هذا النقش ثلاثة أشخاص استراتيجيين قدموا هدية مشتركة . ويدل أحد النقوش أن الاستراتيجية كانت معروفة في صيدا الى جانب الارخوننتية . ويظهر النقش السوري المعروف عن بيع عبدة (الرها) Depp, 28 أن الاستراتيجية كانت المنصب الأكبر في هذه المدينة وكانت جماعة الاستراتيجيين تتألف هنا من شخصين وعلى ما يبدو أنه كان يمكن تجديد هذه الولاية لعدة مرّات وكانت كل فترة من هذه الفترات تسمى باسم الحاكم . يقول النقش lgr, III, 1137 أن الفترة التي حكم فيها اسكندر سيفير قد سميت باسمه أيضاً .

لا شك أن أسباب تقديم هذه الوظيفة الجماعية الى المراتب الأولى واضحة . فقد نشأت تلبية لضرورة تنظيم حروب دائمة وسريعة ضد البدو أو ضد أعداء آخرين ، وقد أشرنا الى ذلك عند حديثنا عن تدمير . وهذا الطابع العسكري هو الذي حدد مكانة هذه الوظيفة في حياة المدينة . ولكن نقول سلفاً أن حلول الارخوننت محل الاستراتيجية لم يأت نتيجة لانقلاب ما . ونحن نعتقد أن تمرّكز السلطات في أيدي الاستراتيجيين يعتبر نتيجة طبيعية لتطور الجهاز الإداري .

وغالباً ما تشير المصادر إلى ما يسمى الابينمليتيين وهؤلاء يقومون ، عادة بدور المنفذ لقرارات سلطات المدينة وخاصة في مجال البناء وإقامة نصب التكريم وغير ذلك . ويبرز في هذا المجال النقش lgr, III, 1138 من عيطة . يقول النقش : «إيلي مكسيم ، حاكم المدينة ، أسس للوطن عبر هيرودورس بن هيرودورس ، المقرب إليه وعبر فيليب بن المالح ووعداً بن عقربان ، الابينمليتيين» . يفيدنا هذا النقش أنه حتى هذا المكسيم الذي يشغل أعلى مراكز السلطة لا يستطيع تنفيذ أعمال البناء في الوطن ولصالح الوطن إلا إذا اعتمد أولاً

على المقربين إليه وثانياً على الاییمیلیتیین . وبما أن النص يستخدم علامة الاضافة DIA فهذا يعني أن هؤلاء يعتبرون المنتجين الرئيسيين لأعمال البناء المذكورة .

ولكننا نعتقد أنه من المعقول أكثر أن يكون هيرودوس بن هيرودوس هذا متعهداً عهد إليه ايلي مكسيم بعمليات البناء المذكورة في الوقت الذي كانت فيه مشاركة الاییمیلیتیین في هذه العملية تنفيذاً لمهام وظيفية . ويذكر النقش اثنين من هؤلاء أي أننا أمام وظيفة جماعية مع أن هذه الجماعة تتألف من شخصين فقط .

وقد وصلتنا إشارات مماثلة من المناطق الأخرى في سورية . فيذكر أحد النقوش التي وصلتنا من قمري (حمص) عام ٢٢٦ م . اثنين من الاییمیلیتیین البناء . وفي نقش آخر من نفس المنطقة (عام ١٩٦ م . برج الكاي) يجري ذكر ستة أشخاص أحدهم ايبيميليت أقاموا معبداً « عبر الاییمیلیت الذي ذكرناه سابقاً » . وفي هذه الحالة الاییمیلیت ليس سوى الرجل المفوض من قبل السلطة للإشراف المباشر على عملية البناء هذه . نفس الوضع يشغله الاییمیلیتیین من أفاميا والمسيفرة وفيليبوبول وحلبون (النصف الثاني من القرن الاول) ونشير أيضاً الى النقش الذي وصلنا من كفر نيبا Igr,III,1009 عام ١٢٤ م . يروي هذا النقش عن مقدمة « سيمي وسيميتيل وليونت الى آلهة الوطن) معصرة لعصر الزيت من عائدات أملاك معبد هذه الآلهة . وما يهمننا خاصة هنا هو تعداد الأشخاص الذين لهم علاقة مباشرة في بناء وتجهيز هذه المعصرة : « عبر الاییمیلیتیین نمري وبيريون وداري وكلافي وانتوني - المعلمين في قطع أحجار المرمر وليذكر أيضاً دوميتان - النجار - وغاي وسلوقس - النجارين » ونستطيع أن نميزين هؤلاء فئتين : الحرفيين الذين كانوا على رأس العمل مباشرة ثم ممثلي السلطات في المدينة (الاییمیلیتیین الذين أشرفوا على سير العمل . ويبدو أن قائمة الاییمیلیتیین هنا كاملة وتتألف من أربعة أشخاص . ويظهر النقش Igr,III,1360 من جرش أن جماعة الاییمیلیتیین هنا تضم خمسة أشخاص . ويقول النص الذي يرافق النصب الذي أقيم لاسكندر سيفير من قبل « المدينة عبر الاییمیلیتیین ماركوف افريلييف انتوني بن مارك - فارس ، كلافي بن كوماخ ، فييسان بن أوس وليكين بن مارس ويوست بن انتوني » .

وكان يحدث أحياناً أن يجمع شخص واحد وظيفة ايبيميليت ومهام وظائف أخرى . فأحد النقوش التي وصلتنا من دفنة يحتوي على الصيغة التالية : « عندما كان ليكيني مكسيم ايبيميليتاً وكاتباً » .

من جهة أخرى تسمح لنا النقوش التدمرية المكتشفة في منطقة نبع إفقة بمعرفة المرادف السامي للكلمة اليونانية Epimeletes حيث يحتوي أحدها الصيغة التالية : « ابيميليت نبع إفقة الذي اختاره الإله يرخبول » . وما يلفت النظر هنا أن الآلهة هي التي اختارت هذا الشخص لشغل منصب الابيميليت وهذا ينفي إمكانية أية مشاركة شعبية أو تدخل من السلطات المحلية في انتخابه أو تعيينه . وهذا يمكن فهمه على ضوء الوضع الخاص الذي يتمتع به نبع إفقة كمركز محلي له صفة القداسة .

لقد لعب الأساقفة دوراً ملحوظاً في بعض المدن السورية . فالنقش U'dd,1990 من صلخد (عام ٢٥٢) يتضمن ذكر أربعة أساقفة Halmos Naemoy Ssabaos Se'khmoy Bassos Oylpioy Bord OS Saireloy أقاموا بناء سددت نفقاته من خزينة المعبد . ويعطينا النقش Igr,III,1075 بعضاً من تصور عن مهمات الأساقفة . منشأ النقش قلعة جودل حيث يذكر « مراقب لكل الأعمال القائمة هناك » وبناء عليه يصبح الاستنتاج القائل بأن المراقبة كانت تدخل ضمن مهمات الأساقفة صحيحاً وتوصلنا بعض النقوش التي وصلتنا من عدرا إلى خلاصات مماثلة . فأحد هذه النقوش يرافق النصب الذي أقيم على شرف غاليين وعلى نفقة الامبراطور . ولكن المهم بالنسبة لنا هنا هي القائمة حيث تتضمن تعداد مواطني عدرا الذين لهم علاقة بهذه العملية : « تحت قيادة فير - المعماري ، وكان البرويدر ماغن بن باس ، أبان مطرانية ايليا بن باسوس وزينودور بن تاورين وسابين بن غيرمان كان منهم أيضاً » وفي نقش آخر بقيت فيه الصيغة التالية فقط « عندما كان اسقفاً » . وهكذا يتضمن النقش Igr,III,1287 إشارة الى ، أولاً - معماري وهو يشارك مباشرة في عملية البناء ، برويدر وثلاثة أساقفة (الأرجح أن هذا هو الملاك النهائي للجماعة) مسؤولين عن إدارة العمل .

لدينا أيضاً وثائق تدل على أن مجال نشاط الأساقفة كان يطال مناح أخرى . فقد كانوا موظفين يهتمون بشؤون تجارة الخبز وغيره من المواد الغذائية الأخرى . وهنا يبدو أن مهامهم تنطبق مع مهام الابيميليت .

ونحن لانعتقد أن هذا التطابق جاء مصادفة . كما نعتقد أن الاقتراح القائل بأن هذه المهمات كانت في بعض المدن من اختصاص الأساقفة وفي الأخرى من اختصاص الابيميليتيين هو قول مرفوض . ومن جهة أخرى يجب الاعتراف أن المصادر المتوفرة لاتسمح لنا باستخلاص أية نتائج نهائية بخصوص هذه المسألة التي ستبقى مفتوحة للحوار .

لقد كانت الديكابروتية منتشرة في كثير من المدن السورية . فمن جرش وصلنا نقش يروي أن أحدهم كان ديكابروتاً لهذه المدينة مدى الحياة . ولكن المصادر تدل على أن الديكابروتية هي المركز الأقل أهمية في سلم الارتقاء الاجتماعي في المدن السورية إبان الاستعمار الروماني . فيها كان يبدأ عادة Cursus Honorum وليس صدفة أن سمحت القوانين الرومانية لمن هم دون سن الخامسة والعشرين بشغل هذا المنصب ، حيث اشتملت واجباتهم على البحث عن اتاوات وتحقيق عملية تأديتها وخاصة تلك التي تتعلق بالعمل العضلي ، وكذلك تعويض الخسائر التي قد تتعرض لها الخزنة الامبراطورية نتيجة تلوث هذا الشخص أو ذاك ممن كانوا يؤدون اتاوات كبيرة ولذلك فقد كان يتم ترشيح هذا الشخص أو ذاك لشغل هذه الوظيفة على أساس الحالة المادية التي تتمتع بها عائلته .

وهكذا نرى أن الديكابروتية مدى الحياة ترتبط بسعي الجماعة المدنية لالقاء مسؤوليات تنفيذ هذه الاتاوات أو تلك على عاتق عائلات غنية ولفترة طويلة . وهكذا نعتقد أنه هنا بدأ تمهيداً ، المظلة الحكيمية في المدينة من « امتياز » إلى اتاوة .

الفصل السادس

الشخصية السياسية للمجتمعات السورية في القرن ١ م .

يبرز أبيان من بين التشكيلات السياسية التي تخضع لروما بهذا الشكل أوداك الوحدات التالية : الممالك التي يجمعها اتحاد ، البوليسات التي تربطها بروما معاهدات ، الاتحادات المعفاة من تأدية الاتاوات ثم الوحدات التي تتمتع بحكم ذاتي . ونصادف نفس الاشارات لدى سيفير : « لقد كان لدى الأجداد إما ملكيات أو اتحادات أو وحدات حرة » . ونحن نرى أن سورية لا تشكل استثناء في هذا المجال . فهي لم تكن وحدة متجانسة ابان فترة خضوعها للاستعمار الروماني . فإلى جانب سورية كمقاطعة كان هناك عدد من الوحدات الدولانية التي وإن كانت تخضع لروما إلا أنها لم تكن من ممالك المقاطعة . بل كانت تحافظ على كثير من صفات الاستقلالية السياسية . وهذا ما تشير اليه مصادرنا مراراً . يقول قيصر : ان يومي فرض الاتاوات على الملوك والحكام والمرايعين (حكام جزء من المقاطعة يشكل ربع مساحتها - المترجم) في سورية . وتوجد لدينا اشارات مماثلة في عدد آخر من المصادر .

وفي هذا الإطار نجد معطيات أكثر تفصيلاً عن هذا الموضوع لدى ابيان الأكبر . فهو يعدد المربعين التاليين : تراخونيتيد ، باننيه ، أبيلو ، أركو ، اميلوسو ، كابي مرابعي وديكابوليس (plin,NH,5,77) ومربعيه (Nazerinrum) ثم مربعتي (Granucomatae) . ويقول بليان أنه كانت توجد على الأراضي السورية ١٧ وحدة - دولة أخرى . ففي الرها كانت تحكم أسرة عربية منذ عام ١٣٣ ق . م وقد استمر حكمها حتى سقوطه على يد كركلا في بداية القرن الثالث م . ويحدد ديون كاسوس الشخصية السياسية لملك الرها على الشكل التالي : « لقد أصبح في عهد بومبي حليفاً لروما » . وخلال فترة زمنية طويلة كانت كوجين والنبطية تتمتعان باستقلال شكلي . وسوف نرى أن السلطات الرومانية قد سعت جاهدة لدمج مثل هذه الوحدات السياسية في المقاطعة .

من جهة أخرى نرى أنه حتى في الأراضي التي كانت تخضع مباشرة لسلطة روما كانت توجد أيضاً مجتمعات ذات شخصيات سياسية غير متجانسة : مستعمرات مدن حليفة لها

حق جمع الضرائب . وتتصف السياسة الرومانية في سورية باعطاء حقوق الحلفاء للمدن المحلية والمستعمرات و« الحقوق الايطالية » . حيث يعدد أولبيان المستعمرات السورية التالية التي حصلت على « الحقوق الايطالية » : صور ، بيروت ، بعلبك ، اللاذقية ، تبوليمايد ، حمص ، وتدمر . ولكن في الحقيقة كانت هذه القائمة أكبر من ذلك بكثير .

وتسمح لنا المصادر أن نتبع الوضع الحالي في احدى المقاطعات السورية المركزية - تدمر التي لعبت دوراً هاماً في الحياة السياسية في الفترة ما بين القرن ١ - ٣ م . ذلك أنها كانت تشغل مكانة هامة للغاية على حدود الممتلكات الرومانية والبارفانية .

وحتى الآن لم يتشكل لدى الباحثين رأي موحد بخصوص الشخصية السياسية التي كانت تتمتع بها تدمر . فقد أشار مومزين في حينه إلى أن تدمر وإن كانت تعتبر مستعمرة رومانية إلا أن تبعيتها للامبراطورية كانت ذات طابع فريد تذكرنا ، على الأرجح بالممالك التابعة اسمياً لروما . وتقرب وجهة نظر روستوفتسف من حيث الجوهر من هذه فقد كتب هذا الأخير يقول : « تجدر الإشارة الى أن تدمر لم تكن في يوم من الأيام مدينة تابعة للمقاطعة الرومانية لا بعد اديان ولا بعد سيبتيم سيفير وعندما حصلت على وضع مستعمرة . . . كانت تتمتع بقدر ملحوظ من الاستقلالية . ولكن الحكومة الرومانية أدخلت تدمر في مجال حمايتها تماماً كما أدخلت القرم ضمن حدود مدينة خرسونيس مع أن حامية المدينة والقلاع التي كانت تدافع عن حدودها ضد البارفانيين . . . كانت تتألف من قوات اضافية جرى تجنيدها في المدينة وداخل حدود تدمر » . والواقع أن روستوفتسف انطلق في أعماله المبكرة من موضوعه مفادها أن تدمر كانت خاضعة كلياً لروما . وهذه الأخيرة هي أيضاً وجهة نظر فيفريه الذي يرى أن رومانيا كانت قد ضمت تدمر بعد عام ١٠٦ م (وهو تاريخ تشكل المقاطعة العربية وتاريخ احتلال دمشق ، حسب رأيه) وقد ربط الباحث هذا الضم بحملة تاريان ضد البارفانيين عام ١١٤ - ١١٥ م . وقد أكد سييرغ في معرض نقده لوجهة نظر فيفريه هذه على : أولاً - عدم دقة البناء التاريخي من حيث تسلسله وذلك عندما أشار إلى أن دمشق صكت في عام ٦٢ ٦٥ وكذلك عام ٧٥ م . نقوداً عليها رسم نيرون وهذا يعني أن دمشق عندها كانت قد دخلت تحت سيطرة الامبراطورية ، ثانياً - عدم الدقة في تفسير المواد الايبوغرافية . ويؤكد سييرغ أن تدمر عام ٧٥ م . كانت قد أصبحت مستعمرة رومانية . ولكنه هو نفسه يؤكد أيضاً على عدم الوضوح في مسألة الشخصية السياسية لتدمر منضماً بذلك لوجهة نظر روستوفتسف .

في عام ١٩٣٧ بدأ شلومبرجه دراسة دقيقة للائحة التعرفة الجمركية التدمرية وقد

تصدي بدوره لحل هذه المسألة « العويصة » . ويعتقد الباحث أنه بغض النظر عن أن بعض مقاطع هذه الوثيقة تحوي اشارات تخص القواعد والأصول السائدة في سورية فإننا نستطيع الاعتقاد أنه حتى عام ١٣٧ م . لم تكن تدمر قد أصبحت مستعمرة رومانية بعد . ويعتقد أيضاً أن روما عندما أعطت تدمر بعض الاستقلال السياسي فإنها كانت تسعى من وراء ذلك إلى الحفاظ على خرافة استقلال هذه المدينة .

في عام ١٩٤١ عاد سيرينغ لبحث هذه المسألة مجدداً . وبعد أن تقصى بدقة المصادر المتوفرة لديه توصل الى النتيجة التالية وهي أن تدمر قد دخلت قوام المقاطعة . فكتب الآن يقول : « لم تكن تدمر غريبة عن الامبراطورية أكثر من انطاكية وافاميا . والمقولات التي يرى فيها دولة تابعة تقوم على الأمثلة المتباعدة جداً من حيث جغرافيتها كالشخصية السياسية لبيسبور كيميريسكي مثلاً أو على النظرية العامة لحدود روما . ولا شك أن لهذه الحجج مكانتها ولكن من الأفضل لو دعمتها الوثائق المحلية » . ويرجح سيرينغ أن تدمر أصبحت مستعمرة رومانية في عهد تيبير . وهذه أيضاً وجهة نظر ج . ستاركة وأ . ريتشموند .

ومن المعروف أن أقدم تاريخ وصلنا عن أول صدام بين تدمر وروما كان ابان حملة انطونيوس على روما عام ٤١ ق . م . والرواية الوحيدة عن هذا الحدث وصلتنا في مؤلفات أبيان (APP., B. civ, 5, 9 10) وسوف نورد فيما يلي هذا المقطع كاملاً نظراً لأهميته الخاصة : « عندما أبحرت كليوباترا الى وطنها أرسل انطونيوس فرسانه لنهب تدمر التي تقع غير بعيد عن الفرات متهماً المدينة اتهاماً سخيفاً بمحابتها للرومان والبارفانيين ولكن حقيقة هدف انطونيوس كانت اثراء فرسانه » . ومن هنا يعتقد البعض أن تدمر وقعت تحت سيطرة روما عام ٤١ ق . م . أو حتى ٦٣ ق . م . والواقع أن استخدام كلمة eforioi يدعم مثل هذا الطرح وكأنه يدل على الاستقلالية السياسية لتدمر .

ولكننا نرى أن هذه المسألة أكثر تعقيداً وتتطلب تحليلاً أكثر دقة . فأول ما يلفت الانتباه أن كلمة eforioi بحد ذاتها : أولاً - هي غير صادرة عن ابيان نفسه وانما جاءت في نص انطونيوس عند عرضه للذريعة التي اختارها انطونيوس للهجوم على تدمر ، ثانياً - وهو الأكثر أهمية ، إذ أن موقع تدمر يسمح لها بممارسة وساطة تجارية مربحة للغاية . ومن الطريف أن بليني الأكبر أشار إلى أهمية الموقع الجغرافي لتدمر كنقطة متوسطة بين الممتلكات الرومانية والبارفانية وقد كتب بليني هذا عندما كانت تدمر قد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الامبراطورية الرومانية . فموقع تدمر هذا أعطاها أهمية خاصة أثناء الصدامات المسلحة التي وقعت بين روما وبارفانية . وفي نفس الوقت كان انطونيوس بحاجة الى ذريعة كي يعد حملته ضد تدمر وهذا

يمكن فقط مع وجود مطالبات قانونية ، ما من قبل السلطات الرومانية تجاه تدمير . ولكن المصدر الذي بين يدينا يعالج حملة انطونيوس على خلفية الوضع الذي نشأ في سورية في أعقاب وفاة قيصر . فهو يشير الى أنه بعد هزيمة كراسوس أمام البارفانيين دخل هؤلاء الأراضي السورية وأقاموا علاقات صداقة مع ملوكها . ولكن إقامة قيصر القصيرة في سورية قضت تماماً على هذه العلاقات وعلى مجمل تأثير بارفية هنا . وبعد مقتله عادت هذه العلاقات كما كانت . يقول ابيان أن بارفية قدمت مساعدات كبيرة للملوك المدن السورية . وفي مثل هذا الوضع كان الهدف من حملة انطونيوس عرض عضلات روما وإثبات سلطتها والقضاء على تأثير بارفية في سورية . وليس صدفة أن يشير ابيان إلى أن هذه الحملة كانت سبباً للحرب التي قامت بين بارفية وروما والتي وقف فيها ملوك سورية الى جانب الأولى . استطاع انطونيوس أن يطرد الملوك المحليين الى بارفية (على الأرجح بعد تحطيم جيوش بارفية) وفرض على المدن السورية ، بما في ذلك تدمير أتاوات قاسية جداً . ومن الطريف أن سياسة انطونيوس حيال تدمير والملوك الذين أعلنوا العصيان كانت متماثلة . ولا شك أبداً أن هذه السياسة المتماثلة كانت لها أسباب متماثلة أيضاً .

وعلى ضوء ما قيل نستطيع أن نخلص الى النتيجة التالية . عندما أقام غني بومبي السلطة الرومانية في سورية عام ٦٣ ق . م لم تستطع تدمير أن تهرب من نفس المصير الذي أحاق بقية المدن السورية . ولكن في نهاية الخمسينات وبداية الأربعينات ق . م استعادت تدمير وبقية المدن السورية استقلالها السياسي على أثر دخول الجيوش البارفانية الأراضي السورية . ويجب النظر الى حملة انطونيوس على أنها محاولة لإعادة سيطرة روما على تدمير . وإذا صح هذا البناء يكون الاتهام الذي يوجهه ابيان بأن انطونيوس تذرّع به لمهاجمة تدمير ليس سوى محاولة لتحديد بارفية .

ولكن إذا كان واقع ضم تدمير إلى أراضي سورية - المقاطعة الرومانية منذ منتصف القرن الاول قبل الميلاد قد تم التأكد منه بهذا المستوى من الدقة أو ذاك فإن الوضع القانوني لتدمير في هذه المرحلة غير معروف . ولكننا نستطيع التأكيد مسبقاً أنه إذا كانت تدمير قد وقعت تحت سيطرة روما وحافظت في نفس الوقت على مؤسساتها البوليسية فيجب أن تكون شخصيتها السياسية مطابقة للشخصية السياسية لباقي المدن السورية

لقد أعطتنا النقوش الحدودية العائدة إلى فترة ما بين القرن الاول والثاني للميلاد مواد ثمينة جداً بهذا الشأن وهذا ما نجده أيضاً في لائحة التعرف الجمركية . وينقل إلينا النقش IS,II,3950 معطيات هامة أيضاً .

وأكثر معلوماتنا قدماً عن موضوع رسم حدود تدمير الدولية ترتبط بنشاط كوينت ميثيل كرينيكا سيلان - ليغات سورية من أيلول ١٢/١١ إلى أيلول ١٧/١٦ م . وهذه الحقيقة وحدها تؤكد أن روما كانت قد فرضت سيادتها تماماً على تدمير وأنها احتفظت لنفسها بكل القرارات الهامة في حياة المدينة . (بما في ذلك رسم حدود المدينة) فقد احتفظ الرومان بهذه الصلاحية الهامة جداً بكل دقة وفي المستقبل أيضاً : حيث كانت من مهام ممثلي السلطة الرومانية في سورية والذين كانوا يحكمون باسم الامبراطور .

لم يقتصر تدخل سلطات روما في الشؤون الداخلية لتدمير على ذلك فقط . إذ أنه لدينا معلومات تثير اهتماماً خاصاً عن نشاط غيرمانيك - حفيد الامبراطور تيري في تدمير والذي أقام في الشرق عامين (من عام ١٧ حتى عام ١٩) . وأول مصدر يروي لنا عن نشاطه - هو التعرفة الجمركية التدمرية حين يجري الاعتماد على المرسوم الذي أصدره بشأن تحديد حجم وطابع الضرائب . بمعنى آخر كان على تدمير أن تتخذ من السياسة الضريبية الرومانية مقياساً لوضع سياستها في هذه المسألة . وإلى جانب هذا المصدر لدينا نقشان آخران يرد فيهما اسم غيرمانيك هذا . أحدهما نشره أ . سيريف ويعود تاريخه ، على الأرجح الى العشرينات من القرن الأول ويحتوي النقش على النص التالي (باللغة اللاتينية) : « إلى دروز قيصر ، تيسير قيصر ابن اغسطس الالهي ، قيصر حفيد يوليوس الالهي ، غيرمانيك قيصر أقامه للاباطرة مينوتسي بن تيت ، روف ليغات الفوج العاشر Fretensis » . يتضح من هذا النقش أن الجيوش الرومانية كانت تتواجد في تدمير . أما النقش الآخر فقد أصابه تلف شديد وكان قد اكتشف عام ١٩٣٠ . وفي عام ١٩٣١ نشره كانتينو الذي أرخه في بداية القرن الأول م . ويتضح أن النقش أقيم تكريماً لاحد التدمريين الذي يسمى اسكندر . فقد أرسل هذا الشخص الى غيرمانيك كسفير ، على الأرجح لدى الملك ميسينة سمسير غيرام الثاني وارباز ، ومن ثم لدى الملك سباسينوف خاراكس . ولاشك أن هذه الوثيقة لاتوضح لنا الشخصية السياسية لتدمير ولكنها تحوي اشارات هامة . لقد لجأت سلطات روما ، قبل كل شيء إلى استخدام التجار التدمريين في علاقاتها الدبلوماسية معتمدة على علاقاتهم وتأثيرهم في الجهة الاخرى من الفرات . وفي نفس الوقت تدل مشاركة تدمري في البعثة الدبلوماسية لغيرمانيك على اهتمام هذا الأخير بتحقيق الاهداف التي حددتها لنشاطه في جنوب ما بين النهرين . وأخيراً يدل كل هذا على العلاقات الوطيدة التي نشأت بين روما وتدمير في النصف الأول من القرن الأول .

كما وتعتمد لائحة التعرفة الجمركية على مرسوم كوربولون إلى بربر وهو أيضاً يتعلق

بمسائل فرض الضرائب ويجب أن يسجل كسابقة بالنسبة للتدمرين . وبالإضافة الى ذلك تقوم بعض مواد لائحة التعرف على أساس الممارسات العملية لكيليكوس عبد قيصر المحرر . وكما يقول شانتين فإن صيغة *caesaris libertus* وما يطابقها نصادفها في وثائق النصف الأول من القرن الأول . ومن هنا نقول أن تاريخ نشاط « كيليكوس قيصر المحرر » يعود الى هذا التاريخ أيضاً . كما وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن الرجوع إلى غير مانيك ، كوربولون وكيليكوس يسجله القانون الثاني الأقدم عهداً من لائحة التعرف الضريبية والذي أدخل فيها كاملاً فيما بعد . وكنا قد أشرنا سابقاً الى أن قوانين وتقاليد فرض الضرائب كانت تخضع لتغيرات مستمرة بما يتلاءم والقوانين والتقاليد الماثلة السائدة في سورية كلها .

ولكن تبعية سورية للامبراطورية الرومانية لم تقتصر على ذلك فقط . إذ تحتوي مقدمة القانون القديم مواد غنية بهذا الشأن حيث جاء فيها : « قانون الضرائب في تدمر ومصادر المياه والملح التي توجد في المدينة وضواحيها ، حسب الاتفاق الذي عقد بحضور مارين البريفيكت » . ونحن لا نعرف تاريخ نشاط مارين هذا ولكننا نعتقد أنه يعود إلى الفترة التي تلت كوربولون . ولكن المهم اليوم شيء آخر . فالقانون ، كما هو واضح يتفق والاتفاق الذي تم بموجبه شراء حق جمع الضرائب والذي عقد بحضور الموظف الروماني الكبير حيث لا بد من موافقته عليه . وسوف نتضح أكثر فكرة هذه الصيغة فيما لو عدنا إلى مدخل النقش الذي يحتوي قرار مجلس تدمر الذي اخذ بعين الاعتبار الاجراءات التالية : يحدد الارخونت والداكبروتيون سوية مع المتعهدين حجم الضرائب ثم يسجل هذا في الاتفاق الذي يجري بموجبه شراء حق جمع الضرائب ثم بعد ذلك يدخل نص القانون . وعلى الأرجح أن اجراء مماثلاً كان قد اتخذ عند وضع القانون الاول والثاني ولكن سلطات تدمر لم تستطع ، مستقلة ، أن تحدد حجم الضرائب التي عليها جمعها . فهي كانت تأخذ علماً بها وتثبتها في قانونها الخاص علماً بأن الضرائب كانت تجبى لصالح خزينة تدمر (وإلا لما كانت هناك اية ضرورة لوجود قانون تدمري) . وهذا التنظيم لأهم مسائل حياة المدينة من قبل سلطات روما لا يتناسب ابداً واعطاء تدمر وضعاً خاصاً في مرحلة مبكرة من تبعيتها للامبراطورية الرومانية . واخيراً حتى الخلافات بين متعهد جمع الضرائب ودافع الضريبة كان يجب أن تسوى من قبل الموظف الامبراطوري - ديكوتود وإن كان على اساس قوانين تدمر . وكان على تدمر أن تضع جيوشها تحت تصرف روما . كل ما قيل لا يتعارض ابداً ، كما يتبادر للذهن مع الوصف الذي سجله بليني الأكبر عن الوضع السياسي لتدمر . ونحن لانجد اية ضرورة لقبول الاقتراض القائل بأن بليني لم يكن على اطلاع على واقع الاشياء عندما سجل وصفه هذا . ولكن يبدو أن سيرينغ يميل إلى الاخذ بالنظرية القائلة بأن نص بليني يدل على أن الرومان قد تركوا لتدمر

« ظلًا من الحرية » وقد استغل التدمريون ذلك للمناورة مع البارفانيين . ولكن مثل هذه الامكانية لم تخلقها الشخصية السياسية التي كانت تتمتع بها تدمر والتي تفترض تبعيتها لروما مع الحفاظ على صفات محددة لسيادتها وانما فرضها ذلك الوضع الذي كان قائما على الحدود بين بارفية والامبراطورية الرومانية .

في عام ١٢٩ م . بدأت مرحلة جديدة في التاريخ السياسي لتدمر كاحدى الممتلكات الرومانية وذلك عندما زارها الامبراطور اديان . ويروي لنا النقش Inv. 1,2 عن هذا الحدث . حيث يذكر لنا وصول اديان الالهي ومعه الجيوش والغرباء وارتبطت بهذا الحدث اعادة بناء المدينة مرة اخرى وتسميتها اديانبوليس (St.By3,s.v.plmyra) . وكما قلنا سابقاً ، انه بغض النظر عن أن هذا الاجراء لم يكن اكثر من اجراء شكلي إلا أنه كان بالغ الاهمية ، عادة ، يعتقدون ان تدمر حصلت على وضع Civitas liberaet أي الاعفاء من تأدية الضرائب لصالح الخزنة الامبراطورية . وهذا محتمل جداً مع أنه لا توجد لدينا أية معطيات بهذا الشأن فمثل هذا الاجراء كان يجب أن يسجل في الاتجاه العام لسياسة اديان في الشرق . حاول اديان في رحلته هذه استمالة ملوك الشرق إلى جانبه . ولم يكن لهذه السياسة أن تستثني تدمر التي حدد موقعها الجغرافي كل مصيرها السياسي . ومن الدلائل التي تشير إلى سعي اديان كسب ود السكان المحليين العقاب الشديد الذي انزله بالولاة المحليين ، ومن الواضح أن هذه الاجراءات جاءت نتيجة لعلاقة هؤلاء بالسكان المحليين الذين يخضعون لسلطانهم . ونحن نعتقد ان اعادة بناء تدمر ثانية من قبل اديان يجب النظر اليها من المنظار العام لتوجهه السياسي هذا ولا شك ايضاً أن هذا الاجراء مرتبط بالاصلاحات الادارية العامة لهذا الامبراطور في سورية .

اما لائحة التعرفة الجمركية التي وضعت في عام ١٣٧ م . اي بعد مرور عدة سنوات على زيارة اديان للشرق فهي ايضاً تسمح لنا ، ولو جزئياً أن نحكم على طابع التغييرات التي طرأت على وضع تدمر . فواقع ادخال القانون المبكر ، الذي اعتمد في بعض بنوده على غيرمانيك وكوربولون - في لائحة التعرفة هذا الواقع يعني أنه لا زال يتوجب على تدمر أن ترسم سياستها الضريبية على صورة ومثال السياسة الضريبية لروما . والاكثر من ذلك اننا نرى أن القانون الجديد اعتمد على التطبيقات العملية للعبد المحرر كيليكوس في مجال الضرائب . وهذا يعني استمرار وجود الصلاحية القضائية للديكيوتود . ولكن الآن طرأ تغير جوهري على نظام وضع القانون . فإذا كان تحديد حجم الضرائب وكميتها وتوقيع الاتفاق مع المتعهد - يقع في ايدي متوظفي الامبراطور فقد اصبحت هذه الاجراءات كلها من

اختصاص سلطات المدينة نفسها . ونحن لانشك في اهمية هذه الحالة الاخيرة . فمن المعروف أن احدى اهم الامتيازات التي تمتعت بها المدن الحليفة لروما هي حق فرض الضرائب والرسوم على البضائع الداخلة إلى البلاد والخارجة منها . ومن هنا ينتج أنه في زمن وضع التعرف المبكرة ، أي القرن الاول م . كان على تدمير أن تعتبر نفسها حليفة لروما ، مع أن السياسة الضريبية كانت تتحدد عملياً من قبل موظفي الامبراطورية وعلى سلطات تدمير أن توافق عليها . وبكلمات اخرى كانت سياسة روما ، حيال تدمير في القرن الاول موجهة نحو الحد من سيادة حليفتها . وإذا صح هذا القول فقد جاءت سياسة ادريان لتضع حداً لهذا التوجه ولتعيد إلى سلطات تدمير حقوقها للقيام ببعض تشكيلات الحكم التي تعطي علاقات التحالف محتوى واقعياً .

يفيدنا النقش Inv.x, أنه كان يوجد في تدمير في القرن الثاني الميلادي قيم على المدينة ، وهذا ماكانه الليغات الامبراطوري فولفي تيتان . ويروي لنا نقش آخر SEG,VII,138 (تدمير عام ١٩٨) عن تدخل سلطات روما في الشؤون الداخلية لتدمير . يقول النقش أنه كان يوجد في تدمير « استراتيجي يقود السلام » أو ، كما في التعبير التدمري « استراتيجي يقيم السلام » ، اي ، بكلمات اخرى استراتيجي له صلاحيات رئيس الشرطة . لقد عين ايلي بور في هذا المنصب من قبل معاوي القنصل مانيلي فوسك وفيندي روف وكذلك من قبل « الوطن » . ويمكن ان تكون الاضطرابات التي حدثت في المدينة هي سبب هذا التدخل من قبل روما في الشؤون الداخلية لتدمير . وما يلفت النظر هو انه كان من المستحيل تجاوز اجهزة السلطة المحلية في مثل هذه الحالات . وتجدر الاشارة ايضاً الى ان تدمير كانت قد صكت عملتها الخاصة - من البرونز ، وكان القسم الاكبر منها عبارة عن وحدات صغيرة من مختلف الاصناف . وقد كتب عليها palmyra .

اما المرحلة الاخرى من تاريخ العلاقات بين تدمير وروما فقد ارتبطت بحصول تدمير على الحقوق التي تمتعت بها المستعمرات الايطالية . ولكن مع الاسف ليست لدينا معطيات مباشرة عن التاريخ الذي يعود اليه حصول تدمير على هذه الحقوق . عادة يعتبرون ان هذا الحدث وقع في عهد الامبراطور كركلا . ويقول شلومبرجه بهذا الخصوص أنه بعد عام ٢١٢ تسجل النقوش التدمرية ما يفيد بأن كل التدمريين حصلوا على حق المواطنة الرومانية وهم يدينون بذلك إلى مرسوم الامبراطور كركلا . ومن المرجح أن الحصول على الحقوق الايطالية يرتبط بهذا الحدث . إلا انه كان باستطاعة تدمير الحصول على الحقوق الايطالية قبل جلوس كركلا على العرش . وهذا ما تفيد به الواقعة التالية . فابيان على غير عادته لا يشير الى

الامبراطور الذي اعطى هذه الحقوق لتدمر . وعليه يصبح من الصعب تماماً شرح مثل هذا الصمت فيما لو كان ايّ من سيفير أو كركلا هو من اهدى هذه الحقوق للمدينة .

ولاشك اطلاقاً في أن حصول تدمر على حقوق المستعمرة الايطالية كان حدثاً هاماً في تاريخها السياسي . ولكنه من جهة اخرى كان دليلاً على محاباتها لروما . كما وكان من شأن هذا الحدث أن يقوي مواقع روما على الحدود الرومانية - البارفانية .

اما عن تاريخ علاقات روما مع المدن السرية الاخرى فمعلوماتنا اقل ولكنها مع هذا تسمح بتحديد الاتجاه العام لسياسة روما حيال هذه المسألة .

فمن المعروف أن بومبي كان قد منح انطاكية حق الحكم الذاتي (porRh.,26,lfhG,III) . ويقول يوحنا ملالا أن قيصر أعلن «حرية» انطاكية . ولكن ما فعله قيصر لم يكن في الحقيقة أكثر من تثبيت وتوسيع الامتيازات التي منحها بومبي للمدينة . وهذا ما يؤكد ملالا في النص الذي اقتبسه من مقدمة مرسوم قيصر . اما بليني الاكبر فبدون اية تعليقات اضافية يسمي انطاكية : Antiochia Libera, Epidaphnes Cognominata ويسوق لنا بابينيان نص القانون الانطاكي بخصوص

ممتلكات المتوفي وعليه دين . وينتج عن ذلك أن انطاكية حافظت على قوانينها الخاصة التي تنظم علاقات الملكية حتى إبان السيطرة الرومانية عليها . ويروي تاتسيت Tac.,Hist.,2,82 أنه كان يحق لانطاكية أن تصك عملتها النقدية . فالنقود المعدنية التي تحمل تاريخ العصر السلوقي (٩٢ - ٤٠ ق . م) تحمل الكتابة التالية : ANTI-MHTROPO THS MHTRO-OKHEON, ANTIOKHEON THSLEOS POLEOS THSIERASKAI ASULOU, MHTROPOLEOS AUTON-OMOU وهكذا يتضح أن انطاكية كانت قد حصلت من السلوقيين على كل الامتيازات والألقاب المذكورة هنا . ونجد نقوشاً مماثلة على النقود التي يعود تاريخ صكها الى ٦٣ ق . م وحتى ٢٥ م (إذا صُحّ تحديد العصر) : ANTIOKHEONAUTONOMOU, MHTROPOLEOSKAI AUTONOMOU, MHTROPOLEOS THSISRAE AEULOU. إذاً حافظ بومبي على كامل الشخصية التي كانت تتمتع بها المدينة قبل خضوعها لروما . وتفيدنا المصادر أن وضع انطاكية هذا قد تم الحفاظ عليه في عهد قيصر أيضاً . وفي عهد الجبل فقط ظهرت نقود تحمل الخرافة التالية : ANTIOKHEONMHTROKOLO NIA. وما يلفت النظر حقاً أن القائمة التي وضعها أولبيان بأسماء المدن التي حصلت على حقوق المستعمرة الايطالية لاتأتي على ذكر انطاكية . ونحن لانعتقد أن هذا الصمت أتى

مصادفة . لقد جاء في قاموس «القاضي» أن سيبتيم سيفير حرم انطاكية من شخصيتها الاعتبارية كبوليس عقاباً لها على مساندتها لبيستيسينا نيجر في صراعه لاستلام العرش الامبراطوري كما وأخضع اللاذقية «كقرية» . ولكن وضع انطاكية هذا لم يستمر طويلاً . فقد منحها أنطونين «الاهلي» شخصية المستعمرة Divi s Antoninus· Antiochenses Colonos Fecit Salvis Tributis أي على ما يبدو أن الذي منحها هو كركلا . وعلى أية حال فإن تحول انطاكية الى ميتروكولونيا يعتبر المرحلة التالية في صعودها . ولكن هل ترافق هذا بإعفائها من الضرائب والأتاوات ؟ ليست لدينا أية معطيات . ويذكر أيان, Dig. 50, 15, lpr وطنه - صور بين المدن التي حصلت على حقوق المستعمرة الإيطالية . وكان سيفير هو الذي أعطى صور هذه الحقوق وأكدها فيما بعد كركلا . ويؤكد إبيان دائماً على إخلاص صور لتحالفها مع روما وهذا يعني أن صور كانت تدخل في عداد مجموعة Civitates Foederatae قبل أن تحصل على حقوق مستعمرة إيطالية . ومن جهة أخرى تؤكد النقوش التي تحملها النقود التي وصلتنا من صور أن هذه المدينة بقيت ميتروبولية الى أن قام سيفير بإجراءاته . ويقول النقش IGR, I, 123 أن صور سميت كلافديوليس ويجب أن نتوقع أنها حصلت على بعض الامتيازات من الامبراطور كلافديوس . وتقول المصادر أن العالم اللغوي المحلي بافل استطاع أن يستصدر من الامبراطور أدريان مرسوماً منحت صور بموجبه لقب ميتروبولية . وهذا الإرتقاء في وضع صور يتناسب والتوجه العام لسياسة أدريان في الشرق ولا يستبعد أن يكون تحول صور الى ميتروبولية مرتبطاً بإعلان فينيقية مقاطعة مركزها صور . وقد حافظ سيبتيم سيفير على هذا الوضع . وهذا ما تدل عليه الخرافة التي وجدت منقوشة على العملة المعدنية من طراز : COL. SEP. TYRUS METROP, SEP. TYRO. MET- ROP. COL. PENIC, COL TYRO. METRO. وتجدر الإشارة هنا إلى أن إصدار النقود في صور إبان خضوعها لروما قد استمر على النموذج الفينيقي ولم يتوقف . ونشير أيضاً الى أن صور حلت الألقاب التالية : (IGRR, I, 421 - عام ١٧٤) : tes ieras kai asyloy kai aytonomoy metropoleos foineikes kai allon poleon kai nayar· khidos. ويسمي النقش IGR. I. 419 صور Foederata وعلى الأرجح أنه اللقب الأقدم لمدينة صور .

وهكذا نستطيع الآن أن نرسم خط صعود صور على الشكل التالي : عندما سيطرت عليها روما أصبحت صور تتمتع بوضع الخليف لروما وقد تغير اسمها في عهد كلافديوس وفي عهد أدريان تحولت الى ميتروبولية وأخيراً أصبحت تتمتع بحقوق المستعمرة الإيطالية في عهد سيبتيم سيفير . إضافة الى ذلك تجدر الإشارة الى ماسجله يوسف فلافي عن أن صيدا وصور

كانتا «منذ القدم» مدينتين حرتين . أي قبل خضوعهما للسيطرة الرومانية بزمان بعيد . ويبدو أنهما بقيتا كذلك إذ أن أنطونيوس لم يتجرأ على إعطائهما إلى كليوباترا .

أما صيدا فقد بقيت مستعمرة وميتروبولية من عهد «الجبل» إلى عهد سيفيراسكندر دون أن تحصل على حق مستعمرة إيطالية . ومن المستعمرات التي حصلت على حقوق مستعمرة إيطالية كانت اللاذقية وقد منحها إياها «سيفير الإلهي» (DIG., 50, 15, 1, 2, 3) مكافأة لها على مقاومتها لبيستسنيا نيجر .

يقول أبيان أن أنطونيوس كان قد منح اللاذقية لقب البوليس الحر مكافأة لها على مقاومتها لكاسيوس . وتؤكد النقود المعدنية المكتشفة في اللاذقية أن الرومان اقتفوا أثر السلوقيين في سياستهم هذه فقد حملت إلينا النقود المعدنية التي يعود تاريخها إلى عصر أنطوخ الرابع ، اسكندر بالاس وأنطوخ الثامن الخرافات التالية : LAODIKEONTON ROS ثم THALASSHI, LAODIKENTHSIERASKAIAUTONOMOU إلى جانب هذا حملت اللاذقية لقب مدينة يوليوس . ثم أصبحت في عهد أغسطس ميتروبولية . وتدل النقوش التي صدرت في الفترة ما بين عهد سيفير إلى فاليريان أنها حملت لقب مستعمرة . أما حصص فبعد أن ضمت شكليا إلى الامبراطورية منحت حقوق مستعمرة إيطالية (DIG., 50, 15, 1, 4) .

وتقول معطيات علم المصكوكات «نوميزماتيك» المترجم أن دمشق كانت طيلة العصر الامبراطوري تحمل لقب ميتروبولية ثم مستعمرة . فالنقود المعدنية التي وصلتنا من هذه المدينة تحمل الخرافات التالية : DAMASKOU ثم MHTROPOLEOS DAMASKOU MHTROP. KOLONI. لقد سميت دمشق «ميتروبولية العرب» في النقش SEG, VII, 224 «القرن الأول م» .

كما كان هناك عدد آخر من المدن السورية التي لها حق إصدار النقود . منها ، مثلاً أفاميا . حيث تحمل النقود المعدنية التي يعود تاريخها إلى العصر الروماني والتي وصلتنا من هذه المدينة - الخرافة التالية : APAMEON مع إضافة THSIERAS أو KAIASULOU AUTONOMOU كما وحملت نقود عرطوز خرافة مماثلة : ARETHOUSATON THSIERASKAIAUTONOMOU ولا تشير إلى الاستقلال الذاتي للمدينة تلك النقود التي وصلتنا من البلانية ، إبيغانية ، جبلة ، لاريسا ، ميرياندر ، نيكوبوليس ، بالتوس ورافانية . أما النقود التي وصلتنا من ديميترياد ، اللاذقية - اللبنانية وأبيلا «التي كانت تحمل لقب - مدينة كلافيديوس» فلم تحمل إلينا أية معطيات . بالإضافة إلى هذه المدن صكت

النقود أيضاً : إنطاكية ، كانتانا ، قنافة ، ديون ، غدارة ، جرش ، بيلا وفيلا ديلفيا . كما وصكت عملتها الخاصة أيضاً كل من : أرواد ، بصرى ، القيصرية ، قرنة ، دور ، ديمتريادا ، أرتوسيا و طرابلس . وتدل النقود التي وصلتنا من هذه الأخيرة أنها كانت تتمتع باستقلال ذاتي في القرن ٣ - ١ ق . م . وحيث تسميها النقود «مالكة البحار» ويرجح أن تكون المدينة قد حافظت على استقلالها الذاتي .

ونحن نعتقد أن مجرد إصدار النقود يعني أن المدينة تتمتع بحق الاستقلال الذاتي أشارت النقود المعدنية الى ذلك أم لم تشر . وعلى ضوء ماتقدم يمكننا أن نحدد فئتين من المدن التي تمتعت بالاستقلال الذاتي إبان الاستعمار الروماني : تلك المدن التي حصلت على استقلال ذاتي وأعفيت من دفع الضرائب الى السلطات الرومانية وتلك التي حصلت على استقلالها الذاتي ولكنها كانت ملزمة بتأدية الضرائب لصالح خزينة روما ، ولذلك يتكون لدينا تصور وكأن الحفاظ على الأجهزة الإدارية في المدينة دون أي تغيير هو مطلب مقدس بالنسبة للسلطات الرومانية والنتيجة الطبيعية لهذه السياسة أن مهمة جمع الضرائب أصبحت تلقى على عاتق أجهزة الإدارة المحلية بدلاً من استخدام جهاز ضريبي خاص يكلف غالباً . ولكن هذا التصور العادل ، كما نرى ليس سوى تصور جزئي لا يعطينا صورة كاملة عن جذور هذه الظاهرة . فالمعروف أنه كانت تسود هنا طريقة بيع حق تحصيل الضرائب لمتعهدين ولذلك فنظام جمع الضرائب هذا يمكن أن يتحقق بمشاركة السلطات المحلية أو بدونها . وهذا لا يتناقض أبداً مع ما أوردناه سابقاً من أن مجلس تدمر اتخذ قراراً يحدد فيه حجم الضرائب التي يتوجب على المتعهدين جمعها . ذلك أن هذه الضرائب كانت تجمع لصالح السلطات المحلية وليس لصالح روما . ولكن الدوافع السياسية كانت هي الأكثر أهمية : فعندما منح الرومان امتيازات واسعة لكبريات المدن السورية كانوا يهدفون من وراء ذلك الى توسيع القاعدة الاجتماعية لسلطتهم وذلك باستقطاب سكان هذه المدن الى الدائرة الرومانية . وهذا ماكانت له أهمية استثنائية في ظل استمرار الصراع المسلح مع بارقية . إذ أنه ليس صدفة أن تمنح هذه الامتيازات للمدن السورية الكبرى في الفترة الواقعة بين نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول . وفي نفس الوقت كانت هذه السياسة استمراراً لسياسة الحكام الهلنستيين . فمن المعروف أنه كان باستطاعة السلطات الرومانية أن تغير من الشخصية السياسية لهذه المدينة أن تلك ، نحو الأسوأ كما نحوا الأفضل فيما لو قررت إثارة غضب سكانها . ومن الواضح أن الكلام هنا لا يجري عن القرى . ومن جهتنا ، لنعقد أن الحال السياسية للمدن السورية التي تمتعت باستقلال ذاتي تختلف عن حال التشكيلات السياسية المستقلة الأخرى والمنتشرة في مختلف أرجاء الامبراطورية . ذلك أن حق الاستقلال الذاتي

كان يعني الحفاظ على الإدارة والقوانين المحلية «وهذا ما يتوافق مع المصادر التي أوردناها سابقاً» أما الحد من سيادة المدينة فكان يؤدي الى امتناعها عن أي نشاط سياسي خارجي . إذ أنه حسب وجهات النظر التي كانت قائمة في النظرية الحقوقية الرومانية كان يجب أن يسود ما يسمى - POSTLIMINIUM العلاقات القائمة بين المجتمعات «الحررة» و«الحليفة» وكذلك العلاقات القائمة بين الملوك والمجتمعات غير التابعة لها . وعندما أوقف العمل بهذه القاعدة رأى بروكول من الأنسب أن يؤكد على أنه بغض النظر عن أن POSTLIMINIUM غير معمول به فإن «الحلفاء» و«الأحرار» يعتبرون من الناحية الشكلية خارج حدود الامبراطورية . ومن الواضح أن السلطات الرومانية سعت جهدها للقضاء التام على استقلالية المدن وسيادتها أو الحد منها قدر الإمكان ولكنها مع ذلك لم تستطع القضاء عليها كلياً . وفي نفس الوقت كان منح صفة المستعمرة أو الحقوق الإيطالية لبعض المدن يستتبع ، دون شك - مع بعض القيود طبعاً - منح حقوق المواطنة الرومانية أو اكتساب وضع الحليف . وكما أشار كرينان ، بحق أن منح صفة المستعمرة كان ، في جميع الأحوال بمثابة خطوة نحو اكتساب الحصانة من دفع الضرائب وتأدية الأتاوات . وبالإضافة الى ذلك كان اكتساب IUS ITALICUM يفترض تحويل ملكية الأرض الى dominium ex iure quiritium الأمر الذي كانت له آثار قانونية هامة جداً بالنسبة لمواطني المدينة ، إعفاؤهم من دفع الضرائب وتأدية الأتاوات وتحريرهم من وصاية السلطة الرومانية . كل هذا يدل على أن الألقاب التي كانت تمنح للمدن لم تكن مجرد شكليات فارغة كما يصورها البعض . لكنها في نفس الوقت لم تحدث أية تغيرات جذرية في إدارة المدينة أو في نظام البوليسات . فالكلام يجري هنا عن مستوى استقلالية المدن وتحررها من تدخل السلطات الرومانية . ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن الجماهير الأساسية في سورية كانت تؤدي مختلف أنواع الضرائب والأتاوات لصالح السلطات الرومانية . ومن المعروف أن هذه الأتاوات انبثقت عن الغرامات والتعويضات الحربية ، أي أنها من حيث جوهرها ليست سوى شكل من أشكال الاستغلال الذي يمارسه المحتلون ضد السكان المحليين الأحرار . وفي هذه الحال لا فرق في أن تكون المستعمرة تابعة للسيئات «حيث كان يطلق على الضريبة اسم STIPENDUM» أم للامبراطور «حيث كانت الضريبة تسمى TRIBUTA» . ونحن مع روستوفتسف في شكه في أن يكون الرومان قد ألغوا أية ضريبة من الضرائب التي فرضها السلوقيون فالمصادر التي بين يدينا تشير الى أتاوات الأرض والأتاوات التي كان يؤديها الأفراد - كل فرد . يقول أولبيان أن كل فرد من سكان سورية كان يؤدي هذه الضريبة : الرجال من سن الرابعة عشر والنساء من سن الثانية عشرة حتى سن الخامسة والستين . ويؤكد أبيان أيضاً أنها كانت تجبى بمعدل

١٪ من قيمة ما يملكه كل فرد . وبشكل عام كان متوسط معدل الضرائب التي كان السوريون يدفعونها عال جداً . ونشير في هذا السياق الى النقش JMI, V, 1998 الذي وصلنا من حماة وهو يعطينا تصوراً واضحاً عن الأتاوات والضرائب التي خضعت لها المدن السورية . يحتوي هذا النقش على مقطع من أحد الأوامر التي وجهها دوميتسيان الى كلافديوس أفينودور النائب العام . حيث يمنع دوميتسيان منعاً باتاً مصادرة حيوانات النقل والأدلاء دون إذن خاص من الامبراطور . أما سبب هذا المنع فذودلالة خاصة : فإذا ماتعرض الفلاحون للمظلم والاضطهاد فسوف تبقى الأرض دون حراثة وهذا بدوره سوف يكون له أثر سلبي على دفع الضرائب . ويبدو أنه من الصعب معرفة مدى انسحاب هذه الأتاوات والضرائب على كل العصور الرومانية في سورية ولكننا لا نستطيع نفي هذا الانسحاب . ونشير هنا الى ما أورده كاليسترات DIG., SO, 4, 14, 2 من أن إعانات الطريق (Viarum Munitiones) وكذلك جمع الضرائب من الممتلكات «الأرض» التي تقع ضمن حدود المشاعة المعنية (P-raediorum Collationes) كانت بمثابة Locorum ، أي هذه الجماعة المدنية كانت مسؤولة مسؤولية جماعية عن تسديد هذه الضرائب .

وإذا ما عدنا الى رواية لوقا في العهد الجديد لرأينا أن أولئك الذين ألقوا على يسوع السؤال الاستفزازي التالي : هل يتوجب دفع الضريبة الى القيصر ؟ إنما كانوا يبحثون عن حجة مالتسليمه الى السلطات الرومانية . وهذا يعني أن الجرائم المتعلقة بمسألة دفع الضرائب كانت من اختصاص السلطات الرومانية فقط . ومع ذلك فقد كان يتوجب على سلطات البوليسيات أن تجمع الضرائب في الوقت المناسب . فبهذه جمع الضرائب بشكل دوري ومنظم قامت السلطات الرومانية بوضع نصاب خاص بالملكية يضم لائحة إحصاء السكان التي حددت حجم الضريبة مع الأخذ بعين الاعتبار السن والمساحة التي يملكها الشخص . ويقول أولبيان (Dig., 50, 15, 4) أنه كان يجب ذكر اسم قطعة الأرض واسم مالكيها واسم المدينة التي تقع ضمن حدودها والى أية عشيرة تعود كما وكان يتوجب ذكر اسم جارين من جيرانها . بالإضافة الى ذلك كان يجب تحديد مقاييسها وعائدها : مساحة الأرض المحروثة ، كمية المحصول المتوقع جمعها خلال العشر سنوات القادمة ، وعدد دوالي العنب في الكرم ، مساحة كرم الزيتون وعدد شجراته وغير ذلك . وفي بداية عصرنا قام كويريني بتطبيق هذا المسح للملكية . ولنا في انجيل لوقا معطيات لا بأس بها بهذا الشأن ، هذا مع وجوب الإشارة الى خطأ لوقا في تحديد تاريخ هذا المسح حيث يعيده الى عهد كويريني وهيرودوس في نفس الوقت كما ويؤكد المؤلف على أن مسح الملكية هذا طبق في جميع أنحاء الامبراطورية . والمهم لدينا هنا أن ما يشير إليه لوقا بوجوب خضوع كل شخص لهذا المسح

وفي «مدينته» بالذات يتطابق مع ما يسوقه إلينا أولبيان بهذا الخصوص . وعليه كان يتوجب على يوسف ، رب العائلة التي ولد فيها يسوع أن يتوجه من نزاريا الى فيفليا ، مسقط رأسه كي يخضع لعملية تقدير الضريبة المترتبة عليه .

ومن الطريف حقاً أن رجال القانون الرومان اعتبروا تأدية الضرائب والأتاوات الصفة المميزة للمواطن الذي يتمتع بكامل الحقوق المدنية .

ونحن نعتقد أن حاجة السلطات الرومانية الماسة لجمع الضرائب بصورة دورية ومنتظمة هي التي دفعتها الى التدخل في الشؤون الداخلية للمدن . وما يدفعنا لمثل هذا الاعتقاد - المعايير العامة التي كانت سائدة في كل ممتلكات الامبراطورية الرومانية «بما فيها سورية» والتي انعكست في مجمل القوانين الرومانية المتأخرة . ولكن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن هذا التدخل أخذ ينمو ويتطور تدريجياً الى أن تحول لدينا الى نظام متكامل . وعلى أية حال لدينا إشارات واضحة عن المسؤولية المشتركة لأعضاء مجالس المدن عن جمع الضرائب . يقول غاي (Dig., 50, 1, 29) أن الشخص الذي لا يتمتع بالحقوق المدنية في هذه المدينة Incola عليه الخضوع لأعضاء مجلس المدينة التي يقيم فيها كما لأعضاء مجلس المدينة التي ينتسب اليها أصلاً . وفي نفس الوقت يسجل غاي ملاحظة عامة تؤكد على تنفيذ أتاوات إجتماعية . ويقول بولس أن عدداً من الشؤون المتعلقة بالملكية تم استثناءه من صلاحيات أعضاء مجلس المدينة وهي الصلاحيات المتعلقة بإعادة الحقوق وتأمين حق المالك والوريث . وفي نفس الوقت جرت دراسة مسألة واجبات أعضاء مجالس البوليسات وأعضاء المجلس بالتفصيل . وفي التطبيق الروماني قسمت هذه الواجبات ، شكلياً الى مجموعتين : Munera و Honores . ويقول كاليسترات أن الأولى عبارة عن مهمات إدارة المدينة في حال أن من ينفذها يشغل منصباً هاماً . أما Munus فلا يفترض شغل أي منصب مع أن Publicum Munus بخلاف Privatum كان يرتبط أيضاً بشغل منصب إداري ما . وفيما يتعلق بجوهر النشاط نفسه فقد كان يؤدي الى حل مختلف المسائل الداخلية للمدينة . كما وحددت السلطات الرومانية سناً محددة لشغل هذه الوظيفة أو تلك وكان يدعى للقيام بمهمة Munera Personalia - أولئك الذين بلغوا الخامسة والعشرين من العمر فما فوق .

ولكي تكون قرارات المجلس شرعية كان لا بد من اكتتال نصاب معين حددته السلطات الرومانية نفسها . وهكذا نرى أن صلاحيات المجلس بدأت تقلص تدريجياً . ويشير أولبيان الى إلغاء قرارات المجالس التي تعبر عن «الغرور» وتلك التي ترتبط بهذا الشكل أو ذاك بإنفاق الأموال العامة . كما أعتبرت ملغاة تلك القرارات المتعلقة بالأبنية العامة

والمملكية وغير ذلك . ويتضح من المعطيات المتوفرة لدينا أن النائب العام هو الذي كان يصدر تعليمات إيقاف هذه القرارات ، لقد فرضت ضرورة جمع الضرائب وتأدية الأتاوات على السلطات الرومانية أن تلجأ الى استدعاء الديكوريونات الى المدن التي كانوا مواطنين فيها - في حال انتقالهم - . ولكن مثل هذا الإجراء كان لا يزال بعيداً كل البعد عن محاولة تثبيتهم في أماكن إقامتهم . أضف الى ذلك أن عدداً لا بأس به من النقوش يتحدث عن تأدية الارستقراطية المحلية لمختلف أنواع الأتاوات والالتزامات لصالح المدينة ، ويقولون أن إجراءات إلزامهم على ذلك لم تكن ضرورية .

ولكن تدخل السلطات الرومانية في الشؤون الداخلية للمدن التي لا تتمتع «بالحرية» خلق هنا وضعاً داخلياً متناقضاً ، فقد كانت هذه المدن تتمتع ، شكلياً ، بكل مظاهر السيادة الخارجية ولكنها بدأت تفقدها تدريجياً ، وأجهزة السلطة المحلية لم تكن قائمة بشكل متواز مع نظيرتها الامبراطورية وحسب ولكنها كانت خاضعة لها بصورة ملحوظة حتى أنها أصبحت جزءاً مكملًا لنظام الإدارة في الامبراطورية كلها .

لقد تجلت السلطة العليا لروما على سورية بأوضح صورها في جباية Portoria - الرسوم التجارية لصالح الخزينة الامبراطورية .

فقد جرى تحصيل مثل هذه الرسوم على حدود الامبراطورية مباشرة . إذ وصلنا وصف إحدى النقاط الجمركية الحدودية في زيفغمه . وكاتب هذه الرواية هو فيلوستراتوس والطريف فيها أن الكاتب يصف متعهد تحصيل الرسوم أثناء القيام بعمله وعلى الطبيعة : عندما وصلوا «أبطال الرواية - المؤلف» حدود بلاد ما بين النهرين قادهم المتعهد الى اللائحة ثم سألهم عن البضائع التي بحوزتهم ، فقال أبولوني ، «أحمل الحكمة والعدالة وفعل الخير وقوة الإرادة والرجولة والإحجام» - وهكذا حتى ساق عدداً كبيراً من هذه الأسماء المؤنثة . فقال المتعهد ، وهم الوحيد منفعتهم الشخصية - «سجل هذه الإماء كلها» . فأجابه أبولوني «لا شيء من هذا ، ذلك أن ما أحمل لسن إماء وإنا سيدات» . ولكن ما يهمننا من هذه الرواية - النكتة - هو أنه كانت لدى المتعهد في النقطة الجمركية لائحة - لاشك أنها كانت نسخة عن التعرفة الجمركية التي تحدد البضائع والرسوم الجمركية . فلم يكن مهماً بالنسبة للمتعهد ما إذا كن أولئك الإماء للبيع أم لا . فعلى الأرجح أن الرسوم الجمركية كانت تجبى بغض النظر عن نوايا صاحب البضاعة . وهناك نقطة أخرى تلفت الانتباه وهي أنه يتوجب على من يعبر الحدود أن يقدم استمارة خاصة «في حالتنا هذه - شفهي» .

ونتعرف على نقطة جمركية مماثلة في دورايوروبوس . على أية حال يذكر النقش Telos Protas, SEG, VII, 570 أي - المصطلح اللاتيني - Protorium . ومن المرجح أن رسوماً كانت تجبى في المدن الداخلية التي كانت ، الى هذا الحد أو ذاك مراكز تجارية . والواقع أن هذه المسألة لازالت غامضة وتحتاج الى دراسة .

فيما يتعلق بتدمير تسمح لنا المصادر المتوفرة لدينا أن نسجل مثل هذا الاستنتاج أيضاً . ففي النقش INV., X, 29 «تموز عام ١٦١» يكرم عضو المجلس ، الانيطاكي مارك إميلي ماركيان اسكليبياد الذي يسميه النص TETARONES «بالدمرية DYRC» . وفي النقش الآخر INV., X, 113 «آب عام ١٧٤» يذكر لوتسي أنطوني كاليسترات ويشار اليه بنفس المصطلح TETARONES IMANCIPI IIIMERCATURAE, DYRC ومن المعروف أن مصطلح TETARONES يعني متعهد جباية الرسوم التي تشكل ربع قيمة البضاعة . وبما أن هذه الرسوم غير مذكورة في لائحة التعرف التدمرية إذن نستطيع الاعتقاد أنها لم تكن تجبى لصالح المدينة وإنما لصالح خزينة الامبراطورية . وليس بعيداً عن الحقيقة أن يكون المقصود بهذا المصطلح متعهد جباية الرسوم الذي يحصل على ربع ما يجبي ، أما فيما يتعلق بمدينة سلوقية بيريا فيدل النقش P.A.P. BRIT., MUS., 229 على اتماع نفس الطريقة لجباية الرسوم . فالكلام هنا يجري عن الضريبة المترتبة على بيع عبد وكذلك الرسوم المترتبة على إخراجه من المدينة .

وعلى ما يبدو أن المصدر الوحيد لجباية الرسوم والضرائب لصالح خزينة المدينة هي التجارة الداخلية . فقد وصلتنا قسائم دفع مثل هذه الرسوم من بيروت وصور تحمل «على التوالي» كتابة : tiryon coloniae Beryt eh sis وتعتطينا لائحة التعرف الضريبية التدمرية تصوراً ما عن نظام فرض هذه الضرائب وطريقة جمعها . نذكر أننا كنا قد درسنا هذه المسألة سابقاً أثناء الحديث عن الوظائف الاجتماعية في تدمر ولكننا نرى من المناسب العودة الى هذه المواد مرة أخرى كي نوضح لأنفسنا «عمل» الجهاز الحكومي بمجمله .

لقد أشرنا سابقاً الى أن الأرخون والديكابروتين في تدمر هم الذين حددوا حجم الضرائب وهم أيضاً ، بالتعاون مع السينديكيين الذين عهد إليهم بالإشراف على دقة جباية الضرائب . ولقد اتخذت هذه الإجراءات من قبل الموظفين المحليين تنفيذاً لقرار المجلس الذي لاحظ زيادة عدد الدعاوى القانونية بين دافعي الضرائب ومتعهداتها نتيجة لعدم تحديد حجم هذه الضرائب في الاتفاق الموقع بين الدولة والمتعهد . وكان من شأن تحديد الضرائب أن يخفف من شهية المتعهدين . ولذلك أصبح الموظفون الحكوميون يوقعون اتفاقات مع

المتعهدين تنظم وتضبط عمل هؤلاء الأخيرين . وكان يشار في هذه الاتفاقات الى الحد الأقصى لحجم الضرائب الواجب جمعها . وما يستحق الانتباه أن لائحة التعرفة الجمركية التي وضعت أصلاً على أساس هذه الاتفاقات سوف تصبح في المستقبل النموذج المرشد في هذا الشأن . لقد أخضعت اللائحة كل أنواع البضائع للضرائب - ابتداءً من أنواع العبيد وحتى الزيوت والصوف والعطور واستخراج الملح والحرف ، أي كل ما يحقق دخلاً « باستثناء العمل الزراعي » . وحددت لائحة التعرفة التي صدرت في مرحلة متأخرة حجم الضرائب المترتبة على الاستيراد وتلك المترتبة على التصدير ، نقداً . وتم الاعتماد عند تحديدها على وحدتين قياسيتين - حمولة جمل واحد وحمولة حمار واحد . وفي حال نشوء خلاف بين المتعهد ودافع الضريبة يحال الأمر الى المحكمة . هذا وقد أعطي المتعهد حق أخذ رهن ممن لم يدفعوا المترتب عليهم من ضرائب ففي حال عدم قدرتهم على التسديد تباع الرهينة بعد أيام ثلاث . هذه الطريقة في جمع الضرائب « البيع للمتعهدين » كانت موجودة في تدمر منذ القرن الأول . فقد وصلتنا من هذه المدينة شهادة قبر لأحد متعهدي الضرائب والذي يدعى سبيندي - خريسانف وهي . مؤرخة عام ٥٨ م . (CIS, II, 4235)

انطلاقاً مما تقدم يثير النقش IGRR, III, 1283 الذي اهتمنا به خصوصاً . فقد وصلنا النقش المذكور من سوادا - مدينة صغيرة تقع غير بعيد عن بصرى . حيث يحتوي مقطعاً من التعرفة الجمركية المحلية : « يأخذ المتعهد أبولاً واحداً من الفضة عن كل مئة دينار يجيئها » . وهنا لم يأخروا الحمولة كوحدة قياسية لتحديد الضريبة وإنما أخذوا وحدة نقدية تعبر عن قيمة البضاعة الخاضعة للرسوم الضريبية مما أعطى المشرعين المحليين مجالاً أكبر لصياغة أكثر عمومية . ويؤكد هذا النقش أن الضرائب كانت تجبى في كل مراكز التجمع السكاني الواقعة في المواقع التجارية وهذا ما أدى الى ارتفاع أسعار السلع .

بناء على ما تقدم نستطيع أن نؤكد أن نظام ازدواجية السيادة استمر قائماً في سورية في الفترة من القرن الأول وحتى الثالث ضمناً وكانت أسس هذا النظام قد بدأت تتشكل منذ العصر الهلنستي . وفي نفس الوقت كان يحقق السلطة في الجماعة المدنية ، أولاً - الجماعة نفسها ثانياً ، الامبراطور عبر موظفيه . لكن سيادة الامبراطور كانت السائدة - الأعلى - ذلك أنه هو الذي كان يحدد وضع الجماعة المدنية وحدود استقلاليتها . وكان نموسلطة الامبراطور يفهمون نحو الحد من سيادة البوليسات في الامبراطورية ، ومع أنه كان يلاحظ ، في نفس الوقت اتجاه معاكس - إعطاء أهم المدن وضعاً متميزاً ، أي هذا المستوى أو ذاك من الاستقلالية وذلك حسب الأهمية الاستراتيجية والسياسية التي تتمتع بها المقاطعة . ولم يخدم أوار هذا

التناقض بين سيادة الامبراطور وسادة البوليسات إلا في عصر الدومينات . إلا أنه لم يتم إخماده تماماً .

x x x

الى جانب البوليسات كانت توجد في سورية أيضاً مجموعة كبيرة من القرى والتجمعات السكانية التي لم تكن تتمتع بهذه السيادة ومع ذلك فقد كان لها تركيبها الداخلي الذي لم يكن يختلف كثيراً عن تركيب البوليسات . ولقد أشرنا سابقاً الى أن هذا النمط من التجمعات السكانية يمكن تقسيمه الى مجموعتين : (١) تلك التي تقع ضمن حدود البوليسات وبالتالي تكون تابعة لها ، (٢) وأخرى مستقلة عنها . ويدل واقع أن وضع الوليس كان يمكن أن يعطى لمثل هذه التجمعات السكانية يؤكد على أن الفرق بين البوليسات وغير البوليسات كان شكلياً فقط . فمن المعروف أن انطاكية حرمت من مكانتها كبوليس Carac (SHA, SEV, 9,4, 1,7) .

ونصادف في أحيان كثيرة وجود الاجتماع الشعبي في هذه التجمعات السكانية وأحياناً - المجلس ونظماً معيناً للوظائف الاجتماعية ، مع أنه أقل تطوراً من ذلك الذي رأيناه في البوليسات . ولذلك لم تكن عملية تحويل مثل هذه التجمعات السكانية إلى بوليسات تتطلب أية إجراءات إدارية معقدة . فلدينا ، مثلاً النقش : (Wadd.2505) من شقرا حيث ينقل الينا قرارات بلدة قرينة التي جرى بموجبها تنظيم وضبط بعض قضايا استثمار الأرض . فصيغة مقدمة هذه الوثيقة لاتدع أي مجال للشك في أن الاجتماع الشعبي لهذه البلدة هو الذي أصدر مثل هذا القرار . ونعتقد أنه من المفيد مقارنة هذا النقش بالنقش : (Wadd.2136) الذي وصلنا من شقة حيث يحتوي نصه على الصيغة الهامة التالية Kai okhloy uenomenoy tes komes en toi zeatroi ومع أن النقش تالف إلا أننا نستطيع أن نتوقع أن المقصود هنا هو الاجتماع الشعبي أيضاً الذي كان ينعقد ، كما في انطاكية ، في المسرح .

من جهة أخرى أصبح بالإمكان الآن فهم النقوش التي وجدت على النصب التذكارية التي أقامتها البلدة بشكل جماعي . فقد أشار ج ماكلين هاربر في حينه إلى أن التعبير to koinon tes komes الذي نصادفه في عدد من النقوش يعني ، على الأغلب ، الاجتماع العام لكل سكان البلدة ونحن نعتقد أن المؤلف محق في ذلك . إذ أن «عشيرة البلدة» هي بمثابة التنظيم الذي تجري باسمه كل أعمال بناء الأماكن المقدسة أو المخصصة لطقوس العبادة .

وهذا ما تؤكدُه أيضاً النقوش التي وصلتنا من أم الزيتون وعلى سبيل المثال النقش : IGRR,III,1186 (عام ٢٨٢) حيث يجري الكلام عن بناء الهيكل المقدس . أما النقش الثاني من هذه المجموعة IGRR,III,1187 فيتميز باحتوائه على الصيغة التالية : to koinon tes komes kai toy Zeoy . وهكذا فإن «عشيرة البلدة» لم تكن جماعة مدنية وإنما كان يجب أن تكون تنظيمياً واحداً وموحداً في مجال العبادة والطقوس الدينية أيضاً . وهناك عدد آخر من النقوش التي وصلتنا من مختلف مناطق سورية وتنقل اليها نفس الصورة تقريباً ونشير في هذا السياق الى النقش : IGRR,III,1213 الذي وصلنا من كفر لاها (عام ٢٦٣) حيث يحوي الصيغة : Oi kometai ektisan ex idian toi koinoi .

ولكن الوثيقة الوحيدة التي تخبرنا صراحة عن نشاط مجالس هذه التجمعات السكانية هي القانون السوري في القرن الخامس (المقطع ٩٥) حيث يجري الكلام عن الشيوخ (sabe) الذين يديرون شؤون البلدة (meparnesin qrita) بحضور هؤلاء كان يجب أن تفض الوصايا مع مراعاة العادات والتقاليد السائدة في البلدة . وتذكر النقوش أعضاء المجلس أيضاً . ويقول هاربر ، وهو محق في ذلك ، أن هذا يدل على وجود المجلس في هذه البلدان .

ومن أعلى الوظائف في هذه التجمعات السكانية - الاستراتيجية . حيث يدل النقش Wadd,2399 الذي وصلنا من كفر لاها (عام ٢٣٦) ان فترة شغل شخص ما المنصب الاستراتيجي كانت تحمل اسمه وكانت الأحداث التي تجري في البلدة المعنية تؤرخ على هذا الأساس . والصيغة التاريخية الوحيدة في هذا النص جاءت كما يلي : Strateueias Oyl : Poiy Skayrianoy . ولقد وضع النقش : Wadd.,2520 والذي وصلنا من الشعرة (بداية القرن الثالث) باسم ثلاثة من الاستراتيجيين : بروكل بن غيرمان ، سي بن زبيد ، وعلي بن أبا ب . فعلى الأغلب أن وظيفة الاستراتيجي كانت جماعية في هذه المنطقة . وتذكر النقوش هنا الوظائف التالية وكلها ذات علاقة ما بأعمال البناء : هيروت ، برونوت ، سينديك ، و Pistoï وكذلك ديوكيت . وتجدر الإشارة هنا إلى الصيغة التي جاءت في النقش Wadd,2188 والذي وصلنا من الجمينة : toytoys pany spoydaioys komes : apezato demos . وبمعنى آخر كان يجري انتخاب هؤلاء الموظفين مباشرة في الاجتماع الشعبي العام .

مع الأسف ، لا تحمل اليها النقوش ما يكفي من المعطيات لتحديد الفرق بين الحال القانونية للبوليسات وهذه التجمعات السكانية - البلدات ، مع أن مثل هذا الفرق قائم دون

شك وإلا لما كان هناك أي معنى لوضعها في مواجهة بعضها البعض . ولنا في تاريخ انطاكية ما يؤكد وجود مثل هذا الفرق ، فمن المعروف أنه عندما فقدت انطاكية وضعها كبوليس جرى إلحاقها باللاذقية ، فالفرق إذن يكمن في الاعتراف أو عدم الاعتراف بسيادة هذه أو تلك . ومن الواضح أن البلدان التي كانت تقع ضمن حدود البوليس كانت تابعة له ، خاضعة لسلطته ، أما تلك التي كانت تقع ضمن حدود الأراضي التابعة للإمبراطور فكانت تخضع لهذا الأخير .

ومع كل هذا فقد كان هناك تسلسل في القاب هذه البلدان : إلى جانب Kome كان هناك أيضاً Metrokomia . وينبدو أن منح Kome لقب Metrokomia كان يفترض منحها امتيازات أخرى . غير أنه لا تتوفر لدينا أية معطيات بهذا الشأن .

× × ×

لقد حافظت كل التركيبات السياسية التي كانت قائمة في سورية ولم تكن تابعة لروما - من حيث الشكل - على تقاليد الحكم التي ورثتها عن العصر الهلنستي ، إن كان من حيث التنظيم أم من حيث طابع العلاقات التي كانت قائمة بينها وبين المدن وبقية التركيبات الأخرى التي كانت تضمها وكذلك في مجال الأيديولوجية . ولكن ارتباطها العملي بروما كان قوياً لدرجة أنه يصعب أحياناً رسم أية حدود بينها وبين الأراضي التي تدخل نطاق الإمبراطورية . فقد كانت السلطات الرومانية تمنحها أعلى العكس تسلبها هذه الحقوق أو تلك كما وكانت توسع أو تحد من مجال نشاط هذه التركيبات التي كانت تسعى دائماً لتوسيع مجال سلطتها . ولقد أوضح و . بون في حينه أن تبعية ملوك هذه الوحدات السياسية لروما كانت تتجلى بكل وضوح في أن إمبراطور روما كان يعترف بهذا أو ذاك ملكاً ويقر سلطته (وسوف نرى لاحقاً أنه كان باستطاعة الإمبراطور الروماني أن يغير من مرتبة الملك ولقبه) . وقد اعتقد بون أن السلطة الملكية في هذه الحال كانت مؤقتة ، مشروطة وتابعة . ولكن مستوى وطابع تبعية هؤلاء الملوك لروما ليسا على نفس المستوى من الاستقرار : فقد كانا يتغيران تبعاً لتطور الأوضاع السياسية ولقرب أو بعد هذه المناطق عن سلطات روما ، أي إلى أي حد استطاعت روما أن تطلها . فبعض هذه المجتمعات كان يتمتع باستقلال تام وليس من قبيل الصدفة أن توصف سلطة روما على هذه الممالك ، بعد سقوط الجمهورية ، بأنها «حمائية» (Caes; B.Alex; 65) والواقع أنه كان يمكن لهذه «الحماية» أن تتطور إلى سبادة تامة ، لهذه الدرجة أو تلك .

كوموجين

لاشك أن تاريخ كوموجين وعلاقاتها مع رومياً تتمتعان بأهمية لاشك فيها . ولكن ، مع الأسف أن كل ماوصلنا عنها لا يتجاوز بعض الإشارات المبعثرة في مختلف النقوش حيث يؤق على ذكر ملوك هذه المنطقة . وهناك بعض المعلومات الأخرى التي تفيدنا بها النقود . ففي عام ٦٩ ق . م . وقع أول صدام بين كوموجين والرومان وذلك عندما القى لوكول الحصار على ساموساتة . وكل ماوصلنا بهذا الخصوص رواية مختصرة للغاية نقلها الينا بلييني الأكبر وهي لاتصلح أساساً للحكم على مدى نجاح ذلك الحصار . ويروي أبيان (APP;Mithr;106) أن بومبي ظل يحارب أنطوخ الكوموجيني «إلى أن وقع أنطوخ معه اتفاق تحالف» . وفيما بعد نعرف أن بومبي ضم سلوقية وبعض المناطق الأخرى إلى الأراضي التي تقع تحت سلطة أنطوخ الأول ، ولا تذكر المصادر أي شيء عن مدن بلاد ما بين النهرين . وتشير النقوش إلى أن أنطوخ الأول حمل لقب Filoromaïos وهذا دليل على تبعيته لروما . والواقع أن أنطوخاً هذا كان يرى من الضروري التأكيد دائماً على أنه ورث السلطة عن أجداده ويعيد أصله إلى السلوقيين والأخمينيين (مباشرة إلى داريوس) . ومن الواضح أن كل هذه المحاولات كانت تعكس سعيه للدفاع عن استقلاله .

هذا السعي ، إضافة إلى الوضع السياسي العام الذي كان يولد الآمال في الاستقلال عن روما يوضحان لنا لماذا كان على الليغات مارك أنطوني وفيتيديا أن يلقيا الحصار على ساموساتة مرة أخرى في عام ٣٨ ق . م .

ويروي مصدرنا أنه طلب من أنطوخ أن يدفع ألف تالانت وينفذ لأنطونيوما تم الاتفاق عليه ، أي كل الالتزامات المترتبة على تحالفه مع روما . ولكن الرومان لم يستطيعوا احتلال المدينة ويقول ديون كاسيوس وبلوتارخ أن أنطونيوس وقع اتفاقاً مع أنطوخ دفع هذا الأخير بموجبه ثلاثين تالانتاً للأول ولم يكن أمام الرومان أي خيار سوى الاكتفاء بخضوع أنطوخ لهم ظاهرياً فقط .

ومع ذلك كان على ملوك كوموجين تنفيذ الالتزامات التي ترتبت عليهم نتيجة علاقات التحالف التي قامت بينهم وبين حكام روما . ويقول بلوتارخ في هذا السياق أن متريدات الثاني اشترك في المعركة التي وقعت قرب أكتيوم (عام ٣١ ق . م .) إلى جانب أنطونيوس .

وبعد موت أنطوخ الثالث عام ١٧ م . اندلعت في كوموجين اضطرابات شعبية : فقد طلبت الارستقراطية المحلية تحويل كوموجين إلى مقاطعة رومانية في حين طالبت الجماهير

الشعبية بالحفاظ على السلطة الملكية . وقد روى تانسيت أن الأكثرية كانت تطالب بالتعبية لروما ولكن رواية يوسف فلافي تفند هذا الزعم . وعلى أية حال نحن لا نعتقد أن توزيع القوى على هذا الشكل جاء صدفة : فالأرستقراطية التي دعت للانضمام إلى الامبراطورية الرومانية كانت ترمي إلى تقوية علاقاتها التجارية مع سورية الرومانية ، أضف إلى ذلك أن موقع هذه المملكة على الحدود بين دولتين قويتين لم يدع لها فرصة كي تشعر بأي استقرار سياسي الأمر الذي كانت تسعى اليه الأرستقراطية المحلية ولم ترأية إمكانية لتحقيقه إلا في ظل السلطة الرومانية . من جهة أخرى يبدو أن تناقضات ما كانت قائمة بين الأرستقراطية والعائلة المالكة قد لعبت دورها أيضاً وإلا لكان سعي الأولى نحو الخضوع للسلطة الرومانية غير مفهوم . أما وقوف الجماهير الشعبية ضد الانضمام إلى الامبراطورية الرومانية فهو عائد إلى تخوفها من تطبيق نظام الضرائب الروماني . وعلى أية حال لا تفيدنا المصادر بأية معلومات حول كيفية حل هذه المسألة . ولكن تسمية سترابون لكوموجين مقاطعة يعني أن سعي الأرستقراطية قد تحقق . وفي عام ٣٨ م . أعيد من جديد إقامة السلطة الملكية في كوموجين وقد سمح لأنطوخ الرابع ، الذي استلم السلطة أن يجمع الضرائب لصالحه . وقد استمرت سلطة أنطوخ هذه حتى عام ٧٢ م . مع بعض الانقطاع ، أي إلى أن حول فسيسيانوس هذه المملكة نهائياً إلى مقاطعة رومانية . بحجة أن أنطوخ ينوي الانسلاخ عن روما وذلك بحقه تحالفاً مع بارافيا . والواقع أننا نصادف ذكراً لأنطوخ فيلوبياب في مرحلة متأخرة ، وكان يحمل لقب ملك ، ولكننا لا ندري ما إذا كان يتمتع بسلطة حقيقية أم لا .

إيتوريا

نتيجة لشح المصادر يبقى تاريخ هذه المملكة غير معروف ، تقريباً بالنسبة لنا . ومسح ذلك فإننا نستطيع القول أن جوهر تاريخ هذه المملكة ، في الفترة من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي يتلخص في نضالها المير ضد التوسع الروماني ، وفي سبيل حماية استقلالها ولكن هذا النضال انتهى إلى الفشل .

في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد كانت إيتوريا قوة سياسية خطيرة . ويصفها سترابون وصفاً سيئاً للغاية نتيجة لغاراتها الوحشية على جيرانها ، وكذلك على القوافل التجارية . واسترابون نفسه يصف سكان السهل منهم بأنهم أناس يمارسون العمل الزراعي .

وعندما خضعت سورية للسيطرة الرومانية استطاعت هذه المملكة ، التي تشغل الأراضي الواقعة بين لبنان و ماوراءه نحو الشرق ، أن تحافظ على استقلالها الاسمي ، حيث اشترى ملكها بطليموس بن مينى هذا الاستقلال من بومبي بمبلغ ألف تالانت . ولكن هذه السياسة لم تحم إيتوريا من هجمات الرومان الذين قضوا على كل قلاعها . ومع مرور الزمن أقامت إيتوريا علاقات تحالف مع الإدارة الرومانية في سورية : تروي لنا المصادر عن اشتراك إيتوريا في جيوش قيصر وأنطونيوس .

في عام ٣٤ ق . م . أقدم أنطونيوس على إعدام ليساني بن بطليموس ومنذ ذلك الحين وقعت إيتوريا تحت السيطرة الرومانية المباشرة .

في بداية القرن الأول الميلادي اندلع من جديد صدام مسلح بين روما وإيتوريا . ولكن في عام ٤٩ م . أصبحت إيتوريا جزءاً من المقاطعة الرومانية - سورية .

وهكذا نرى أنه بغض النظر عن عدم دخول الممالك المستقلة ، شكلياً ، في نطاق المقاطعة الرومانية - سورية فإن سياسة الإدارة الرومانية نحوها قامت على نفس مبادئ التعامل مع المدن السورية الأخرى ، حيث غما التحالف الشكلي وتحول إلى سيطرة حقيقية للحليف الأقوى . ونلاحظ في نفس الوقت أن روما كانت تنحو للقضاء على السلطة الملكية المحلية وفرض سيطرتها المباشرة على هذه المناطق .

الفصل السابع :

الصراع السياسي والاجتماعي في سورية إبان الأزمة في النصف الثاني من القرن الثاني وبداية القرن الثالث

لقد كان للتطور الاقتصادي في سورية ، في عصر البريتسبات وما نتج عنه من تغيرات في البنية الاجتماعية لهذا البلد نتائج خطيرة للغاية تجلت في بروز تناقضات اجتماعية عميقة بين فئات اجتماعية معينة داخل المجتمع السوري نفسه . وتأسيساً على ما سبق نستطيع أن نسجل الحالة الصدامية بين الفئة الثرية من التجار والحرفيين من جهة ، وبين الفئات الفقيرة التي تعاني حالة من الإفلاس أوقعتها في براثن الفئة الأولى . وفي نفس الوقت زادت حدة التناقضات بين العبيد والأحرار ، وتعمقت أكثر وأكثر . ذلك أن الوضع المادي لتلك الفئة من العبيد الذين ، بهذا الشكل أو ذاك يملكون ثروة ويتصرفون بها بحرية ويشاركون مشاركة نشيطة في الحياة الاقتصادية - لم يعد يتلاءم مع وضعهم القانوني . أما الوسط الذي ينتمي اليه الناس الأحرار قانونياً فقد بدأ يتعرض لعملية فرز اجتماعي عميقة خاصة بعد أن دخلت الأراضي والعقارات مجال البيع والشراء الأمر الذي لا يمكن إلا أن يؤدي - موضوعياً - إلى افقار فئة وإثراء أخرى . وكان ظهور أشكال جديدة من أشكال التبعية - مع الاحتفاظ بالحرية الشخصية - أحد النتائج الطبيعية لهذه العملية . وعلى ضوء ذلك يمكن أن نفهم تلك التعليقات التي سجلتها الأدبيات القديمة عن السوريين في المراحل المتأخرة . وقد لخص هيروديان التصور الذي كان سائداً عنهم آنئذ على الشكل التالي : « الشعب السوري غير جدي بطبيعته ويميل دائماً إلى تغيير النظام القائم » . فاللاجدية والسعي للتجديد هما التعبيران اللذان استخدمهما الأدب القديم للدلالة على حالة الغليان والامتعااض التي سادت المجتمع السوري في تلك الحقبة .

الصراع الفكري في المجتمع السوري (القرن ١ - ٣) . انتشار التعاليم الدينية - الاخلاقية في سورية .

لقد كان طبيعياً أن تؤدي الصدمات الاجتماعية الحادة داخل المجتمع السوري وسعي مختلف فئاته وجماعاته الى احداث تحول راديكالي في النظام القائم والى خلق مناخ ملائم لانتشار التعاليم الدينية - الاخلاقية في هذه البلاد - هذه التعاليم التي دعت ، بهذا الشكل أوداك الى محاربة الظلم وتحطيم ذلك العالم الآثم وإقامة مملكة الخير والعدالة . ولقد كانت المسيحية واحدة من ابرز هذه التعاليم ، واكثرها تأثيراً .

لقد كان التطور الفكري والسياسي للمسيحية على مدى ١٥٠ عاماً موضوع دراسة علمية عميقة . واستطاع المؤرخون الماركسيون ، وخاصة انجلز توضيح الاتجاهات الرئيسية لتطورها والمحتوى الاجتماعي لايدولوجيتها في مختلف مراحل هذا التطور . ولذلك فنحن لانجد ضرورة لتحليل هذه العملية بشكل مفصل وسوف نقتصر هنا على ما يخص سورية فقط .

من المعروف ان التقاليد الكنسية تؤكد على وجود العشائر المسيحية في سورية منذ القرن الاول . ويشيرها هارناك الى ان المصادر تؤكد على وجودها في صور وصيدا ودمشق وطرابلس وانطاكية . وننحن لانملك أي اساس لدحض هذه المعطيات مع أن الاساطير التي تروي لنا عن نشاط بولس الرسول ، والتي تناقلتها العشائر المسيحية هنا ، ليست إلا نتاجا للمثيولوجيا المسيحية في القرن الثاني . اما فيما يتعلق بالرواية الخاصة بالرسائل المتبادلة بين يسوع المسيح وملك الرها ، الابجر ، وبنيشاط احدرسل المسيح هناك ، وأن الرها اعتنقت المسيحية منذ القرن الأول فهارناك يرفض هذه الرواية جملة وتفصيلاً . غير أننا نرى أن هذه الروايات تعكس واقعاً موضوعياً معيناً - وهو وجود عشيرة مسيحية في الرها في المراحل الاولى من تاريخ نشوء المسيحية . من جهة أخرى ليست لدينا أية معطيات عن التركيب الاثني للجماعات المسيحية الاولى . وغني عن القول أن المسيحية أول مظهرت وترعرعت في الوسط اليهودي ، وبالتحديد بين العشائر اليهودية القاطنة خارج فلسطين . لقد كان لانتصار تعاليم بولس في سورية خاصة وتحت التأثير المباشر للغنوسية (احدى الفرق

المسيحية الاولى التي اعتبرت أن للانجيل معنى خفياً غير المعنى الظاهري - المترجم) والقطيعة الكاملة بين المسيحية واليهودية الاصلية بالغ الأثر على انتشار المسيحية في الاوساط الوثنية في سورية . وليس من قبيل الصدفة أن تكون انطاكية بالذات مهداً لولادة الجماعات المسيحية الاولى التي ترجع بأصولها الى اليهودية . ومن جهة أخرى تعطينا لائحة المشاركين في اجتماع المجمع المسكوني المنعقد في نيقية عام ٣٢٥ م . بعضاً من تصوّر عن انتشار المسيحية في سورية حيث مثل هذه الأخيرة في ذلك الاجتماع اساقفة كل من صور ، صيدا ، طرابلس ، بيروت ، انطاراد ، بانيادا ، انطاكية ، سلوقية ، اللاذقية ، رافانيا وتحولت كل من بصرى وجرش الى مراكز كبرى للمسيحية . يقول لوقيانوس (Lucian- Dexmorte per, 11, 13) لقد كانت العشائر المسيحية متلاحمة ومتناسكة لدرجة تسمح لها أن تساعد بعضها البعض في حال تعرضها للملاحقة والاضطهاد كما وكانت غنية لدرجة تسمح لها ان توصل المال الى زعيمها المسجون وأن تشتري الحراس . ومن الجلي هنا أن العشائر المسيحية في سورية كانت تضم بين صفوفها ليس الفقراء والعناصر الاجتماعية السلبية وانما كان يوجد في صفوفها اغنياء ايضاً . ولكن تجدر الاشارة هنا إلى أن الظواهر التي اتى لوقيانوس على ذكرها تعتبر ثمرة لمرحلة طويلة من التطور السابق .

لقد توجهت المسيحية عند نشأتها الى الفئات الاجتماعية الفقيرة وليس من قبيل الصدفة أن تلعب الإماء دوراً بارزاً في نشاط العشائر المسيحية في آسيا الصغرى في النصف الأول من القرن الثاني (plin.Epist., 10, 96) - (97) . ومن المحتمل أن يكون شيئاً ما مماثلاً قد حدث في سورية ايضاً . لقد جذبت التعاليم التبشيرية ، التي تمتاز بها المسيحية الفئات الاجتماعية الفقيرة في المجتمع السوري وخاصة التنبؤ بقرب انهيار الامبراطورية الرومانية - امبراطورية الظلم والقهر ، وقيام مملكة الله - مملكة الخير والعدالة الاجتماعية على انقاضها . واقرن الموقف السلبي لتعاليم المسيحية من الملكية الخاصة بفكرة مساواة الجميع امام الله ، هذه المساواة التي لم تكن اعلانا مجرداً وانما تحولت الى واقع في الحياة اليومية للعشائر المسيحية . فقد وضع الكمال الاخلاقي امام المؤمنين كطريق لتجاوز الظلم السائد في العالم .

غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً . فالتغيرات التي طرأت على التركيب الاجتماعي للعشائر المسيحية - دخول الاغنياء اليها ، وانتصار تعاليم ال-paulonism* (الباولونية) قد غيرا جوهر هذه التعاليم . ومع ذلك احتفظت المسيحية بالدوافع الاولى لرسالتها وهي التوجه الى الفئات المهضومة مما ادى الى نهوض تناقضات جديدة

★ -Paulonism- نسبة الى بولس الرسول . وهي التعاليم التي صاغها هذا المبشر المسيحي الاول - المترجم .

داخل صفوفها . ولكنها كانت قد اجّلت ظهور مملكة الله الى اجل غير مسمى . فهذا الظهور لن يكون في هذا العالم بل في العالم الآخر . وهكذا غدت المسيحية تميل الى المصالحة مع الامبرطورية ، لا بل اخذت تبحث عن المبررات الايديولوجية للحفاظ على النظام الاجتماعي - السياسي القائم . فطلبت الى العبيد ان يتحملوا دون تدمير ما قدره الله لهم ، إذعاناً وعن طيبة خاطر وليس خوفاً ، وأن يخدموا اسيادهم بكل اخلاص وشرف وضمير .

هذا التطور الذي طرأ على تعاليم المسيحية ، انتصار تعاليم الـ paulonism التي اصبحت الاساس الذي قامت عليه المملكة الكنسية فيما بعد لم يكن سوى نتيجة لصراع داخلي مريع بين مختلف العشائر المسيحية . ولكننا مع الاسف لانستطيع تقصيه في الوقت الحاضر نظراً لعدم توفر الوثائق والمصادر الضرورية . ومع ذلك يلفت النظر ذلك الانتشار الذي حظيت به حركات الهراطقة المسيحيين في سورية بما ذلك الحركات المسيحية اليهودية . فقد اُضحيت افاميا مركزاً لحركة القسطنطينيين Elexaizm واندلعت معركة مريرة ضد النومانية Numenius والنوفاتيانوسية Novatianus وغيرها . ومن المعروف أن النومانية تمتاز بموقفها السلبي من الدولة وتدعو الى الشهادة والتبشير بقرب ظهور مملكة الله في اورشليم كما وتدعو الى موقف صارم تجاه الحياة الزوجية وترفض الملكية . اما النوفاتيانوسية فقد انتشرت في القرن الثالث ابان فترة اضطهاد المسيحيين . فاعلنت موقفاً عدائياً تجاه المصالحة مع الكنيسة الارثوذكسية مع « الساقطين » الذين اعلنوا تراجعهم عن المسيحية في المرحلة العصيبة وهذا يعني - الوقوف ضد محاولات هذه الكنيسة للمصالحة مع الدولة .

واشرنا سابقاً الى أن الغنوسية لاقت ، هي الاخرى انتشاراً واسعاً في سورية . ومن المعروف أن هذه التعاليم ترتبط باسم كل من ساتورنين وماركون وبارديسان . لقد كان ساتورنين معاصراً للامبراطور ادريان . وتتلخص تعاليمه بانه تنفرع عن « الإله اللامرئي » مجموعة من الاقانيم يقود سبعة منها اله اليهود . واقامت هذه الاخيرة مملكتها من جوهر مادي معاد للنور اخذ من الشيطان . وقد خلقت هذه الالهة الانسان على صورتها ومثالها المأخوذ من الشيطان . وكان هذا الانسان يزحف على بطنه كالودودة . ولكن الله نفخ فيه شراره النور . وعندها خلق الشيطان مجموعة اخرى من الناس لتقف في وجه أولئك الذين نفخ فيهم الله الروح . كان ناس الشيطان مخلوقين من المادة فقط ولذلك لاحقوا الانسان الروحي واضطهدوه دون رحمة . ولكي ينقذ الله العلي ناسه هؤلاء ارسل اليهم منقذاً في جسد وهمي هو المسيح الذي دعا الناس الى العبادة والتقشف والتحرر من روابط

المادة وسيدها - الشيطان . اما تعاليم ماركون فتمتاز بأنها كرست القطيعة التامة مع اليهودية ومع البناء الملكي للكنيسة . ويؤكد ماركون انه مقابل اله الخير توجد بداية اخرى - الشر (لقد خلق الاله يهو العالم واعطاه القانون ولكن لم يعط الانسان القوة اللازمة لتحقيق هذا القانون كما وضع ايسا صارمة لحفظ النظام على الارض وعقاباً قاسياً ينتهي بالموت) . ولكي يخلص البشرية المعذبة تجسد إله الخير في ابنه ونزل الى الارض كي يساعد الناس على التخلص من يهو وسلطته الطاغية فقام هذا الاخير بتعليقه على الصليب . لقد استخدم الله موته الوهمي كي يحرر الاموات . إلا أن تحرير الاحياء سوف يتم بالعودة الثانية لله على الارض حيث سيتجلى مجده وسيثبت ليهو أنه خالف القانون الذي وضعه بنفسه . ولكي يتخلص يهو من العقاب يعطي المخلص كل من يؤمن به ثم يظهر المسيح للرسول بولس وبشارة هذا الاخير بكل ماتتصف به . وتؤكد المصادر على وجود العشائر الماركينية منذ القرن الرابع . اما فيما يتعلق بتعاليم بارديسان فلا نعرف عنها سوى القليل . حيث كان هذا معادياً للماركيون . يرى بارديسان أن الله - خالق العالم وله تأثير مباشر عليه بما يتوافق والقوانين التي وضعها هو نفسه ، فكل المواضيع ، بما في ذلك الانسان تتمتع بمستوى ما من الاستقلالية مع أن الله يستطيع في أية لحظة أن يتدخل في سير الاحداث الجارية في العالم . فالانسان - حسب بارديسان - يتمتع بحرية الارادة ولذلك فان سلوكه الخاص هو الذي يحدد ما إذا كان خاطئاً ام صالحاً . ولكن ارادة الله هي التي تتحقق دائماً - وهي دائماً خير وما خالفها - شر . وعلى هذا الاساس تقوم التعاليم الاخلاقية لبارديسان : اعمل للآخرين ما ترتضيه لنفسك وما تريد أن يعاملونك به ولا تفعل ما لا تريد أن يعمل لك الآخرون . لقد دعى جميع المسيحيين إلى عدم التقيد بالقوانين التي تخالف الاخلاق المسيحية . ولكن المرض والصحة والغنى والفقر ليست خيارات انسانية : فالانسان لا يستطيع ، كائن من كان أن يهرب من مصيره الذي اختطته له الإرادة الالهية . لقد رفض بارديسان موضوع قيامة الجسد فالروح تذهب الى العالم الآخر حيث الجنة - مرتع الصالحين . والنظام السائد في الكون الآن سوف يستمر ستة آلاف سنة اخرى يصنع الله بعدها مملكة الخير والسلام . وسوف نترك جانباً كل هذا البناء الكهنوتي ولكننا نود أن نشير الى مايلى . إن هذا البناء المعقد للغنوستية لا يعني ابداً انها توجهت فقط إلى الفئات « المثقفة » ، اي ، الغنية . فالحوار المرير للمدافعين عن المسيحية ضد الغنوستية يدل دلالة واضحة على مدى انتشار تعاليم هذه الاخيرة وتغلغلها في الوسط المسيحي . لقد دعت الغنوستية بكل فئاتها وفروعها الى مسالة الواقع القائم فتغير العالم وانقاذه لن يجري هنا عبر إحداث تغيير راديكالي مافي التنظيم الاجتماعي : فالكلام انما يجري عن الكمال الاخلاقي

للشخصية الخاضعة لنظام العالم الذي خلقه الله نفسه . وهذا ما يتطابق تماماً وإراداً ،
الاجتماعية الغنية بغض النظر عن السعي الذاتي للمبشرين انفسهم . ذلك أن تلك
بالذات وحدها المستفيدة من الحفاظ على العلاقات الاجتماعية القائمة في تلك الحقبة
وهكذا نرى أن معركة فكرية حادة كانت قد اجتاحت العشائر المسيحية في القرنين
والثاني للميلاد ، بما في ذلك تلك الموجودة في سورية .

وغني عن القول أنها أخفت وراءها مجابهة فئتين اجتماعيتين متناحرتين : فئة
المضطهدين الذين يحلمون بتحويلات راديكالية وفئة الأغنياء الذين ينتسبون إلى
الحاكمة والذين يطمحون لايجاد مبرر ايديولوجي للنظام القائم . وقد انتصر هؤلاء
مستوى الامبراطورية وفي سورية) .

لقد عرفت سورية في هذه الفترة تعاليم دينية - أخلاقية أخرى - هي ا
(ميتريزم) . ويقول ف . كيومون أن هذه التعاليم كانت ضعيفة التأثير في سورية
كانت موجودة في ارواد وصيدا . ولكن الأبحاث أثبتت وجودها في دورايوروبوس
وغيرها .

ومن المعروف أن تعاليم الميتريّة عن الكون تقوم على أساس صراع قوتين -
والظلام والذي ينتهي بانتصار الأول . فالقدر هو الذي يتحكم بالكون ولا مهرب
تطور الكون يخضع لقوانين ثابتة لا تتغير وعناصرها الداخلية مرتبطة مع بعضها
ويؤدي توضع الكواكب وعلاقاتها المتبادلة إلى سيل من الحوادث الأرضية . فالضرو
لا ترحم وتقود البشرية إلى هدف غامض وقوى الشر تبغي فناء البشرية ولكن توجد أيضاً
الخير المملوءة عاطفاً وحناناً على الانسان الفاني . لقد اعتمد الميتريون لخلاصهم على ق
على تجاوز الشر والتغلب عليه . شفيع البشرية المعذبة لدى الإله اللامرئي واللاح
واللامدرك من قبل الانسان والذي يسود في الأثير هو ميترا - المولود من حجر والمسلح ب
ويحمل بيده مشعلاً أضواء الظلام ، يمنح المؤمنين به حمايته ورعايته . فهو الذي خلق ال
ويرعى نظامها أي - كما لاحظ كيومون - أن ميترا في تصور اتباعه هو اللوغوس . ا
معاناة ولكي نستطيع تحملها يتوجب علينا أن نخضع للقوانين التي أعطها الله إلى ال
وأن نسعى للطهارة الكاملة وأن نتجاوز شهوات الجسد وأن نحارب قوى الشر دائماً
لقد لاحظ ف . كيومون أن النظام الازدواجي الذي بناه الميتريون كان موجهاً ليساع
كمال وتطور الشخصية الانسانية . فقد رأى هؤلاء الخير في المآثر والبطولات وهناباً ،
يحس الإنسان مساندة ميترا - حامي الخير والحق . أما العنصر الجوهرى في هذه التعال

الإيمان بالآخرة الموجودة داخل كل إنسان في جوهر إلهي وكذلك بالحساب بعد الموت .
ويلعب ميترا دور القاضي الذي يحدد المصير في العالم الآخر فهو الذي يرافق المؤمنين إلى الجنة
وهو الأب السماوي الذي يستقبلهم في عرشه المضيء كأولاده العائدين من رحلة طويلة .
وتجدر الإشارة إلى أن الميترية عرفت أيضاً الإيمان بقيامة الجسد . ولكن في نهاية العالم سوف
يتم الانتصار على قوى الشر وعندها يجري الفصل بين الأشرار والصالحين - الأول إلى النار
الأبدية والصالحين إلى جنة الخلد .

لا شك أن ما عرضناه هنا يعكس أيضاً المحتوى السياسي للميترية . حيث يرى هؤلاء
أن النجوم تعد الامبراطور للسلطة لحظة ولادته فهو الهى ذلك أنه يحمل في داخله بعض
عناصر الشمس الالهية ، أما عناصره البشرية فهي عابرة مؤقتة . وبعد الموت يعود
الامبراطور إلى السماء ليعيش في كنف الآلهة على قدم المساواة .

وهكذا نرى أن هذه التعاليم تؤدي بدورها إلى التبرير الايديولوجي للسلطة
الامبراطورية وبالتالي لكل ظواهر الحياة الاجتماعية المتعلقة بها ، بهذا الشكل أو ذاك . ويبدو
أنه لا حاجة بنا للكلام عن الجوهر الطبقي للميترية .

المثل السياسية للمجتمع السوري

إلى جانب هذه التعاليم الدينية - الأخلاقية التي عكست رغبة المقيمين والمضطهدين
في تحقيق تحولات اجتماعية من جهة ، ومن جهة أخرى - رغبة الفئات الحاكمة في ترسيخ
دعائم النظام القائم في سورية في تلك الحقبة - كانت هناك أيضاً - مع شح المعلومات -
نظريات بعيدة عن الصوفية والتصوف ولكنها كانت تعكس هي الأخرى المثل السياسية
لمختلف الفئات الاجتماعية . وفي هذا السياق تستحق رواية هيروديان عن موقف
السوريين ، وخاصة الانطاكيين ، من بيستيسينا نيجرا اهتماماً خاصاً . يقول
هيروديان : «لقد كان عندهم (عند السوريين - شيفمان) ولع بنيجر هذا الذي كان يتحكم
بكل شيء ولكنه كان يحتفل وأياهم دائماً . فالسوريون ، بطبيعتهم يحبون الأعياد
والاحتفالات وخاصة أهل انطاكية - المدينة العظيمة والغنية حيث كان أهلها يقيمون
الاحتفالات على مدار السنة تقريباً ، داخل المدينة وفي الضواحي . لقد كان نيجر ينظم لهم
العروض دائماً وكان كل اهتمام يتركز حولها . لقد منحهم نيجر العفو عن ديونهم وأقام لهم
الاحتفالات والأعياد فاستحق احترامهم» ويعيد هيروديان مرة أخرى : «بيستيسينا نيجر لها
مع الانطاكيين وانغمس تماماً في احياء الاحتفالات والأعياد والعروض» .

ولكن المعطيات التي وصلتنا من مركز الامبراطورية ومن بعض المقاطعات الأخرى تميز لنا القول أن الفئات «المدقعة» وإلى حد ما الشرائح الوسطى هي التي كانت تستفيد من تلك الاحتفالات والأعياد ومارافقها من عطاءات . لذلك غني عن القول أن نيجر كان يسعى لاكتساب هؤلاء بالذات إلى صفه . ويبدو أن تلك الفئات أملت في تغيير وضعها المادي والاجتماعي بعد وصول نيجر إلى السلطة فهذه الأعياد والاحتفالات والعروض المتواصلة تبشر بقرب حلول «العصر الذهبي» والرخاء العميم . لقد بدا أن نيجر وجيشه هما القوة الحقيقية القادرة على تلبية مطالب تلك الفئات .

لقد كشفت سياسة نيجر الديماغوجية رغبة واقعية ، بدائية ولكنها محددة - لدى الفئات المدقعة و«الوسطى» في دعم الامبراطور «الجيد» المستعد ، كما بدا لها ، لتحقيق رغباتها .

كانت ارسقراطية المدن السورية هي الفئة الأكثر نشاطاً في حياة المجتمع السوري . وغالباً ما يعتقدون أن المثل السياسية لفئة مالكي العبيد الحاكمة في الامبراطورية انعكست في مؤلف فيلوسترات «حياة ابولوني تيان» . وسوف نتوقف بدورنا على أهم مسألتين في هذا المؤلف : مصير نظام البوليس (المدينة - الدولة - المترجم) والمسألة الثانية - السلطة الامبراطورية .

من وجهة نظر فيلوسترات ، البوليس - واقع موضوعي ولكن المشكلة تكمن في تحقيق السلام الاجتماعي . وكتب يقول : «وكذلك عن كيفية ادارة البوليس ، متفادياً المواقف الخطرة ، طلب (ابولوني - شيفمان) من الفئات التي رأى أنها لا تتفق مع بعضها بالرأي فقال : الادارة الصحيحة للبوليس تتطلب وجود آراء متناقضة متصاربة مع بعضها ولكنها موحدة . وبما أن المحيطين اعتقدوا أن هذا القول متناقض في جوهره وهذا ما أدركه ابولوني نفسه فعمد إلى تفسير ما قاله - «الأبيض» «والأسود» لن يكونا لوناً واحداً أبداً ، والطعم الحلو يجب ألا يمزج بالمر ووحدة الآراء يجب أن تولد صدامات في سبيل انقاذ المدن . فلنقنع بما أقوله . أما الصراع الذي يؤدي إلى استخدام السيوف أو التراشق بالحجارة فليبتعد عن البوليس الذي يحتاج إلى تربية أطفاله ، إلى القانون وإلى الناس الذين يملكون الكلمة والفعل . فالمباراة في ادارة الأعمال الحكومية ، في قول الرأي الأفضل ، في تنفيذ المهام الوظيفية بشكل أحسن ، أن تكون سفيراً لامعاً ، أن تقيم منشأة أكثر فائدة - هذا الصراع اعتبره أنا جيداً تماماً كالصراع لتحسين عمل الدولة» . (Philostr., Vita) (Apoll., 4, 8, 1-2) . بعد ذلك يتحدث فيلوسترات عن الرخاء الذي عم البوليس بعد أن وهبه المواطنون كل امكانياتهم ومواهبهم وأصبح كل يعمل عمله فقط .

سوف نترك الآن البحث في مسألة الجذور الفلسفية لنظرية فيلوسترات ولكننا نشير إلى أنها افتراض أولاً - الحفاظ على نظام البوليس وترسيخ دعائمه ، ثانياً - تشجيع النشاط السياسي للمواطنين . ذلك أن المشاركة النشطة للجماهير في حياة البوليس وحدها القادرة على إحلال الأمن والهدوء في ربوع البلاد . ونود أن نشير في هذا السياق إلى الفرق الجوهرى بين بين فرضيات فيلوسترات وفرضيات بلوتارخ . فإذا كان هذا قد اعتبر أن النشاط الاجتماعى - السياسى ليس أكثر من وهم حيث السلطة الحقيقية في أيدي الأغراب - الرومان ، فالأول اعتبر هذا النشاط شرطاً ضرورياً لسير عمل النظام البوليسى بشكل عادى . ومن الجلى أن سعى الارستقراطية المحلية لاستخدام البوليس لخدمة مصالحها قد لعب دوره البارز في تشكل وجهة النظر الأخيرة .

والمسألة الثانية التي استأثرت باهتمام فيلوسترات - هي دور وطابع السلطة الامبراطورية . ويقترح حلها عبر كلمات ابولوني التالية : « لا يشغلني أي تركيب للدولة ذلك انني أعيش تحت سلطة الآلهة . ولكنني لا أريد أن تهلك البشرية بسبب عدم وجود راع حكيم وعادل . وكما يقوم فاعل خير بإعادة الديمقراطية . بحيث تبدو وكأنها نظام لسلطة أفضل زوج وهكذا تكون سلطة الفرد موجهة كلياً لخدمة مصالح الدولة - الديمقراطية » . وفي الموعظة التي وجهها فيلوسترات باسم ابولوني إلى فيسباسيان حاول الأول أن يربط اسم المخطوط العامة للحاكم المثالي : « الحكيم - أعظم عمل إنساني على الإطلاق ، تعلمه مستحيل . وإذا أخذت بنصيحتي تكون قد تصرف بحكمة - وسوف أشرح لك هذا . قدر الغنى الذي لا يمتحني في الدرة (ولا ما الفرق بينه وبين الرمل ؟) ولا يجلبه الناس الذين تسحقهم الاتاوات ، فالذهب خداع وقاتم إذا ما جلبته الدموع . باستطاعتك أن تستخدم الذهب بصورة أفضل ، ساعد المحتاجين ولكن حافظ على ثروة الأغنياء وقديسيها . احذر أن تبيع لنفسك كل ما تطلب وكن معتدلاً . لا تقطع أعلى السنابل وأكثرها تميزاً (ذلك أن ما قاله أرسطوليس صحيحاً) ولكن من الأفضل أن تجتز الحسد كما تقتلع الأعشاب الضارة من الحقل ودع المخطئين يخافونك لالعقابك لهم وإنما لأنهم جلبوا العقاب لأنفسهم . أيها الملك دع القانون يوجه كل أعمالك لأنك إذا ما احترمت القانون فسوف تشرع انت بكل اعتدال . احترم الآلهة أكثر من ذي قبل : فقد وهبتك الكثير ولا تزال تطلب المزيد . صرف شؤون الدولة كملك وشؤونك الشخصية كفرد . ماذا أستطيع أن أفيدك بشأن السكر والمغامرات مع النساء والكره إذا كنت أنا لم أحبها حتى في مرحلة الشباب ؟ أيها الملك ، لديك ولدان نبيلان كما يقال ، سد عليهما بشكل خاص لأنك وحدك المدان في أخطائهما . هدهما بأنك سوف تحرمهما من السلطة إذا خرجا عن الطريق المستقيم ويجب أن يعرفا أن السلطة ليست تركة يرثاها وإنما

مكافأة على عمل الخير . أيها الملك ، اعتقد أنه يتوجب التخلي عن تلك الملذات التي اخترعت في روما (وهي كثيرة) : فمن الصعب أن يصبح الشعب عاقلاً بهذه السرعة ولكن يجب تلقين الاعتدال بالتدريب ، الأولى علناً والثانية - خفية . كان باستطاعتنا أن نكسر شامة العبيد المحررين وأولئك الذين لا يزالون عبيداً ، أولئك الذين منحناهم السلطة ولكن بقدر ما يكون هؤلاء مسلمين بقدر ما يعلو شأن السيد التابعين له . أما عن الموظفين الذين سترسلهم إلى الناس فلن أقول شيئاً (لأنك تمنح السلطة لمن يستحقها) ولكن عن أولئك الذين سيجري انتخابهم فأنا أقترح أن ترسل إلى الناس منهم من يستطيع أن يتفاهم مع الشعب أولئك الذين يعرفون اللغة اليونانية وأخيراً نشير إلى مشهد آخر بطله فيلوسترات أيضاً : « عندما جاء إلى بابل ظن حراس الأبواب أنه أت لمشاهدة المدينة فأعطوه صورة مذنبه للملك وكان عليه أن يركع على ركبتيه أمام الصورة كي يسمح له بدخول المدينة . ولم تكن هذه العادة تطبق على سفراء روما بل على البربر ومن يريد التعرف على البلاد وإذا ما رفض أحدهم السجود أمام الصورة كان يتعرض للإهانة والهزاء . ولما رأى (ابولوني - المترجم) الصورة سأل : من هذا ؟ وعندما سمع أنها صورة الملك قال لمن تسجدون ؟ سيعلو شأنه إذا ما استحق رضاي وكان طيباً ورائعاً » .

وهكذا ، فوجهة نظر فيلوسترات تؤكد على ضرورة وجود السلطة الامبراطورية كي تستطيع البشرية الاستمرار في الوجود . أي أن الامبراطور هو ضمان النظام القائم . فهو الذي يحافظ على ثروة الغني وهو من يساعد الفقير على الخروج من حالة العوز . وهذه الأخيرة ذات أهمية جوهرية : فالكلام يجري هنا عن إزاحة ما من شأنه أن يصبح أساساً لصدام اجنباي . وفيلوسترات يقف موقفاً عدائياً حاداً من الطغيان « الشرقي » وطقسه الخارجي (الركوع) ويصر على ضرورة خضوع الامبراطور للقانون وأن يكون معتدلاً بحيث لا يسمح لنفسه أن يصبح فرداً متسلطاً . كما ويجب أن يجري انتقاء عملاء السلطة الامبراطورية بشكل يؤمن استمرار العلاقة مع السكان . فغياب التفاهم يؤدي إلى إضعاف السلطة العليا وبالتالي - غياب القانون وسيطرة الفوضى .

على ضوء ما تقدم أصبح بإمكاننا أن نوافق ي . م . شتاير من على الاستنتاج الذي توصلت إليه بشأن المثل الاجتماعية لفيلوسترات . تقول شتاير من : إن المثل الاجتماعي لفيلوسترات هو الامبراطورية القائمة على المدن التي تتمتع بحكم ذاتي ، وهكذا كانت فعلاً في عهد آل أنطونيوس . وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن فيلوسترات كان ينتمي إلى مجموعة يوليوس دومينا الأدبية يصبح من الصعب علينا أن نتصور أن برنامج حكومة سيفير قد

اعتمد كلياً على « سيرة حياة ابولوني تاييني » خاصة وأن هؤلاء كانوا يطمحون لاستقطاب كل من كان يؤيد نظام آل أنطونيو - السينات - رارستقراطية المدن .

اهتماً خاصاً تثير لدينا رواية هيروديان . فقد عاش هذا المفكر السوري إبان الفترة الواقعة ما بين نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للميلاد . ولا شك أن هذا الكاتب استطاع أن يعكس في كتاباته المزاج العام السائد في محيطه ، المعادي للمؤيد على السواء . كان هيروديان ينتمي إلى تلك الفئة الاجتماعية التي ترفد الجهاز الامبراطوري بالموظفين - أي ارستقراطية المدينة السورية . ولا شك أن وجهات نظر هذه الأخيرة ومواقفها من تطور الأحداث السياسية في نهاية القرن الثاني وبداية الثالث قد لعبت دوراً حاسماً في التكهين الإيديولوجي لهذا الكاتب .

لقد تجلت مثل هيروديان بكل وضوح في تقييمه لنشاطات الأباطرة الرومان في المرحلة المذكورة . حيث فاز كل من مارك افيريلي ، بيرتيناكس والاسكندر سيفير بأعلى العلامات لديه .

يصف هيروديان مارك افيريلي كما يلي : إنه فيلسوف على العرش يسعى في حياته لعمل الخير ، غني ونبيل ، يقدر الحكمة والتواضع ، (وهذه هي المقاييس نفسها التي على أساسها اختار هيروديان أزواجاً لبناته) ، صافي النية ويتمنى الخير للجميع ، معتدلاً ومباشراً (Herodian, 1,2,2-4) وعندما أحس افيريلي بقرب أجله ، وكان ولي عهده شاباً في مقتبل العمر الأمر الذي أقلق الامبراطور كثيراً . فولده سوف يتمتع بسلطة مطلقة والخوف كل الخوف من أن يسيء استخدامها ويتحول إلى السكر والميلذات . فيلجأ افيريلي إلى أصدقائه للتشاور . وينقل إلينا هيروديان كلام افيريلي حيث يصيغ المبادئ الأساسية لسلوك الحاكم الأعلى . « لا استغرب قلقكم من الحال التي أنا فيها : فمن الطبيعة تولد الطبيعة البشرية وما يرافق هذه الأخيرة من آلام ومصائب وأحزان وما شابه أما الأحزان البادية للعيان فلا تستدعي إلا الشفقة . ولكن شعوركم نحوي ، على ما اعتقد ، مختلف : فأنا أقيم موقفكم مني على أساس موقفني أنا منكم . أهم ما عندي الآن أن أعرف ما إذا كان كل ما أعطيتكم قد ضاع سدى أم انكم عند حسن الظن . وإذا أردتم أن تردوا لي الجميل فلا أطلب منكم سوى أن تثبتوا انكم لم تنسوا ما حصلتم عليه . إنكم ترون أن ولدي ، الذي نشأ بين أيديكم لا يزال في سني شبابه الأولى ويحتاج إلى من يوجهه أيام العواصف كي لا يضل الطريق القويم . كونوا مكاني - أباءً له ، اعتنوا به وقدموا له أحسن النصيح . فالثروة مهما طاللت لا تكفي سيل الإسراف ولا يستطيع الجنود حماية الحاكم إذا كان الشعب ضده . تعرفون أنه لم يطل سوى

أمد أولئك الحكام الذين استحقوا حب شعوبهم ، فالخوف يولد الحق ولا يولد المحبة والطاعة . فليس العبيد الخائعين بالضرورة هم الذين خارج دائرة الشك بل خارجها من يؤدي الطاعة قانعا فقط . فهؤلاء لا يثيرون الشغب والقلقل إلا اذا دفعتهم اليها القوة والتجبر . من الصعب على من بيده سلطة ان يكون معتدلاً امام رغباته . فاذا ما سارت نصائحكم له على هذه الاسس فانكم واياه ، الذي يسمع الآن ، تعدون لانفسكم افضل امبراطور وسوف تذكروني بالحسنى وهكذا فقط تستطيعون تخليد ذكراي .

لقد لخص بيرتيناكس الأسس التي ، حسب رأي هيروديان ، سيسر عليها حكمه في خطبته أمام السينات (Herodian, 2,3,5 - 10) : « لقد منحتموني شرفاً عظيماً وأظهرتم تعاطفاً كبيراً معي وانتخبتموني دون أن تظهروا أي تملق بل قدمتم برهاناً ساطعاً وضمانة أكيدة على تعاطفكم معي ، وهذا يعطيني القوة والإقدام على اتخاذ القرارات ويمحني الشعور بالأمان والطمأنينة على أنني سوف أستطيع توجيه دفة الحكم دون صعوبة . لقد هزت هذه الثقة مشاعري وخلقت فيّ خوفاً وقلقاً . فمن الصعب أن نجد ما يعادل في قيمته ما أنجزه الأقدمون من أعمال خيرة : عندما يحصلون على القليل ويصنعون الكثير فهذا لا يعتبر عملاً سهلاً وإنما تعبير عن العرفان فمن يفعل الخير أولاً يستحق كل الشكر . وهكذا ، لأرى انه يترتب علي أن أغوص في عالم المقارنة كي أثبت لكم اني أهل للثقة التي أوليتموني اياها . فالأولوية ليست بالكرسي بل بالعمل . بقدر ما يثير الماضي فينا شعوراً بالاشمئزاز ، لأنه كان قبيحاً بقدر ما يكبر لدينا الأمل في المستقبل . العمل السيء لا ينسى وما يبعث السعادة ينتهي بسرعة ويصبح منسياً . فالحرية لا تسعد بقدر ما تقهر العبودية ولا يشكر القدر من يتمتع بملكه بحرية ودون خوف ذلك أنه يعتقد أنه إنما يمارس حقه الطبيعي ولكن من سلب ملكه لا ينسى أبداً ذلك الذي كان سبب تعاسته . وإذا ما حدثت في الحياة تغيرات ملائمة فلا يعتبر أحد أنه ناله نصيب كبير منها لأن الفرد قلما يهتم بأمور المجتمع طالما يتصرف منفرداً وإذا ما سارت الأمور عكس رغبته يعتقد أنه فقد امتيازاً كبيراً . أما أولئك الذين اعتادوا على حياة البذخ والترف فيعتبرون أن التحول إلى سياسة الاعتدال في إدارة الحكم أمر بعيد عن الحكمة والكياسة . فهم لا يفهمون انه لا يجوز إغداق النعم كيفما اتفق دون سرقة خيرات الآخرين وقهرهم بينما يتطلب المبدأ العطاء على قدر الخدمات . دون أن يلزم أحد باقتراف عمل شنيع كي يجمع ثروة طائلة ، بل يجب أن يتعلم الجميع الحفاظ بحكمة على الثروة التي جمعها بشرف . يجب عليكم ، أنتم الذين تفهمون كل هذا أن تمدوا لي يد المساعدة ذلك أن إدارة الدولة هي عمل جماعي فالخضوع يجب أن يكون لسلطة الأحسن وليس للاستبداد ، يجب أن تكون لديكم آمال خيرة كي تعدوا الآخرين بالخير » ثم تابع هيروديان يقول : إن بيرتيناكس حاول أن يقيم النظام في كل مكان وأن يكون معتدلاً فسعى إلى مساواة نفسه بالمحيطين به .

في خطاب بيرتيناكس تلفت الانتباه النقاط التالية . فهو يقارن الزمن الذي بدأ لتسوه ويصفه « بالحسن » بالزمن الذي فات « عهد كومود » ويضع الحرية مقابل العبودية ثم يعد بضمانات تحفظ الملكية وبتغيرات نحو « الأحسن » في مجال الحياة الاجتماعية ، يعلن الاعتدال أساساً لسياسته ، وأخيراً ، يدعو مستمعيه (السينات) لمشاركته شؤون الحكم معلناً بذلك نظاماً جديداً وشكلاً أرستقراطياً فريداً . ولكن إذا ما قارنا نظرية هذا الأخير وبرنامج الحكومة مع ما ورد على لسان فيلوسترات لا تضح لنا تماماً تطابق وجهتي النظر هاتين بخطوطهما العامة . ونرى من المفيد أن نذكر هنا مرة أخرى ما جاء على لسان فيلوسترات عن « ديمقراطية » السلطة المثالية التي ينهجها الحاكم ، أي الموجهة لصالح الجميع : الحفاظ على ملكية الأغنياء وتقديم المساعدات المادية للمعوزين ، خضوع الامبراطور للقانون وعن الاعتدال كثمرة طبيعية لهذا الخضوع ، وأخيراً الحرب ضد « الملذات » . وتأتي الخطوات العملية التي خطاها بيرتيناكس متطابقة تماماً مع وجهات نظر فيلوسترات - ابولوني - تلك الخطوات التي حظيت بتأييد هيروديان : الاصلاح الزراعي الذي أعطى الامكانية لكل من يرغب في استثمار الاراضي البور ، بما فيها الاراضي التابعة للامبراطور ، حيث تصبح تلك الاراضي ملكاً لمن يستثمرها ويعفى من الضرائب لمدة عشر سنوات (Herodion.,2,4,6) ، اعلان املاك الامبراطور ملكية عامة تابعة للدولة ، تحويل واردات الاتاوات لتمويل عملية اصلاح الطرق ، اي لتلبية حاجات الدولة وتثبيت القرار السابق القاضي بالاعفاء من الاتاوات .

وفي الختام نعرض تقويم هيروديان لحكم الاسكندر سيفير الذي يؤيده هيروديان كل التأييد (Herodiah.,6,9,8) : « عندما استولى الاسكندر على السلطة توشى بالحلة الامبراطورية ولكن النساء هن اللواتي ادرن شؤون الحكم وحاولن اعطاء كل اجراء مظهراً عقلانياً لاثقاً . فقمنا قبل كل شيء باختيار ستة عشر زوجاً لهن من السينات وقد راعين في ذلك أن يكون الزوج المختار في سن مثالية واسلوب حياة معتدل كي يستطيع ان يكون مستشاراً لاثقاً للامبراطور ولم يكن بالامكان عمل اي شيء في الامبراطورية دون موافقتهم . وهذا النظام لم يكن سوى تحويل السلطة من سلطة مستبدة الى حكم الافضل . ولقد حاز على رضى الشعب والجيش والسينات . قبل كل شيء تمت اعادة نصب الآلهة التي نقلها ذاك (الامبراطور هيليو جبل - شيفان) كما أعيدت لها معابدها . وعهدوا الى اكثر الناس ثقافة وسعة افق بادارة شؤون الدولة وتنظيم القضايا القانونية ، اما شؤون الجيش فقد عهد بها الى قادة مجربين تميزوا في خدمتهم العسكرية » . يتضح اذاً ان الكلام يجري هنا عن اعادة الشرف المهذور للارستقراطية اي اقتسام السلطة الامبراطورية سوية مع السينات أي أن ما يجري هنا

هو تنفيذ المقولة الرئيسة في البرنامج السياسي الذي تكلم عنه بيرتيناكس ، كما اورده
هيروديان .

وهكذا نرى ان اهتمام هيروديان ينصب اساساً على تنظيم السلطة الامبراطورية وادارة
الامبراطورية ككل ولذلك فكتابه لا يحوي اية معلومات عن نظام البوليسات .

عموماً ، ينتمي هيروديان - كما فيلواسترات - الى تلك الفئة التي كانت ترفد السلطة
الامبراطورية بالموظفين . ومن الواضح أن اصراره على فكرة اقتسام السلطة بين السينات
والامبراطور هي تعبير عن علاقاته الوطيدة مع وسط السينات . ومن المعروف ان ديون
كاسيوس ومينتسينت قد عبرا في خطبتيهما الموجهتين الى اغسطس عن مثل اعضاء السينات ،
أوعلى الأقل قسم منهم ، حيث دعا اغسطس الى قيام امبراطورية مركزية قوية يتمتع
الامبراطور فيها بسلطة مطلقة معتمداً في ذلك على مساعدة ودعم افضل الاعضاء (لقد طالب
كاسيوس ومينتسينت باحترام السينات واطلاعه على مجريات الامور في الامبراطورية) . من
جهة اخري . ترى . م . شتايرمن ان الصراع الاجتماعي الذي كان دائراً في مدن الشرق
لعب دوراً هاماً في تحديد وجهة نظر ديون كاسيوس وخاصة زمن حركات افندي كاسيوس
ونيجر حيث ارتدى ذلك الصراع طابعاً اكثر حدة بسبب حقد هذا الكاتب - السيناتور على
الشعب وسعيه لاقامة سلطة امبراطورية قوية قادرة على لجم تحركات «السوقة» . وسوف نرى
لاحقاً أن مزاجاً مماثلاً اخذ بالظهور على مسرح الاحداث ابان الصراع السياسي في سورية وفي
صفوف ارستقراطية المدينة نفسها . ولسوء الحظ لا تتوفر لدينا اية معلومات عن موقف اعضاء
السينات السوريين ولكننا لانشك في انه كان لهم موقف مغاير لموقف ديون كاسيوس . وتجدر
الاشارة هنا الى أن عدد اعضاء السينات السوريين قد بلغ في القرنين الثاني والثالث رقماً عالياً
نسبياً . حيث بلغ في عهد سيبتيم سيفيرو وكرلا ٢٠٢٪ . وهذا ما يسمح لهم بالتأثير جدياً
على مجرى الاحداث في سورية .

وعلى اية حال ، رويداً رويداً بدأت مصالح الفئتين الاجتماعيتين المتصارعتين (اعضاء
السينات وارستقراطية المدن) تقترب من مواقع بعضها البعض اما موقف هيروديان المؤيد
للسينات فيدل على أنه كان يعبر ليس فقط عن مزاج ارستقراطية المدن وموظفي الامبراطورية
ولمّا عن مزاج قسم من اعضاء السينات ايضاً .

وهكذا يصبح بإمكاننا الآن أن نحدد اتجاهات البرامج السياسية التي كانت مطروحة
على الساحة السياسية للامبراطورية الرومانية آنئذ .

أولاً برنامج الطبقة «الدنيا» : القضاء على التفرقة الاجتماعية وإقامة مملكة الخير .
والمساواة والرفاه العام . وكان من المنتظر أن يتحقق هذا الهدف نتيجة لظاهرة ما في الآلهة
المتنقدة وإقامة مملكة الله على الأرض ، أي انقلاب ما في الفضاء الخارجي ، أو مجيء امبراطور
يدافع عن مصالح الشعب .

ثانياً - برنامج ارسقراطية المدن والارستقراطية الامبراطورية : الحفاظ على النظام
القائم وترسيخ دعائمه اما عن طريق الدعوة الى الكمال الاخلاقي للشخصية الانسانية
وتلاؤمها مع الظروف التي خلقتها القوة العليا واما عن طريق تأسيس سلطة حكومية قوية
قادرة على ردع العامة واطرار الامن والاستقرار . اما شكل السلطة الامثل فكان يجب ان
يكون اما سلطة امبراطورية تخضع للقانون مع وجود بوليسات قوية تتمتع باستقلال ذاتي
(ايدولوجيا قسم من ارسقراطية المدن) واما سلطة الامبراطور والسينات (ايدولوجيا قسم
من ارسقراطية المدن والسينات) واما سلطة امبراطورية مطلقة (أيضاً ايدولوجيا قسم من
ارسقراطية المدن والسينات) .

الصراع السياسي - الاجتماعي في سورية في النصف الثاني من القرن الثاني والقرن الثالث للميلاد

من المؤسف ان المواد المتوفرة لدينا لا تسمح لنا ان نكوّن صورة متكاملة عن تطوّر
الحركة الاجتماعية في سورية في هذه الفترة وكيفية تداخل الصراع الايدولوجي معها .
والسبب في هذا الوضع المحزن أن المصادر التي وصلتنا تعطي جل اهتمامها للصراع
السياسي ، للصراع على السلطة بين مختلف الجماعات السلطوية . فالشخصيات الرئيسية في
الصراع السياسي الاجتماعي آنذاك كانت تملك امكانيات واقعية لطموحها في استلام
السلطة . ومن المسلم به ان تلك الشخصيات كانت تعبر عن مزاج فئات اجتماعية معينة وقد
سعت لخلق المناخ السياسي والاجتماعي المناسب لها . والشعاع المنفذ ، بتاد ، الذهب .
هنا أن الجماهير لم تلعب دوراً نشطاً في ذلك الصراع و

ضد ذلك او كانت تحلم باسقاط الآخر وتدعم هذا الاتجاه وتقف ضد ذلك . مع كل هذا كان
المتناحرون يبحثون دائماً عن مواقع لهم لدى جماهير الشعب ولم يكن باستطاعتهم أن لا
يسمعوا مطالبهم ويتخذوا القرارات اللازمة لتلبية حاجاتها تلافياً لحدوث صدامات

اجتماعية . والواقع انه لم تصلنا اية معطيات عن وجود نظام الانفاق الاجتماعي في سورية ولكن شيئاً من هذا الانفاق كان موجوداً ولا شك .

الصراع السياسي في المجتمع السوري في النصف الثاني من القرن الثاني والقرن الثالث للميلاد .

في الثلاثينات من القرن الثاني بدأت تظهر اولى التحركات التي تنم عن تصاعد تيار الانتفاضات الشعبية في سورية وقد تجلى مثل هذا المزاج بشكل واضح خلال الرحلة التي قام بها الامبراطور اديان إلى الشرق الاوسط . فمن المعروف أن هذه الرحلة ساعدت بشكل ملحوظ على ترسيخ القاعدة الاجتماعية للسلطة الامبراطورية في سورية : لقد وزع اديان الامتيازات بسخاء «وبنى» المدن وغير ذلك . وساعدت اعمال اديان هذه على تقوية مواقع ارستقراطية المدن ونظام البوليسات عمومًا . وعلى هذه الخلفية المتفائلة تبدو رواية Ael.spart.,Hard,14,1 عن «الكره» الذي يكنه اديان للأنطاكيين غريبة بعض الشيء : فبسبب انطاكية اراد اديان أن يفصل فينيقيا عن سورية كي لا تبقى الاولى ميتروبولية لهذا العدد الكبير من المدن .

وحتى الآن لا يسمح لنا وضع المصادر أن نحدد بدقة الظروف والاسباب التي جعلت اديان يكن كل هذا «الحقد» لانطاكية . ولكن السبب الواضح واحد : وهوان التحركات المعادية لادريان كانت بقيادة هذه الفئة او تلك من الفئات التي ، لاسباب مختلفة لم تكن راضية عن سياسة الامبراطور . ويرى ايلي سبارتيان أن الهدف من كل الاجراءات التي اتخذها اديان هو الحد من تأثير انطاكية . وهذا ما ادى اليه عملياً ليس تقسيم المقاطعة وحسب وانما تلك الامتيازات التي اعطيت لمختلف المدن ايضاً . وهكذا وجهت ضربة اليمة لمصالح الارستقراطية الانطاكية . وإذا كان ما عرضناه واقعاً فنحن امام وضع متناقض : سياسة اديان الموجهة لمصلحة المدن السورية استحققت احتجاج انطاكية وادت إلى وضع صدامي بين الامبراطور والارستقراطية المحلية .

ومع أن هذه الحادثة تبدو وحيدة على خلفية الخير العام الذي حققته زيارة اديان الا اننا نأخذها بعين الاعتبار لانها كانت سابقة للاحداث العاصفة التي اندلعت في وقت لاحق . - حيث انفجرت معركة جديدة بين السلطة الامبراطورية والسوريين بعد اربعين عاماً من

ذلك التاريخ وبالتحديد عندما أصبح أفيدي كاسيوس أحد المطالبين بالسلطة
الامبراطورية .

يخبرنا مؤرخ حياة أفيدي كاسيوس عن «الحب» الذي يكنه أهل الشرق لهذا الأخير
وخاصة أهل انطاكية الذين منحوه كل الدعم في سعيه لاستلام السلطة في الامبراطورية .
وهذا ما يؤكد ديون كاسيوس عن لسان مارك أفريلي عندما توجه هذه الأخير بخطبته إلى
الجيش : «ليس أهل كيليكيا أقوى منا ولا السوريون واليهود والمصريون» وأخيراً ، يشير
يوليوس كابتولين إلى أن الانطاكيين «قالوا الكثير ضد مارك ولصالح كاسيوس» . ويقول
أيضاً أن مارك أفريلي وصف الانطاكيين في خطبه بأنهم «عصاة» (seditiosos) . لقد حافظ
الانطاكيون على عهدهم لأفيدي كاسيوس حتى عندما مال ميزان القوى ضده . حيث جاء في
vulc.Gallic.,Av.cass.7,8 أن أفيدي كاسيوس قتل «بموافقة الجميع ما عدا
الانطاكيين» .

لماذا اتخذ الشرق الروماني وخاصة انطاكية مثل هذا الموقف ؟ المصادر لا تفيدنا بهذا
الخصوص بشيء ذي بال . فمؤرخ سيرة حياة أفيدي كاسيوس يحدثنا عن الاجراءات
الصارمة التي اتخذها أفيدي لفرض النظام في الجيش وخاصة تلك القطع المتوضعة في سورية
وعن العقوبات القاسية التي فرضها بحق الجنود الذين نهبوا سكان المقاطعة . وبلغت الانتباه
أيضاً تقييم فولكاتسي غالكن لأفيدي كاسيوس والذي جاء في بداية روايته «وهكذا ، فهذا
الكاسيوس ، كما قلنا ، واحد من سبعة أشخاص حملوا هذا الاسم ونظموا المؤامرة ضد غاي
يوليوس - كان يحمل حقداً خفياً ضد البريتسبات ولم يكن يطيق سماع لقب امبراطور ، وكان
يردد دائماً أنه لا شيء أفظع من اسم «امبراطور» ذلك أنه لا يمكن خلع من الدولة إلا من قبل
امبراطور آخر» . وإذا تركنا مسألة منشأ أفيدي كاسيوس جانباً يبقى أن نقول أن ماورد في هذا
المقطع يطابق ، إلى حد ما ، واقع الأشياء - ذلك التصور الذي سعى أفيدي نفسه وحلفاؤه
لخلق له لدى الناس عنه .

ولقد لفتني . م شتاير من الانتباه إلى ما يسمى برسالة أفيدي كاسيوس
(vulc.Gallic.,Av.Cass,14) التي ، كما تقول صيغت على أسس ثلاث كاسيوس تمام
الملاءمة ، ونحن نضيف ، وتعكس الايدولوجية التي أعلنها هو بشكل رسمي . لقد جاء في
الرسالة : «تعيية هي الدولة التي تتحمل هؤلاء المتعطشين إلى الثروة والأثرياء . وتعييس
أيضاً مارك ، الإنسان المثالي ، طبعاً ، والمعروف بسعة صدره وطيبة قلبه ، يتحمل هو كي
يعيش الآخرون حياة يرفضها لنفسه . أين لوتسي كاسيوس الذي عبثاً نحمل اسمه ؟ أين

مارك كاتون - الرقيب ؟ أين ذهبت صرامة أخلاق أجدادنا؟ لقد هلك منذ زمن بعيد .
ولأحد يسعى إليها الآن . مارك أنطوني يتفلسف ويبحث مسائل العناصر ، والروح
والشرف والعدالة ولا يفكر فيما آل إليه حال الدولة . هل ترى كم يلزمنا من سيوف وأحكام
بالإعدام (elogiis) كي تعود الدولة إلى وضعها القديم . ولكن مصيبي مع حكّام
المقاطعات هؤلاء : هل أستطيع أن أعتبر حكّاماً أولئك الذين يعتقدون أن السينات وأنتونين
إنما عهدوا إليهم بالمقاطعات كي يبدخوا ويجمعوا الثروة ؟ فليغنوا وليجمعوا الثروة : فلسوف
تصبح الخزينة أكثر غنى . فليحم الله اليمينيين - خلفاء كاسيوس الذين سيعيدون سلطة
البريتنسبس (السيناتور الأول - المترجم) إلى الدولة . ترى شتاير من في هذا المقطع بداية
ظهور المعارضة لسياسة مارك أفريلي ومطالبة صريحة بالحد من ثروة كبار الأغنياء . وترى أيضاً
أنها تعبر عن مزاج ملاك العبيد والعقارات الكبيرة ذوي الميول الجمهورية . ونحن نود أن
نضيف إلى هذا التقسيم ما يلي . عندما يجري الكلام عن «إعادة» سلطة البريتنسبس إلى الدولة
وعندما يعبر عن الحزن لضياح disciplina فالكلام إنما يجري عن بعث النظام الجمهوري
وتحطيم السلطة الإمبراطورية عموماً . ولكن عندما يعلن واضع الرسالة عن احتجاجه ضد
نهب المقاطعات وخزينة الإمبراطورية من موظفي الإمبراطور فإنه لا يعلن موقفاً معادياً للثراء
بشكل عام وإنما يحتج على سوء استخدام السلطة . وأخيراً يبدو واضحاً أن إدانة صاحب
الرسالة لكبار الأغنياء وكبار الملاكين من الوسط الأرستقراطي إنما تتصف بكل مظاهر
الديماغوجيا الإجتماعية .

تدل هذه المعطيات على أن أفيدي كاسيوس حاول الاعتماد على الأوساط المعادية
للإمبراطورية والتي كانت تسعى لحماية مصالحها من عسف الجيش الإمبراطوري والموظفين .

ما هي هذه الأوساط ؟ هذا ما نعرفه من الروايات التي وصلتنا عن مصير إنطاكية بعد
مقتل أفيدي كاسيوس . فقد أصدر مارك أفريلي مرسوماً خاصاً منعت بموجبه كل العروض
والاجتماعات الجماهيرية في هذه المدينة . كما وحرمت إنطاكية من بقية امتيازاتها كبوليس .
ولكن مارك أفريلي «عفا» عن انطاكية وكل مدن الشرق التي وقفت مع أفيدي كاسيوس وأعاد
لها شخصيتها الاعتبارية السابقة . ولا نعتقد أن هناك أية صعوبة في تحديد اتجاهات إجراءات
التنكيل التي اتخذها مارك أفريلي : فقد حاول هذا تجميع كل إمكانية لأي تحرك شعبي في
المدينة المعاقبة والقضاء على أجهزة السلطة في البوليس وكانت النتيجة أن أصبحت إنطاكية
تماماً تحت سيطرة موظفي الإمبراطور . وهكذا ترتسم أمامنا صورة تفيد بأن الإجراءات التي
اتخذها المنتصر لم تكن موجهة ضد الأرستقراطية الساعية إلى تحقيق الحد الأقصى من

الاستقلالية وحسب وإنما كانت موجهة أيضاً ضد جماهير الناس الأحرار الذين توجه إليهم أفندي كاسيوس بدماغوجيته الإجتماعية .

لقد لعبت محاولة ليغات سورية نيجر الاستيلاء على السلطة الإمبراطورية (١٩٣ - ١٩٤) دوراً بارزاً في الحياة السياسية - الاجتماعية لهذه المقاطعة . إذ أنه من المعروف أن بيستيسي نيجر أعلن إمبراطوراً في ظل الظروف التالية بعد مقتل كومودا ، في نفس اليوم الذي قتل فيه الوريث الأول للعرش بيرتيناكس (٣ آذار ١٩٣) اشترى العرش السيناتور . ديدى يوليان . ولكن بعد أيام قليلة اعتلى العرش الإمبراطوري ليغات بانونيل الأعلى . سيبتي سيغير وفي نفس الوقت تقرّباً (نيسان عام ١٩٣) أعلن بريتاني ألين عن مطالبته بالعرش . في نهاية نيسان اعترفت كل المقاطعات الشرقية التابعة للإمبراطورية الرومانية بسلطة نيجر . وهذا الوضع الأخير إضافة إلى الشعبية الواسعة التي كان يتمتع بها جعلت منه الشخص الأكثر حظاً في اعتلاء العرش الإمبراطوري في ظل ظرف تناحر فيه عدد من المطالبين بالعرش في القسم الغربي من الإمبراطورية . ولكن سيبتي سيغير خرج من المعركة منتصراً . ولم يعترف نيجر بانتصار سيغير . وفي عام ١٩٣ لحقت بنيجر الهزيمة الأولى قرب كيزفة وفي عام ١٩٤ - قرب نيقية ثم إيسا حيث هرب إلى بارفية فقبض عليه في الطريق وأعدم .

لقد وقف سكان سورية مع نيجر . وهذا ما تفيدنا به المصادر . ولقد تعرضنا سابقاً إلى السياسة الدماغوجية التي سلكها في إقامة الحفلات وتنظيم العروض التي اهتم بها ، بشكل أساسي بروليتاريا المدينة وصغار الحرفيين والتجار . ومما له دلالة خاصة أيضاً أن جيشه كان يضم عدداً كبيراً من الجنود - الانطاكيين غير المدربين بما في ذلك الحرفيين . ويقول هيروديان : «إن أكثر أهل انطاكية وخاصة الشباب ، لضعف وعيهم وميلهم نحو نيجر انضموا إلى جيشه بقناعة مؤقتة وليس نتيجة لتفكير واع» . ويبدو أن هيروديان غاضب على الانطاكيين ولكن غضبه هذا يعكس أيضاً حماسهم . وهذا ما يكتب عنه مؤرخ سيرة سيبتي سيغير : لذلك كان سيغير غاضباً على الانطاكيين فقد هزؤوا به عندما أصبح حاكماً على الشرق ومنحوا ثقتهم وتأيدهم لنيجر المهزوم . ولا شك أن سلوك هذا المنتصر ورد فعله ينفيان تقييم هيروديان : ذلك أننا لسنا أمام تصرفات صبيانية غير عاقلة وغير مدروسة وإنما نحن أمام سياسة مبدئية محددة . كل هذا يجعلنا نتفق مع النتيجة التي خلصت إليها شتاير من أن الفئات «المتوسطة» هي التي سارت وراء أفندي كاسيوس ونيجر (ونود أن نضيف الأرستقراطية المحلية والفئات الاجتماعية الدنيا) . وتفيدنا المصادر بالموقف العدائي الذي وقفه نيجر من السينات وأعضائه . ويبدو أن ي . أ . تشورنوسوف محق في قوله : إن فئات شعبية واسعة دعمت حركة نيجر ولذلك فقط لم يخسر المعركة بعد الهزيمة الأولى .

من المعروف أن ديون كاسيوس يعتبر أن نيجر ظاهرة رمادية لاستحق الإدانة ولا المديح . ولكن لهيروديان موقف آخر حيث يقول : « فيما عدا ذلك يقولون إنه لم يكن شخصاً سيئاً لا كحام ولا كإنسان » . يظهر أن ما قام به ودعا إليه نيجر كان يتفق مع مثل هيروديان . ونجد عند إيلي سبارتيان تقييماً مماثلاً : « لقد كان أفضل محارب وخطيباً مفوهاً وقائداً عسكرياً فذاً وليغاثاً صارماً وقنصلاً لامعاً وإنساناً رائعاً مميزاً في حياته الخاصة والعامة ولكنه كان إمبراطوراً تعيس الحظ .

ومع ذلك ، كما يقول تشورنوسوف ، مع الانتصارات الأولى التي حققها سيفير بدأت تطفو على السطح أمزجة معارضة لنيجر . ويعطي هيروديان التقييم التالي للأحداث : « أهل اللاذقية في سورية (أعلنوا العصيان - شيفمان) بسبب الكره الذي يكنونه للانطاكيين وفي فينيقية أهل صور بسبب عدائهم لأهل بيروت » . فبعد أن سمع هؤلاء بالهزيمة التي حلت بنيجر في آسية الصغرى حاولوا تخطيم نصب التكريم التي أقيمت له ، أي رفضوا الاعتراف بسلطته . ولكن جنود نيجر الموريتانيين سحقوا هذه الانتفاضة بقسوة . إلا أن النصر النهائي الذي حققه سيفير قلب مجرى الأمور : فكما أشرنا سابقاً ، حرمت انطاكية من وضعها كبوليس وأصبحت تابعة لللاذقية . ولكن أعيدت لها امتيازاتها فيما بعد . ويبدو أن التفسير الذي يعطيه هيروديان للأحداث هو الأكثر قرباً من الواقع : إلى جانب المصالح السورية وحتى الإمبراطورية العامة كانت هناك أيضاً مصالح خاصة تشكل واقعاً هاماً في الحياة الاجتماعية بما في ذلك المزاحمة القديمة بين المدن وصراعها في سبيل الزعامة الاقتصادية والسياسية .

لقد كان لزواج سيبتم سيفير من يوليا دمنة وكانت هذه من عائلة حمصية كهنوتية - دوراً هاماً في الحياة السياسية لسورية . فقد فتح هذا الزواج الطريق أمام بعض أفراد هذه العائلة إلى السلطة الإمبراطورية ولكنه (هذا الزواج - المترجم) في نفس الوقت كان قد ضمن تأييد الأوساط الكهنوتية السورية لسيفير . ولا يخفى ما لهذه الأوساط من تأثير فعال وواسع . غير أن هذا الوضع المستجد وضع كهنة إله الجبل في المقام الأول في حمص ، ذلك أنه بعد أن أصبحت يوليا دمنة تحمل لقب *pia, Felix, Augusta, Mater augustorum* وأيضاً *Mater custorum, senatus patriae* غدت تتمتع بمكانة اجتماعية عالية لا كقرينة إمبراطور فقط وإنما كانت لها سلطة سياسية حقيقية (خاصة بعد موت سيفير) وبذلك كانت يوليا دمنة سلفاً مباشراً لزنوبيا . لقد دلت تقلبات الصراع على السلطة بين العائلة الحمصية المذكورة وماكرين ، التي انتهت بمقتل هذا الأخير - على مدى شعبية العائلة - التي تربطها

قراءة حقيقية أو موهومة بسيفير وكر كلا - في الجيش . ويروي لناديون كاسيوس عن صدامات مسلحة بين الفريقين في انطاكية . فعلى ما يبدو أن الصراع بينهما كان أيضاً يعكس الصراع بين فئتين اجتماعيتين ولكننا نفتقر إلى المعطيات التي تسمح لنا برسم صورة للتركيب الاجتماعي لهما .

عندما وصل هيلوجبل إلى العرش كان من الطبيعي أنه سوف يطبق عملياً أفكار العائلة التي أوصلته إلى هنا فحاول أن يفرض عبادة إلى الجبل على الإمبراطورية كلها ويعطيها الأولوية وكان هذا يعني بدوره أن السلطة الحقيقية في الإمبراطورية قد أصبحت في أيدي كهنة حمص - مركز هذه الديانة . وكانت حمص مرشحة مستقبلاً لأن تأخذ مكان روما كمركز للإمبراطورية برمتها . ولكن مقتل هيلوجبل قضى على كل هذه الآمال .

وبعد مقتل هيلوجبل استوى على العرش قريبه الإسكندر سيفير الذي قلب سياسة عائلته رأساً على عقب في محاولة منه للحفاظ على وضعه ووضعها . ونذكر هنا بالتقييم الإيجابي الذي أعطاه كل من هيروديان وإيلي لامبريدي لعهد الإسكندر هذا . وليس صدفة أن يجري اختيار الإسكندر سيفير بالذات لرسم شخصية الإمبراطور المثالي .

وفي هذا السياق نذكر أن شتايرمن قامت بتحليل الاتجاهات الرئيسية لسياسة الإسكندر بشكل مفصل . وتتلخص هذه الاتجاهات بالتالي : تحويل مساحات واسعة من الأراضي الإمبراطورية إلى ملكية خاصة أو تأجيرها بشروط سهلة ، توزيع الأراضي والعبيد والأدوات على الأرستقراطيين الجمهوريين الذين أصبحوا يعانون من الفقر ، توطين الجنود في الأراضي الحدودية وتحويلهم إلى فئة عسكرية تتمتع بامتيازات معينة ، رفع الحصانة الضريبية عن فئة المحاربين القدماء ، إعادة الديكوريونات إلى المدن التي ينتسبون إليها وفرض تأدية الأتاوات عليهم ، إعفاء الكولونات (شكل من أشكال العلاقات الإنتاجية بين صغار الفلاحين - الكولونات - وكبار مالكي العقارات . وقد أصبحت الكولونات الأساس الذي قامت عليه العلاقات الإقطاعية في أواخر أيام الإمبراطورية الرومانية - المترجم) التابعين للإمبراطور وكذلك أعضاء الجماعات التجارية والحرفية من تأدية الضرائب والأتاوات لصالح خزينة المدن . تقول شتايرمن «إن حكومة الإسكندر سيفير وجهت ضربة أليمة إلى شكل الملكية القديمة (أي إلى العلاقات الاجتماعية - الاقتصادية السائدة آنذاك - شيفمان) وذلك بتحقيقها مصالح كبار الملاك على حساب مصالح الجنود وأوساط المدن» ونحن نعتقد أن محاولة إحياء الأرستقراطية الجمهورية ومنحها العبيد والأرض وكذلك فرض الأتاوات عليها هما عمليتان مرتبطتان مع بعضهما البعض . لقد حاولت حكومة سيفير قدر إمكانها حماية

البوليسات من الإنهيار وتقوية علاقاتها ونظامها وتوسيع قاعدتها الإجتماعية وتحييد كل ما من شأنه أن يؤدي إلى انهيارها . وتلفت النظر في هذا السياق تلك الامتيازات التي منحت للمواطنين - أعضاء الجماعات الحرفية والتجارية . وعلى الأرجح ، أن كل هذا النظام مرتبط بالبرنامج الذي وضعته يوليا دمنه والذي عبر عنه فيلوسترات في المقطع الذي أوردناه سابقاً .

لقد أشرنا سابقاً إلى الامتيازات التي منحت للمدن السورية في النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث . ففي عهد كركلا أصبحت انطاكية مستعمرة معفاة من الأتاوات وفي عهد هيلوجبل أصبحت هي نفسها ميتروكولونيا . صور حصلت على وضع مستعمرة من سيبتيم سيفير لقاء وقوفها ضد نيجر . نفس اللقب حصلت عليه اللاذقية . صيدا وبترا تحولتا أيضاً الى مستعمرتين (حصلت بترا على لقب ميتروكولونيا) أما بصرى فقد أصبحت مستعمرة في عهد الاسكندر سيفير . وقد اتبع فيليب العربي نفس هذه السياسة . حيث أسس في منطقة شهباء مدينة أسهاها فيليببول ومنحها لقب مستعمرة ، أما بصرى فقد تحولت إلى مستعمرة - ميتروبولية .

وهكذا ، فلو تركنا جانباً منافسة المدن لبعضها البعض لأمكننا أن نلاحظ في التطور السياسي لسورية في النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الاتجاه الرئيسي الحاسم التالي : سعي ارسطراطية المدن ومن معها من الفئات الوسطى والدنيا من المجتمع الى الحفاظ على نظام البوليسات وترسيخ دعائمه ضمن إطار الامبراطورية الرومانية وتحت سلطة امبراطور «جيد» . الارستقراطية أملت من وراء ذلك الحفاظ على مواقعها السائدة في المجتمع السوري ، والفئات الاخرى - التخلص من الفقر والحاجة والاضطهاد في ظل تلك الظروف الملائمة التي ستخلقها سلطات المدينة والامبراطور «الغطوف» .

المغتصبون السوريون أعوام

٢٣٠ - ٢٤٠ م

لقد اتسم عهد الاسكندر سيفير وفيليب العربي Filip arab بالنسبة للامبراطور بظهور مطالبين جدد بالعرش فيها . ونشير مسبقاً إلى أن المصادر المتوفرة بهذا الشأن لا تسمح لنا أن نذهب بعيداً في استنتاجاتنا . ولكن بعض الحالات التي نقلتها إلينا روايات شهود عيان وكذلك النقود المعدنية تستحق اهتماماً خاصاً .

في عام ٢٣٢ أي على أعتاب حملة الاسكندر سيفير ضد الفرس اندلع في سورية عصيان معاد لهذا الامبراطور . ويصف هيروديان أنه عصيان جنود حيث حاول هؤلاء القيام بانقلاب عسكري وتسليم السلطة لشخص تابع لهم . ويقول زوسيم « لقد بدأ العسكرون ، شيئاً فشيئاً يتهربون من القيام بواجباتهم تجاه الاسكندر نظموا عصيان » . ولكن هذا المؤرخ يورد إضافات جوهرية بهذا الشأن . فهو يقول بأن الجنود أعطوا السلطة لشخص ما يدعى انتونين ولكنه لم يكن جديراً بها فهرب واختفى . أما الحركة فقد تم سحقها . وقادوا الى الاسكندر سيفير شخصاً يدعى أوراني قائلين إنه - في الأصل كان عبداً .

ولكن المعروف عن هذه الحركة أنها نصبت على رأس الامبراطورية شخصاً يدعى أوراني انتونين « ارستقراطي حمصي » أعلن نفسه مزاحماً للامبراطور . المصادر لا تشير إلى مكان هذه الحوادث ولكنها تسجل أنها وقعت في سورية . وقد ظهر أن المطالب بالعرش يدعى انتونين أما أوراني فلم يكن سوى الضحية التي وقع الخيار عليها بدلاً منه .

ويبدو فعلاً أن حركة عام ٢٣٢ كانت حركة عسكرية بحثة لا تستند الى أية قاعدة اجتماعية الأمر الذي حتم فشلها .

أما الساعي الآخر الى العرش الامبراطوري فكان يدعى ل . يوليوس افريلي سولبيتي أوراني انتونين . وقد ذكرته لنا النقود المعدنية - اثنتان منها برفقة الرواية المعروفة : *Saeculares Augg.,cos.1* ويؤكد تشابه هذه النقود مع النقود التي صكها فيليب العربي بمناسبة الذكرى الألف لتأسيس روما . ولكن زمن هذه الانتفاضة ليس أبعد من عام ٢٤٨ ويبدو أن أوراني انتونين استطاع أن يقاوم حتى عام ٢٥٣ - ٢٥٤ . وهذا ما تدل عليه إحدى القطع النقدية التي وصلتنا من حمص . اتخذ هذا العصي المعتصب لنفسه الألقاب الرومانية الامبراطورية المعروفة . إضافة الى ذلك ، يدل اسمه على أنه حاول أن يوحى بأنه امتداد لحركة عام ٢٣٢ . فنقوده التي صكها تحمل رسم يوليوس أوراني انتونين بالحملة الامبراطورية وعلى رأسه اكليل من غار . وهكذا يتضح أن هذه الحركة لم تتعد في تطورها أطر التقاليد الرومانية . وأخيراً نسجل عدم استطاعتنا أن نحدد القوى التي استند إليها هذا الساعي لاستلام السلطة ، ماهي علاقته بـ حمص ؟ وهل هو نفسه الكاهن سامسيغرام الذي تنسب إليه التقاليد مقاومة شابور الأول (بالمقارنة مع اذينة - على الأرجح) ؟ وهذا أيضاً غير معروف لنا بسبب عدم توفر المصادر .

ظهور مملكة تدمر وهلاكها

في منتصف القرن الثالث بدأت تدمر تلعب دوراً متنامياً في الحياة السياسية السورية والشرق أوسطية عامة . ولكن أسباب صعود هذه المدينة لازالت غامضة . فالذي لاشك فيه أن غناها وعلاقاتها التجارية الواسعة لعبا دوراً هاماً في اندفاعها الى الصف الأول . ولكننا لانستطيع الاعتماد كلياً على هذا التفسير ذلك أنه يعتمد على واقع متغير ولا يأخذ بعين الاعتبار خصوصيات المرحلة التي نحن بصدد دراستها . ونحن نعتقد ، ومهما بدا هذا الاعتقاد متناقضاً ، أن النشاط السياسي لتدمر في منتصف القرن الثالث قد تنامي وخرج الى دائرة الفعل نتيجة لضعف السلطة المركزية في الامبراطورية الرومانية زد على ذلك أن تدمر كانت صعبة المنال بالنسبة للامبراطورية حتى في الظروف العادية - أما في مرحلة الأزمة والاجتياحات الفارسية وهزيمة السلاح الروماني فقد غدت تدمر ، عملياً ، مستقلة . وأول خروج مستقل لتدمر على المسرح السياسي - الحربي ضد شابور الأول الذي حطم سورية وأسر الامبراطور فاليريان . وقد شن التدمريون هذه الحرب على مسؤوليتهم الخاصة . وسوف نرى لاحقاً أن عجز الأباطرة الرومان عن القضاء على استقلالية تدمر دفعهم الى عمل كل ما من شأنه أن يبقوها ، ولو شكلياً ، في إطار الامبراطورية الرومانية ويكسب ود حكامها .

ولكن المهم بالنسبة لنا - العمليات الداخلية التي أدت إلى ظهور السلطة العائلية في تدمر فالروايات لاتعطينا مواداً لدراستها ولكن من المحتمل أن تعطينا النقوش إمكانية ما لبدء فهم خاصية تلك المصادر التي تحوي معطيات عن الحياة السياسية للمجتمع التدمري وعن صعود عائلة اذينة - زنوبية وكذلك عن علاقات هذه العائلة بالوسط المحيط بها .

ولكن لاتتوفر لدينا أية معطيات محددة وموثوقة بخصوص الصراع الطبقي والسياسي داخل المجتمع التدمري . ومع ذلك فإن بعض المعطيات غير المباشرة تفيد أن تدمر قد عرفت مراحل احتدمت فيها الصراعات وارتدت طابعاً حاداً أجبرت الدوائر الحاكمة أن تبحث عن حل لها في الاصلاحات أو في محاولات سحقها . فمن المعروف أن لائحة التعرفة الجمركية ، التي أتينا على ذكرها غير مرة هنا قد قدمت إلى المجلس لإقرارها لأن صدامات حادة اندلعت دائماً بين دافعي الضرائب ومتعهدي تحصيلها . (Cts,II,3913) وبالتالي نستطيع أن نستشف صراعاتاً حاداً بين مختلف فئات الارستقراطية المالية بسبب توزيع الواردات (الثلاثينات من القرن الثاني للميلاد) . وفي هذا السياق نلفت الانتباه إلى النقش

Seg,VII,139 (تدمر عام ١٩٨) الذي يحدثنا عن تعيين استراتيجي منح صلاحيات بوليسية (الشُرطة) (أو كما يقول النص التدمري « الذي أقام السلام ») ويفيد النقش أيضاً بانفجار صدامات داخل الجماعة المدنية . ومن الواضح أن نظام اذينة - زنوبية الديكتاتوري قد قام في ظل صراع مريرين مختلف فئات سكان المدينة .

وسوف نتقل الآن لدراسة النصوص المتعلقة بعائلة اذينة - زنوبية . أقدم هذه النصوص حتى الآن هو النص الذي نقله إلينا النقش Cis,II,4202 وهو باللغتين التدمرية واليونانية ويعود تاريخه لعام ٢٢٠ . وجد هذا النقش على قبر شيده سيبتييم اذينة على نفقته الخاصة . وكان سيبتييم هذا سيناتوراً ، وهو ابن خيران بن وهب اللات بن ناتسور . ويفيد هذا النص ان هذه العائلة حصلت على حقوق المواطنة الرومانية في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث . nomen يعطي وصفاً كافياً تماماً لمواقعها السياسية . فقد استحق سيبتييم اذينة عضوية السينات كما ذكرنا .

النقش الثاني (Cts,II,3944) وهو أيضاً باللغتين التدمرية واليونانية وقد وصلنا من تدمر أيضاً ولكن تاريخه يعود لتشرين الأول عام ٢٥١ . لقد أقام هذا النقش افريلي فيلين بن ماري فيلين بن غيليدور بن راعيا وهو جندي في إحدى أنفطع العسكرية المتواجدة في بصرى - وأقامه على شرف سيبتييم خيران بن اذينة السيناتور ورئيس تدمر - exarchus n, almyren-on,rs^tdmwr وهكذا نرى أن هذه العائلة قد حافظت على عضويتها في السينات حتى منتصف القرن الثالث ، ثانياً - لقد أصبح الشحص الذي أقيم النصب على شرفه حاكماً على تدمر وثالثاً - حقق الباترونات . ومن المشكوك فيه أن يكون افيريلي فيلين التابع الوحيد لهذا الشخص .

أما ألقاب سيبتييم خيران فتستحق اهتماماً خاصاً وهي الألقاب التي تحدد وضعه كحاكم لتدمر . فاللقب التدمري Rs^tdmur « رئيس تدمر » يعني زعيم ، قائد المدينة ولكنه لا يسمح لنا أن نحكم على الشكل القانوني الذي اتخذته سلطته ، ولكن الذي نستطيع تقريره هو أن ممثلي هذه العائلة لم يطرحوا حتى الآن ، أو لم يعلنوا عن سعيهم لاستلام السلطة الامبراطورية . وإذا ما عدنا الى اللقب اليوناني الذي حمله خيران - exarchus لوجدنا أنه جبرافياً يعني (« زعيم » ، « قائد ») أي أنه يتطابق ، عموماً ، مع اللقب التدمري RS^tdmur ولكن توجد هنا خاصية مميزة . فمن المعروف أن كلمة Exarchus كانت تعني في المراحل الأخيرة من حياة الامبراطورية - قائد فوج فرسان وفي عهد يوستيان كانت هذه الكلمة تعني قبل كل شيء قائد حملة ، قائد بعثة عسكرية . وعليه فلقب Exarchus « اكزارخ تدمر » يعني قائد

الجيش ، قائد الحامية المحلية . وإذا صح ما أوردنا سابقاً نستطيع القول إنه في منتصف القرن الثالث ظهرت في تدمر وظيفة عسكرية فوق العادة وقد استخدم آل اذينة هذه الوظيفة وأقاموا سلطتهم في تدمر .

أما الوسيلة الأخرى التي ساعدت هذه العائلة على استلام السلطة فهي انتشار نظام التبعية . ولقد أشرنا سابقاً إلى أحد هؤلاء الموالي وهو افيريلي فيلين - تابع سيبتيم خيران . وفي النقش (Cis,II,3945) الذي وصلنا من تدمر ويعود تاريخه لعام ٢٥٨ يسمى أعضاء جمعية حرفيي أعمال الذهب والفضة سيبتيم خيران « سيدهم » Ton despoten;mrn أي أنهم اعتبروا أنفسهم تابعين له . ولقد كانت زنوبيا نفسها وزوجها يعتبران نفسيهما « سادة » لوجهاء المدينة . وغني عن القول أن ما نراه هنا مماثل « لعبيد الملك » في الشرق القديم الذين غالباً ما كانوا ينتسبون إلى الفئات العليا من جهاز الدولة . ولكن الحالة التي نحن أمامها في تدمر تعني أناساً أحراراً قانونياً ولذلك فهذه العلاقة - بين زنوبيا - اذينة ، من جهة ووجهاء تدمر ، من جهة أخرى - نتجت عن نظام التبعية والباترونات .

ولزيد من الإحاطة بوضع هذه العائلة تثير لدينا اهتماماً خاصاً اللوحة الواردة أدناه - خاصة فيما يتعلق بالألقاب التي أطلقت على عائلة زنوبيا - اذينة .

نرى في هذه اللوحة أن وضع العائلة تغير تغيراً جذرياً مع نهاية الستينات وبداية السبعينات من القرن الثالث . فقد حصل ممثلوها الذين يحكمون في تدمر على لقب « مجدد الشرق كله » Restitutor totius orienyts وهذا يعني اعتراف السلطة المركزية في روما بسلطة حكام تدمر على كل الشرق الروماني . وبعد أن تقلد حاكم تدمر لقب « ملك الملوك » أعلن عن مطالبته بوضع مواز لوضع ملوك إيران . ومن الطريف أن هذه المطالبات انعكست في الأدبيات الرومانية .

أما المصادر اليونانية فلا تأتي على ذكر حكام تدمر إلا في أحلك مراحل حياة الامبراطورية . ففي عام ٢٦٠ حطمت الجيوش الإيرانية بقيادة شابور الأول الجيوش الرومانية بقيادة الامبراطور فاليريان في المعركة التي وقعت قرب حمص . ووقع الامبراطور أسيراً لدى الملك الإيراني .

رقم النقش (حسب CIs, IIX) مصدره وتاريخه الاسم	اللقب الروماني	اللقب الندمري	ملاحظات
4202 تدمر حوالي عام ٢٢٥ .	سيتيم اذينة بن خيران بن وهب اللات بن فانسور	السياتور القدسي (ton lamprotaton; sgltyg)	
3944 تدمر ، تشرين أول عام ٢٥١ .	سيتيم خيران بن اذينة	السياتور القدسي . (ton lamprotaton; sgltyg)	قائد تدمر . exarchun . palmyrenon; Rs tdmur
3945 ، تدمر ، نيسان عام ٢٥٨ سيتيم اذينة	الفنصل القدسي (ton lamprotaton ypa tikon;hptg,nhyr)		
3971 ، تدمر أعوام ٢٦٨ - ٢٧٠	سيتيم اذينة سيتيم وهب اللات الفيودور . سيتيما زنبوبا (باتزاباي بنت انطوخ)	جدد الشرق كله	ملك الملوك mllk (ابن السابق ملك الملوك القدس . الملكة القدسية والدة الملك (ملك الملوك) .

رقم النقش (حسب Cis, IIX) مصدره وتاريخه الاسم	اللقب الروماني	اللقب التدمري	ملاحظات
3946 ، تدمر ، آب عام ٢٧١	سيتيم اذينة	مجدد الشرق كله	الملكة القديسية الطاهرة
3947 ، تدمر ، آب عام ٢٧١	سيتيميا زنوبيا (باتزاباي)		

المقاطعات الشرقية ، المنهكة أصلاً ، وخاصة سورية ، عرضة لموجة أخرى من النهب والتخريب . وفي هذه المرحلة الحرجة أقام أذينة سيطرته على الشرق . لقد شن أذينة الحرب على شابوردون أية مساعدة من أحد ولم يكتف بأُن حرر سورية كلها من الاستعمار الفارسي بل ونقل مسرح العمليات العسكرية إلى منطقة بلاد ما بين النهرين : بل احتل قرية ونسببين وضرب الحصار حول كتييسيفون . Tiep (duo, 10, 3) . poll., Gall. . « في الشرق ، هزم الفرس أمام أذينة ، - هذا ما يخلص إليه يفتروبي (9, 10) في تقييمه لنتائج الحملة - لقد تحررت سورية واعدت بلاد ما بين النهرين . لقد وصل أذينة حتى كتييسيفون » (Oros., Hist. adv. pag., 7, 22, 12) .

ومما يثير الانتباه أن كل المصادر تشير إلى إخلاص ووفاء أذينة للامبراطور غالين مع أن عدم كفاءة هذا الأخير في إدارة شؤون الحكم كانت بادية للعيان . حتى أن بعض المصادر يقول بأن أذينة كان يتصرف بأوامر مباشرة من غالين . ولكن على الأرجح أن كل سلوك أذينة لم يكن يهدف إلا إلى اضمحاء الصبغة القانونية على سلطته التي كان قد اغتصبها ، عملياً .

وكان هذا مهم بشكل خاص لأن أذينة بعد انتصاره على شابور أعلن بحكم التقاليد العسكرية الرومانية القديمة امبراطوراً . وكذلك ابنه . وهذا يعني ، بالنتيجة أن أذينة أصبح على قدم المساواة مع الامبراطور الروماني - امبراطوراً على كل المقاطعات الامبراطورية الشرقية يتمتع باستقلال حقيقي . وتشير المصادر إلى أن أذينة أعلن في نفس الوقت اغسطساً .

وعلى أية حال حصل أذينة على لقب «امبراطور» ، «اغسطس» و«مجدد الشرق كله» نتيجة لانتصاره على شابور ، وفي نفس الوقت تؤكد المصادر أن أذينة كان يحظى بدعم السوريين خارج تدمراً أيضاً .

ومع ذلك هناك أساس للاعتقاد بأن أذينة واجه منافسة من قبل بعض الجماعات السورية . فقد وصلنا نص من بصرى يقول : « --- لقد هدم التدمريون - الأعداء معبد جوبتر - هامون --- الذي أعاد بناءه مع نصب فضي --- » . ولكن حتى لو أخذنا بعين الاعتبار الموقف الايديولوجي المعادي لتدمر والذي أعلنته الامبراطورية بعد هلاك تدمر فإنه من الصعب أن نشك في أن مايرويه هذا النص حدث فعلاً . فعلى الأرجح أن معبد بصرى كان قد دمر بعد أن جرى احتلال المدينة بالقوة . أما موقف بصرى فينبع من خوفها

على موقعها على الطرق التجارية المؤدية إلى الجنوب العربي . ومع كل هذا فقد امتدت سلطة أذينة حتى البحر الأحمر .

وهكذا نستطيع القول الآن أن السلطة الملكية في تدمر انبثقت من وظيفة عسكرية فوق العادة ومن نظام التبعية الذي فرضته عائلة زنوبية - أذينة على فئات واسعة من سكان تدمر . لقد بلغت مملكة زنوبية - أذينة أوج مجدها في الحرب التي شنتها ضد ملك الفرس - شابور . حيث قلد ، على أثرها ، حاكم تدمر القاباً ملكية وإمبراطورية وبسط سلطته على كل الشرق الروماني .

بعد أن أسس أذينة مملكته الجديدة اتخذ كل الإجراءات اللازمة لتحويل السلطة إلى سلطة وراثية محصورة في عائلته . ويقول لنا المصدر (Tyr.trig., 15, 2) (Trep.pall.) إن أذينة بدأ حملة ضد الفرس «وكانت المرة الأولى التي حاز فيها على لقب ملك سوية مع زوجته زنوبيا وابنه الأكبر الذي كان يدعى هيرودوس (Herodes) وولديه الأصغر هيرونيان وتيمولاي» ولقد رأينا أن أذينة أعلن إمبراطوراً وكذلك ابنه هيرودوس . أي أن هذا الأخير أصبح ولي العهد .

● ولكن في عام ٢٦٧ قتل أذينة وابنه هيرودوس ، وتقول بعض المصادر الغير أكيدة إنه في نفس الوقت قتل سيبتيم فورودا الذي كان يشغل مناصب هامة في عهد أذينة . لقد كان لمركز السلطة في يدي أذينة أهمية خاصة بالنسبة للحكومة الرومانية فيما لولم تتابع زوجته زنوبيا ، التي أصبحت الحاكم الفعلي في تدمر بعد زوجها - سياسته نفسها . وبدون أن المصادر التي تقول بأن أذينة وهرودوس قد ذهبا ضحية صراع عائلي - صادقة في قولها . فنزوبيا كان لها مصلحة في مقتل أذينة لأن ذلك يفتح الطريق أمامها إلى أن تصبح الحاكمة المطلقة في المملكة وكان هيرودوس ابن زوجها أذينة يشكل هو الآخر عقبة أمام طموحها لأن والده أعده كي يكون ملكاً من بعده . ولذلك فمن المرجح أن يكون مقتل أذينة وهرودوس قد جاء نتيجة لمؤامرة أعدتها زنوبيا بكل دقة . ومع ذلك فقد أقيمت النصب التذكارية التي تخلد أذينة بعد مقتله وهذا بدوره يخلق لدى الشعب تصوراً أكيداً أن زنوبيا بعيدة عن المؤامرة التي راح زوجها ضحيتها وبالتالي فهي الوريثة الشرعية له .

وتنقل لنا المصادر أن زنوبيا بعد أن استولت على السلطة أخذت تحكم باسم ولديها اللذين لم يبلغا سن الرشد بعد . ولكن الوثائق لا تنقل لنا سوى اسم ولد واحد دون إلى جانب اسمها وهو وهب اللات - أفينودور . وعلى الأرجح أن يكون إغفال اسم الابن الآخر (على الأرجح - الأصغر) قد جاء نتيجة خطأ ما اقترفه كاتب سيرة هذه العائلة .

لذلك نحن نعتقد أن المصادر الأكثر ثقة لتقييم نظام الحكم في تدمر بعد مقتل أذينة هي النقود المعدنية والمصادر الايسوغرافية (العبارات المقتبسة ، تكتب في صدر الكتاب - المترجم) . وفي هذا السياق أظهر ل . فون زاليت أن القطع النقدية التي وصلت إلينا من عهد وهب اللات - افينودور تمنحه الألقاب التالية : «يوليوس افيريلي سييتيم وهب اللات - افينودور رئيس القناصل ، امبراطور الرومان ، استراتيجي الرومان» . وينقل النقش CIS,II,3971 اللقب التالي «سييتيم وهب اللات - افينودور ، الملك القدسي - ملك الملوك ومجدد الشرق كله» . وهكذا يكون وهب اللات قد ورث عن أبيه كافة الألقاب .

أما زنوبيا فتشير نفس المصادر إلى أنها حملت لقب اغسطة . ويسمىها النقش الذي ذكرناه لتونا «الملكة القدسية الطاهرة» أو «الملكة الأقدس» وفي نفس الوقت يشار بالتأكيد إلى أنها والددة وهب اللات . ويفهم من المصادر الرومانية أن زنوبيا كانت تطالب بأن تكون سلطتها مماثلة في وضعها لسلطة يوليوس دمنه بعد موت سييتيم سيفيرو على الأرجح أنها كانت كذلك من وجهة نظر الأعراف القانونية الرومانية .

وفي نفس الوقت حافظ وهب اللات وزنوبيا على الألقاب الملكية «الشرقية» كما فعل أذينة . وتشير المصادر إلى أن زنوبيا كانت تطالب أيضاً بالسلطة الامبراطورية (im-periali sagulo perfuse per umeros) والسلطة الملكية (diademate etiam accepto) وتشير أيضاً الى المزج بين صفات الحكم الروماني والفارسي في القصر التدمري .

ونصير الآن إلى السنوات الأخيرة من حياة مملكة تدمر حيث الجانب الوثائقي معروف لنا بصورة جيدة . ففي عام ٢٧٠ سقطت مصر تحت سيطرة زنوبيا ووهب اللات كما بسطت سيطرة تدمر على آسيا الصغرى . ولكن ما أن حل عام ٢٧١ حتى استعاد الامبراطور افريليان سيطرته على مصر وفي عام ٢٧٢ هزم الجيوش التدمرية قرب تايين وأجبرها على الجلاء عن آسيا الصغرى ثم دخل انطاكية بعد معركة صغيرة وضرب الحصار على تدمر بعد أن هزم جيوش زنوبيا قرب حمص . فحاولت زنوبيا أن تهرب الى بلاد فارس مع ولدها وهب اللات فوقعت في الأسر وأرسلت الى روما . ولكن تدمر لم تهدأ فاندلعت فيها انتفاضتان عارمتان كلفتا فاليريان جهداً كبيراً حتى تمكن من سحقهما . وأخيراً جرى حرق مدينة تدمر بعد نهبها وتدميرها تدميراً كاملاً ولم تقم لها بعد ذلك قائمة . أما مدينة تدمر التي بقيت حتى أيامنا هذه - فهي مدينة صغيرة نسبياً (تنمو بسرعة) ح . س . ناءها على .

أطراف المدينة القديمة . أما زنوبيا فقد شاركت في مهرجان النصر - كأسيرة حرب - الذي أقامه فاليريان في روما عام ٢٧٤ وعاشت بقية أيامها في الفيلا التي وضعها فاليريان تحت تصرفها .

وهكذا ، آن الأوان كي نلتفت لدراسة المواد التي تعطينا إمكانية الحكم ، ولوبشكل تقريبي ، على الحياة الاجتماعية إبان هذه المرحلة العاصفة .

فمن المعروف أنه توفرت لزنوبيا إمكانية لاستغلال الانقسام الناشئ بين مسيحيي انطاكية لمصلحتها وذلك باعتمادها على بولس السميساطي وتابعيه (وهو زعيم الفرقة المسيحية التي لا تعترف بالأقانيم الثلاثة للمسيح - Antitrinitas - المترجم) . لقد حاز بولس هذا على وظيفة نائب عام من زنوبيا . وتجدر الإشارة هنا الى أن فاليريان نزع منه لقب اسقف وأقر اسقفية شخص آخر مؤيد للبطاركة الايطاليين بمن فيهم بطرك روما - أي زعيم الفرقة التي يمكن الاعتماد عليها في الصراع ضد تدمير . ومن الملفت للنظر هنا تدخل الامبراطورية في شؤون الكنيسة وتحول الكنيسة الى قوة سياسية مرموقة . أما الجانب الآخر من المسألة فله أهميته الخاصة أيضاً : مصالح أية فئة كان يمثل بولس السميساطي ، بمعنى آخر ما هي الفئات والدوائر التي اعتمدت عليها زنوبيا عبره ؟ يقول يفسيفي عنه : «نشأ فقيراً معدماً ولم يرث أي شيء عن أهله ولم يكن يتقن أية حرفة فأصبح الآن ثرياً بفضل نهبه لاموال الكنيسة واستغلال املاكها وابتزاز اخوته واعداء الخاسرين بالمساعدة مضللاً اياهم دون أية نتيجة مستغلاً تنأهب الحكام أن يدفعوا لقاء تخلصهم من الوزر» . ويتضح أنه لاداعي للتأكيد على عداء هذا المصدر لبولس السيمساطي . ولكن الواضح أن هذا الشخص كان يحظى بتأييد فئات معينة - فقراء المسيحيين وهي الفئة التي نشأ منها هو نفسه ووقف الآن يدافع عنها .

وتجدر الإشارة أيضاً إلى رواية زوسيميا عن الحالة الناشئة بعد الهزيمة التي لحقت بجيوش تدمير قرب حمص . حيث ظهر أن زبدة أحد قادة جيوش زنوبيا قاد في شوارع انطاكية شخصاً شبيهاً بفاليريان مرتدياً زي امبراطور روما مظهراً بالتالي أن الامبراطور قد هزم ووقع في الأسر . وقد لجأ زبدة الى هذه الحيلة في محاولة منه لمنع أهل انطاكية من الانتفاض . وقد ساعدته هذه الحيلة على الحفاظ على الهدوء في المدينة التي غادرها ليلاً بكل هدوء . ويبدو أنه توفرت لدى زبدة معلومات عن احتمال انتفاض أهل انطاكية في حال هزيمة الجيوش التدمرية . وهذا يحملنا على الاعتقاد بوجود مجموعات معادية لزنوبيا في انطاكية . وفي نفس الوقت ، عندما دخل فاليريان انطاكية وجد أن كثيرين قد غادروها خوفاً من الانتقام منهم على تأييدهم لزنوبيا . وعندما دعاهم فاليريان إلى العودة تعهد لهم بعدم معاقبتهم .

والنقطة البيضاء في رواية زوسيميا أنه لا يشير إلى المنشأ الاجتماعي للفئات المعادية والممالة للملكة تدمر في انطاكية . ولكن من المعروف أن انطاكيين كانت لهم مصالح اقتصادية ومشاريع تجارية في تدمر . ومن جهة أخرى يجب ألا نشك في وجود فئة كانت تسعى لأن تصبح انطاكية نفسها في الواجهة السياسية والاقتصادية ومن هنا جاء عداؤها لتدمر . ولا شك أيضاً في أن الدور المقرر في سياسة هذه الجماعات كان يعود لأشخاص يحددون الاتجاهات السياسية لانطاكية ويعتمدون على الفئات الاجتماعية «الدنيا» .

أما أهل حمص فقد استقبلوا فاليريان بحماس ظاهر وانتشرت هنا رواية تقول بأن إله الجبل قد ظهر لفاليريان أثناء المعركة وأظهر ميلاً خاصاً نحوه . ولا يمكن أن نفهم هذا الحماس من أهل حمص إلا لكون فاليريان دخلها منتصراً . وقد يكون الأمل في إحياء عهد السيفيريين هو السبب . وأخيراً ، بعد هزيمة زنوبيا حاول التدمريون بعث دولتهم فعهدوا بمقالييد الحكم إلى أحد أنساب الملكة الأسيرة .

عموماً ، أدى صعود تدمر وهلاكها إلى خلق انعطاف حاد في التطور السياسي لسورية وأحدث انقلاباً عاماً في الأهداف التي صاغت لنضالها وصراعها مختلف الفئات والشرائح الاجتماعية التي كانت تحدد اتجاهات حركة المجتمع السوري في النصف الثاني من القرن الثالث . لقد أصبحت هذه القوى تسعى الآن لتأسيس مملكة على الطراز الساساني - حكم ملكي مطلق ، متراجعة بذلك عن المثل والمبادئ التي جاءت في مؤلفات فيلوسترات وهيروديان . ولكنها مع ذلك لجأت إلى استخدام المدن ، ذات الإدارة الذاتية لمصلحة أهدافها .

للأسف ، لا تفيدنا المصادر بشيء لفهم أسباب ومغزى ذلك الانقلاب في المزاج الاجتماعي على الساحة السورية في منتصف القرن الثالث . وعلى أية حال لا نحرم من الاعتقاد في أن أسباباً سياسية خارجية قد لعبت دوراً معيناً في ذلك . فقد حول الضعف العام في جسم السلطة الامبراطورية المركزية - حول سورية إلى فريسة سهلة المنال للطامعين الفرس . وتطلب الدفاع عنها - كما أثبت مثال اذينة - تأسيس سلطة سورية عامة وقوية . وعلى أية حال فالأسباب الحاسمة كانت داخلية دون شك . ففي ظروف الانقلابات العسكرية المتكررة والصراع على السلطة بين الجيش والسينات . وعصيان الجند تصبح السلطة المركزية المطلقة الممثل الوحيد للنظام في هذه الفوضى . وعليها بالتالي أن تحقق المصالح الحيوية للإستقرارية التجارية - الحرفية ومالكي الأراضي . وفي هذا السياق تستحق اهتماماً خاصاً الرواية التي تحكي قصة خيانة مارياد لانطاكية وتسليمها إلى شابور

الأول بعد أن أرشده إلى الطريق الذي يوصل الى داخل المدينة . فعندما اقترب شابور من انطاكية غادرتها الارستقراطية المحلية هاربة في اتجاهات مختلفة وفي نفس الوقت انتظرتة الجماهير الأساسية آملة منه تغيرات نحو الأحسن . ولا يخفى على أحد هنا أن أساس هذه الأحداث هو الصراع الاجتماعي داخل المدينة . فليس من قبيل الصدفة أن تصل ملاحظات المسيحيين ، الذين وقفوا ضد سياسة ديتسي وفاليريان المائلة للارستقراطية إلى سورية نفسها . ففي عهد ديتسي هلك في السجن أسقف انطاكية بابل . وقد اشتهر هذا الأخير بأنه أدخل الامبراطور - حسب بعض المصادر - فيليب العربي الى عشيرة المسيحيين . ويجب أن لا نعتقد بأن هذا الأسقف كان الضحية الوحيدة لحملة القمع المذكورة . وليس من قبيل الصدفة أن يبحث كل من زنوبيا وفاليريان عن حلفاء لهما داخل عشيرة المسيحيين التي كانت قد تحولت عندها الى قوة سياسية مستقلة . وعلى الأرجح أنه لم يثن لأحد أن يجذب هذه العشيرة إلى صفه سوى الأباطرة الذين استخدموها كقاعدة أمينة وقوية لحفظ النظام والتخفيف ، إلى هذا الحد أو ذاك من حدة الصراع الاجتماعي وقد كان نشاط بولس السيساطي انعكاساً غير مباشر لها .

ليس غريباً إذن أن يتوج التطور السياسي في سوريا في القرن الثالث بتأسيس دولة اذينة - زنوبيا التي اصبحت النموذج الواقعي الأول للامبراطورية الرومانية في الشرق . لقد كانت تدمر - كتركيب حكومي - السلف الحقيقي لنظام الدومينات الذي ساد في الامبراطورية بعد مجيء ديوكليتيان الى السلطة . وكتب يفتروبي يقول أن ديوكليتيان كان «أول من أدخل الى نظام الادارة الروماني شكلاً من الحكم مغايراً للحرية الرومانية» . وبذلك يكون ديوكليتيان أول من سار على خطى زنوبيا التي أقامت في قصرها طقوساً فارسية ملكية . وما يلفت نظريفتروبي بشكل خاص هو نظام الركوع أمام الامبراطور . وهنا أيضاً لم يفعل ديوكليتيان سوى أن سار في أثر زنوبيا .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ثبات ذلك النظام ، الذي أسسته زنوبيا في الشرق وأخذ شكله النهائي على يد ديوكليتيان وخلفائه يدل على وجود قاعدة اجتماعية استطاع الاعتماد عليها .

وغني عن القول أن النتيجة الطبيعية لتطور الأحداث في هذا الاتجاه كان خضوع المدن خضوعاً تاماً للسلطة الامبراطورية - ثم القضاء تدريجياً على سيادة البوليسات وتحويل جهاز الإدارة فيها إلى جزء عضوي في جهاز الامبراطور البيروقراطي . ولكن دراسة هذه المسألة تقع خارج حدود كتابنا هذا .

مواد عن تاريخ مجتمع تدمر الإصدار الحادي عشر

Inventaire Des Inscriptions DE Palmyre (Damas, 1965)

كنا قد انتهينا من وضع كتابنا هذا عن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع السوري في الفترة من القرن الأول وحتى الثالث للميلاد ضمناً عندما أطلعاني ، مشكورين كل من خ . برايسلر (ألمانيا الديمقراطية) وأ. غ . لوندين على الإصدار الحادي عشر من « موجودات النقوش التدمرية » الذي أصدره ج . تيشيدور . ولقد جاءت المواد المنشورة في هذا الإصدار لتؤكد ، وأحياناً لتكمل الاستنتاجات التي كنا قد توصلنا إليها .

الفئة التابعة من سكان تدمر

النقش Inv., X1, 13 (أيلول عام ٢١٩) هو عبارة عن إهداء « إلى ذلك الذي سيبقى اسمه ممجداً إلى الأبد » . صاحب الإهداء شخص يدعى خيران ، « عبد » . . . بن إيا بن مساي وبعد ذلك نقرأ في النص الصيغة التالية : « لصحته وصحة أبناء سيده » (Lhywhy 'Whybn' mrwhy) ومصطلح tly يعني « عبد » وهو يتطابق تماماً مع مصطلح 'Im المستخدم في لائحة التعرفة الجمركية التدمرية ، ويقابله باليونانية Pais .

وغني عن القول أن هذا العبد يتمتع بوضع مادي مستقل ولا بأس به . فهو يقيم نصباً على نفقته الخاصة .

ويحتوي الإصدار أيضاً على نقشين عبارة عن إهداء « إلى ذلك الذي سيبقى اسمه ممجداً إلى الأبد » وصاحب الإهداءين عبدان محرران . أحدهما أقامه ابنير غال عبد محرر (brhry) لسيده ليشامش بن خيران بن غالي والآخرى تاديل ، عبد محرر (brthry) لسيده باساسا بن ماين بن اركاتوس . ويؤكد النقشان على أن هذين العبدین حافظا على علاقتهما مع سيدهما السابق بعد أن تحررا من العبودية .

ويحتوي الإصدار أيضاً على ستة نقوش تأتي على ذكر « أبناء بيت » . ونقرأ في أحدها Inv., X1, 25 غير مؤرخة « كل أبناء بيته » (bn byth Kihwn) سوية مع صاحب البيت

خيران بن ياريكا بن خيران يشاركون في هذا الإهداء . ويحمل لنا النقش الآخر (Inv.,X1,17) عام ٢١٦-٢١٧) الصيغة 'Lhy bhy byth klhwn- « لصحة كل أبناء بيته » . ويعلن لنا النقش Inv.,X1,20 (حزيران ٢٦٣) أن يرخبول بن يرخبول بن ارغي يقدم هدية على شرف « ذلك الذي سيقى اسمه ممجداً إلى الأبد » ، « لصحة والده وصحة كل أبناء بيته » ('lhy,bwhy wbny bythklhwh) وهناك صيغة أخرى أكثر تفصيلاً يحملها إلينا النقش Inv.,X1,6 (آذار عام ١٨٢) : « لصحته وصحة أبنائه وصحة إخوته وصحة أبناء بيته » ('Wlhyy bny byt) وهكذا نرى أن صيغة « أبناء بيته » تستخدم هنا إما للدلالة على الأشخاص الذين تربطهم برب العائلة صلة القرى ويخضعون للسلطة العائلية الأبوية وإما للدلالة على أشخاص لا تربطه بهم صلة القرى ولكنهم مع ذلك يعيشون في بيته .

السكان الاحرار في تدمر

يحتوي اصدارج . تيشيدور على معلومات هامة جداً حول أوضاع السكان الأحرار في تدمر . فعند تقويمنا للعلاقات العائلية في هذا الوسط ينبغي أن نشير إلى النقش Inv.,X1,81 (آب عام ٧٩) المرافق للنصب التي أقامها مقيم بن مقيم على شرف عدد من الأشخاص بمن فيهم مقيم والده . ويبدو أن مقيم هذا قد ولد بعد وفاة والده وما إقامة نصب له سوى اعتراف الابن بفضل والده .

ويستحق اهتماماً خاصاً المذبح ، « الى ذلك الذي سيقى اسمه ممجداً إلى الأبد » ، الذي أقامته علا بنت زبيدة بن عطية بن روف (Inv.,X1,23) تاريخه التقريبي - آب عام ١٨٩) « لصحتها وصحة اياداي بن تايمارتس بن اياداي ، زوجها (b'lh) ولصحة . . . » . ويبدو أن المرأة التدمرية كانت تتمتع باستقلال اقتصادي ما حتى عندما تكون على عصمة رجل . وأخيراً يسوق لنا عدد من النقوش « فروعاً » لجماعات قبلية تربطها صلة قرى الدم . « بني قمر » ، « بني معزيان » ، « بني خينب » ، « بني غرود » . وتتردد أسماء هذه الجماعات في عدد من النقوش (إنظر : التنظيم الداخلي للجماعة المدينية - المترجم) .

حول مسألة القبائل التدمرية الأربع .

في عام ١٩٧١ نشرت مجلة syria مقالة د. د. شلومبرج تحت عنوان « الفيلات التدمرية الأربع » حيث يعرض كاتب المقالة وجهة نظره لحل مسألة الفيلات التدمرية الأربع التي تأتي المصادر على ذكرها دون أن تسميها . ويخلص شلومبرج إلى المفولات الرئيسية التالية . فالقبائل الأربع ، التي ضاعت أسماؤها هي نفس القبائل الأربع التي اجتمعت واسبست . ينة تدمر . ولكن شلومبرج يلاحظ فوراً : لقد ولدت تدمر - تاريخياً أم خرافياً من اتحاد أربع قبائل . وعندما قامت المدينة بقيت هذه القبائل موجودة . إحداها كانت تدعى « بني مريان » . ويعتمد شلومبرج في هذا الحكم على أن النقش CIS,11,3966 يضم الصيغة التالية palmyrenon fyles tes aytes وفي النص اليوناني tdmry dy mn bny m'zyn (على ما يبدو أن اسم هذه القبيلة كان موجوداً في النص اليوناني لهذا النقش والذي لم يصلنا) وفي النقش Inv.,X,40 جاء في النص التدمري - dymnbny m'zyn وفي اليوناني palmyrenon ولكن في الحالة الثانية يروي لنا النص أن الشخص الذي نحن بصدده ينتسب إلى « فرع » من أبناء معزيان وهو في نفس الوقت مواطن تدمري وفي الحالة الأولى غالباً ما نصادف نصاً يونانياً لا يتطابق تماماً مع النص التدمري . وهكذا نرى أن استنتاجات شلومبرج لا تتفق مع النصوص .

أحد النقوش يعدد أسماء أربع معابد أقيمت فيها أربع نصب على شرف سعاد : زفس - بعل شامين ، الحرش المقدس ، اريس وعطار غاتيس SEG,XV,849 . يلاحظ عام ١٣٢ . وشلومبرج لا يشك في أن هذه المعابد الأربع هي معابد القبائل الأربع نفسها ويستدرك قائلاً إنه من الممكن أن تسقط سهواً مسألة ذكر أسماء القبائل الأربع في النقش المعني . ولكننا نعتقد أن الأمر ليس بكل هذه السهولة . فالنصب أقامتها قافلة ولهذا بالذات لم تذكر أسماء القبائل الأربع . ولا يجوز لنا أن نغفل هنا أن عبادة زفس - بعل شامين وعطار غاتيس كانت تشمل سورية كلها بينما الإله اغليبول والإله ملاكيلا ، اللذين يجمعهما شلومبرج في معبد الحرش المقدس كانا إلهين تدمريين أما الإله اريس الذي يدغمه شلومبرج بالإله ارتسوفهوه إله عربي . وحتى الآن لم تتوفر لدينا أية معلومات حول خصوصية العبادة القبلية لهذه الآلهة . وهكذا يظهر أن المواد التي ساقها شلومبرج لا تؤكد استنتاجاته .

يعتقد شلومبرج أنه كانت توجد في تدمر أربع قبائل انقسمت إلى أقسام أصغر يدل عليها مصطلح (phd) منها حسب رأيه قمران ، متابولي ، بني معزيان وميفيني كل ما وقع

تتضمن المصطلح اليوناني fyle لقد اعتبر شلومبرجه أن مصطلح fyle استخدم فقط للدلالة على القبائل المادية . والواقع هو نفسه يستدرك أن هذا البناء معرض للسقوط حال ظهور أية مصادر تدل على أن كلمة fyle استخدمت للدلالة على جماعات أخرى . ولكن لنترك الآن مسألة ظهور معطيات جديدة ونلتفت إلى ما بين أيدينا . فالمواد المعروفة لنا تدل على أن الكلمة الآرامية phd/phz قد نقلت إلى اليونانية ، دون تفسير بين الكلمتين uenos وFYLE .

أما ج . ث . ميليك فيعالج هذه المسألة من وجهة نظر أخرى . فقد ضمت هذه القبائل الأربع - حسب رأيه - بني قمر مع معبدهم الحرش المقدس ، بني معزيان مع عبادة بعل شممين ، بني متابولي مع عبادة ارتس وعزيز وبني عطر مع عبادة عطار غاتيس . ويعيد ميليك ظهور هذه المنظومة إلى الثلاثينات من القرن الثاني كنتيجة لمنح ادريان تدمير حق الإدارة الذاتية . ولكننا نؤكد على عدم وجود أية معطيات تؤكد مثل هذه التوقعات .

يعتبر ميليك انتساباً خاصاً لفيلال كلافديوس المذكورة في النص (IS, 11, 4122) حيث يعتقد أن هناك اشتقاقاً لكلمة hwml وتجدد الإشارة هنا إلى أن هذه الكلمة استخدمت في كافة الأحوال لتعطي معنى واحداً - اسم آخر جدد يصل إليه تسلسل المائلة . أما فيلال كلافديوس فهي إحدى المنظمات الاجتماعية التدمرية وواحدة من فيلات المدينة التي حملت اسم الامبراطور كلافديوس في عهده .

حول قام بنح نقش اذينة

ياضمت الانتباه في كتاب ج . ث . ميليك ، الذي أشرنا إليه سابقاً ، النقش الذي أصدره ج . كانتينو عام ١٩٣١ (syria, vol. 12, 1931, P. 138, M17) « على شرف اذينة بن خبيران بن وهب الدلات ، قائد تدمر » (lyqr, dynt brhyrn whlt rs^dy tdmwr) . هذا النص لا يزال أقدم مصدر ينقل إلينا بداية صعود عائلة اذينة . وما يلفت النظر هنا أن اذينة الذي كان قد أصبح قائد تدمر لم يحز بعد على لقب سيناتور .

مواد حول تاريخ ارواد في المجلد السابع

«Inscriptions Grecques et

Latines de la Syrie» (Paris, 1970).

بعدما أصبح كتابنا هذا جاهزاً للطبع تمكنا من الإطلاع على المجلد السابع للنقوش
الاغريقية واللاتينية التي مصدرها سورية ، وكان قد أعدده للنشر ج . ب . ري - كوكي
ويحتوي المجلد المذكور على ستين نقشا من ارواد وضواحيها ، بما في ذلك اعادة اصدار النقش
العظيم عن امتيازات معبد بيتوكيكي .

بين هذه الوثائق يلفت النظر النقش ، التالف ، رقم 4002 الذي يحتوي إهداء ملكية
تحققت بإرادة الآلهة . ولكن مع الأسف ، لم يبق من الجزء الذي ينص على موضوع الإهداء
سوى كلمة en ayteikaiten ولكن يتبع الفراغ التدقيق الهام التالي : « مع البنذور
والنباتات » وهذا يعني ، دون شك ، أن موضوع الإهداء يتضمن قطعة أرض مزروعة ونبت
زرعها . والذي أهدي هذه الملكية هو « الشارع زفس - كرونوس » . وهكذا يتضح أن
« الشارع » في ارواد المرحلة الهلنستية الرومانية - عبارة عن نواة إدارية كان باستطاعتها اتخاذ
خطوات مستقلة . ويشير ري - كوكي إلى وجود نوى مماثلة في مدن أخرى - سكيفبوليس ،
دمشق ، واللاذقية وكذلك صيدا . على أرجح تقدير أن « الشارع » كانت جزءاً من
متصرفية الفيلا . كما يبدو أنه كان قد تم شراء الأرض موضوع الإهداء من الأراضي
العامة . « الشارع » ، كما رأينا تحمل اسم الإله ولذلك ، فعلى الأرجح ، أنها مرتبطة بمعبد
زفس - كرونوس بعلاقة ما . وهكذا يظهر أمامنا مصدر من مصادر ملكية المعابد
للأرض - هدايا الجماعات والأشخاص .

وإذا ما عدنا إلى التنظيم الإداري - السياسي في ارواد لوجدنا أنه لا يختلف من حيث
الجوهر عن مثيله في بقية المدن السورية في العصر الهلنستي - الروماني . نصب التكريم
تقريباً « المدينة » (انظر : رقم 4006) ، « مدينة ومجلس ارواد » (رقم 4006 civitas
et bvlle Aradia) ، « المجلس والشعب ومجلس الشيوخ » (رقم 4016 dis) ،
« الشعب » (رقم 4008) . تدل مقارنة هذه النصوص أن كلمة civitas استخدمت في

أرواد كريديف لليونانية *odemos* ولوأخذنا بعين الاعتبار التقارب في المعنى بين اللاتينية *civitas* واليونانية *epolis* لحق لنا الاعتقاد أن مصطلحي *epolis* و *odemos* قد استخدموا لتأدية معنى واحد - الجماعة المدنية المستقلة التي تتمتع بحكم ذاتي ، أي « المدينة » . على صعيد آخر تدل الوثائق الواردة أن أرواد عرفت أجهزة السلطة التالية - المجلس ، مجلس الشيوخ ومن المحتمل ، الاجتماع الشعبي . وتستحق اهتماماً خاصاً مسألة العلاقة بين المجلس ومجلس الشيوخ . ويحتوي النقش 4012 على مايلي وذلك عند تعداد المناصب الشرف التي حاز عليها المحتفى به - أريستون بن اسكليباد : *leria* *Kaisaros sebylon,ton nayar khesanton* وإذا صح ما هو متعارف عليه حتى الآن من أنه لا توجد علاقة اشتقاقية بين *Ton nayar khesan* و *Ton proboylon* يكون هذا النص قد سجل لنا وجود ما يشبه مكتب رئاسة المجلس وعندها فقط يمكن الدمج بين مكتب المجلس ومجلس الشيوخ . أما نظام الوظائف الاجتماعية هنا فلا يختلف عن مثيله في باقي المدن السورية . فالمصادر تسجل لنا وجود الأرخون والكاتب ومدير شؤون الزراعة وآخر عن الرياضة . ومدة كل وظيفة هنا عام واحد ولكن كان يمكن أن يبدد لنفس الشخص أكثر من مرة .

وعن العلاقة بين أرواد وسلطات المقاطعة يحدثنا النص رقم 4016 bis حيث يقيم المجلس ومجلس الشيوخ نصباً تنفيذياً لقرار القنصل دوميني ليونت بروكليان . ويمكننا رسم سير العملية كمايلي : يتخذ دوميني هذا القرار كونه موظف امبراطوري وشخصية ذات تأثير ، بغض النظر عن المنصب الذي يشغله ، يصل أمر هذا القرار إلى مسامع سلطات أرواد التي تقوم بدورها باتخاذ القرار اللازم وعندها فقط يبدأ تنفيذ القرار . وعلى الأرجح أن نفس الطريقة كانت تتبع حيال القرارات الأخرى .

وتدل الوثائق المتوفرة لنا أن أرواد مثلها مثل بقية المدن السورية كانت تضم فئة من المواطنين الذين كانوا في نفس الوقت يحملون الجنسية الرومانية .

لقد كانت سلطات أرواد تكرّم الموظفين الرومان دائماً وهذا ما تدل عليه النقوش 4009, 4011, 4010 وتدل هذه النقوش أيضاً على أن أرواد قد عرفت نظام التبعية والبارونات .

وتعطينا النقوش التي تضمها هذه المجموعة ، وعلى وجه الخصوص تلك التي اكتشفت في ضواحي أرواد تعطينا أمثلة للاطلاع على الوضع الذي كان قائماً في الريف التابع

للمدينة . منها مثلاً النقش 4055 (من ساحين) - عبارة عن عامود قرب التجمع السكاني
المسمى قرية - الصاري . كما ويستحق اهتماماً خاصاً النقش 4052 (قلعة يحمور عام
١٤٧ - ١٤٨) حيث يجري الكلام عن بناء منشأة ما على نفقة العشيرة . والمهم هنا هو ذكر
ملكية العشيرة بحد ذاته مع أننا لا نعرف مصدر هذه الملكية . ويشرف على تنفيذ هذا المشروع
تورباخ - وظيفة في العشيرة عن طريق الانتخاب ولمدة ستة أشهر فقط .

فهرس

رقم الصفحة

٣	مقدمة
١١	- الفصل الأول - سورية على أعتاب الاستعمار الروماني .
٤٣	- الفصل الثاني - تنظيم المقاطعة الرومانية في سورية .
٥٨	- الفصل الثالث - النظام الاقتصادي في المجتمع السوري في عصر البريتنسبات .
١١٤	- الفصل الرابع - البنية الاجتماعية للمجتمع السوري القرن ١ - ٣
١٧٢	- الفصل الخامس - المدينة السورية : الجماعة المدنية وتركيبها الإداري .
٢٠١	- الفصل السادس - الحال السياسية للمجتمع السوري القرن ١ - ٣
	- الفصل السابع - الصراع الاجتماعي والسياسي في سورية ابان
٢٢٥	. أزمة نهاية القرن الثاني والقرن الثالث .
٢٥٩	- ملحق .

يعالج هذا الكتاب مسائل البنية الاجتماعية والتنظيم السياسي للمجتمع السوري في الفترة من القرن الاول وحتى الثالث للميلاد . كما وينرس العلاقات بين المدينة - الدولة والسلطة الامبراطورية من وجهة نظر جديدة، ومن مواقع جديدة يجري تحليل أوضاع مختلف فئات المجتمع والمواقف السياسية التي اعتمدها ايمان الازمة التي عصفت بالامبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي .

السعر ٣٨ ل س

منشورات مؤسسة «الوحدة»
للصحافة والطباعة والنشر بدوشق

To: www.al-mostafa.com